غير مخصص للبيع

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد 238 - ربيع الآخر 1417 - أغسطس/ سبتمبر 1996 م
ALFAISAL MAGAZINE ISSUE 238 AUG./SEP. 1996



هدية العدد

Mngool.com

دلائل التخلف ومشكلات التنمية

المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات

تأليف أبي عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي، المعروف بابن الحاج (ت سنة 737هـ).

بحث المؤلف في هذا الكتاب كثيراً من المخالفات الشرعية والبدع التي يقع فيها عامة المسلمين وعلماؤهم، وبيَّن أن كثيراً من هذه المخالفات يكون أساسه العادات الاجتماعية والأعراف والتقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، أو من خلال التأثر باليهود والنصارى.

وهذه النسخة تمثل الجزء الأول من الكتاب الذي يقع في ثلاثة أجزاء، وقد كُتبت بخط نسخي جميل سنة 1276، وزُيِّنت الصفحة الأولى بزخارف نباتية جميلة على أرضية مذهبة، كما أحيطت الصفحتان الأوليان بجداول مذهبة. أما باقي الصفحات فهي مجدولة بجداول حمراء وزرقاء اللون.

المخطوطة من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم 1124.

إعداد: إبراهيم باجس عبدالمجيد

في العدد القادم: **• الترجمة: ما لها وما عليها**
(ملف شامل يتناول قضايا الترجمة ومشكلاتها بأقلام مجموعة من المتخصصين)

البريد

إطلالة جاءت في الوقت المناسب

استوقفتني إطلالة رئيس التحرير في العدد 233 بعنوان «بناء الفكر وتحديات العصر»، وأود أن أشكره على توعيته وتحذيره من الخطر المحدق بالأمة. لقد جاء موضوع الإطلالة في الوقت المناسب، حيث إن كثيرًا من مجتمعاتنا العربية تعيش ركودًا ثقافيًا وعزوفًا واضحًا عن الإبداع، كما تعيش جمودًا حضاريًا تتلازم معه محاولات التغريب والغزو الثقافي، ومعوقات «الأنا» والعمل الانفرادي. وفي الوقت ذاته يشهد العالم تحولات كبيرة في شتى المجالات وبكيفية سريعة جدًا يصعب استيعابها من دون نظر فاحص وإعمال العقل.. أضيف إلى ما أورده د. زيد في إطلالته أن بناء الفكر لا يتم مع فساد النفوس وسيئات الغفلة، والركون إلى طراوة الرخاء.. المطلوب إذن إضاءة النفوس والجد الدائم والعمل الدؤوب والنظرة القويمة لمتطلبات العصر، وكلها أمور تزكّي إشراقة الفكر. فهلا.. صحوت يا أمتي من سُباتك؟

موساوي بو مدين
طالب بجامعة وهران للعلوم والتقنية
تلمسان، الجزائر

ضخ الثقافة

المملكة العربية السعودية لا تضخ بترولاً فقط، فهي إلى جانب امتلاكها هذه الثروة، التي وظفتها في البناء وتحقيق النقلة النوعية، لديها مخزون ثقافي وحضاري رفيع المستوى تشارك به في خدمة المعرفة، وهذا ما تؤكده مجلة الفيصل التي تحمل إلى قرائها كل شهر زادًا من الثقافة الرصينة، المخدومة، في طباعة جيدة وسعر زهيد.

مهندس جمال إسماعيل إبراهيم
ش القمر المتفرع من ش المدينة المنورة
الأقصر، مصر

احذروا سيل المجلات التي تبيع الغلاف!

رأيت أن أذكّركم، وأنا أتابع الخطوات التطويرية المتلاحقة لـ«الفيصل» بأن إغراءات التحديث والأخذ بالجديد تحريرًا وإخراجًا وطباعة، ينبغي ألا تدفع هذه المطبوعة المتميزة إلى إدخال ما يشوّهها؛ مثل الأخذ بأمور فنية وتعارفية ومراسلات وصور، فكل ذلك لا يليق بمجلتنا. ومع علمي بالإيضاح الثابت الملازم لباب ردود خاصة، إلا أن حرصي على الشخصية الوقور المتميزة للفيصل يجعلني أحذركم من السقوط في هاوية المطبوعات التي ليس لديها سوى بيع صور الغلاف والاعتماد عليها في التوزيع.

مولع محمد حريق الأسمري
بللسمر ص .ب 81.
أبها، السعودية

من القلب إلى القلب

تشدني كثيرًا موضوعات باب «الطريق إلى الله»، هذا الباب الذي ترد فيه قصص مختلفة من أركان الدنيا عن انتشار نور الإسلام، واهتداء القلوب الحيرى. فموضوعات هذا الباب تصل إلى قلب القارئ؛ لأنها صادرة من قلوب غسل الإيمان أدرانها..

والتحية إلى الدكتور حسن ظاظا الذي يثري الساحة الثقافية بموضوعاته القيمة عن اليهود، وأضم صوتي إلى أصوات القراء الذين طالبوا بجمع مقالاته في كتاب.

محمد علي سعود
بلدة مراط، محافظة دير الزور
سورية

مهمة المفكر

تحتاج الشعوب في نهضتها إلى بلْوَرَة فكرية في شخصيتها وقيمها ومعاييرها. فلكل شعب من شعوب الدنيا سماته وشخصيته المتفردة. ومهمة المفكر أو المصلح في أية أمة من الأمم هي البحث عنَ هذه السمات والخصائص بغية اكتشاف ما فيها من عناصر أصيلة لتقريبها وأخذ الصالح منها، وما يمكن أن يكون فيها من عناصر أو شوائب دخيلة، ومن ثم حذفها واستبعادها. وهي مهمة صعبة وعسيرة، تحتاج إلى كثير من الإرادة والمسؤولية. ولا عجب أن غياب الفكر عن أمة ما، يُسهل استلابها وتوجيه اهتمامات أفرادها إلى توافه الأمور: كمواكبة أحدث أنواع التقليعات في المأكل والملبس والزينة، وتَسَقُّط أخبار الفنانين ولاعبي كرة القدم... لذلك يصبح من واجب المفكر أن يرتقي بأفراد مجتمعه، ويوجه اهتماماتهم إلى مصالحهم الآنية والمستقبلية، ويحاول أن يطفئ نار الأحقاد التي يحملون والمكائد التي يضمرون والقيل والقال الذي يتقنون، فاسحًا المجال أمامهم ليبدع كل منهم في ميدانه؛ لأن غياب الفكر عن الإنسان وخضوعه لهيمنة رغبات البطن والجنس تخلق منه إنسانًا شريرا، يجنح إلى الجريمة والنهب، وينتهج كل السبل، ويستعمل كل الوسائل الممكنة لإشباع حاجياته الحسية التي لا تعرف الشبع أو الارتواء أبدًا؛ الأمر الذي يجعل مفاهيم العدالة تنقلب في ذهنه رأسًا على عقب.

محمد بن سالم بن عمر
حي الطاهر صفر، حمام الأنف 2050 ـ تونس

«البريد» زاوية تستقبل فيها المجلة رسائل القراء، ويمكن أن ترد على بعضها، وتترك الردّ على بعضها الآخر للقراء
يمكن أن تقوم المجلة بتحرير بعض الرسائل من أجل مساحة الصفحة، أو لزيادة الإيضاح
فقط الرسائل التي ترد بعناوين وأسماء ترسل باسم المحرر (زاوية بريد المجلة) ص.ب(٣) الرياض ١١٤١١

إطلالة



المُصْطَلَحُ

من الأخطاء الشائعة في عالمنا العربي الإسلامي الاعتقاد بأن المصطلحات مشترك إنساني عام، وأنها ذات دلالات محايدة تجعلها ميراثًا لكل الحضارات، وصالحة لكل بني البشر، بل إن ما يجعل لهذا الاعتقاد أبعاداً خطيرة ما تشهده الساحة من تسابق وسائل الإعلام المختلفة إلى ترديد مصطلحات يستعملها الإعلام الغربي من دون التنبه إلى مضامينها الفكرية وأبعادها الحضارية.

ويسوّغ بعضهم هذا الاستهلاك لمصطلحات الغرب بأن العلوم لا يمكن أن تتأسس قواعدها إلا على مصطلحات تمثل لغة موحدة بين المتخصصين بها، وتكون وسيلة لتحقيق التراكم المعرفي والخبرة المشتركة بينهم، حتى يسهل فهم مسائلها، بالاتفاق على دلالات كل مصطلح من هذه المصطلحات. ويبدو هذا المسوغ مقبولاً إلى حد كبير فيما يتعلق بالعلوم التطبيقية، ولكن لا يمكن قبوله إذا ما تعلق بالعلوم الإنسانية ونظرياتها وأفكارها، في ظل ما يكتنف هذه العلوم من اختلاف حول مفاهيمها باختلاف منطلقات الباحثين وانتماءاتهم الثقافية والحضارية.

وهذه الحقيقة تجعل من الضروري التدقيق في لغة الخطاب، سواء أكان ذلك من خلال وسائل الإعلام، أو في قاعات البحث والدرس، تجنبًا لما يحدثه تباين دلالات المصطلحات من بلبلة فكرية، وخلط في المفاهيم، وما يترتب على ذلك من أحكام تصدر عن المجتمع ـ سواء كانت هذه الأحكام شرعية أو قانونية ـ متأثرة بالتصورات الناتجة من تلك المصطلحات، وذلك اتساقًا مع القاعدة الفقهية القائلة بأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، مما يعني أن تلقي دلالات تلك المصطلحات بظلالها على قيم المجتمع وتصوراته، موجدة مفهومًا مشتركًا موجهًا للمجتمع، لا يتم ـ في الغالب ـ البحث عن أبعاده ولا عن معانيه الصحيحة، ولعل الأمثلة التي سنوردها من أحد القواميس المتخصصة توضح بعض جوانب هذه القضية.

ومن التوهم الاعتقاد بأن المصطلح يمكن تطويعه، حتى يتوافق مع قيم المجتمع الذي يستخدمه ومعتقداته، بحيث لا تحمل الدلالات ذاتها التي عناها الذين أوجدوها، فهناك من يرى ـ مثلاً ـ أن مصطلح العلمانية إذا كان من دلالاته الفصل بين الدين والدولة، فإن هذا المصطلح يمكن أن تقف دلالاته عند معنى الدعوة إلى انتهاج الأسلوب العلمي في الحياة. وعلى المنوال نفسه، يتم تفسير مصطلحات العقلانية والليبرالية والماركسية واليسار واليمين وغيرها، حتى تعددت دلالاتها وتنوعت تفسيراتها، وتوهمت بعض المجتمعات أن في إمكانها إلباس هذه المصطلحات الغربية ما يناسبها من معان تجعلها لا تتناقض مع قيمها ومعتقداتها، مع أن هذه المصطلحات تظل ـ برغم كل محاولات تلوينها ـ مصطبغة برؤى أصحابها الأول، ومعبرة عنهم، وحاملة لأفكارهم، وتبقى محاولات التلوين مسخًا مشوهًا يدل على قصور الفكر، وقبول التقليد والتبعية، مهما كانت دقة أساليب التخفي وادعاء الاستقلالية.

وبما أن الكلمات والألفاظ تعد أدوات العاملين في مجالي الفكر والثقافة، فإن ذلك يقتضي منهم إمعان النظر في ألفاظهم ومصطلحاتهم، والوقوف على معانيها ودلالاتها، حتى تأتي أفكارهم ووجهات نظرهم واضحة لمن يتوجه بها إليهم، فلا يكون تفسيرهم لها إلا كما أرادوا. ولا يتأتى ذلك ما لم تكن الألفاظ والمصطلحات من الإطار الاجتماعي ذاته الذي ينتمي إليه المستقبلون لها، ومن ثم يكون تفاعلهم معها بقدر أصالتها وتعبيرها عنهم، وعن مجتمعهم.

ولا ينشأ اختلاف دلالات المصطلحات من اختلاف المجتمعات فحسب، وإنما قد يكون تباينها ـ كذلك ـ مرتبطًا بالزمن، بمعنى أن المجتمع الواحد قد تتباين دلالات المصطلحات لديه من زمن إلى آخر بحكم ما يطرأ على البنى الاجتماعية والفكرية فيه من متغيرات، لذلك تشهد المجتمعات الغربية اهتمامًا كبيرًا بدراسة المصطلحات ودلالاتها، وملاحقة ما يحدث لها من اختلاف وتطور من آن لآخر، إضافة إلى رصد المصطلحات الجديدة التي تفرزها حركة المجتمع وتفاعلاته. والأمثلة القادمة المقتبسة من القاموس السابق الإشارة إليه توضح ـ أيضًا ـ هذا المعنى.

ويشير كثيرون من المتخصصين بهذا المجال إلى أن هناك حربا يمكن تسميتها بحرب المصطلحات، يخطط لها خبراء يضعون مراميها ووسائلها، ويعرفون المسالك التي تقودهم إلى النتائج المرغوبة، التي يأملونها. ولعل أهم أساليبهم في هذه الحرب اختيار المصطلح ذي الجاذبية والبريق، الذي يقبل التأويل والتفسير على أكثر من وجه، فكثيرا ما شهدنا ما يتمخض عن الاتفاقيات الدولية من خلافات حول تفسير بعض المصطلحات، إذ يحملها كل طرف محملاً يرضي طموحاته ويحقق أغراضه، كما أن لموازين القوى دورا في تحديد دلالات مثل هذه المصطلحات. ولا زال القانون الدولي منذ إيجاده باتفاقية «وستفاليا» المعقودة بين الدول الأوربية عام 1648م يستعمل مصطلحات ومفاهيم عن بعض الشعوب والأمم تحمل دلالات البدائية والوحشية والهمجية والتخلف، وهي أيضًا تقر مثل هذه التصنيفات منذ القرن الثامن عشر وإلى يومنا هذا. ولقد أصبح اصطلاحا التقدم والتخلف يقسمان العالم مجموعتين بشريتين: إحداهما بلغت طورًا بعيدًا في التقدم، والأخرى ترسف في أغلال التخلف، من غير وجود ضوابط لهذا التصنيف إلا المعيار الاقتصادي الذي لا يصلح لتفسير ظواهر اجتماعية في المجموعة الأولى تعد صفات للتخلف، مثل التفكك الأسري، وارتفاع معدلات الجريمة وانتشار النمط الاستهلاكي، وتفشي الانحلال الخلقي، وما إلى ذلك من الظواهر السلبية التي يتصف بها مجتمع الغرب. وفي الوقت نفسه، فإن هناك مزايا حضارية تتسم بها المجموعة الثانية، ولاسيما في البلاد التي تتمسك بقيمها الروحية والأخلاقية، كما هو الحال في المجتمعات الإسلامية. والعجيب أن هناك من الغربيين من يرى تلك المزايا الحضارية سببًا من أسباب تخلف الشرق، إذ يقول كونيدك ومينه: «إذا الشرق لم يستطع التخلص من حال السكون والجمود، فإن ذلك يعود إلى هذه الأديان التي تعارض التطور والتغير».

ويبرز في هذه المقولة مصطلح الشرق بعموميته، واتساع جغرافيته، كما لو كان شيئًا واحدًا، متآلفًا دينيًا وثقافيا وحضاريًا، بما يوحي بعدم وجود فروق جوهرية بين ديانات جماعاته، حتى ليحسب المرء أن الإسلام والهندوسية ـ على سبيل المثال ـ متقاربان في شعائرهما وتعاليمهما وقيمهما، في حين أن الأول تشريع إلهي، والثاني عقيدة وضعية. ويطرح ـ هنا ـ سؤال نفسه: كيف يمكن لدين الإسلام الذي يدعو إلى العلم وإلى التفكير والنظر بما في السماوات والأرض، ويكرم العلماء، ويضعهم في مصاف الأنبياء، كيف لهذا الدين أن يكون سببا في الجمود والسكون؟ إن هذا الحكم يشي بعدم فهم مصدره للإسلام وتعاليمه، وفي الوقت نفسه، يرمي إلى تسرية فقدان الثقة في النفوس، ودفعها إلى التنكر لمنابت أصالتها، ومنطلقات حضارتها.

ومما يتم تداوله في هذا العصر مصطلح الشرق الأوسط THE MIDDLE EAST الذي يشير كتاب THE OFFCIAL POLITICALLY CORRECT إلى أنه مصطلح يعني «كيانًا مصطنعًا استخدمه علماء الجغرافيا في قلب أوربا في القرن التاسع عشر، من دون أن يتورعوا عن الذهاب إلى آفاق بعيدة لتجنب الاعتراف ـ الذي لا يوافق هوى في نفوسهم ـ بأن إفريقيا بنت الأهرامات وأبا الهول، ووجدوا سبيلاً لسرقة مصر ـ هكذا ورد في القاموس ـ من القارة، في حين أن جميع الخرائط تبرز بوضوح أنها جزء منها».

وإذا كانت النظرة العنصرية إلى إفريقيا دعت أولئك العلماء إلى إنكار انتماء مصر إليها، فإن المعركة الحضارية التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية الآن دعت إلى إشاعة المصطلح نفسه لإنكار ما بين الأمة العربية والإسلامية من عناصر مشتركة تصوغها في كتلة واحدة متجانسة تاريخيا وحضاريًا، حتى يمكن للمنطقة أن تستوعب أقليات لا تتصل بالإرث الحضاري لها، إذ يوظّف البعد الاقتصادي لتحقيق هذه الغاية تحت دعاوى الشرق أوسطية. ويحفل هذا القاموس بمصطلحات متعددة ذات دلالات اجتماعية معينة تعكس قيم الغرب ـ مع ما لديه من إيجابيات متعددة ـ وقناعاته، التي تتناقض كثيرًا مع قيم المجتمعات الأخرى، ومع ذلك، فإن ممارسات الغرب تكشف ـ ولاسيما في المؤتمرات الدولية التي تناقش قضايا العالم ـ محاولاته تصدير تصوراته للآخرين، وكان مؤتمرا السكان والمرأة من هذه المؤتمرات التي بلورت ذلك التوجه. وتكمن خطورة المصطلحات التي يطرحها الغرب في أنها تمس جوهر المجتمع وكيانه، وتعطي تصورا جديدا لمفهوم الأسرة والمساواة، يقود إلى المزيد من التفكك والانحلال، وفقدان المجتمع أهم مقومات وجوده.

وتكثر المصطلحات التي يضمها القاموس، والتي تكشف هذا البعد في الطرح الغربي، حتى يصعب حصرها، ولكن الإشارة إلى بعضها قد تقرب الصورة، وتعين على استيعاب المفاهيم التي تحكم الغرب وتوجهه تحت دعاوى خادعة، ولنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلى مناقشة المزيد من هذه الأمثلة في أعداد قادمة. فنجد مصطلحًا مثل علامات التذكير والتأنيث في أواخر الكلمات GENDER - ENDERS يقصد به إيجاد صيغة موحدة لمخاطبة المذكر والمؤنث، ويشير النص الوارد في القاموس إلى أنه «مصطلح استخدمه زملاء برنامج الإدارة المتعددة الثقافات المنعقد في قسم الصحافة بجامعة ميسوري الأمريكية للدلالة على علامات التأنيث والتذكير في المقاطع النهائية للكلمات مثل:

(WAITRESS - ESS) و (AVIATRIX - IX) و (MAJORETTE - ETTE) و (COMEDIENNE - ENNE)، وأوضح كيسي ميللر وكيت سويفت أن هذه المقاطع النهائية المعبرة عن التأنيث في الكلمات تدل على أن صيغة المذكر هي الصيغة العادية، وأن صيغة التأنيث هي الشاذة، ولهذا يجب الابتعاد من استخدام مثل هذه الكلمات التي تشتمل على مثل هذه المقاطع النهائية الدالة على التأنيث». ويذكر القاموس مصطلحًا مهينًا للزوجة ـ مع أنه يطرح بدعوى المساواة مع الرجل ـ يبرز ما آلت إليه البنى الاجتماعية في الغرب من تصدع يصعب رأبه، في ظل استمرار المفاهيم الحالية. فالقاموس يعرف مصطلح الزوجة WIFE على أنه «الآخر المهم، والشريكة، والمومس التي تمتع من دون أجر، وحبيسة البيت لأجل العيش. وتحذر فال ريموند في كتابها «عناصر للاستخدام غير الجنسي» ELEMENTS OF NONSEXIST USAGE من استخدام ضمائر

ووهم الحياد

الملكية مثل «الآخر المهم لي» و«شريكتي»، فعندما يتزوج شخصان لا يصبح أي منهما ملكًا للآخر، فلا يتبع أحدهما الآخر. وبالمثل، لا يصبح شخصان متزوجان كيانًا واحدًا، دليلاً على أنهما نصفان. فالشخصان المتزوجان شخصان يتقاسمان الحياة». وإذا كان هذا المصطلح لا يتناسب مع كرامة الزوجة التي تصلح الأسرة بصلاحها، وتتقوض أركانها بفسادها، فإن القاموس يضع مصطلحًا متعاطفًا للمومس، فيقترح استخدام مصطلح SEX WORKER، بدلاً من PROSTITUTE، لأنه مصطلح سيئ السمعة، وذلك بقصد تصنيفها ضمن أصحاب الأعمال الشريفة والمنتجة. وفي الإطار ذاته، يورد القاموس مصطلح الشريك COSELF كصيغة محايدة للضمير هو أو هي، «فتقترح ماري أورفان أن يحل المقطع CO محل «هو أو هي» في موقعي الفاعل والمفعول به، وأن ضمير الملكية لممارس الجنس «له أو لها» يمكن استخدامه بالمقطع COS ».

وترمي هذه المصطلحات وغيرها إلى إبراز الاتجاهات الشاذة على أنها حالات طبيعية ينبغي على المجتمع أن يتقبلها ويتعامل معها من دون احتقار أو انتقاص، وأن يقر حقوق أصحابها، مما يعني صياغة قيم جديدة تحكم حركة المجتمع وتوجهه لاستيعاب هذه الاتجاهات لتكون جزءًا متجانسًا مع النسيج الاجتماعي.

ويتم ترويج هذه القيم وتلك الاتجاهات من طريق وسائل الإعلام المختلفة، التي تتخذ - كذلك - مصطلحات تتفق مع الواقع المعيش، ومن ضمن ما يذكره القاموس من مصطلحات إعلامية جديدة مصطلح «محاولة التجسيد المتباين» DIF-FERNTIAL FRAMING، ويقصد به «صناعة التلفاز المهتمة بالإنجاز الجنسي بالتركيز على أوجه الرجال وأجساد النساء»، ولا شك أن هذا يبدو واضحًا فيما تعرضه الأفلام والمسلسلات والإعلانات على شاشات التلفاز والسينما، التي تجعل المرأة سلعة لترويج بضاعتها وأفكارها، وهي من أخطر وسائل الغزو الفكري التي يوظفها الغرب لتصدير قيمه وأنماط حياته إلى الآخرين.

ويؤدي توظيف الغرب لإمكاناته الإعلامية وقدراته في الإقناع بترويج مصطلحاته - بما تشتمل عليه من مفاهيم وقيم ومضامين فكرية - إلى إحداث تباين في المجتمعات الأخرى، التي تمثل الثقافة المغلوبة، ليزداد مأزقها الحضاري عمقًا، ولترسخ أقدام ثقافته في تربتها، ولا سيما أن هذه المصطلحات تلقي بظلالها على اللغة حين تقحم في متنها، ممن لا معرفة لديهم بأغوار اللغة سواء كانت اللغة الأم أو اللغة المنقول منه. كما يؤدي تعدد ترجمات المصطلح الواحد إلى سوء التفاهم وانقطاع التواصل، إلى جانب ما يلحق اللغة من تشويه يفقدها جزالتها ودقة بيانها. وهذا ما دعا كثيرين إلى النظر إلى المصطحات بوصفها أداة من أخطر أدوات الغزو الفكري والثقافي التي استخدمتها الحضارة الغربية من أجل تغريب المجتمعات، وإعادة صياغتها وفق منظورها؛ وهي في استخدامها للمصطلحات تتخفى وراء شعارات وصياغات مقبولة اجتماعيًا تتخذها وسيلة للخداع الفكري.

ولا يقتصر استغلال المصطلحات في الخداع الفكري على محاولة اختراق البنى الفكرية والثقافية للأمم من طريق ضخ أفكار جديدة في ثنايا هذه المصطلحات تتناقض مع مكونات هذه البنية، وتحيز لبيئة الثقافة الواردة منها، وإنما يتجاوز ذلك إلى التشكيك في الثوابت التي تنهض عليها تلك البنى بإعطاء المصطلحات التي تتوارثها الأمم معان جديدة وأبعادًا أخرى مغايرة لدلالاتها الأصلية، مما يفضي إلى البلبلة والحيرة في المجتمعات المستهدفة، قد تؤديان بها إلى تبني المصطلحات في صياغتها الجديدة.

ويساعد على استغلال المصطلحات بوصفها أداة من أدوات الاختراق الفكري أن اللفظة الواحدة تحمل في العادة معنيين، أحدهما معنوي، أو عاطفي Affective meaning، والآخر معنى حاوٍ للمعلومات (معلوماتي) INFORMATIVE، مما يُمكّن من إعطاء المصطلح الواحد أكثر من دلالة؛ بل إن أي كلمة عادية تحمل أكثر من معنى، يجعل في الإمكان إعطاءها أكثر من تفسير، ونسوق هنا مثالاً كلمة «شيوعي»، فهي من ناحية إخبارية تعني للإنسان الغربي - على سبيل المثال كذلك - ذلك الشخص الذي يؤمن بمبادئ الشيوعية، أما من ناحية عاطفية، فإنها تعني شخصًا يحمل مجموعة كبيرة من الصفات السلبية، التي ترسخت في الذهنية الغربية من خلال إعلام مكثف ركز على إبراز شخصية الشيوعي في صورة نمطية معينة في إطار التافس الذي كان قائمًا بين المعسكرين الشرقي والغربي. ولعل كلمة «عربي» تتخذ الصورة النمطية نفسها.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الرؤية الغربية للعالم تقوم على مجموعة صور نمطية مشوهة تغاير الواقع تمامًا، ولاسيما أن كثيرًا من تلك الصور لشعوب وأمم لها جذورها العريقة الممتدة في عمق التاريخ، ولا تزال تلك الأمم تمتلك المكونات الحضارية اللازمة للنهوض والتقدم.

ويشكل تنميط الغرب لحيوات الشعوب الأخرى تغييبًا للموضوعية في الحكم عليها وعلى ثقافتها وأنماط حياتها، مما يؤدي إلى أحكام جائرة بعيدة من الواقع، ولا تكون هذه الأحكام خاصة بالغرب فحسب، وإنما قد تصبح أحكامًا لشعوب أخرى تتأثر بالنظرة الغربية في المجالات كافة؛ لما للغرب من آليات إعلام وإقناع واسعة الانتشار، مع إمكانات هائلة في التأثير وفي تشكيل اتجاهات الرأي العام في العالم بأسره.

أي إن رؤية المجتمعات لبعضها بعضًا تكون في الغالب مستقاة من النظرة الغربية ومتأثرة بها، ويكفي مثالاً في هذا المقام ما جاء في الموسوعة الهندية Encyclopaedic History of world civilization عن العرب أو أتباع محمد، إذ تبين الموسوعة مدى التأثر الكبير للمسلمين ببعض حسنات الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل عدم تكلفه، أو عدم اختياله، وإحسانه، وبساطة ملبسه، وصيامه، وصلاته، وحسن معشره، ووصيته بحسن معاملة الأمهات إلخ ..، إلا أنها تضيف: «هل سأل أحد نفسه، لماذا سمح لنفسه - المقصود الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالزواج من خمس عشرة امرأة في حين لم يسمح للآخرين إلا بأربع؟ وهل تذكروا مدى قساوته مع أعدائه؟ هل تساءل أحد كيف أن ذلك الرجل الشاب الأمين في مكة تحول ليصبح حاكمًا ماكرًا في المدينة؟ إنهم كانوا مستعدين أن يدفنوا سيئاته معه. اقتبس من اليهودية والنصرانية واستغل - جهلاً منه - الفرصة لتشكيل قانون اجتماعي وأخلاقي واثقًا بأن الله سيستخدم قانونه هذا في الانبعاث الروحي للعالم كافة». ثم تدعي الموسوعة - ظلمًا وجورًا على ما ذكرته في البداية من صفات للرسول صلى الله عليه وسلم -: «أن تعليماته - أي الرسول الكريم - لم تكن صالحة لشعبه ولا لزمانه، ولا تصلح للمستقبل، بل ولا تصلح للأمم المتحضرة في عهده». وهناك مزاعم أخرى كثيرة تذكرها الموسوعة، وهي في ذلك لا تأتي بجديد، وإنما تردد ما راج في الفكر الغربي عن الإسلام والمسلمين من غير تمحيص أو تدبر.

وأدت محاولات تلوين جميع الثقافات في العالم بالصبغة الغربية إلى الادعاء بأن هناك ثقافة أممية مشتركة، ولا يقصد أصحاب تلك المحاولات بهذا المصطلح إلا الثقافة الغربية التي يرونها الطور الأمثل والأكمل لأي ثقافة إنسانية، مما يجعل لها حق السيادة، للارتقاء بحياة الإنسان في كل مكان، وذلك بتمثل القيم الغربية في جميع دروب العلم والفكر.

وفي إطار هذا الادعاء بأهمية الثقافة الأممية، ظهرت مصطلحات مختلفة، ذات دلالات متعددة، مثل التوازن الدولي، والشرعية الدولية، وحقوق الإنسان، يمكن استخدامها وفق مقتضيات المصالح والتوازنات.

ومع أن كثيرًا من هذه المصطلحات لا يمكن الاتفاق عليه بين الأمم على اختلافها، إلا أن الغرب يرى أنها مشترك إنساني عام، منطلقًا من تصوراته الخاصة التي تغيب الثقافات الأخرى، ولا تقيم لشرائع الآخرين وزنًا.

ولعل الاستشهاد بالحوار الذي أدلى به الدكتور غازي القصيبي، وهو العالم بمنابت القصيص، وأحدّ جهابذة اللغة والقانون، لمقدم برنامج «بانوراما» في هيئة الإذاعة والتلفاز البريطانية يبدو تجسيدًا حيًا لنظرة الغرب وصوره النمطية. ولا غرو، فالدكتور غازي ليس أستاذًا جامعيًا متخصصًا فحسب؛ وإنما هو مفكر عميق الثقافة، أصيل في ثقافته العربية، متمكن من الثقافة الغربية، ومتبحر في اللغتين العربية والإنجليزية، إلى جانب كونه علمًا من أعلام الشعر العربي. وكل هذه الصفات جعلته يتكلم بضمير الملايين من العرب والمسلمين في تفنيده دعاوى الغرب واعتقاده بأن هناك منظومة إنسانية عامة من المفاهيم والقيم والمصطلحات ينبغي أن تلتزمها كل شعوب الأرض بغض النظر عن ثقافاتها وخصوصياتها.

وقد تطرق الحوار إلى قضايا تكشف تجاهل الغرب لثقافات المجتمعات الأخرى ونظره إلى منظومته الحضارية على أنها النموذج الذي يجب أن يسود، والمعيار الذي ينبغي الاحتكام إليه. ولعل ما دار حول مصطلح حقوق الإنسان يؤكد ما بين الأمم من اختلاف وتباين في تفسير المصطلحات بما يتفق مع قيمها ومنطلقاتها الحضارية، وقد بين ذلك الدكتور غازي - لا فُضّ فوه - بقوله: «ولنأخذ مثلاً محددًا: ألف مليون مسلم يؤمنون بعقوبة الإعدام وبالعقوبات البدنية لأنها وردت في القرآن. حسنًا! فلنكن منصفين. ربما كان هناك مسلمون علمانيون يرفضون المبدأ. ولكن الأغلبية الساحقة من المسلمين ترى تطبيق هذه العقوبات، انس المملكة الآن وانس كل ما يطبق فيها. هناك تناقض أساسي بين الغرب الذي يرى في الإعدام والعقوبات البدنية انتهاكًا لحقوق الإنسان، وبين أمة المسلمين التي ترى في تطبيق هذه العقوبات حماية لحقوق الإنسان. عندما تردد الآن نعوتًا مثل «بربرية» و «تدعو إلى الاشمئزاز» فأنت لا تبذل أي مجهود لتفهم حضارة تختلف عن حضارتك. لقد استعمرتم الأرض قرونًا طويلة، وآن الأوان لإسدال الستار على هذه الحقبة. لماذا تريدون الآن أن تفرضوا علينا استعمارًا ثقافيًا لا يقل في شراسته عن الاستعمار العسكري القديم؟ أما آن الأوان لكي تفهموا أن من حق بقية أمم الأرض أن تختار لأنفسها أنظمة تختلف عن أنظمتكم؟».

وإذا كانت دلالة مصطلح حقوق الإنسان مثيرة للجدل إلى هذا الحد، فإن هناك دلالات مصطلحات أخرى مماثلة يتباين تفسيرها بين المجتمعات، ويزداد هذا التباين في حالة أن يكون للمجتمع تصوره المنطلق من عقيدته، كما هو الواقع في المجتمعات الإسلامية التي تحتكم إلى الشرع الحنيف، إذ يترتب على بعض هذه المصطلحات أحكام شرعية، فمصطلح الإرهاب - مثلاً - TERRORISM الذي يصف به الغرب محاولات التخريب التي يمارسها بعض الأفراد والجماعات، يمثل في المفهوم الإسلامي جرمًا له عقوبته المحددة، مما يحتم استخدام المصطلح الذي يتطابق مع الحكم الشرعي، لأن غياب المصطلح الصحيح قد يترتب عليه انحراف عن ذلك الحكم.

وهذا يقود إلى القول بأنه إذا كانت هناك أمم ترضى بالركون إلى مصطلحات الغرب على أنها لغة عالمية بحكم تقدمه المادي، وتفوق حضارته في هذا العصر؛ فإن الأمر لا يبدو مستساغًا ولا مقبولاً لحضارة عريقة، كالحضارة الإسلامية التي تتميز بخصائص ذاتية لا تتوافر في أي حضارة أخرى، وتحتكم إلى شريعة إلهية لها أحكامها الثابتة، ومصطلحاتها التي لا تتغير دلالاتها مهما تقادم الزمن، أو اختلفت الظروف. فالأمة الإسلامية لها قاموسها الخاص وخطابها الحضاري المتميز، وهي بذلك غير قابلة للذوبان في هويات غيرها من الأمم، وإنما تأخذ من تلك الأمم وتتفاعل معها بالقدر الذي لا يؤثر سلبًا في قيمها.

د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

الحلقة المحبطة بين غويانا وكاب كانيفرال

لم يكن الصراع بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية حول المؤثرات الحيوية المختلفة أوضح ولا أكثر تحديدا من صور التنافس القائم بينهما في مجال ارتياد الفضاء، وامتلاك ناصية تقنية إطلاق الأقمار الاصطناعية.

عدنان عضيمة سبر أغوار هذا التوجه لدى الجانبين، وناقش الحلقة المحبطة في برنامج الفريقين: انفجار مكوك الفضاء الأمريكي شالنجر، واحتراق الصاروخ الأوربي أريان الخامس. وعرض أهم مظاهر التطور في تصنيع الأقمار وانعكاساتها على القدرة التنافسية في عمليات الإطلاق التجارية.

طالع ص 13

حتى لا يصبح الطفل معاقًا سمعيًا



اضطرابات النطق عند الأطفال قد تكون مؤشرًا لمشكلات في حواس أخرى، يؤدي إهمالها، وعدم التعجيل ببحث أسبابها، وعلاجها، إلى تعقيد العلة، الأمر الذي ينعكس سلبيًا على حياة الطفل.

د. صلاح غانم كتب بحثًا علميًا ناقش فيه مظاهر اضطرابات اللغة والكلام والصوت عند الطفل، ولفت انتباه الآباء والأمهات إلى ضرورة التفكير في نقص السمع عندما يتأخر الطفل في بدء الكلام. واشتمل البحث على تفسير وتحليل لآلية تشكل الكلام وتطوره، وأهم معالم تطور اللغة والسمع عند الطفل.

طالع ص 84

هيروشيما..والرعب النووي!



الموازنة بين الحقب التي شهدت حروبًا في تاريخ البشرية، والسنوات التي انتشر خلالها السلم، تكشف عن مفارقة عظيمة الدلالة، تطرح تساؤلات عديدة: هل الحرب هي الأصل، والسلام هو الاستثناء في علاقات الشعوب بعضها ببعض؟ وما أصل فلسفة استخدام القوة في السياسة الدولية؟ وما دور العلماء في إذكاء هذه النزعة؟.

د. خالص جلبي عرض قصة مولد أول قنبلة نووية في التاريخ، وبين اكتمال تصنيع القنبلة و إلقائها على هيروشيما اليابانية، تناول جوانب من فلسفة توازن الرعب النووي، وحروب المستقبل.

طالع ص98

رئيس التحرير
د. زيد بن عبد المحسن الحسين

من كتاب العدد



د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي

- من مواليد مصر 1942م.
- حاصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية والعقيدة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- تدرج في سلك التدريس بالكلية، وهو الآن أستاذ بها، وعمل مستشارًا طلابيًا بالجامعة الإسلامية العالمية بباكستان، ومشرفا علميًا على حولية الجامعة، وحولية كلية الشريعة بالرياض.
- شارك في مؤتمر «طه حسين» الذي عقدته جامعة المنيا، وندوة «الأداء الجامعي» بباكستان.
- من مؤلفاته: «فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد»، «فقه العقيدة عند أبي حنيفة ومالك»، «الأخلاق بين العقل والنقل»، «دراسات في الفكر الإسلامي»، «نظرات في المعرفة الإنسانية بين الفلسفة الغربية والفلسفة الإسلامية»، «الإنسان بين المسؤولية والتكريم»، كما حقق عددًا من كتب التراث.



د. زياد الحكيم

- من مواليد دمشق، سورية 1950م.
- حاصل على دكتوراه الأدب الإنجليزي من جامعة إلينوي الأمريكية 1984م.
- عمل مدرسًا للأدب الإنجليزي في جامعتي إلينوي ودمشق، ويعمل حاليًا في الحقل الإعلامي، وهو مقيم في لندن.
- له مقالات في الأدب والتربية والاجتماع منشورة في المجلات والصحف العربية، وترجم عددًا من الكتب، منها: «تدريب الممثل» لسونيا مور، من منشورات المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق 1986م، و«تاريخ الأدب الإنجليزي» للبروفسور آيفور إيفانز (تحت الطبع).



د. خلاف خلف الشاذلي

- حاصل على الدكتوراه في الآداب «اجتماع»، تحت إشراف مشترك بين جامعة المنيا المصرية، وجامعة نورث كارولينا ـ شابل هيل الأمريكية.
- عمل معيدًا، ثم مدرسًا مساعدًا، فمدرسًا بكلية الآداب، جامعة المنيا، وهو حاليا أستاذ مساعد معار إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالجنوب، حيث عمل وكيلاً لقسم الاجتماع بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية في أبها (1991ـ 1992م)، ثم رئيسًا للقسم.



سعيد ساجد الكرواني

- من مواليد القنيطرة، المغرب 1380هـ.
- عضو تحرير مجلة «المنعطف» ومراسل جريدة «الدفاع».
- من كتاباته: «صور من الشذوذ الفكري لدى بعض المسلمين»، «العداوة الداخلية والخارجية للإسلام»، «التوظيف الفني»، «حساب الحداثة.. نقد أدونيس ودرويش»، «حول السرقات الأدبية».
- له مقالات أدبية واجتماعية، وحوارات مع أدباء ومفكرين منشورة في بعض الصحف والمجلات العربية .



حيل لتصدير الموت إلى شعوب الدول النامية

مما يدعو للحزن والأسى أنه في الوقت الذي ترفع دول ما يسمى بالعالم المتقدم عقيرتها بالصياح، باكية حقوق الإنسان المهدرة في بعض بقاع العالم، موزعة الاتهامات على عديد من دول العالم الثالث، بإساءة معاملة شعوبها ومصادرة حقوقها في أن تعيش حياة كريمة، لا تتورع بعض تلك الدول المتقدمة عن تصدير الموت لشعوب العالم، ضاربة عرض الحائط بالمثاليات، وكاشفة عن



ازدواجية السلوك، والهوة السحيقة التي تفصل بين الأقوال والأفعال، وبين النظريات والتطبيقات، والأنانية المترسخة في الأعماق.

من الأدلة الدامغة على مثل هذه الممارسات المخزية تلك الفضيحة التي أسدل عليها الستار - مؤخرًا -، وهي قيام ألمانيا (المتقدمة) بتصدير مخلفات سامة إلى ألبانيا (النامية). ومما يدعو إلى السخرية والحزن - في الوقت نفسه - أن تلك المخلفات الفتّاكة صُنِّفَت عند شحنها وإرسالها إلى الشعب الألباني على أنها مساعدات إنسانية. ولكن عندما وصلت الشحنة إلى وجهتها اتضح أنها الموت الزؤام بعينه؛ إذ كان على متن السفينة الألمانية «لويز جرين» 465 طنًا من مخلفات المبيدات الحشرية، ولما استوعب الموظف الألباني المسؤول حجم الكارثة التي ستحل بشعبه رفض دخول «شحنة الموت»، ونتيجة لهذا الرفض، وضغوط جماعة السلام الأخضر الألمانية GREEN PEACE التي شنَّت حملة إعلامية، تراجعت ألمانيا، واسترجعت سفينة الموت بعد عامين كاملين، فرست «لويز جرين» في ميناء هامبورج.

وقد أنفقت وزارة البيئة الألمانية ثلاثة ملايين جنيه إسترليني لإعادة الشحنة السامة وحرق جزء منها، وإيداع الباقي في مستودعات المخلفات.

ووفقًا لمصادر جماعة السلام الأخضر تأتي ألمانيا في مقدمة الدول التي تصدر المخلفات السامة، وتشير مجلة NEW SCI-ENTIST إلى أن حادثة ألبانيا ليست الوحيدة، ففي عام 1993م اضطرت السلطات الألمانية إلى استرجاع 450 طنًا من المبيدات الحشرية القديمة من رومانيا، وخلال السنوات الخمس الماضية وصلت المخلفات السامة الألمانية إلى دول عديدة منها بولندا وأستونيا والبحر الأسود. وقد اعترفت الحكومة الألمانية بأنها ألحقت ضررًا كبيرًا بسمعتها في الخارج. ويقول أندرياس بيرنسدورف إن ألمانيا لديها أفضل النظم في إدارة المخلفات، ولكنها الأسوأ في تصديرها.

إن كيفية التخلص من المخلفات السامة تعد مثار خلاف واسع، وستبرز هذه القضية بشكل أكثر حدة خلال العام القادم 1997م، في الاجتماع الدولي الذي سيُعقد في داكار بالسنغال للنظر في اتفاقية حظر تصدير المخلفات، فعلى الرغم من أن الحظر مفروض على تصدير المخلفات السامة، إلا أن دولاً عديدة تمارس حيلاً غير شريفة للتحايل على الاتفاقية.

هل يصبح البرتقال خياراً؟



لا تزال تقنية التهجين تفتح آفاقا رحبة أمام الباحثين في علوم الزراعة لاستنباط نوعيات أكثر جودة من المحاصيل والفواكه، تقاوم الظروف المناخية أو تتواءم معها، وتعطي إنتاجًا أوفر، وتحتوي على عناصر غذائية أكثر. من هذه الاستنباطات الزراعية أنه سيمكن في القريب إنتاج ثمرة تحمل خصائص البرتقال وخصائص الخيار في الوقت نفسه، فهناك اختبار يجري للحصول على «خيار برتقالي» تطوِّرهُ خدمات البحوث الزراعية لجمعية الغذاء الأمريكية، وذلك بتهجين مخلل الخيار الأمريكي مع خيار زيشوانجبانان البرتقالي.

الكلاب تثبت كفاءة عالية في الأمن الصناعي

توظيف حاسة الشم العالية القدرة عند الكلاب لمساعدة رجال الشرطة، فكرة قديمة مطبقة على نطاق واسع. فكثيراً ما تُستخدم الكلاب المدربة في الكشف عن المخدرات المهربة عبر الموانئ والمطارات، كما تُستخدم أيضًا في بعض البلدان لكشف المشتبه فيهم في جرائم ارتُكبت، وكذلك في عمليات إنقاذ ضحايا الزلازل والتفجيرات من تحت الأنقاض.

أما الجديد في توظيف حاسة الشم عند الكلاب فهو الاستعانة بهذا الحيوان في مجالات الأمن الصناعي. الكلب إيجور - الذي يبدو في الصورة - يعمل بجد واجتهاد في أحد المصانع، فهو واحد من أحد عشر كلبًا تمت الاستعانة بهم في شركة إكسكون الكيماوية البلجيكية، وقد دربتهم شركة سنفرز في مول ببلجيكا على عمليات كشف تسرب الغازات. وقد قامت شركة إكسكون بمنح بعض هذه الكلاب جوائز لدورها في تخفيض تكاليف تسرب الغاز في مصنع الكيماويات إلى النصف.



كان العمال، من البشر، هم الذين يقومون بهذه المهمة، قبل توظيف الكلاب، وكان كل عامل توكل إليه المهمة يقوم بتتبع خطوط أنابيب الغاز حاملاً مجسًا يخبره بموقع التسرب، ولكن يقول إدجار جوريس من شركة إكسكون: إن أداء الكلاب يفوق سرعة البشر والمجسات بثمانية أضعاف، كما أن الكلاب خفضت حالات التسرب بنسبة 90٪؛ الأمر الذي وفَّر للشركة مئة طن من الغازات كانت تذهب هدراً.

ويقوم رودي فان بيلن مؤسس شركة سنفرز بتدريب الكلاب من طريق مكافأتها، عندما تكتشف الموقع الصحيح لتسرب المواد الكيماوية، ويقول بيلن: إن مهمة الكلاب في تتبع ومراقبة تسرب غازات البروبيلين والإيثيلين والأيوبيوتان، لا تعدو أن تكون نوعًا من اللعب المحبب إليها.. وحاليًا يعمل الكلب إيجور ورفاقه في ستة مصانع كيماوية.

ضماد من الفطريات يساعد على شفاء الجروح



يُنتظر أن تستقبل الأوساط الطبية - قريبًا - ضمادًا يساعد على علاج الجروح، ويقلل الحاجة إلى استخدام المضادات الحيوية. والضماد الجديد قوامه الفطريات المتعفنة. ويأمل بول هاملين وزملاؤه من مجموعة تقنية المنسوجات البريطانية بمانشستر في صنع ضمادات للعمليات الجراحية، أساسها الفطريات، تعمل على تسريع بُرء الجروح، إضافة إلى تشكيل حجاب واقٍ يمنع تلوث الجرح. وعلى الرغم من أن الاختبارات لم تجر بعد على الجروح الحقيقية، إلا أن التجارب التي أجريت على خلايا الجلد البشرية جاءت مشجعة. وقد تكون هذه الطريقة غير مقبولة نفسيًا، إلا أنها - بلا شك - ستحقق - مستقبلا - إنتاج علاج فعال مشتق من الفطريات التي يأتي في مقدمتها فطر المشروم (عش الغراب).

عندما يصبح الرماد مطلبًا لحماة البيئة!

ترمي جهود مكافحة التلوث إلى إيجاد بيئة صالحة لحياة الإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات. ولكن ألا يبدو مستغربًا أن تلك الجهود تضر، أحيانًا، بأحد مكونات البيئة، وتهدد وجودها. لقد ارتفعت أصوات الحادبين على البيئة، ومارسوا ضغوطًا مختلفة، لوقف محطات توليد الطاقة الكهربائية التي تعمل بالفحم، نظرًا لما تسببه تلك المحطات من تلوث. غير أن ما تَكَشَّف من نتائج ترتبت على تلك الحملات كان باعثًا على الاستغراب. فقد اتضح أن التناقص في عدد محطات الكهرباء التي تعمل بالفحم يهدد نوعًا من النباتات النادرة، فزوال هذه المحطات معناه توقف رماد الوقود الناتج من الاحتراق، فهذا الرماد الذي يُعَدّ من المخلفات الصناعية يمثل بيئة مهمة لنمو النباتات السحلبية النادرة في بريطانيا.



يقول بيتر شو من معهد روهامبتون في لندن: إن استبدال محطات غازية ونووية بمحطات وقود الفحم، إضافة إلى الطرائق غير السليمة في استخلاص الرماد المتخلف من محطات الفحم، يشيران إلى أن النباتات السحلبية مهددة بالزوال. وقد اتضح من التجارب التي أجراها شو على رماد وقود الفحم في الأراضي التابعة للمعهد، أن تلك المخلفات تُعَدّ في الأصل، مواد قلوية مجدبة، ولكن عندما تتحلل الأملاح القلوية يصبح الرماد غير سام، وخلال سنتين تظهر الطحالب على سطحها، ثم تنمو الأعشاب، وإذا تُرك الرماد مدة تتراوح بين ثماني سنوات وعشرين سنة، تنمو النباتات السحلبية بكثافة، ويكون مظهرها خلابًا. والمواقع الصالحة لنمو هذا النوع من النباتات هي الأراضي القريبة من محطات توليد الكهرباء التي تعمل بالفحم في ديكفيلد، وكارمارثن بي، وويجان، وإلاند قرب هاليفاكس.

ويرى شو أن في بريطانيا الآن مساحة تقدر بنحو أربعمئة هكتار غنية بالرماد، ينبغي الحفاظ عليها، لئلا يُحكم بالموت على فصيلة نباتية نادرة.



وسادة هوائية لسائقي الدراجات النارية



تم في مختبر النقل والمواصلات ببريطانيا تصنيع وسادة هوائية خاصة تزيد درجات الأمان لدى سائقي الدراجات النارية. وتُرَكَّب الوسادة في تجويف بأعلى خزان الوقود، والغرض من ابتكارها وتصنيعها هو منع ارتطام مقدمة رأس سائق الدراجة بعجلة القيادة، في حال اصطدام الدراجة بأي عائق، وعند الاصطدام تنكمش الوسادة المنفوخة بفعل تفريغها من الهواء مانعة بذلك الارتطام المفاجئ نتيجة الارتداد.

ممرضون أم قتلة ؟!



في غياب الأخلاق والقيم تفقد كل مهنة الموجهات الصحيحة، وتخرج من الإطار الإنساني الذي ينبغي أن يعمل الفرد داخله. وإذا كانت تلك المهنة من المهن التي تتطلب أن يلتصق ممارسوها بالإنسان في أضعف حالاته، وأقسى لحظات حياته، فإنها تكون أكثر إلحاحًا لتوفير المنظور الأخلاقي والقيمي. فمهنةٌ مثل التمريض تفقد معناها في حال خلو قلب الممرض من الرحمة والحنو، وهما صفتان لا وجود لهما إلا داخل توليفة من الأخلاق والقيم الفاضلة. وهكذا فإن كل سلوك شاذ في هذه المهنة - أو في غيرها - هو بمثابة دعوة صريحة لمراجعة المرجعية القيمية، ورثاء الأخلاق. وإذا أصبح السلوك الشاذ ظاهرة، فهو الكارثة بعينها؛ وإلا فتحت أيٍّ من التصنيفات نضع ما أوردته مجلة THE NEW ENGLAND JOURNAL OF MEDECINE من أنّ واحدًا من كل خمسة من طاقم التمريض في وحدات الرعاية المكثفة في الولايات المتحدة يقوم - بتعمُّد وإصرار - بتسريع موت المرضى الميؤوس من شفائهم، وغالبًا ما يكون ذلك من دون علم الطبيب المشرف. ففي معظم الحالات يقوم الممرض أو الممرضة بإعطاء المريض جرعة زائدة من الأدوية المسكِّنة، وفي حالات أخرى يقطعون العلاج عنه.

وقد قام ديفيد آش DAVID ASCH من جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا بفحص استبانات وردت من ثمانمئة واثنين وخمسين ممرضًا يعملون بوحدات الرعاية المكثفة، وقد تبين له أن الممرضين والممرضات - بعد اتخاذ قرار بإنهاء حياة المريض - أعطَوْا بعضهم جرعات زائدة من الدواء، أو أوقفوا الأجهزة المتصلة بأجزاء من جسمه. وفي بعض الأحيان فعلوا ذلك بناء على تعليمات من الطبيب المعالج، ولكنهم غالبًا كانوا يتصرفون بدافع ذاتي.

(عن الجارديان البريطانية)





غضاريف القرش بعد كبد الحوت للعلاج

لفت انتباه العلماء واهتمامهم حقيقة أن سمك القرش هو الكائن البحري الوحيد الذي لا يصاب بمرض السرطان، هذه الحقيقة حفزت العلماء إلى استعمال بعض أجزاء هذا الحيوان في التجارب المستمرة لعلاج مرض السرطان. وتشير مجلة ميديكال جورنال الأمريكية إلى أن استعمال أجزاء من سمك القرش لهذا الغرض انتشر في دولة كوستاريكا بأمريكا الجنوبية، وذلك على إثر إعلان العلماء أنه ثبت لديهم - على حد قولهم - أن أكل غضاريف سمك القرش يشفي من السرطان. وذكرت ميديكال جورنال أن باحثي جامعة هارفارد الأمريكية اكتشفوا أن غضاريف القرش قد شفت نسبة 80٪ من حالات السرطان التي كان يتم علاجها والعناية بها. ونتيجة لهذا الخبر، الذي ذاع بسرعة، وفتح نافذة أمل واسعة أمام المصابين بهذا المرض الخبيث، انتشرت عبوات غضاريف القرش المطحونة لبيعها لمرضى السرطان المتلهفين للعلاج الناجع.

مولد جزيرة في أرخبيل تونجا



انضمت إلى أرخبيل تونجا TONGA جزيرة جديدة ليصبح مجموع الجزر الواقعة شمال شرقي نيوزلنده 151 جزيرة. وقد برزت هذه الجزيرة الجديدة من أرض مغمورة تحت مياه ضحلة، نتيجة الثوران البركاني الذي بدأ في السادس من يونيو/حزيران الماضي، وعندما خمد البركان كان ارتفاع الجزيرة 140 قدمًا، وعرضها 900 قدم. ولا يعرف الباحثون ما إذا كانت هذه الجزيرة الصخرية الوليدة ستكون مؤقتة ثم تغمرها المياه، أم ستبقى ضمن سلسلة تونجا التي تتزايد. يقول براد سكوت عالم البراكين في معهد العلوم الجيولوجية والذرية في نيوزيلندة، وهو أول باحث رأى الجزيرة الوليدة: إن التاريخ قد سجل نشوء ست جزر في ذلك الأرخبيل، نتيجة الحمم البركانية.

الصاروخ آريان

رهان أوربا لغزو الفضاء

عدنان عضيمة

خلال الربيع الماضي من عام 1996م، شاهد العالم عبر شاشات التلفاز حادث انفجار الصاروخ الأوربي آريان الخامس ARIANE-5 بعد دقائق قليلة من إطلاقه من قاعدته في جزيرة كورو التابعة لأرخبيل جزر غويانا الفرنسية. وكان لهذا الحادث وقعه المؤسف على المهندسين المشرفين على برنامج الصاروخ، الذين أرجعوا سبب الانفجار إلى تسرب غاز الهيدروجين من خزّانه.



صورة تخيلية للصاروخ آريان 5 وهو يحمل مختبر كولومبوس للبحوث الفضائية الذي تكفلت أوروبا بإطلاقه في إطار المساهمة الدولية في بناء المحطة الفضائية الدولية

وعلى الرغم من الآثار السلبية التي خلفها هذا الحادث على الموقع الأوربي المتقدم في مجال ارتياد الفضاء؛ إلا أنه من المرجح أن لا يقلل كثيرًا من احتمال تحقيق قدرة تنافسية أوروبية عريضة في تقنية إطلاق أقمار الاتصالات في المستقبل؛ لأن الجيل الخامس من نماذج الصاروخ آريان ينفرد بأنه مصمم لنقل عدة أقمار صناعية دفعة واحدة إلى مدارها حول الأرض. وقد يكون هذا التعثر الطارىء هو الحلقة المحبطة الوحيدة في مسلسل النجاح الأوربي

المتواصل في البحوث المتعلقة ببرامج الصواريخ ذات الأغراض التجارية والعلمية.

يتراءى لمعظم الناس أن الصور التلفازية التي يستقبلونها يوميًا تأتي من المفتاح الكهربائي المثبت بالحائط. ويعكس هذا الاعتقاد الخاطئ عوزهم إلى الاهتمام أكثر بمعرفة ما يدور في الفضاء فوق رؤوسهم، وافتقارهم إلى الإلمام بالأسباب الكثيرة التي جعلت التقنيات الفضائية تثري حياتنا اليومية. فلولا الأقمار الاصطناعية لما أمكن توصيل هذا الزخم الهائل من المعلومات التي تنقلها القنوات التلفازية يوميًا إلى ملايين المشاهدين عبر العالم والتي لم يعد في الإمكان عدّها أو حصرها.

والأقمار الاصطناعية، تنقل يوميًا من المعلومات المتنوعة والشاملة ما يفي بحاجة الإنسان الضرورية في هذا العصر. فهي تغطي الأحداث الرياضية والأخبار السياسية والبرامج الثقافية، كما تتعدى أهميتها هذه الحدود المعروفة إلى أمور لا تقل عنها حساسية بالنسبة للإنسان المعاصر. فلولا الرصد المستمر للأرض من الفضاء، الذي أصبح شائعًا بفضل الأقمار الاصطناعية، لما أمكن الوقوف على درجة خطورة التلوث البيئي في أماكن مختلفة من سطح كوكبنا، ولكان من المستحيل تحقيق الدقة الكبيرة في مجال التنبؤ بالأحوال الجوية التي أصبحت ضرورة ماسة للكثير من القطاعات التجارية في العالم.

وبالطبع، فإن الأقمار الاصطناعية التي يمكنها أن تقدم مثل هذا الزخم من المعلومات والخدمات يجب أن تكون موضوعة في مدارها حول الأرض. وتحتاج عملية إيصالها إلى مداراتها إلى عربات إطلاق موثوقة مثل صاروخ آريان الأوربي والمكوك الفضائي الأمريكي.

وخلال السنوات القليلة الماضية تطور نظام الصاروخ آريان حتى أصبح يمثل برنامجًا يتمتع بثقة عالمية في مجال حمل الأقمار الاصطناعية ونقلها إلى مداراتها حول الأرض. والآن، يستأثر هذا النظام بحمل اثنين من كل ثلاثة أقمار اصطناعية تجارية عالمية إلى مداراتها. وما إن حلّت بداية عام 1996م حتى كان نموذجه الجديد الأكثر تطورًا قد أوشك على دخول السوق الدولية لإطلاق الأقمار الاصطناعية. ويمثل هذا النموذج الجيل الخامس للصاروخ، لذا فقد أُطلق عليه آريان الخامس ARIANE-5. ولقد صُمِّمَ هذا الصاروخ بحيث ينقل قمرين أو ثلاثة أقمار اصطناعية من النوع الأثقل والأكثر تطورًا دفعة واحدة إلى مداراتها حول الأرض وبأسعار تنافسية تسترعي الاهتمام.

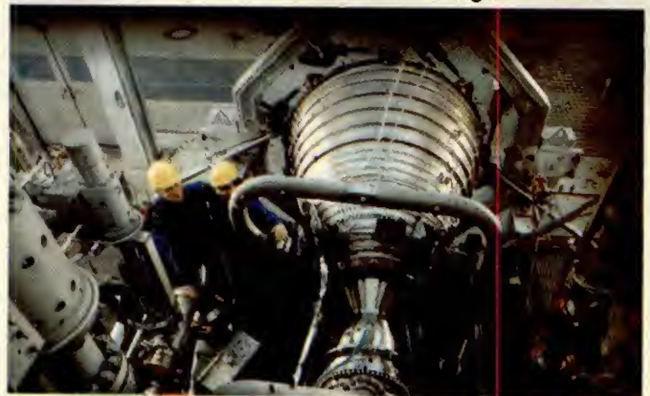
وعندما أُطلق الصاروخ الأول من هذا النظام، الذي سُمِّي آريان 1، في 24 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1979م، لم يكن أحدٌ يتوقع أن تبلغ هذه العائلة النجاح التجاري العريض الذي حققته في السوق العالمية فيما بعد. ولاسيما أن الأمريكيين كانوا قد بدؤوا في تلك الحقبة بتسجيل نجاحات مُطَّردة في تحقيق فكرة إطلاق مكوك فضائي ذي جناحين يتكفل بوضع الأقمار الاصطناعية في مداراتها حول الأرض، ثم يعود ليحمل غيرها، إذ يُعَدّ بذلك بمثابة صاروخ متكرر الاستعمال. ولهذا، فقد كان من العسير توقع تحقيق النجاح التجاري في هذه السوق استنادًا إلى الفكرة التي تمسك بها الأوربيون عندما عمدوا إلى تطوير (الموضة القديمة) المتمثلة في صاروخ يُطلق مرة واحدة فقط ليضع الأقمار التي يحملها في مداراتها حول الأرض قبل أن يتحول إلى شظايا لا قيمة لها تدور حول الأرض أو تسقط فوقها، أو تنطلق إلى مجاهل الفضاء الكوني الرحيب.

ومن ناحية أخرى، لم يكن من المفاجئ أن يصبح الأوربيون، الذين واجه برنامجهم الصاروخي السابق الذي يدعى أوروبا EUROPA كارثة كبرى تمثلت في سلسلة من عمليات الإطلاق الخاسرة، أكثر ميلاً إلى الإبداع والإتقان عندما عمدوا إلى تصميم برنامجهم الصاروخي الجديد آريان وتطويره.

ولقد عمد الخبراء المسؤولون عن برنامج الصاروخ آريان مؤخرًا إلى تبديل قواعد اللعبة برمتها، حين نجحوا في استغلال التراجع في القدرة التنافسية لأمريكا في سوق إطلاق الأقمار الاصطناعية عقب حدوث كارثة تحطم المكوك الفضائي الأمريكي شالنجر في الثمانينيات، إذ سرعان ما تبيّن عقب هذا الحادث أن المكوك الفضائي كان أكثر تعقيدًا وتكلفة بكثير من الصواريخ غير المأهولة بالرواد. وهكذا أخفق الأمريكيون في تحقيق القدرة التنافسية التي كانوا ينشدونها من وراء تصميم مكوكاتهم الفضائية وبنائها. فبدلاً من تحقيق التناقص التدريجي المرتقب في سعر تحميل الكيلوغرام الواحد ـ وهو مقياس يجري العمل بموجبه في سوق إطلاق الأقمار الاصطناعية ـ؛ فإن هذا السعر أخذ يرتفع وفق وتيرة سريعة حتى بلغ الحدود التي جعلت وكالة الطيران والفضاء الأمريكية (ناسا) تتحاشى نشر قوائم التكاليف الحقيقية لحمل الأقمار الاصطناعية إلى مداراتها حول الأرض، والتي بلغت 250 مليون دولار للقمر الواحد. وفضلت ناسا، عوضًا عن ذلك، أن تُطلع الزبائن على هذه الأسعار دون إعلانها رسميًا.

وكرد فعل على هذا التطور غير المحبّذ، أعلنت حكومة الولايات المتحدة عن تغييرات جوهرية في سياسة الإطلاق، إذ عمد الخبراء إلى تنويع استخدامات المكوك الفضائي ليجمع بين الأغراض البحثية العلمية وإطلاق الأقمار الاصطناعية في الوقت نفسه. لهذا فإننا نرى اليوم كيف أن رواد المكوك يقومون في كل رحلة بوضع قمر اصطناعي في مداره حول الأرض


الأجيال الخمسة للصاروخ آريان مسلسلة من حيث تطورها: من اليسار آريان 1، وإلى اليمين آريان 5


غرف الاحتراق في المحرك الدافع للصاروخ آريان 5 تكفي لرفع 6,8 طن إلى المدار الأرضي الثابت

صورة تخيلية لأولى رحلات الصاروخ آريان 5، حيث كان من المقرر أن يضع ثلاثة أقمار للاتصالات في مداراتها حول الأرض دفعة واحدة. ولقد انفجر الصاروخ بعد دقائق قليلة من إطلاقه من قاعدته في جزيرة غويانا الفرنسية خلال الربيع الماضي 1996م

قبل أن يباشروا بإجراء البحوث العلمية المقررة في برنامجهم. وكان لهذا الاتجاه أثره في إبعاد الشركات الفضائية الأمريكية من اللعبة. ولم يبق أمام هذه الشركات إلا مجال واحد للبقاء والعمل تمثّل في الاتجاه من جديد إلى إحياء أمجاد البرنامجين الصاروخيين الأمريكيين أطلس Atlas ودلتا Delta اللذين حققا نجاحاً كبيراً في وقت من الأوقات. ونظراً لكون هذين البرنامجين قد تخطاهما الزمن من جهة، ونتيجة لنقص الكادر الفني المتبقي والمتخصص في تطويرهما من جهة أخرى. فلقد تهيأت للأوروبيين فرصة المنافسة في السوق الدولية لإطلاق الأقمار الاصطناعية تجسدت في مجموعة صواريخ آريان.

من الناحية التقنية، لا يختلف آريان عن الصواريخ التي سبقته. فهو مؤلف أساساً من ثلاث مراحل stages، تنفصل بعضها عن بعض واحدة تلو

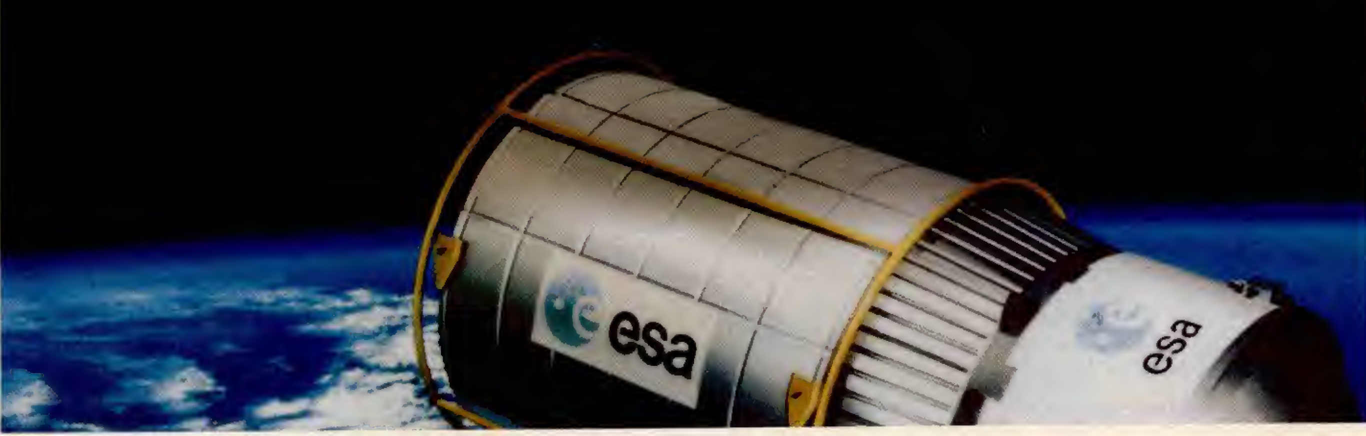
الأخرى في أثناء انطلاق الصاروخ باتجاه مداره الأرضي الثابت geostationary orbit. ومنذ أواسط الحقبة التي كان المهندسون الأوربيون يطلقون خلالها النسخ الأولى للصاروخ آريان 1، كانوا قد عمدوا إلى بذل جهود حثيثة لتطوير هذا الصاروخ تدريجيًا مرحلة بعد أخرى. وهكذا بدؤوا بزيادة قطر الصاروخ وقوة دفعه حتى يتمكن من الانطلاق بحمل أكبر. وبلغت قدرة التحميل للصاروخ آريان 4 نحو 4,7 طن مقابل قدرة تحميل لا تزيد على 1,8 طن للصاروخ آريان 1.

ويمكن للقمر الاصطناعي الذي يبلغ مداره الإهليلجي الثابت أن ينتقل إلى مداره الأرضي الدائري الثابت بإشعال محرك ذاتي مخصص لهذا الغرض. وحالما يصبح القمر في مداره الدائري فإنه يدور حول الأرض دورة كاملة كل 24 ساعة، وهو زمن مساوٍ تمامًا لذلك الذي تستغرقه الأرض حتى تدور حول محورها دورة كاملة. ويعني هذا التزامن في الدوران أن القمر سيبقى دائمًا ثابت الموضع بالنسبة لنقطة محددة من سطح الأرض في أثناء دورانها حول محورها. ولهذا فإن في إمكانه أن يعمل على استقبال الإشارات اللاسلكية الحاملة للصوت والصورة والمعلومات وإعادة بثها إلى القارات المختلفة وكأنه هوائي ثابت. وقد خُصِّصت الغالبية العظمى من سلسلة صواريخ آريان التي تم إطلاقها إلى الفضاء، وبلغ عددها 82 حتى الإطلاق المخفق للصاروخ آريان 5 في ربيع عام 1996م، لحمل أقمار الاتصالات العائدة للعديد من دول العالم. والبقية منها حملت إلى المدارات أقمارًا متخصصة بالاستشعار من بعد وأخرى للبحوث العلمية والفلكية. وتشير حصيلة إحصائية نشرتها وكالة الفضاء الأوربية إيسا ESA - مؤخرًا - إلى أن مجموع الأقمار الاصطناعية التي حملتها سلسلة صواريخ آريان إلى مداراتها الأرضية الثابتة بلغ 100، قمر بالإضافة إلى نحو 40 عملية إطلاق مدرجة في برنامجها للسنوات القليلة القادمة. وأشارت الإحصائية نفسها إلى أنه مع نهاية عقد التسعينيات الميلادي سيبلغ مجموع عدد الصواريخ المبنية من سلسلة آريان 100 صاروخ.

والمشكلة المهمة التي أصبحت تحكم برنامج تطوير الصواريخ تنبثق من الاتجاه التقني السائد في مؤسسات بناء الأقمار الاصطناعية نحو زيادة تعقيد وظائفها بما يقتضي بالمقابل زيادة حجومها وأوزانها، ومن ثم زيادة حجوم الصواريخ المكلفة بحملها ورفع قوة دفعها. ولقد شهد عام 1990م ظهور الجيل الأول من الأقمار التي يتعدى وزن الواحد منها 3,6 طن. وما إن حلَّ عام 1994م حتى أصبح هذا النوع من الأقمار يستأثر بنسبة 15٪ من السوق. ولم يكن لهذه النماذج من الأقمار أن تمثل أية مشكلة بالنسبة للصاروخ آريان 4 الذي لم يزل حتى الآن الأكثر تطورًا وضخامة وقوة [بعد فشل أول عملية إطلاق للصاروخ آريان 5].


الصاروخ آريان 5 فوق قاعدته الجديدة في جزيرة غويانا الفرنسية بانتظار العد التنازلي لإطلاقه

ولقد بدا للمهندسين الأوربيين أن هذا التزايد المُطَّرد في حجوم الأقمار وأوزانها يمكن أن يهدد بتجريد الصاروخ آريان من المزية الأساسية التي ينفرد بها من حيث قدرته على حمل اثنين من الأقمار الصناعية المخصصة للاتصالات إلى الفضاء دفعة واحدة. فعلى النقيض من الاتجاه غير التنافسي الذي اختاره صنّاع الصواريخ الأمريكيون، تمكن مهندسو الصاروخ آريان من توزيع تكلفة عملية الإطلاق الواحدة البالغة 110 ملايين دولار بين زبونين، بحيث يدفع كل منهما نصف هذا المبلغ؛ مما يحقق فائدة هائلة للزبائن المهتمين بإطلاق الأقمار إلى مداراتها حول الأرض وذلك لإمكان إطلاق قمرين معًا في صاروخ واحد. وحتى لا يفقد الصاروخ آريان هذه المزية التنافسية عمدت الدول الأوربية المشاركة في البرنامج إلى الشروع في بناء جيل جديد من هذا الصاروخ هو آريان 5، وذلك في إطار اتفاقية رسمية وُقِّعت عام 1987م. ويمكن لهذا الصاروخ الجديد أن يحمل قمرًا منفردًا ضخمًا يصل وزنه إلى 6,8 طن، أو قمرين منفصلين يصل وزنهما معًا إلى 5,9 طن إلى المدار الأرضي الثابت في عملية إطلاق واحدة. والفرق بين الوزنين ناتج من ضرورة تخصيص حيِّز في مخزن التحميل للصاروخ يفصل بين القمرين بعد تثبيتهما واحدًا فوق الآخر. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، إذ يقوم المهندسون بتنفيذ برنامج يرمي إلى رفع قدرة التحميل المزدوجة للصاروخ آريان 5، بحيث يتمكن من رفع قمرين معًا يبلغ وزن كل منهما 3,6 طن، أو حتى ثلاثة من الأقمار المتوسطة. وهناك كثير من الأسباب التي تجعل الصاروخ آريان 5 يمثل إنجازًا مختلفًا عن الصواريخ الأوربية التي سبقته. ومن ذلك أن نظام



مختبر كولومبوس للبحوث الفضائية.. من المقرر أن يحمله الصاروخ آريان 5 إلى مداره حول الأرض


سوف يتكفل الصاروخ آريان 5 برفع مؤلفات المحطة الفضائية الدولية ISS إلى مدار حول الأرض يبلغ ارتفاعه 300 كيلومتر

الدفع فيه يحاكي ذلك المزروع في المكوك الفضائي الأمريكي مع اختلاف وحيد بينهما يكمن في افتقار آريان 5 إلى الجناحين والرّواد. وتتضمن كل من العربتين - آريان 5 والمكوك الفضائي - خزانًا مركزيًا ضخمًا للهيدروجين السائل والأكسجين السائل اللذَيْن يمثلان الوقود الفعال لإنتاج الطاقة اللازمة لتشغيل محرك البركان Volcain motor الدافع للصاروخ. ويُعَدّ هذا المحرك الأقوى من بين المحركات الصاروخية التي تمكن الأوروبيون من بنائها حتى الآن. وعلى جانبي المحرك يقبع خزانان إضافيان للوقود الصلب يتكفلان بتحرير طاقة دفع ابتدائية إضافية للصاروخ برمته خلال أول دقيقتين تعقبان لحظة الانطلاق. ولا يكاد ينفد الوقود منهما حتى يكون الصاروخ قد بلغ ارتفاعًا يصل إلى 58 كيلومترًا عن سطح الأرض. وعندئذ ينفصل هذا الخزان عن الجسم المركزي للصاروخ لينفرد محرك البركان بتحرير طاقة دفع تبقى مستمرة لمدة 10 دقائق بدءًا من لحظة الإطلاق.

بعد ذلك يتولى محرك خاص بالمرحلة الثانية للصاروخ مهمة تحرير طاقة الدفع خلال المدة المتبقية لبلوغ الارتفاع النهائي والبالغة 1100 ثانية. ويتميز نظام آريان بدقته في تفريغ حمولته (القمر الاصطناعي) في المكان الصحيح المحدد مسبقًا بدقة كبيرة، والذي يبلغ ارتفاعه نحو 36500 كيلو متر عن سطح الأرض. وتعد هذه الدقة على جانب كبير من الأهمية. فكلما كان الوضع الابتدائي للقمر قريبًا من نقطة الإحداثيات المحسوبة نقصت الطاقة التي يصرفها محركه الذاتي لتصحيح المسار. وبمعنى آخر، كلما ازداد الوفر في الطاقة المخزونة في محرك القمر ازداد أمد أدائه للخدمات والوظائف التي أُطلق من أجلها.

ولنظام الصاروخ آريان فوائد وميزات أخرى تسترعي الاهتمام انبثقت من الاختيار الموفق لمحطة الإطلاق في جزيرة كورو Kourou، إحدى جزر مستعمرة غويانا الفرنسية French Guiana الواقعة في أعالي المحيط الهادي. فعلى النقيض من المشكلات التي يعانيها المهندسون الأمريكيون بعد أن اختاروا محطة كاب كانيفرال Cape Canaveral في ولاية فلوريدا لإطلاق صواريخهم ومكوكاتهم، فإن الأوروبيين أصبحوا بمنأى عن الخوف من سقوط أجزاء المرحلة الأولى للصاروخ فوق المناطق الآهلة بالسكان. يضاف إلى ذلك أن جزر غويانا تحقق فوائد اقتصادية واستراتيجية مهمة في مجال إطلاق أقمار الاتصالات التي توضع عادة في مدارها فوق خط استواء الأرض وذلك لقربها الشديد منه، إذ تقع على خط العرض 5,23 درجة شمال خط الاستواء؛ مما يزيد من الوفر في الطاقة ويعزز القدرة على التنافس في السوق الدولية.

ولجأ المهندسون الأوروبيون - مؤخرًا - إلى بناء محطة إطلاق خاصة بالصاروخ آريان 5 في جزيرة كورو تعد الثالثة من نوعها التي بنوها لغرض إطلاق صواريخ آريان، وتعرف برمزها المختصر ELA-3. وتتضمن منشآت محطة كورو العديد من الأبنية المتباعدة تمامًا من بعضها خُصصت إحداها لصناعة الوقود الصلب، وأخرى لربط المرحلة العليا من الصاروخ بجسمه المركزي، وثالثة لتحميل القمر الصناعي في مستودع الصاروخ. يضاف إلى ذلك أن البعد البالغ للمحطة من المنشآت المدنية يقلل كثيرًا من الأخطار التي يمكن أن تنجم عن انفجار الصاروخ في حال إخفاق عملية الاطلاق، كما يجعل ترتيبات التحضير لعملية إطلاق جديدة أكثر سهولة وسرعة.

وقبل عملية الإطلاق المخفقة للصاروخ آريان 5، الذي بلغ طوله 51 مترًا ووزنه 737 طنًا، في ربيع عام 1996م، تم نقله لمسافة 2800 متر تفصل بين مستودع البناء ومحطة الإطلاق على سكة حديدية. واستغرقت عملية النقل 22 يومًا.

وإذا ما تذكرنا الحكمة التي تفيد بأن التقنية ليست علمًا تطبيقيًا فحسب، بل هي أيضًا اقتصاد وتنافس وتجارة، فما الفوائد الحقيقية التي جنتها أوروبا حتى الآن، والتي يمكن أن تجنيها في المستقبل من وراء جهودها الحثيثة لتطوير نظام آريان الصاروخي؟ وما هو الموقع



التنافسي الحقيقي الذي أصبحت تتمتع به الآن في السوق العالمية لإطلاق الأقمار الاصطناعية التجارية؟ وما أبعاد الفشل المسجل - قبل أيام قليلة من إعداد هذا المقال - في إطلاق الصاروخ آريان 5، وما تأثيره في مستقبل الصواريخ التجارية في أوروبا؟

ليس ثمة شك في أن برنامج الصاروخ آريان قد حقق لأوروبا من الفوائد الاقتصادية والتقنية والتجارية ما لا يمكن عدّه أو حصره في أسطر قليلة. ولقد قُدِّرت العوائد الاقتصادية لهذا البرنامج على الدول الأوروبية المشاركة فيه بنحو أربعة أضعاف التكاليف المخصصة لتجسيده إضافةً إلى تحقيق 15000 منصب عمل جديد للمهندسين وباقي الكوادر الماهرة في أوروبا.

وإذا كان من الحق أن يقال بأن للتفوق التقني دوره الحاسم في مجال التنافس التجاري على ترويج السلع والخدمات كافة، إلا أنه ليس العامل الوحيد في قصة النجاح التجاري. ففيما يتعلق بالأقمار الاصطناعية، يكون من الضروري الإشارة إلى أنها - كغيرها من أسواق التقنيات العالية - تتطور وتتبدل وفق سرعة ووتيرة قد تفوق سرعة ووتيرة تطور وسائل إطلاقها أو استغلالها. ولا يكاد يمر يوم واحد إلا ويكون مهندسوها ومصمموها قد أضافوا العديد من الأجهزة المعقدة إلى أنظمتها حتى يسايروا تنامي حاجة المجتمعات الحديثة إلى التقنيات الأعلى والأكثر تقدّمًا. ومع تزايد الأجهزة والأنظمة التي يضمها القمر لا بد أن يزداد حجمه ووزنه؛ بما يتطلب الإسراع أكثر فأكثر في تطوير الصاروخ الذي سيحمله إلى مداره من حيث زيادة حجمه وقوة دفع محركاته حتى يتمكن من حمل أوزان أكبر. ولكن هذه المهمة الثانية أكثر تعقيدًا بكثير من الأولى. فلقد أثبتت الأحداث والوقائع الملموسة أن تطوير أجهزة القمر الاصطناعي أكثر سهولة وسرعة من تطوير وسائل حمله إلى مداره حول الأرض. وجاءت كارثة انفجار الصاروخ آريان 5 - مؤخرًا - لا لتثبت صحة هذه المقولة فحسب، بل لتبرهن أيضًا أن على بناة الصواريخ ومصمميها أن يعيدوا النظر في حساباتهم وتصاميمهم تمامًا إذا أرادوا تحقيق نوع من التوازن بين الطلب المتنامي على الإطلاق والقدرة الحقيقية للأنظمة الصاروخية على التنفيذ. والمشكلة الأساسية - وليست الوحيدة - التي ما فتئت تتحدى قدرات مهندسي ومصممي الصواريخ تتعلق بافتقار أنظمة تخزين الهيدروجين السائل إلى عناصر الأمان. ومعظم حوادث الانفجار التي تعرضت لها صواريخ دلتا وأطلس الأمريكية إضافة للمكوك الفضائي شالنجر والصاروخ آريان 5 إنما نتجت من تسرب غاز الهيدروجين من خزاناتها. وإذا كان لانفجار آريان 5 أن يكون سببًا في ترويج إقبال الزبائن مرة أخرى على إبرام عقود الإطلاق مع الأمريكيين بوساطة المكوك الفضائي على المدى القصير، فإن من المتوقع أن يتجاوز المهندسون الأوروبيون هذه العثرة ليظهروا في السوق من موقع أقوى وبقدرة أعلى على التنافس.

وهكذا.. وعلى الرغم من الفوائد الاقتصادية والتقنية الجمّة التي جناها الأوروبيون من وراء تصميم نظامهم الصاروخي التجاري وتطويره، يأتي الوقت الذي يدفعون فيه الثمن الباهظ لإخفاقهم الوحيد. فتقنية بناء الصواريخ وإطلاقها هي عالم مزدحم بالآمال العريضة والطموحات الكثيرة.. وبالكوارث المؤلمة أيضًا.

خزانات الوقود في الصاروخ آريان

المارانوس..
صورتان متناقضتان

يوسف فجر رسلان

لـم يعمل النصارى منذ نشوء المسيحية وحتى تاريخنا المعاصر بروح أناجيلهم في التعامل الإنساني، بل كان القَيِّمون على الكنائس (استخدمت الجمع لتعدد المذاهب) وفي جميع المراحل التاريخية، حلفاءَ الأباطرة والقياصرة والملوك، ثم دهاقين السياسة الحديثة والمعاصرة في قهرهم واستعبادهم لشعوبهم، وفي السعي والتحريض على الغزو والاستعمار.

وإذا وازنت بين الأحوال التي كانت تؤول إليها المجتمعات التي يستعمرونها، وأحوال المجتمعات التي كان يصل إليها الفتح الإسلامي من جهة، وأوضاع الشرائح غير النصرانية في الحالة الأولى. والشرائح غير المسلمة في الحالة الثانية من جهة أخرى، وجدت صورتين متناقضتين تماما، لا تلتقيان في أي وجه من الوجوه (التناقض - في المنطق - أوسع أشكال التباعد بين متقابلين).

وفي برهنة هذا الرأي أرصد تينك الصورتين في الديار الإسبانية معتمدا على نصوص لكُتّاب غربيين، فأعيد إلى الذاكرة الصورة الإسلامية المشرقة، والصورة النصرانية المظلمة للتعامل مع الأقوام والشرائح التي كانت تعيش هناك.

لاريب في أن النصوص التي سأقدمها معروفة لدى كبار المثقفين، لكن هذا لايكفي، ولايعفينا من تقديمها وإيضاحها لناشئتنا، لتظل الصورتان المتقابلتان ماثلتين في الأذهان، أو لتظل الصورة الإسلامية على الخصوص حية في نفوس أجيالنا.

المسلمون في إسبانيا - صورة حضارية

أعتمد بالدرجة الأولى على ويل ديورانت في موسوعته المُعمَّمة عالميا «قصة الحضارة»:

يتحدث في فقرة واحدة عن أحوال المسلمين واليهود في المقاطعات التي كانت خاضعة لحكم الكاثوليك الإسبان، فعن المسلمين يقول:

«كان من الأمور السيئة في نظر المسيحيين الإسبان أن يحتل المسلمون غرناطة الخصيبة، وأكثرُ من هذا مضايَقةً لهم أولئك الذين لم يتنصروا، الذين أدت براعتهم في التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعبادا بدائيا..»(1) يريد بذلك تخلفَ الأسبان النصارى بالزراعة إلى حد البدائية، وبراعةَ المسلمين في التجارة والصناعة، وقد أغفل عامدا أن يذكر في هذه الفقرة تقدم المسلمين في الزراعة والريّ بأسلوب علمي. كما أغفل عامدا أن يذكر، في الفقرة ذاتها، روعة الأبنية والقصور القائمة على أجمل التصاميم الهندسية والفنون المعمارية التي ماتزال حتى اليوم شواهد على عبقرية أجدادنا وتقدمهم الحضاري.

من أجل ذلك رأيت أن آخذ لك نصا يكمل تلك الصورة الحضارية التي قدمها ديورانت ناقصة: يأخذ ديورانت هذا النص عن ابن بطوطة، ولكن في فقرة منفصلة وتحت عنوان آخر: «وحولها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعٍ مزهرةٌ وكروم.. واسمها العربي غرناطة..، ومعناها الممتلئ بالحبوب - ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التي تكثر فيما جاورها - ولم يطلق الاسم على المدينة فقط، وإنما على إقليم يضم شريش وجيان والمرية ومالقا وغيرها من المدن.. و نهضت العاصمة على واد رائع، يكافئ العناية بالري والزراعة على أساس علمي بمحصولين في السنة. واتخذت الارستقراطية قصورا رحبة جميلة التصميم، ورطبت نوافيرُ المياه في الميادين العامة سعيرَ الشمس»(2).

فإذا اجتمعت براعة المسلمين في «التجارة والحرف» إلى براعتهم في الري والزراعة والعمران، إلى حد ترطيب الأجواء العامة بنوافير المياه، كانوا بلاريب على سوية رفيعة من التقدم الحضاري، في مقابل سوية متدنية أو «بدائية» كانت عليها أحوال المسيحيين الإسبان.

لقد باعد ديورانت بين النصين، بحيث جعل كلا منهما في فقرة منفصلة، وكان عليه أن يقدمهما في فقرة واحدة، لأن الصورة الحضارية (ذات الطابع المادي) لا تكتمل إلا بالحديث عن التجارة والصناعة (الحرف) والزراعة والعمران معا، ولاشك بأنه تعمد ذلك.

الصورة الإنسانية - الإسلام والحرية الدينية

أما عن اليهود فيقول: «إن المسيحيين اضطهدوا اليهود على مدى ألف سنة، فقد أخضعوهم لقروض مغتصبة، ولمصادرة الأموال

والاغتيال والتعميد الإجباري، وحرضوهم حتى في معابدهم على التنصير، بينما جعل القانون تهود المسيحي جريمة عقوبتها الإعدام» (3) إنها صورة نصرانية مظلمة للتعامل مع الأقوام والشعوب التي تعتنق ديانات أخرى، علما أن ما أوقعه النصارى الإسبان بالمسلمين من الأهوال والكوارث لا يقل كثيرا عما أوقعوه باليهود، وتزداد هذه الصورة قتامة ووحشية حيال اليهود والمسلمين إذا تابعتها لأكثر من ثلاثين صفحة في المرجع المذكور(4).

ومن الدلائل القاطعة على تحيز هذا الكاتب وتجاهله فضلَ المسلمين، وتمويهه الصورة المشرقة لتاريخهم هناك على مدى ثمانية قرون من التعامل الإنساني النبيل مع الشعوب، أنه في كل تلك الرقعة الواسعة من كتابه (34 صفحة) لم يقف إلا على شذرات قليلة جدا من تلك الصورة، حتى لتراها تمر في سياق السرد العادي، خاصة فيما يتعلق بموقف المسلمين من الحرية الدينية، فهو يعرف من دون شك أن الشريعة الإسلامية تكفُل هذه الحرية للذِّمِّيين وأن المسلمين في إسبانيا - كما في غيرها - كانوا يعملون بشريعتهم، وأنت لو دققت في هذه الرقعة أو المساحة لما وجدت فيها حول الحرية الدينية غير العبارة العابرة التالية: «واحتج المسلمون - بعد سقوط غرناطة وضغْط المسيحيين عليهم للتنصر - بأن أسلافهم عندما حكموا معظم إسبانيا قد سمحوا بالحرية الدينية للمسيحيين الذين كانوا تحت سلطانهم، لكن الملك والملكة (فرديناند وإيزابيلا) لم يتأثرا بهذا الاحتجاج»(5) أجل، كل ذلك التاريخ الناصع من التسامح الديني الإسلامي مع النصارى واليهود ما كان ليساوي عند ويل ديورانت غير هذه العبارة العابرة، وهي عابرة لأنه قدمها بصيغة «احتج المسلمون» لا بصيغة احتجاجه هو، أو بصيغة موقف يتبناه إنصافًا ودفاعًا عن العدل والحق، فضلا عن أنه أرجأها عامدًا إلى الصفحة ما قبل الأخيرة من الرقعة أو الفصل المذكور، ومن المعلوم أن من أوليات المنهج العلمي أن يقدم الكاتب الأمين معلوماته، في متقابلين يدرسهما، على طريقة المنهج المقارن، لا على طريقة الإغفال والتجاهل والفصل والتقليل، فلو عدت إلى النص الثالث (التوثيق 3) لوجدت - في مجال الدين - « التعميد الإجباري، والتحريض على التنصير، وعقوبة الإعدام للمسيحي الذي يتهود».

لقد كان على ديورانت أن يقدم الصورة الإسلامية المشرقة في مقابل هذه الصورة الكاثوليكية المظلمة، لأنه يدرس في الفقرة ذاتها من المرجع المذكور أوضاع المسلمين واليهود معا الواقعين تحت الحكم النصراني الإسباني الجائر. إنه التحيز والتدليس والبعد عن الموضوعية .

ولكن دعونا نكمل الصورة الإسلامية المشرقة في مجال الحرية الدينية وغيرها، الأمر الذي أغفله أو أنقصه ديورانت، مثلما أكملنا من قبل الصورة الحضارية: «على إثر الفتح الإسلامي - في إسبانيا والبرتغال - عاشت الجالية اليهودية في ظل الإسلام في حرية وأمن ورخاء في ظل النظم الإسلامية الخاصة بأهل الذمة... وهم بعد ذلك أحرار في ممتلكاتهم وعبادتهم ومواريثهم وثقافتهم ولغتهم، ووصل الأمر في الأندلس إلى أنه كان يسمح لغير المسلمين بحضور الدروس في الجوامع، باستثناء دروس القرآن الكريم»(6)إنها الصورة الإسلامية المشرقة للتعامل مع الأقوام والأديان الأخرى، وهي خالدة لكل زمان ومكان، لأنها نابعة من العقيدة الإسلامية السمحاء، ويكفيك، أو يكفيهم، برهانا على دوامها وخلودها ما تلقاه الديانات الأخرى من حسن المعاملة في المجتمعات الإسلامية، حتى وإن كان تابعوها من غير العرب (كان الشاعر الأخطل يدخل على معاوية ويزيد وعبدالملك والصليب يتدلى على صدره).

وما كان منهج الموازنة ليغيب عن ذهن مفكر أمين موضوعي مثل رجاء جارودي، إليكم مايقوله، مع أنه كان يتناول شأنا آخر: «لما طرد الملوكُ المتعصبون الكاثوليك اليهودَ، بعد انقضاء العهد الذهبي للتعايش الإسلامي اليهودي، فرضوا عليهم التنصر أو الاضطهاد.»(7).

ففي هذا النص الموجز تجد الصورتين اللتين نتتبعهما بكل جلاء، الصورة الإسلامية المشرقة لتعامل المسلمين - وهم في عز مجدهم وقوتهم - مع اليهود والنصارى (حتى إنهم كانوا يسمحون لهم بدخول المساجد لينهلوا من العلوم المختلفة، فضلا عن ضمان حريتهم الدينية وممارستهم طقوسهم وشعائرهم، وضمانة حقوقهم المادية، مما جعل جارودي يصف الحقبة الإسلامية بالعهد الذهبي لتعايش الذميين مع المسلمين) والصورة النصرانية المظلمة، حتى إن الإسبان كانوا يستعبدون اليهود، ويشتمون معتقدهم على منابرهم ومنابر اليهود، ويُكرهونهم على التنصر، وإلا تعرضوا للطرد والإذلال والحرق أحياءً وأمواتًا، وللإسبان تاريخ حافل بذلك مع اليهود والمسلمين، وإن كانت صورته مع اليهود أكثر بشاعة.

وصل بعض اليهود المستنصرين بدافع الخوف أو الطمع إلى مراكز كهنوتية واجتماعية واقتصادية عالية ، ومع ذلك فقد ظلوا موضع شك من الكاثوليك المتزمتين

وكان من الطبعي أن يوجد كثيرون من اليهود الذين يرضون بالتنصر إما بدافع الخوف وإما بدافع الطمع، وقد وصل بعضهم إلى مراكز كهنوتية واجتماعية واقتصادية عالية. ومع ذلك فقد ظلوا موضع شك وانعدام ثقة لدى المتزمتين من الكاثوليك الإسبان، حتى إن هؤلاء حرّضوا الجماهير، وسيّروا المظاهرات الغاضبة ضد اليهود المتنصرين مطالبين بإحراق الزنادقة والهراقطة؛ وقد تنصّر بعض المسلمين تحت ذلك الرعب، لكنهم حافظوا على دينهم سرًا ولم ينتهزوا أو يتسلقوا أو يتزيوا بمُسُوح النصارى كما فعل اليهود: «آثر آلاف من اليهود الإسبان التنصر على الفزع من النهب والقتل، فلما أصبحوا مسيحيين.. استطاعوا أن

المارانوس..
صورتان متناقضتان

يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية.. وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت، وآخرون من مستشاري الملوك.. وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطي، وجعل بعضهم نجاحه عدوانيا واضحا..»(8).

إذن، بالإكراه - لا بالحرية والإقناع والتسامح - صار هؤلاء اليهود نصارى، وظلوا يمارسون بعض طقوسهم اليهودية سرا، مما كان يجر عليهم تهمة الزندقة، ويجرهم إلى الاضطهاد والقتل والحرق.

وما كان المسلمون بمنجاة من هذه الصنوف من التعذيب، وقد استشرت عداوة النصارى لهم بعد سقوط غرناطة وتسليم مفاتيحها في 2 يناير / كانون الثاني 1492م. فتنكروا لروح التسامح والحرية الدينية التي كانوا ينعمون بها هم واليهود في ظل الشريعة الإسلامية.

وثمة أمر قلما يشير إليه حتى الباحثون المسلمون هو التالي:

تعجز الدراسات التاريخية والاجتماعية المقارنة عن تقديم مثال واحد على مدى التاريخ عن أمة تحملت اليهود واستوعبتهم، مثلما تحملهم واستوعبهم المسلمون في كل زمان ومكان بالرغم من أنهم كانوا دائما يغدرون بالإسلام والمسلمين، ففي فجر الإسلام نكلوا مرارًا عن العهود والمواثيق التي قطعوها مع النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كانوا يتآمرون مع المشركين. وفي زمان الحروب الصليبية كانوا عونا للغزاة الأوربيين، مع أنهم كانوا من سكان فلسطين وجوارها «إذ كان اليهود في مستوطناتهم المتناثرة على طريق الصليبيين يبيعون لأولئك الجنود الماء والغذاء بأعلى الأثمان، ويجعلون من تجمعاتهم السكانية بؤرًا للعربدة والفساد والسلب والنهب، بحيث أصبح (الجيتو) - أي حارة اليهود - مكانا سيئ السمعة، ومصدرا للبدع والخرافات والمعتقدات الفاسدة..»(9).

إذن، فهم قد مدّوا الغزاة بالماء والغذاء، وجعلوا من بيوتهم أماكن (للترويح) عن جنودهم.

بقي أن تعلم أن الصليبيين - عند استيلائهم على القدس - أحرقوا اليهود أحياء في معابدهم.

وبقي أن تعلم أن صلاح الدين - بعد تحريره القدس - سمح لليهود الفارين بالعودة إليها. إنهما الصورتان المتناقضتان، وإنه تحمّلُ المسلمين وصبرُهم - وحدهم - على طباع اليهود.

لقد كان حقد الإسبان على المسلمين امتدادًا لحقد الأوربيين على الإسلام منذ بزوغه، فضلاً عن أن حقدهم على اليهود أقدم، لأنهم - حسب معتقدهم - قتلة المسيح، حتى إنهم كانوا يصفون اليهود بأنهم (مارانوس) وهو وصف بذيء ينم عن حقد على اليهود والمسلمين معا، ولّدته حقبة ذهبية - بوصف جارودي - من تعايش (الشعبين) في

المعايير والمقاييس الإسلامية الموحية بخروج الإنسان من الصورة الآدمية إلى الصورة الأدنى هي اقتراف الآثام والموبقات والكبائر وصولاً إلى الشرك

ظل الحكم الإسلامي، وقد كان اليهود يميزون بين أوضاعهم المزرية في المقاطعات النصرانية من إسبانيا والبرتغال. وأوضاعهم في المقاطعات الإسلامية: هناك ظلم وقهر وإذلال وإكراه على التنصر، وهنا حرية في الدين والطقوس والشعائر والعلم والعمل والملك، أما بعد انتهاء الحكم الإسلامي فقد امتد حقد النصارى الإسبان على الجميع وفي كل إسبانيا، فصارت العقوبات ذاتها تصيب اليهود والمسلمين بفظاعتها ووحشيتها على حد سواء، وكان من الطبيعي أن تؤلف الأهوال بين الشعبين على نحو من الأنحاء، فازداد حقد الإسبان عليهما معًا، وراحوا يصفون اليهود بذلك الوصف المقذع (مارانوس) وهم يريدون به دلالة مزدوجة، أي أن يشمل اليهود والمسلمين معا.

وقد وجدتُ الباحثَ الدكتور حسن ظاظا يشك في أن تعني كلمة مارانوس الخنازير على وجه الدقة التي يرتضيها إذ يقول:

«لجأ بعض اليهود السفرد إلى التزوير، فادعوا أنهم تنصروا، وبنوا كنائس ظاهرها كاثوليكي وباطنها يهودي، واشتهروا بين المؤرخين باسم (المارانوس) ولم أعثر على أصل أرتضيه لهذه التسمية، فالصهيونية تزعم أن هذه الكلمة من العامية الإسبانية القديمة ومعناها الخنازير، وإن صح هذا فكيف يصف أبناء هذه الطائفة أنفسهم بأنهم مارانوس؟» (10). ولعل الأستاذ الجليل يقبل الرأي الموثق التالي:

1 - الواقع أن اليهود لم يطلقوا على أنفسهم وصف المارانوس، أو ليسوا هم الذين أطلقوه على أنفسهم، وإنما أطلقه عليهم النصارى الإسبان، يقول ديورانت:

«ووصم الكاثوليك الغضابُ هؤلاء المتنصرين بهذا الاسمَ الفظيع، مارانوس»(11).

2 - يقدم ديورانت المعنى الحرفي لكلمة مارانوس وهو«حلوف العرب المورسكو»(12).

3 - قد تكون الكلمة من العامية الإسبانية، ومثلها كثير في المفردات العامية عند الشعوب، إذ لكل أمة، وأحيانا لكل فئة ولكل إقليم، ثروةٌ أو قاموس من الكلمات الدارجة غيرِ المدونة في معاجمها الفصيحة، وهذا لايمنع، بل يؤكد - أن الإسبان «الغضاب» كان يستخدمون كلمة مارانوس بمعنى خنازير، أو بمعنى: حلوف العرب المورسكو حتى جعلوها مصطلحا.

4 - من المؤكد أن كاتبًا مثل ديورانت لايترك مذمة بهذه (الفظاعة) - كما وصفها هو - من دون تحقيق وتدقيق، وهو يعرف أن ظاهرها اليهود وباطنها المسلمون بالدرجة الأولى، فما صار اليهود خنازير عند الإسبان إلا لأنهم تلاقوا والمسلمين في تلك الأهوال، وربما ضدها في بعض الأحيان.

ذلك هو الرأي الموثق بالنقل عن (ديورانت) أما الرأي بالتحليل فهو التالي:

المارانوس = حلوف العرب المورسكو

1 - تعني كلمة حلوف في اللغة الجزائرية الدارجة الخنزير، ولابد من أن تكون كذلك في المغرب الأقصى (مراكش) وفي المغرب كله، ولهذا التحديد أهمية في كشف «المصطلح».

2 - بالتدقيق في الحروف الأجنبية لكلمة مارانوس (MARRANOS) تجد الحرفين M) (R - مشتركين مع حروف الكلمة مورسكو (MORISCO)وهي - معجميا - «العرب المتدجنون في إسبانيا» أضف إلى ذلك أن الكثيرين منا يلفظون (مراكش) بتشديد الراء، وهذا يساوي تكرار الحرف (R) متابعة في اللفظ الأجنبي لكلمة مارانوس، ومثل هذا التكرار يفيد التشديد أيضا.

3 - من ذلك كله نصل إلى أن الجذر اللغوي نحتت أو اشتقت منه كلمة مارانوس هو مراكش. وقد انتقل الإسبان إلى لفظ مورسكو مباشرة متجاوزين الحروف الأخرى وهي طريقة يقتضيها الاشتقاق العامي والفصيح معا بالحذف حينا وبالزيادة حينا: تذكروا على هذا القياس: دامس - دامسكوس، ألجير ALGER - ألجيريا ALGERIA الأولى العاصمة والثانية الدولة. أرسطو - أرسطوطاليس. من هنا تكون مراكش مروكو، وعرب إسبانيا مورسكو.

4 - أما اختيارهم مراكش نيابة وكناية عن العرب فلأن الفتوح الإسلامية المظفرة في إسبانيا إنما انطلقت من ثغورها (شواطئها) على الخصوص، فهي موضع حقدهم الأول المعتّق.

من هنا رجحت أن النصارى الإسبان أرادوا الإساءة إلى اليهود والمسلمين معًا بهذا الوصف المقذع لا إلى اليهود وحسب، كما يوهم ظاهره.

وعليه، فإن معنى المارانوس هو «حلوف العرب المورسكو» وهو «الخنازير» على وجه الدقة، وقد صاغه الإسبان لليهود والمسلمين صدورًا عن حقدهم واستكبارهم، وخروجهم عن أخلاق السيد المسيح عليه السلام.

المارانوس: وصفٌ صاغهُ الرهبان

ما كنت لأقف عند هذه الإساءة (الفظيعة) لو أنها كانت تصدر عن العامة والدهماء والحمقى من نصارى الإسبان. ولو أن الحقد الغربي على العرب والإسلام قد تجاوزته وتجاوزتها معطيات الوعي والعلم والتواصل والتقارب بين البشر، لقد كان واضعو هذه الإساءة من كبار اللاهوتيين الإسبان، فهم الذين نحتوا شعار «حلوف العرب المورسكو» وعمموه وروّجوه، فكان من اليسير عليهم بعد ذلك، بل ومن المطلوب جماهيريا، أن يشرِّعوا حرق المسلمين واليهود أحياءً وأمواتًا، فيما لم يشرعوا حرق الخنازير، لقد كانوا عتاة المجرمين المتسربلين بأردية الكهنوت المسيحي والمسيح منهم براء.

تعجز الدراسات التاريخية والاجتماعية المقارنة عن تقديم مثال واحد على مدى التاريخ عن أمة تحملت اليهود واستوعبتهم مثلما تحملهم واستوعبهم المسلمون في كل مكان وزمان

لقد أزهقوا أرواح مئات الألوف من البشر على تلك الصورة من الوحشية النادرة من أجل إجبارهم على التنصر، ثم راحوا يلاحقون المتنصرين بتهمة الزندقة، وقد بثوا لهذه المهمة جيوشًا من العيون والجواسيس والوشاة في كل مكان، فضلاً عن المتطوعين من الدهماء الذين كانت تغلي صدورهم بالحقد على المسلمين واليهود.

لم يدرك أولئك الحمقى من اللاهوتيين - أو أنهم كانوا يدركون، ولكنْ يعاندون ويغالطون - أنه: لا إكْرَاهَ في الدِّين. البقرة 256. لم يدركوا، أو أدركوا، أن التنصر بالإكراه لايكون إلا زندقة، ولا أشك في أنهم كانوا يسوقون إليها المسلمين واليهود عن دراية (لتطهير) إسبانيا منهم، على طريقة لاتختلف أساليبها عن أساليب «التطهير العرقي» بل (التطهير الديني) التي يمارسها الحاقدون المعاصرون بحق إخواننا - وأخواتنا - في البوسنة.

لقد كان اللاهوتيون الإسبان الذين سوَّغوا الإساءة، ومن ثم الطردَ والقتل والحرق، على شاكلة الكردينال أكسمينس حامل «إجازات الدكتوراه في كل من القانونين المدني والكنسي» ذلك «القديس العبوس» الذي «لم يكن يبهجه غير الزهد، فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة، ويكثر من الصوم، ويضرب نفسه بالسياط، ويلبس قميصًا من الشعر على جلده»(13) ويبدو أنه كان مكلَّفًا باليهود.

وكان منهم المقامُ اللاهوتي الأرفعُ البابا سكتوس الرابع، الذي أجاز تأسيس محكمة التفتيش في إسبانيا «بتفويضه الملك والملكة باختيار ستة قساوسة من حملة الإجازات العليا في علوم الدين والشريعة ليؤلفوا تلك المحكمة» التي صارت سُبَّةً على التاريخ الإسباني(14) «وأعطيَ القضاة (محكمة التفتيش) سلطة استخدام المعاونين من المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام... وقد وجهت محكمة التفتيش أهوالها إلى المتنصرين الذين يُشك في أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام..»(15).

لاحظوا الصورة النصرانية السوداء (في مجال الحرية الدينية) ودقّقوا في مراتب اللاهوتيين الذين كانوا يرسمونها على تلك الوحشية والفظائع، إنهم من كبار رجال الدين «الفرنسيسكان والدومنيكان» لا من الحمقى ولا من العامة والدهماء، وإن كان مثل تلك الكبائر بحق الإنسان لايرتكبها إلا السفهاء والحمقى وأعداءُ الله خالق الإنسان.

أما عن العامة «فقد كان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك، لأن عليهم أن

المارانوس..
صورتان متناقضتان

ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح.. فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال، الأغنياء منهم والفقراء، أيام الأعياد في الطرقات صامتين في حزن أو مرددين الأناشيد، وأمامهم تماثيل كبيرة تمثل العذراء أو أحد القديسين»(16).

إنهم الغوغاء (يثورون) على الطريقة الوثنية (وراء التماثيل الكبيرة) وما كان ينفخ في صدورهم الحقد العارم على الإسلام والمسلمين إلا رجال دينهم المتحالفون مع السلطة الزمنية.

من هم المارانوس؟
مُصَادَرَةٌ مشفوعة بالقرآن الكريم

أجل، لم يشفع للمسلمين تاريخهم الطويل في معاملتهم النصارى الإسبان معاملة كريمة، إذ وفّروا لهم في مجال الحرية الدينية أن يبنوا الكنائس، وأن يقرعوا فيها أجراسهم، ويقيموا طقوسهم وشعائرهم في الأعراس والأعياد والمآتم، وأن يُجروا ارتباطاتهم الأسرية، من قران وسواه على سَنَنِهم، وأن يتزيا رهبانهم بأرديتهم الكهنوتية، وأن تتدلى على صدورهم صلبانهم، في الوقت الذي كان فيه اليهود في المقاطعات النصرانية يعاقبون على تسمية أبنائهم بأسماء يهودية، كل ذلك لم يشفع للمسلمين من أن يكونوا (مارانوس) في عرف الحاقدين الإسبان.

إن لهم مع اليهود حالا، لجهة أنهم - حسب معتقدهم - قتلة المسيح، ويبدو أن هذه العقدة المزمنة بينهم ستزول، حتى وإن أدى ذلك إلى انهيار المعتقد بكامله، وراح النصارى جميعا - إلا الأموات الذين غادروا الدنيا وهم على خطأ - يشكون بأخبار أناجيلهم، لقد جاءت رواية (الوشاية والصلب والقيام) في الأناجيل «الرسمية» بتفصيلاتها الدقيقة، بل وقد أوردها المؤلفون على لسان المسيح عليه السلام، فإذا تمكنت الصهيونية المعاصرة من هدم هذه العقبة الكأداء - التي قد تعيق السيطرة التامة على الكنيسة - أفلا تكون النصرانية بكاملها قد تهدمت؟ وما الحاجة بعد ذلك إلى أن تتدلى الصلبان على صدورهم؟! إلا إذا اعتبروها تمثل مصلوبا آخر، وصالبين محددين، لكن هذا يحتاج إلى واضع إنجيل جديد.

ومع ذلك فتلك حالهم مع اليهود. ولايهمنا حيالها إلا ما يَرْتَكِس منها على أوضاعنا العربية والإسلامية. ولكن، ما حالُهم وأسبابهم مع المسلمين وهم الذين شادوا الديار، وأعلَوْا المنار، وأحيَوا القفار، ومنحوهم الحرية والأمن والسلام في كل إسبانيا الإسلامية؟!

فبأي معيار أو مقياس ينظر النصارى إلى الناس على أنهم خنازير؟! بمنظار الصالحات أم الطالحات؟! إن الإسلام لينبذ - أساسا - أن يُطلق هذا الوصف على الإنسان، أي أن يُطلق على من هو بالصورة الآدمية: *ولقد كَرَّمْنا بَني آدَمَ*. **الإسراء 70**. أما مايكون بعدها من ثواب أو عقاب فإنَّ من تمام عدله تعالى أن يؤسسها على ما يفعله الإنسان من خير أو شر، وإنَّ من رحمته تعالى أن يجعل الحسنة بعَشْرِ أمثالها، وأن يجعل الحسنات يُذْهِبْنَ السيئاتِ: يقول عز وجل:

من جاء بالحسَنَة فله عَشْرُ أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلّا مثْلَها. **الأنعام 160**. *إنّ الحَسَنات يُذْهِبنَ السَّيِّئَات*. **هود 114**.

لكنه تعالى يعلمنا - في مقابل ذلك - أن من العقاب ما يصل إلى تحويل الإنسان من الصورة البشرية إلى صورة القردة والخنازير، بعد أن تكون آثامُه وكبائرُه مسبِّبة لإخراجه من الصورة الآدمية. *فَقُلْنَا لهم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئينَ*. **البقرة 65**. *وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ*. **المائدة 60**.

هذا وتجدر الملاحظة أن الآية الكريمة الأولى نزلت بحق اليهود، أما الآية الكريمة الثانية فقد نزلت بحق الفاسقين من«أهل الكتاب» عموما. (الذميين).

وعليه، فإذا كانت المعايير والمقاييس الموجبة لخروج الإنسان من الصورة الآدمية إلى الصُّوَر الأدنى هي اقتراف الآثام والموبقات والكبائر وصولاً إلى الشرك، والعياذ بالله، فإن هؤلاء «الغضَاب»، قديما وحديثا ومعاصرة، هم الذين توافرت - وتتوافر - فيهم تلك المعايير والمقاييس، وهذا بعلم الله تعالى، فالمسلم لايقرر شأنا كهذا، لكنه يقيس ويصادر مستَشفِعًا كتابَ الله العظيم وسُنَّةَ النبي الكريم بما مَنَّ الله عليه من ملكات العقل والفؤاد.

وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أنه جاعل الفاسقين من أهل الكتاب قردة وخنازير(الآية الثانية) وسواء أكان الخروج من الصورة الآدمية بالأمر الإلهي «كونوا» أم بالإخبار الإلهي عن جزاءٍ وقع وتم «وجعلنا منهم» سواء أكان ذلك على الحقيقة أم على المجاز فإنه يدل على أقصى أو أشد عقاب إلهي يوقعه الباري عز وجل بالآثمين موازيا موجباته من الكبائر.

وأنت لوتتبعت جرائم النصارى الإسبان بحق المسلمين واليهود لوجدتهم قد قطعوا الصلة بينهم وبين أن يكونوا بشراً. ولوجدتهم - فيما تعلم وتقيس وتصادر - يستحقون ذلك العقاب الأشد، وبالتالي لوجدتهم الأولى بذلك الوصف البذيء الفظيع (مارانوس - خنازير) الذي أطلقوه على اليهود والمسلمين.

ومن الأمانة العلمية أن نذكر أنه كان في مقابل أولئك الجاحدين «الخاسئين الفاسقين» مفكرون ورجالُ دين منصفون اعترفوا للمسلمين بكثير من الفضل في أسبانيا.

ولكلٍّ من هؤلاء - ومنا - لقاءٌ يوم التغابن لا ريب فيه، ولن ينال المرءُ مما سعى في الخير أو الشر إلا صَيْدَه، ولن يناله، أو يكرمه ويعصمه إلا صَيْدُه:

رَبنا إنك جامعُ الناس ليوم لاريبَ فيه، إن اللهَ لايُخلفُ الميعادَ. **آل عمران 9**.

المراجع والهوامش

1 - ويل ديورانت، قصة الحضارة، الجزء 2، مجلد 6، ص 64.
2 - المصدر السابق، ص 66.
3 - المصدر السابق، ص 64.
4 - المصدر السابق، من ص 64 إلى ص 98.
5 - المصدر السابق، ص 97.
6 - د. حسن ظاظا - مجلة الفيصل العدد 199.
7 - رجاء جارودي، الصهيونية السياسية، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، إصدار وزارة الثقافة، سورية 1984، ص 136.
8 - ويل ديورانت، ص 66.
9 - د. حسن ظاظا «الفيصل» العدد 205.
10 - د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد 199.
11 - ويل ديورانت، ص 66.
12 - المصدر السابق.
13 - المصدر السابق، ص 76.
14 - المصدر السابق، ص 78.
15 - المصدر السابق، ص 79.
16 - المصدر السابق، ص 63.

تعاقب الحض

د. شوكت محمد عليان

كانت السمات الحضارية السابقة للإسلام تبرز في الاهتمام بالمطالب المادية للإنسان، والتي غالبًا ما تتمثل في حب الذات، والأنانية المفرطة، والتمايز العنصري المتمثل في الاستعلاء الطبقي، وهذا من شأنه أن يجعل أصحاب هذه الحضارات يعتمدون على القوة المادية وحدها في تفاعلهم مع تلك الحضارات وتفهمهم لها؛ وتأييدًا لما ذكرت، نسترشد بالقرآن الكريم، ومن ذلك. قوله تعالى: *ألم تَرَ كيفَ فعلَ ربُّك بعادٍ إرَمَ ذات العماد التي لم يُخلَقْ مثلها في البلاد وثمودَ الذين جابُوا الصخرَ بالواد وفرعونَ ذي الأوتادِ الذين طَغَوا في البلادِ فأكثرُوا فيها الفسادَ فصبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذاب.* **الفجر**: 6 - 13.

فعاد قبيلة من العرب البائدة، وتلقب بإرم أيضًا نسبة إلى جدها: عاد بن عوض بن إرم، وهم الذين بعث الله فيهم رسول الله هودًا عليه السلام، فكذّبوه فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وقد كانت لهم خيام ذات أعمدة عالية، وهم أهل قوة وبطش، مَنَّ الله تعالى بها عليهم، حيث قال جل شأنه: *واذكُروا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ من بعد قوم نوح وَزَادَكُمْ في الخَلْق بصطةً فاذكُرُوا آلاءَ الله لعلكم تفلحون.* **الأعراف**: 69. فقد كان لهم يد طولى على من سواهم، مغرورين بقوتهم، متجاهلين الحق والعدل والكرامة الإنسانية.

فأمّا عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحقّ وقالُوا مَنْ أشَدُّ منّا قُوَّةً، أوَ لَمْ يَرَوْا أنّ الله الّذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة. **فصلت**: 15.

وأما ثمود فهم قوم صالح عليه السلام، قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتًا، وفرعون صاحب الجند الذين يشدون له أسره، أو صاحب أوتاد يشد بها من يعذبه، أو بمعنى القوة التي تم بها ملكه، ورسخ بطشه وسلطانه.

وهؤلاء جميعًا أفسدوا في البلاد، فألحقوا الضرر بالناس، وهضموا حقوقهم، فأنزل الله بهم عذابه، وأحل بهم نقمته بما طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد. *وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيْبًا فقال يا قومِ اعبُدُوا اللهَ وارجُوا اليومَ الآخر ولا تَعْثَوا في الأرض مُفسدين.* **العنكبوت**: 36. أي بالبغي على أهلها، وقطع الطريق على الناس وظلمهم، وأكل حقوقهم، فقال تعالى: *فكذَّبوهُ فأخذتهم الرَّجْفَةُ فأصبحوا في دَارِهِمْ جاثمينَ.* **العنكبوت**: 37. وهذه هي عقوبتهم بسبب جورهم وإفسادهم، معتمدين على قوتهم وشوكتهم.

وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ولقد جاءَهم مُوسى بالبيِّنات فاستكبَرُوا في الأرض وما كانوا سابقينَ. **العنكبوت**: 39 أي: ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد(1).

قال تعالى: *فكُلاًّ أخذْنا بذنبه* **العنكبوت**:40، أي عاقبناه بتكذيبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، يعني قوم لوط. ومنهم من أخذته الصيحةُ يعني ثمودا وقوم شعيب. ومنهم من خسفنا به الأرض، يعني قارون، ومنهم من أغرقنا، يعني قوم نوح وفرعون. *وما كان الله لِيَظْلِمَهُم فيعذبهم على غير ذنب، ولكن كانوا أنفسهم يظْلِمُونَ.* **العنكبوت**: 40. بالإقامة على المعاصي.

وهكذا كانت نظرة الأقوام السابقة للحضارة الإنسانية على أنها القوة والغلبة والبطش في الأرض.

وأما العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان وتوحيد الله الخالص وعبادته وحده فلم يكن يعرفُ ذلك إلا قلةٌ ممن آمن برسل الله وبَقُوا على إيمانهم.

ولذا قال جل شأنه في حق هؤلاء الطغاة الضالين ما أشرنا إليه في الآية الكريمة السابقة.

ويصوِّر الله تبارك وتعالى الذين يعملون في هذه الحياة الدنيا بمحض قوتهم وإرادتهم وتكتلاتهم دون اعتبار لقدرة الله وإرادته كمثل العنكبوت الذي يتخذ له بيتًا معتمدًا على قوته، يدفع به الحر والبرد، ولكن هذا البيت من أوهن البيوت، أي أضعفها؛ لأنه لا يحتمل مسَّ أدنى الحيوانات، وأضعف الرياح، ولا يدفع شيئًا من الحر والبرد. قال تعالى: *مثلُ الذين اتَّخذُوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذتْ بيتًا وإنَّ أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون.* **العنكبوت**: 41.

والناظر بعين البصيرة يرى أن معظم حضارات العالم لم تقم على أسس أخلاقية ثابتة، بل قامت على أسس نفعية مادية، وما دامت هي كذلك فلا ضير عند أصحابها أن تنتشر في ظلها الفواحش والمنكرات، ويألفها الجميع، فتصبح عرفًا سائدًا في مجتمعاتهم. وعادة مقبولة في نفوسهم كشرب

ـارات

الخمر مثلاً، واعتبار الزنا تكسبًا، والنهب والسلب وأكل أموال الناس بالباطل شجاعة، إلى غير ذلك من الأمور التي أعطتها الأعراف والقوانين صبغة نفعية مادية.

الحضارة في ظل المفهوم الإسلامي

إذا رجعنا إلى المفاهيم العامة للإسلام، وقد أحطنا بمبادئه وتعاليمه، أيقنّا بما لا يدع مجالاً للشك أن للحضارة في الإسلام مفهومًا يتسامى على سائر المفاهيم التي سادت عند الأمم(2).

فهي، في ظل تعاليم الإسلام، أنواع من الخبرة والمعرفة يستخدمها الإنسان في تهذيب الغرائز والسلوك، وتقويم الاستجابة لها، ويستخدمها كذلك في سائر مختلف أنشطة الحياة المادية في سبيل رقي حياته.

ويمكن تلخيص النظرة الإسلامية للحضارة فيما يلي:

أولاً: في مجال تصور الألوهية، نجد انحرافًا كبيرًا في العقيدة لدى كثير من الأمم، يتمثل هذا في الشرك بالله تعالى، والتشبيه والتمثيل ببعض مخلوقاته، كقولهم بنات الله، وتسميتهم الله أبًا، وغير ذلك من أنواع التمثيل والتشبيه.

والإسلام يرفض هذا وذاك، فهو سبحانه: *ليس كمثله شيء*. **الشورى:** 11، *قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد*. سورة **الإخلاص**، وهو ربُّ العالمين وليس أبا العالمين.

ثانيًا: في مجال النظر إلى الكون: يقرر الإسلام أن الله تبارك وتعالى هو خالق الكون وما فيه، وأنه تعالى وحده المتصرف فيه، وأن الجميع يخضع لإرادته ومشيئته، وأن العلم لم يخلق النظريات، أو المادة، ولم ينشئها ابتداءً، وكل ما عمله الإنسان أنه اكتشف هذه النظريات والقوانين العلمية، واستخدمها بحسب أنظمة الله في الكون، فالله تعالى خالق كل شيء، ومالك كل شيء، ومعلّم كل شيء، وواهب كل شيء.

والإنسان مهما بلغت قوته، وعظمت سطوته، ومهما قهر من قوى الطبيعة، وسخرها لمشيئته فهو عبد الله، وقد أنعم الله عليه بكل شيء، فحري به أن يستخدم نعم الله وفق إرادة الله، وطبقًا لمشيئته فهو مُستخلَف في الأرض لعمارتها وعبادته وحده تعالى، وأكد الإسلام عليه ذلك، ونهاه عن السلبية، بأن يتهاون في حياته أو حياة غيره من إنسان، أو حيوان، أو نبات، أو يتهاون في الانتفاع بما سخر الله له في هذا الكون، برًا وبحرًا وجوًا.

قال تعالى: *ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفُلْكَ تجري في البحر بأمره ويُمسكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيم*. **الحج:** 65.

وقال سبحانه: *وآيةٌ لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنهُ يأكلون، وجعلنا فيها جنّات من نخيلٍ وأعنابٍ وفجرنا فيها من العيون، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون، سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تُنبتُ الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون*. **يس:** 33 – 36.

ورغّب الإسلامُ في المحافظة على البيئة، فحرّم الإسراف والتبذير في استعمال المياه.

ونهى عن التبوّل في الماء الراكد.

ونهى عن التبرز في ظلّ الناس وفي الطريق العام.

ونهى عن قطع الأشجار إلا لحاجة ضرورية، وحتى في الحروب، نهى عن تخريب العامر، وقطع الأشجار، كل هذا من قبيل المحافظة على البيئة.

ثالثًا: وفي ظل مجال العلوم، دعا الإسلام الإنسان إلى النظر والتأمل والتفكر والتدبر.

قال تعالى: *قل انظروا ماذا في السموات والأرض*. **يونس:** 101.

ودعوة القرآن الكريم إلى إيقاظ العقل، وحسن النظر، وإعمال الفكر، جاءت في كثير من آيات الله، بل لا تكاد تخلو منها سورة من السور، واستيعاب ذلك مما يضيق به هذا المقام، ونكتفي بالإشارة إلى مثال واحد لذلك.

قال تعالى: *وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونُفضّلُ بعضها على بعضٍ في الأُكُلِ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون*. **الرعد:** 4. فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنية كل منها عن الأخرى على تجاورها، وعلى أنها تسقى من ماء واحد فتجد بعضها ينبت الزرع، وبعضها لا ينبته، وبعضها يصلح لأنواع معينة من الزروع دون غيرها.

وقال تعالى في سياق مخاطبته العقل البشري: *قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكّرون، قل من ربُّ السموات السّبع وربُّ العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوتُ كلّ شيء وهو يُجير ولا يُجارُ عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنّى تُسحرون*. **المؤمنون:** 84– 89. فإذا

معظم حضارات العالم لم تقم على أسس أخلاقية ثابتة، بل قامت على أسس نفعية مادية، فانتشرت في ظلها الفواحش والمنكرات

سلم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه، وهو مالكها والمتصرف فيها؛ وإذا سلّم بأن السموات السبع هي لله، هو منشئها، وهو ربها، ورب العرش العظيم، وإذا سلّم بأن ملكوت كل شيء لله هو المدبر فيه وحده، وهو الذي يجير بقوته ولا يجار عليه.

إذا سلّم الإنسان بكل هذا فقد لزمه أن يسلم بالنتيجة التي تؤدي إليها هذه المقدمات، وهي أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولذا وقع التكرار بعد كل مقدمة من المقدمات: (أفلا تذكّرون) (أفلا تتقون) (فأنّى تُسحرون) وقد عاب القرآن الكريم الذين يهملون العقل ويعطلونه عن إدراك العلوم والمعارف، ويكتفون بتقليد الآباء، أو يتبعون الأهواء والملل والنحل.

قال جل شأنه: *وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل اللهُ قالوا بل نتّبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون*. **البقرة:** 170.

فيتبعون الطريق الذي كان عليه آباؤهم



ويأتمون بهم في أفعالهم، ولا يتعقلون فيتدبروا ويهتدوا لرشد يهتدي بهم غيرهم، ويقتدي بهم من طلب الدين، وأراد الحق والصواب.

فإذا روعيت هذه المعاني النبيلة في مجتمع ما، وكانت أمور الحياة قائمة فيهم على العدل والمساواة والإيثار والصحبة والرأفة والرحمة، ورعاية العجزة والضعفاء، فقد صار هذا المجتمع متحضراً بأخلاقه وقيمه ونظرته المتأملة لما يجرى في هذا الكون.

وكلما كان الإنسان أكثر تحرراً من نزعته الفردية الأنانية، مراعيًا حق الجماعة والمصلحة العامة كان أكثر تحضراً وتقدمًا، ذلك أن حضارة البشر لا تقاس بالتقدم المادي (الصناعي - العلمي) إلا بقدر ما يخدم هذا العلم وهذه الصناعة الإنسانية.

الحضارة في ظل تعاليم الإسلام، أنواع من الخبرة والمعرفة يستخدمها الإنسان في تهذيب الغرائز والسلوك وفي ترقية حياته

وعليه فإذا كانت هذه أو هذا العلم من شأنه أن يهدم البشرية، أو يلحق أضراراً بها، فإنه ليس من الحضارة في شيء، وإنما هو عامل إفساد ودمار.

وإذا قيل: إن تقدم الصناعة يعني تقدم العلم، والعلم جانب عظيم من جوانب الحضارة إن لم نقل أساسها.

قلنا: نعم: لكنه إذا أُسيء استعمال هذا العلم، وهذه الصناعة، فلن يكون الذين أساؤوا الاستعمال من أصحاب الحضارة.

«إن الإنسان قد يصنع الحضارة، ولكنه نفسه قد يكون غير حضاري، أو غير متحضر، قد ينتج بطاقته الفكرية على الأخص ما يسهم في بناء جانب الحضارة الفكرية الفلسفية، أو العلمية والقانونية، ولكن طاقته الأخرى الوجدانية أو السلوكية العملية ليست من التهيؤ والنضج بحيث تجعل منه متحضراً بالإضافة إلى ما له من إسهام في الحضارة الفكرية»(4).

يقول الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني(5): إن الذي يميز الحضارة الإسلامية، أن العرب يوم آمنوا بالإسلام عقيدة وشريعة ونظامَ حياة، طبَّقوه في حياتهم، وحملوا رسالته إلى غيرهم واقعًا وسلوكًا ودعوة، في صورتها الإيمانية والعملية، فكانوا بناة حضارة إنسانية، وكانوا حضاريين؛ لأن سلوكهم العملي كان سلوكًا إنسانيًا، حملوا مبادئ الحق والعدل والمساواة، وطبقوه بأمانة مع الصديق والعدو، والغنيّ والفقير، والقويّ والضعيف، وكانت مؤسساتهم مدارس لأخلاقهم وقيمهم ومبادئ دينهم، وكانوا حضاريين في إقامة المجتمع على أسس من الأخوَّة والمحبة والرحمة والإيثار، والبعد عن الأنانية والفردية والاستغلال، والتحكم لمصلحة طبقة على طبقة، أو مذهب على مذهب.

ويُعدّ الرسول صلى الله عليه وسلم وما صدر عنه من أقوال وأفعال قمة الحضارة الإنسانية، فهو حين هاجر إلى المدينة كان أول عمل قام به بناء المسجد الذي يجتمع فيه الناس لعبادة الله وحده وتطهيراً لنفوسهم، وتهذيبًا لها، وشكرًا للمنعم على ما تفضل به عليهم من نعم، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار تحقيقًا للأمان، واستقرار النفوس، ثم أمر ببناء سوق للمسلمين بعيداً عن سوق اليهود الذي يتعامل بالبيوعات الممنوعة شرعًا، وحرر الوثيقة المعروفة التي تبين علاقة المسلمين بغيرهم، ووزّع الأرض على المسلمين، فقد مكن ذوي اليسار من إحياء الأرض الميتة، وملّكها لهم بإحيائهم لها، ودعا إلى البناء والإعمار، وإصلاح الطرقات، وحفر آبار المياه وغير ذلك من متطلبات الحياة، حتى إنه عليه الصلاة والسلام جعل الناس جميعًا شركاء في الماء والكلأ والنار، وهذا ما يدل على عمومية الحضارة الإسلامية وشموليتها، وأنها تستهدف إسعاد الناس بإقامة الحق والعدل والمساواة، ورعاية الضعفاء، ونصرة المظلومين، وكبح جماح الظالمين والبغاة والمفسدين، والمتسلطين على رقاب الناس والمستبدين من حكّام ومحكومين، لإقامة مجتمع فاضل تسوده شريعة الله الخالدة، عقيدة وسلوكًا ومنهجًا.

ومن هنا يصبح الجهاد في الإسلام صراعًا حضاريًا بكل المفاهيم فالله تعالى يقول: *ولولا دَفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرضُ ولكنّ اللهَ ذو فضل على العالمين*. **البقرة: 251.**

وقال سبحانه: *بل نَقذفُ بالحق على الباطل فيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ ولكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ* **الأنبياء: 18.**

وقال جلّ شأنه: *كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأما الزَّبدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ*. **الرعد: 17.**

وهكذا تتصارع الحضارات، ولكلٍّ منها أنصارها إن حقًا فحق، وإنْ باطلاً فباطلٌ، ذلك أن العلم وحده لا ينفع دون عاصم من خلق، والقوانين واللوائح والأنظمة لا تصلح دون وازع الضمير، لذا كانت حضارة الإسلام يغلب عليها الطابع الأخلاقي الذي يلاحظ في تربية الفرد، وفي تكوين الأسرة، وبناء المجتمع، كما يلاحظ في إقامة الدولة، وعلاقتها بالأفراد والدول في السلم والحرب، وتنظيم شؤون الناس في مجالات الحياة.

إن الخلق الكريم هو الضمان الوحيد لكل مجتمع من الانحراف، ولكل دولة من الظلم، ولكل حضارة من الفساد.

هذا هو سبيل تكوين الأمم وإنشاء الحضارات، فإذا ما أردنا لحضارة الإسلام الثبات والدوام، فلنبدأ بمجاهدة النفس صيانةً لها، وحفاظًا على فطرتها، فتغيير النفوس هو الانقلاب الكبير، والإصلاح الشامل لكل مجتمع وأمة، وإن القوانين والعقوبات وحدها لا تكفي مهما كانت رادعة قاسية، ومن ثم كان ميدان جهاد النفس والضمير الوسيلة الأولى للارتقاء بالإنسان إلى أسمى درجات الكمال.

الهوامش والمراجع

(1) زاد المسير في علم التفسير في 6 ص 272.

(2) وللمزيد، انظر الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع ص 98 وما بعدها لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن سعد اللحيدان، فقد أوفى الموضوع حقه حول جملة المفاهيم، فأفاد وأجاد.

(3) سورة القصص من الآية 30 وقد تكررت في كثير من آيات القرآن الكريم.

(4) الدين والحضارة الإنسانية، ص 68 للدكتور محمد البهي.

(5) موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة، ص 112 بحث مشارك في ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المنعقد بالبحرين في شهر شباط/فبراير 1985م.

دلائل التخلف

ومشكلات التنمية في الدول الأقل نموًا

د. خلاف خلف الشاذلي



ظهر اصطلاح التخلف والدول المتخلفة في أعقاب الحرب العالمية الثانية للتعبير عن واقع قديم كانت تعاني منه الدول التي وقعت تحت سيطرة الاستعمار، وأخذت تتطلع إلى حياة أفضل في شتى مناحي الحياة، بعد حصولها على الاستقلال السياسي.

ويكاد المهتمون بدراسات التنمية على اختلاف توجهاتهم النظرية يتفقون على أن مفهوم التخلف يعد من أكثر المفاهيم تعقيدًا، بل من أكثر المفاهيم التي تخضع للأحكام القيمية في علم الاجتماع... ذلك أن ما قد يعدّه البعض تقدمًا بالنسبة لمجتمع ما قد لايكون كذلك بالنسبة لمجتمع آخر، فلايوجد هناك تخلف مطلق أو تقدم مطلق، بل يصعب وضع خط فاصل بينهما، وبالتالي فإن الدول تتفاوت فيما بينها في درجة التخلف والتقدم.

ومن ثم يمكن القول بأن التخلف ظاهرة مركبة تنفذ إلى المجتمع، وتتعدد جوانبها ومظاهرها، وتتفاعل في وجودها مجموعة من العوامل المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية... التي لا يختلف تأثيرها من مجتمع لآخر، بل ومن فترة تاريخية إلى أخرى داخل المجتمع نفسه، ولا يزال مفهوم التخلف والدول المتخلفة مثار جدل

ونقاش بين المهتمين بقضايا التنمية، حيث تتسم مثل تلك المفاهيم بالنسبية والقيمية إلى درجة كبيرة، فضلا عن أنها تنطوي على كثير من المضامين الفكرية (الأيديولوجية).

مظاهر التخلف

يُعرَّف التخلف أحيانا بأنه عدم قدرة المجتمع على مقابلة الحاجات الأساسية لأفراده، ويُعنى بذلك حالة الفقر المطلق -ABSOLUTE POVERTY، أو إحساس الغالبية من أفراد المجتمع بالحرمان. كما يعرفه البعض بأنه عدم الاستغلال الأمثل للمتاح من الموارد، ويطلق اصطلاح التخلف على الدول التي كانت ولاتزال مُستَغَلَّة أو تابعة ذات اقتصاد مشوه(1)، بينما يذهب فريق ثالث إلى تحديد مفهوم التخلف في ضوء عدد من الدلائل الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، ويعد مقدار الدخل من أهم تلك الدلائل.

ويشير الكتاب السنوي للأمم المتحدة لعام 1978م إلى ثلاثة عشر مظهراً من مظاهر التخلف هي(2):

- انخفاض متوسط الإنتاجية الذي ينتج عن انخفاض متوسط دخل الفرد.
- بُطء نمو الدخل القومي.
- سوء توزيع الدخل القومي.
- اشتغال الغالبية العظمى من أفراد المجتمع في الأنشطة الاقتصادية الأولية.
- سوء نظام ملكية الأراضي الزراعية.
- انخفاض مستوى الغلات أو الإنتاجية الزراعية.
- محدودية استخدام رأس المال في الإنتاج.
- سوء الظروف الصحية.
- انخفاض مستوى التعليم الرسمي.
- انخفاض إنتاجيةالعمل.
- ارتفاع تكلفة الإنتاج.
- عدم التناسب الحاد بين عوامل الإنتاج المختلفة.
- الافتقار إلى المبادأة والخبرة العملية، والاضطرار للتبعية للدول الأكثر نمواً..

ورغم أن الاعتماد على الدلائل المختلفة للوقوف على مفهوم التخلف يشوبه كثير من الغموض والبعد عن الأسباب الجوهرية للتخلف، ويصعب وضع خط فاصل بين التقدم والتخلف، بل إن مجرد القول بوجود دولة متخلفة في مقابل الدول المتقدمة يعني ببساطة أن الفروق بين هذه الدول سوف تظل قائمةً باستمرار، ويؤكد حتمية التخلف.. بل يعني أيضا أن خروج هذه الدول من دائرة التخلف المفرغة لن يتم إلا على حساب الدول المتقدمة، كأن تقتطع هذه الأخيرة من تقدمها للدول النامية، أو أنها تقف دون تحرك بعض الوقت لتتمكن الدول المتخلفة من اللحاق بها، وهو أمر مستبعد إن لم يكن غير ممكن.

وقد تحدد المجال الجغرافي للتخلف في دول إفريقيا وآسيا (باستثناء اليابان وما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي إلى وقت قريب) ودول أمريكا اللاتينية، ويشكل سكان تلك الدول 3,1 بليون نسمة بنسبة 73٪ من إجمالي سكان العالم عام 1978م، وذلك في ضوء الدلائل الاقتصادية واستنادا إلى مقدار الدخل الذي عدّ الدول التي يقل فيها متوسط دخل الفرد عن 800 دولار متخلفة. كان هناك ما يقرب من 81 دولة متخلفة في العالم يقطنها حوالي 2,6 بليون نسمة يمثلون 61٪ من سكان العالم عام 1978م (3)؛ ورغم ما يشوب دليل الدخل من أوجه قصور في تحديد مفهوم التخلف والدول المتخلفة، فإن هناك ما يقرب من 2,5 إلى 3 بليون نسمة في العالم يعيشون اليوم في دول يتم تصنيفها بشكل أو بآخر على أنها مناطق متخلفة، حيث يوجد هناك ما يقرب من ثلثي سكان العالم أو ثلاثة أرباعه يعيشون في حالة فقر (4)، حيث تنخفض مستويات المعيشة إلى أدنى حد لها.. ولاشك أن هناك علاقة وطيدة بين الفقر والتخلف، بل إن الدول المتخلفة تعد دولاً فقيرة بالدرجة الأولى.

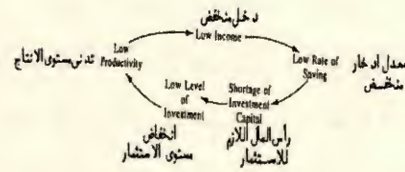
وتتعدد دلائل تحديد التخلف، بتعدد جوانب البناء الاجتماعي(5)بل تتضمن أخذ العديد من العوامل الأخرى في الاعتبار مثل المناخ وطبوغرافية المنطقة (أي طبيعتها الجغرافية وملامحها طبيعية كانت أو مصنوعة) ومواردها الطبيعية ومستوى التقنية (التكنولوجيا)، ومعدلات النمو السكاني، ومختلف خصائص السكان مثل مستوى التعليم والمهارات المهنية، وكذا درجة التحضر ومستوى التصنيع والتنمية السياسية ومستوى الحياة بعامة.

خصائص المناطق المتخلفة

وفي ضوء تعقد ظاهرة التخلف كان من الطبيعي أن تتعدد المظاهر التي يتم على أساسها تحديد مستوى التخلف أو التقدم في مجتمع من المجتمعات، وقد حظي الوجه الاقتصادي بالاهتمام الأكبر بين تلك الدلائل، وذلك في إطار خطة (استراتيجية) النمو الاقتصادي التي سيطرت على سياسات التنمية في عقدها الأول، في حين أهملت المظاهر الاجتماعية، ولما كان مفهوم التنمية لايعني مجرد النمو الاقتصادي، فإن مشكلة التخلف لايمكن تحديدها بالاعتماد على الدلائل الاقتصادية وحسب، بل إن هناك متغيرات أخرى اجتماعية وتاريخية يجب أخذها في الحسبان عند تفسير التخلف. ويُكتفى هنا بالإشارة إلى ثلاثة عناصر أساسية تتفاعل فيما بينها لتؤدي إلى حدوث التخلف وتعكس مظاهره في الوقت نفسه، وهي العوامل الاقتصادية، والسكانية (الديموجرافية) والسوسيو ثقافية (أي الأبعاد الاجتماعية وإدراك نتائجها).

الخصائص الاقتصادية

لاشك أن العامل الاقتصادي يشكل حجر الزاوية في تحقيق التنمية، ومن ثم فإن انخفاض مستويات الدخول في الدول المتخلفة يمكن أن يشكل معوقًا أساسيًا أمام تحقيق التنمية في هذه الدول.. والدول المتخلفة في معظم الأحيان هي دول فقيرة في الأساس، لأنها لم تحقق تنمية، وهي لم تحقق تنمية لأنها فقيرة.. ويعني ذلك أن الفقر يكون هو السمة الغالبة والأساسية للتخلف.. ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يسمى بدائرة الفقر المفرغة THE VICIAUSE CRICLE OF POVERTY المبينة في الشكل التالي(6)



وفي ضوء الدلائل الاقتصادية، تكشف الإحصاءات أن هناك تباينًا واضحًا بين الدول الأكثر نموًا، موازنة بالدول الأقل نموًا، حيث تنخفض متوسطات الدخول في الدول النامية بشكل واضح مقيسة بالدول الأكثر نموًا، والمثال على ذلك أنه بينما حدث هناك نمو في متوسط دخل الفرد في أمريكا بلغ متوسطه 2٪ سنويا خلال الفترة من 1955 إلى 1980وزاد متوسط دخل الفرد عام 1955من 7,030 دولارًا أمريكيًا ليصل إلى 11,560دولاراً (1980)، نجد أن متوسط دخل الفرد في دولة مثل الهند بلغ 1,7٪ سنويا خلال الفترة نفسها ولكن بزيادة من 70دولارًا إلى 260 دولارًا فقط، لتتضاعف بذلك الفجوة بين متوسط دخل الفرد في البلدين أربعًا وأربعين مرة بحلول عام 1980. وبحلول عام 1980؛ كان هناك ما يقرب من 79٪ من إجمالي الإنتاج العالمي تحتكره الدول الأكثر نموًا، حيث يعيش حوالي 25٪ فقط من سكان العالم، بينما كان يقتسم 21٪ منها 75٪ من سكان العالم، يقتصر 47٪ منهم على المشاركة في 5٪ فقط يمثلون الدول المنخفضة الدخل مثل بنجلادش،

دلائل التخلف

ومشكلات التنمية في الدول الأقل نموًا

والصين والهند والباكستان ومعظم دول إفريقيا الاستوائية (7).

ورغم أن هذاه الأرقام تكون مضللة في بعض الأحيان حيث تغفل متغير الأسعار، ومستوى الخدمات، فإن المقولة التي تظل صادقة هي أن كثيرا من مخرجات التنمية يتم إنتاجها واستهلاكها من جانب حفنة قليلة من سكان العالم.

ويؤدي انخفاض إجمالي الناتج القومي G N P ومتوسط الدخول في الدول النامية إلى انخفاض القدرة الادخارية، وبالتالي نقص رأس المال اللازم للاستثمار الذي يؤدي بدوره إلى تدني مستوى الإنتاج في هذه الدول، الذي يتبعه انخفاض في متوسطات الدخول.. وهكذا دواليك.. وعمومًا، فإن الحالة الاقتصادية، وما يرتبط بها من مستويات المعيشة، أيًا كانت طريقة قياسها، فهي تعد منخفضة في الدول الأقل نموًا بشكل حاد، بل إن التباين الاقتصادي بين الدول يرتبط إلى حد كبير بمعدل المدخرات في كل منها، حيث ترتبط التنمية الاقتصادية بحجم المدخرات في كل دولة؛ فقد صاحب النهضة في اليابان ارتفاع ملحوظ في معدلات الادخار. كما يتأثر حجم المدخرات بشكل مباشر بمتوسط دخل الفرد من ناحية والمعايير الثقافية السائدة من ناحية أخرى(8).

ومن ثم تتضمن الخصائص الاقتصادية ثلاثة عناصر أساسية هي:

مستوى الدخل والادخار، ومستوى التنمية الصناعية، إلى جانب مستوى الموارد البشرية.. ورغم أن الموارد الاقتصادية تكاد تشكل المعوق الرئيسي أمام تحقيق التنمية في الدول النامية فإنها ترتبط بثلاثة أبعاد يجب أخذها في الحسبان وهي:

مدى إتاحة الموارد الاقتصادية وتوافرها.

طريقة استغلال الموارد المتاحة واستثمارها.

الجوانب البيئية والأبعاد السوسيوثقافية التي تؤثر في توافر الموارد الاقتصادية وكيفية استغلالها (9).

وتواجه معظم الدول النامية نقصًا في عنصر أو أكثر من عناصر الإنتاج الرئيسة وهي الأرض LAND والعمل LABOR ورأس المال CAPI-TAL. فالأرض المتاحة في معظمها تقع في أعالي الجبال أو الصحراء القاحلة أو تلك الغابات الموحشة، كما أن السكان الذين يمثلون قوة العمل يعانون من سوء الغذاء، أو الجوع في بعض الأحيان، وتدني المستوى الصحي.. وغيرها من مشكلات تؤثر بلا شك في مستوى إنتاجية الفرد.. أما نقص رأس المال فيبدو واضحًا من خلال ما تعانيه كثير من المؤسسات الخدمية من قصور في هذه الدول، حيث تتوحّل الطرق عند سقوط الأمطار، وتعاني مرافق التعليم من نقص في كثير من متطلبات العملية التعليمية وغيرها من المرافق الأخرى (10).

الخصائص السوسيوثقافية

وربما يكون السؤال الأهم هنا ليس هو: ما الموارد الاقتصادية المتاحة؟ ولكن كيف تستغل تلك الموارد؟ فقد توجد هناك مساحات شاسعة صالحة للزراعة، ولكن ما هي المساحات - المستغلة بالفعل؟ وما هي المحاصيل التي تتم زراعتها؟ هل تستغل لزراعة محاصيل نقدية CASH CROPS تساعد على توفير رأس المال اللازم للتنمية، كما هو الحال بالنسبة - لمعظم الدول المتقدمة، أم إنها توجه لزراعة محاصيل تقليدية بغرض الاستهلاك المحلي، وقد تكون هناك وفرة في القوى العاملة LABOR FORCE ولكنها غير مستغلة حيث تنتشر البطالة، والبطالة المقنعة سواء في قطاع الزراعة أو الصناعة والخدمات.. وكلها استخدامات غير فعالة لعناصر الإنتاج الرئيسية.

كما أن جانبًا أساسيًا مما تعانيه معظم الدول الأقل نموًا من مشكلات اقتصادية، يكمن في النسق السوسيوثقافي SOCIO - CULTURAL SYSTEMS الذي يؤدي دورًا حيويا في تحديد توافر الموارد أو كيفية توظيفها لصالح التنمية، فالأبقار على سبيل المثال لاتمثل موردا حيويًا من الموارد الاقتصادية في الهند، حيث يعدونها مقدسة، ك كما أن النظام الاجتماعي الجامد في بعض المجتمعات كنظام الطبقة المغلقة SOCIAL CASTE الذي لايزال موجودًا في الهند وشيوع العادات والتقاليد التي تحد من مشاركة المرأة في أنشطة المجتمع التنموية التي تناسب طبيعتها، كلها تقلل من الاستخدام الفعال للقوى البشرية HU-MAN RESOURCES أو عنصر العمل اللازم لعملية التنمية، كما أن هناك المعتقدات الدينية التي تشجع على إنفاق الأموال الطائلة في بعض المناسبات الدينية والاجتماعية كالزواج أو الوفاة.. التي من شأنها أن تؤدي إلى استخدامات غير منتجة لرؤوس الأموال المتاحة.

ومن ثم يرى بعضهم أن المشكلة الأساسية التي تواجه معظم المجتمعات النامية تكمن في أنها مجتمعات تقليدية تتميز بشيوع أبنية اجتماعية جامدة تفرز أنماطا من الشخصية ينقصها الكثير من المقومات اللازمة لتحقيق النمو الاقتصادي، ويكون التخلف بذلك في أحد جوانبه انعكاسًا لتلك الخصائص الاجتماعية والثقافية المميزة لما يسمى بالمناطق المتخلفة.

الخصائص السكانية (الديموجرافية)

يمكن تصنيف معدل النمو السكاني العالمي في فئتين، الفئة الأولى وتمثل نموًا سكانيا سريعًا وتشتمل على دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، التي تتمتع بمعدلات نمو سنوية تتراوح بين 2٪ و 4,5٪، والفئة الثانية تتميز بنمو سكاني بطيء وتشتمل على الدول الصناعية المتقدمة بوجه خاص ولا يصل معدل النمو السكاني فيها إلى 1٪ سنويا(11).

وبالنظر إلى الدول الأقل نموًا أو المتخلفة على طريق التنمية نجد أن سكان هذه الدول يتميزون بمعدلات سريعة في النمو السكاني السنوي، حيث بلغ النمو السكاني في هذه الدول ثلاثة أضعاف مثيله في الدول الأكثر نموًا أو المتقدمة خلال فترة السبعينيات كما يتضح ذلك من الجدول (1):

جدول (1)

معدلات النمو السكاني السنوية للمناطق الرئيسية من العالم 1974م (12).

المنطقة	العالم	مناطق أكثر نموا	أوربا	أمريكا الشمالية	جزر أستراليا	مناطق أقل نموا	إفريقيا	آسيا	أمريكا اللاتينية
معدل النمو السكاني	٪1,7	٪0,8	٪0,7	٪0,9	٪1,7	٪2,1	٪2,4	٪1,9	٪2,6
	٪1,6				٪1,6	٪2,3	٪2,9	٪2,1	٪2,9

وتشير الإسقاطات السكانية إلى أن الزيادة السكانية في هذه الدول سوف تستمر، تبعا لارتفاع معدل الخصوبة من ناحية، وانخفاض معدل الوفيات من ناحية أخرى خلال العقود الثلاثة الماضية، والتي تعني وجود عدد كبير من

النساء يشكلن نسبة كبيرة في هذه الدول، في سن الخصوبة الآن، ومن ثم فإنه حتى إذا انخفض عدد المواليد بالنسبة للمرأة فإن معدل المواليد يظل مرتفعًا وبصورة أكبر مما كان عليه من قبل.

ورغم انخفاض الخصوبة حديثا في بعض دول آسيا وأمريكا اللاتينية فإن معدلات المواليد لاتزال مرتفعة، كما أن متوسط الزيادة في حجم السكان يكون أكبر مما كان عليه سنة 1965؛ فمن المتوقع مثلاً أن تنخفض الخصوبة في دولة مثل البرازيل من 5,8٪ عام 1965م إلى 4٪ عام 1980م لتصل إلى 2,1٪ عام 2025، ورغم ذلك فإن إجمالي المواليد في هذه الدولة يرتفع 2,9 مليون سنويا سنة 1950 إلى 3,7 مليون عام 1980م ليصل إلى 3,9 مليون سنويا عام 2025م (13).

وتشير الإسقاطات السكانية أيضا إلى أنه بينما ينمو سكان الدول المتقدمة من 1,2 بليون نسمة ليصلوا إلى 1,4بليون نسمة فقط سنة 2025، فإن سكان ما يسمى بالدول الأقل نموًا أو المتخلفة، سيحققون نموا من 3,6 بليون نسمة ليصلوا إلى 8,4 بليون نسمة خلال الفترة نفسها، وبوصول سكان العالم إلى حالة من الاستقرار يكون عدد سكان دولة مثل الهند قد بلغ 1,7بليون نسمة، ودولة مثل بنجلادش، لا يتعدى حجمها ولاية وسكونسن WISCONSIN بأمريكا سوف يصل عدد سكانها إلى 450 مليون نسمة، وهناك دول مثل نيجيريا وأثيوبيا، وزائير وكينيا، من بين الدول الأكثر سكانًا في إفريقيا، ومن المتوقع أن يصل عدد سكانها إلى 620مليون، 230 مليون، 170مليون، 150مليون نسمة على التوالي عام 2050، كما أن مجموعة دول الصحراء في إفريقيا، ودول جنوب آسيا الأكثر فقرا سوف تشكل 50٪ من إجمالي سكان العالم بحلول عام 2050 موازنة بما تمثله اليوم وهو 30٪ (14).

وتعني الزيادة السريعة في معدلات النمو السكاني في الدول الأقل نموا أن هذه الدول يمكن أن يتضاعف عدد سكانها خلال فترة تتراوح بين 30 و 35 سنة فقط، بينما تحتاج الدول الأكثر نموا إلى فترة تتراوح بين 85 و 90 سنة ليتضاعف عدد سكانها. ومنذ عام 1950م تركز النمو السكاني بشكل واضح في الدول النامية من العالم، حيث إن معدل النمو السكاني في أوربا لم يتعد 1٪ سنويا ولم يتجاوز 1,5٪ إلا نادرا في أمريكا الشمالية، وشهدت بداية السبعينيات (1970) انخفاضا ملحوظا في معدل الخصوبة في هذه الدول، في حين شهدت الدول الأقل نموا زيادة ليست مختلفة وحسب بل لم يسبق لها مثيل من قبل نتيجة انخفاض معدل الوفيات واستمرار معدل الخصوبة المرتفعة، حتى فاق معدل النمو السكاني في هذه الدول نسبة 2٪ سنويا، ووصل إلى ذروته 2,4٪ سنويا في الستينيات، ثم انخفض ليصل إلى 2٪ سنويا خلال السنوات الأخيرة (15).

ويبدو التناقض السكاني (الديموجرافي) مثيرًا للسخرية حقًا إذا ما نظرنا إليه على مستوى الدولة الواحدة، حيث نجد أن معدل النمو السكاني في دولة مثل بريطانيا لا يتعدى 0,1٪ سنويا، وتحتاج إلى ما يقرب من 700 سنة (سبعمئة عام) ليتضاعف عدد سكانها، بينما نجد دولاً مثل هندوراس والعراق والأردن وكينيا ومكسيكو ونيكاراجوا تتمتع بمعدلات نمو سكاني يقترب من 3,5٪ سنويا.. وإذا ما استمرت تلك المعدلات في البقاء فمن المتوقع أن يتضاعف عدد سكان هذه الدول خلال عشرين عامًا فقط تقريبًا، أي خلال جيل واحد (16). ودولة مثل زامبيا يبلغ عدد سكانها 6 ملايين نسمة (1985) من المتوقع أن يصل إلى 120مليون نسمة خلال مئة عام إذا ما استمر معدل النمو فيها بنسبة 3,4٪ سنويا. وتعني الزيادة السكانية المتدفقة أن معدلات النمو في الدول الأقل نموًا سوف تظل مرتفعة لعشرات السنين حتى لو اكتفت الأسرة بعدد قليل من الأطفال، حيث تصل الزيادة السنوية المطلقة في هذه الدول إلى 80 مليون نسمة أو يزيد على ذلك سنويا، ويحتاج تخفيض النمو السكاني في دولة مثل الصين إلى 1٪ أن يقتصر حجم الأسرة على طفلين فقط(17).

ولاشك أن هناك علاقة وثيقة بين الفقر والزيادة السكانية، حيث يساهم فقر الدول الفقيرة في ارتفاع معدل الوفيات، وبخاصة بين الفئات الأكثر فقرًا، كما يساهم في ارتفاع معدل المواليد، ويوجد بذلك دائرة مفرغة مؤداها أن عدم وصول برامج التنمية للفقراء يساهم في نمو سكاني سريع، ويحمل ضغوطا شديدة على اقتصاديات هذه الدول، ويؤدي بالتالي إلى تضخم مشكلات التنمية التي تصارع هذه الدول في سبيل تجاوزها والتغلب عليها. ورغم اختلاف تأثير النمو السكاني في عملية التنمية من مجتمع لآخر، إلا أنه لايوجد هناك خلاف حول أن النمو السكاني السريع غير المتوازن، يُبَطِّئ من عملية التنمية حيث تختل العلاقة بين الاستهلاك والادخار اللازم لعملية التنمية في أي مجتمع، كما أن النمو غير المتوازن من شأنه أن يؤدي إلى اختلال التوازن بين السكان والموارد الطبيعية المتاحة، مادام معظم سكان الدول النامية لازالوا يعتمدون على الزراعة كمصدر أساس للإنتاج، إلى جانب استغلالهم في الأنشطة الاقتصادية الأولية.

كما أن هذا النمو غير المتوازن يُشكل عبئًا على توفير الخدمات المختلفة، الصحية والتعليمية، ويُعمق مظاهر التخلف وخصائصه كما أشرنا من قبل.

ولايقتصر الأمر على مجرد النمو السكاني السريع، بل إن تركيب السكان POPULATION COMPOSITION. في الدول الأقل نموا، أو المتخلفة يمثل فيه صغار السن قاعدة الهرم السكاني، حيث تشير البيانات إلى أنّ المناطق الأقل نموا يغلب على سكانها الفئات العمرية الصغيرة موازنَةً بالدول الأكثر نموا كما يوضحها الجدول (2).

جدول (2)

توزيع التركيب العمري للمناطق الرئيسية من العالم (1977)

المنطقة	نسبة من هم أق من 15سنة	مستوى التحضر
العالم	٪36	٪38
المناطق الأكثر نموا:	٪24	٪66
أمريكا الشمالية	٪26	٪74
أوربا	٪22	٪65
روسيا (الاتحاد السوفيتي)	٪26	٪60
أستراليا ونيوزلاند	٪28 - ٪30	٪71 - ٪81
المناطق الأقل نموا	٪39	٪29
آسيا	٪38	٪26
إفريقيا	٪44	٪24
أمريكا اللاتينية	٪42	٪59

وحسب البيانات التي أشار إليها مكتب السكان (1977) فإن هناك 24٪ من السكان في المناطق الأكثر نموًا من العالم في أمريكا الشمالية وأوربا وروسيا وأستراليا ونيوزلاندا تقع أعمارهم تحت 15سنة، مقابل 39٪ في المناطق الأقل نموا من العالم في آسيا، وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، فقد نتج عن ارتفاع الخصوبة وانخفاض وفيات الأطفال الرضّع في منتصف الستينيات إلى أن يكون هناك 40٪ من سكان الدول النامية أعمارهم 15سنة أو أقل مقابل 24٪ فقط في ما يسمى بالدول الأكثر نموًا. ويعني التركيب العمري للسكان في الدول الأقل نموًا أن معدلات المتوالية سوف تظل مرتفعة لفترة من الوقت حتى لو أن كل امرأة اكتفت بعدد أقل من الأطفال.. كما يعني أيضا أن الأفراد الذين يدخلون إلى سن العمل سوف

ومشكلات التنمية فى الدول الأقل نموًا

يستمر في الزيادة خلال الفترة القادمة.

والمعروف أن صغار السن هم مستهلكون بالدرجة الأولى، ليس للغذاء فقط بل للخدمات أيضا كالتعليم والصحة.. وبالتالي فإنهم يُشكلون عبئًا على بقية السكان في المجتمع، ويتطلب تحويل الكثير من رؤوس الأموال اللازمة للإنتاج إلى أغراض استهلاكية، ويزيد بالتالي من صعوبات تحقيق التنمية، كما يعني أيضا أن الموارد الاقتصادية المستغلة يتم توزيعها على شرائح أو فئات أكبر من المحتاجين إليها، وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الأفراد من السكان عندما يصلون إلى سن العمل فإن ذلك سوف يعمق أو يزيد من مشكلات البطالة في هذه الدول وما يترتب عليها من نتائج اقتصادية واجتماعية.

وتلك البطالة المقنعة التي أخذت تعاني منها بعض الدول المتقدمة الأكثر نموًا بالفعل.

وإذا كان مفهوم التخلف، والمناطق المتخلفة يظهر بوضوح في ضوء متصل التنمية، وفي ضوء ما حققته الدول الأكثر نموا من تنمية بالفعل، فإن مظاهر التخلف لاتقتصر على مجرد العوامل السابقة، الاقتصادية والديموجرافية والسوسيوثقافية وحسب، بل هناك عوامل أخرى معاصرة تساهم في تجسيد التخلف وتشكل مظهرًا من مظاهره، وفي مقدمتها الاعتماد والتبعية من جانب الدول الأقل نموًا، حيث انهارت الحياة التقليدية فيها وأجبرت تلك الدول على الدخول في علاقات من التبعية مع القوى الاستعمارية والتي لاتزال مستمرة في ظل ما يعرف بالاستعمار الجديد وهو ما سيأتي تناوله فيما بعد.

ومن ثم فإن مشكلة تجاوز معطيات التخلف

ورغم تفاوت الظروف والخصائص الاقتصادية والاجتماعية العامة في المجتمعات النامية - المتخلفة - وتفاوت درجة تأثيرها في هذه المجتمعات، فإن تلك الخصائص طبعت هذه المجتمعات بطابع عام يصف واقعها ويميزها من المجتمعات المتقدمة وهو طابع التخلف الشامل بشقيه، المادي والمعنوي، ويؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به.

جدول (3)

أ - يوضح زيادة الأفراد في سن العمل بشكل ملحوظ في الدول الأقل نموًا (19) موازنة بالدول الأكثر نموًا (1980).

	الدول النامية				الدول الأكثر نموًا				
الدولة:	كينيا	رواندا	أثيوبيا	بنجلادش	اليابان	ألمانيا	أمريكا	فرنسا	أستراليا
النسبة المئوية:	134٪	99٪	76٪	74٪	11٪	1٪	15٪	13٪	19٪

ب - موازنة التركيب العمري للسكان في بعض الدول الأكثر نموًا والأقل نموًا (1980)

الدولة	توزيع العمر (٪)				
	صفر - 4	5 - 14	15 - 64	فوق 65	المجموع
جميع الدول المتقدمة:	7,6	15,5	65,6	11,3	100٪
اليابان	7,3	16,1	67,6	8,9	100٪
أمريكا	7,9	15,0	66,3	10,7	100٪
جميع الدول النامية :	13,6	25,5	57,0	4,0	100٪
كوبا	10,6	22,7	62,7	4,0	100٪
بنجلادش	17,9	24,9	54,6	2,6	100٪
كينيا	22,4	28,6	46,1	2,9	100٪

ويعني ذلك أن إزاحة مظاهر التخلف وتحقيق تنمية في الدول الأقل نموا أو الفقيرة من العالم طلب العمل على زيادة إنتاجيتها الاقتصادية من حية، والحد من الزيادة السكانية غير الواعية التي عل جهود التنمية في هذه البلدان تصب في إناء ير قعر من ناحية ثانية، ويتوقف ذلك على بيعة العوامل الاجتماعية، والثقافية التي تؤثر في إنتاج من ناحية، والسلوك السكاني من ناحية خرى.

وتحقيق التنمية في الدول الأقل نموًا لاتكمن في المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أو الديموجرافية وحسب، بل تمتد إلى طبيعة النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي حقق ما وصل إليه على حساب ما يسمى الآن بالدول المتخلفة، ويتطلب إعادة النظر في النظام الاقتصادي العالمي بما يسمح للدول الأقل نموًا بتجاوز مرحلة التخلف التي تعيش فيها إلى مرحلة التنمية.

الهوامش والمراجع

(1) شارل بتلهايم، التخطيط والتنمية، ترجمة إسماعيل صبري عبدالله، القاهرة، دار المعارف، 1966، ص 27.

انظر أيضا:

-ROY MOND FREST, "THE BACKWARD SOCIETY" N.Y., 1961.

(2) محمد الجوهري، «علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث»، ط 3، دار المعارف، القاهرة، 1982م، ص ص 28 - 53.

(3) - POPULATION REFERENCE BREAU, WORLD POPULATION DATA SHEET, WASHINGTON, D.C. , 1978.

(4) - EDWARD G. STOCK WELL & KAREN A. LAIDLAW, "THERD WORLD DEVELOPPMENT, PROBLEMS AND PROSPECTS", 3ed. NELSON - HALL, CHICAGO, 1984, PP. 28 - 29.

(5) عبدالمنعم بدر في «مؤشرات التنمية»، عبدالهادي الجوهري وآخرون في «دراسات في التنمية الاجتماعية مدخل إسلامي»، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1984، ص ص 24–41.

(6) - EDWARD , G. & KAREN, A. OP. CIT., P. 33.

(7) - POPULATION CHANGE AND ECONOMIC DEVELOPMENT, THE WORLD BANK, N.Y OXFORD UNIV. PRESS, 1 ST., 1985. PP. 3-5.

(8) - EDWARD G. & KAREN A. P. 31.

انظر:

-RICHARD D. LAMBERT THE SOCIAL AND PSYCHOLOGICAL DETERMINANTS OF SAVINGS AND INVESTMENTS IN DEVELOPING SOCIETIES IN: DAVID E. AND ROBERT L. DEVELOPMENT AND SOCIETY, THE DYNAMICS OF ECONOMIC CHANGE MARTIN'S PRESS, N.Y. 1967, PP. 263-264

(9) - EDWARD G. & KAREN, A. , OP. CIT, P. 31.

(10) - IBID , P. 63.

(11) - POPULATION CHANGE AND ECONOMIC DEVELOPMENT, OP. CIT, P. 4.

(12) - U.S. BUREAU OF THE CENSUS INTERNATIONAL STATISTICAL PROGRAMS CENTER, WORLD POPULATION 1975.

(13) - POPULATION CHANGE AND ECONOMIC DEVELOPMENT, OP. CIT., P. 4.

(14) - IBID, P. 6.

(15) - IBID, P.2.

انظر:

(16) – EDEWARD G. , & KAREN, A., OP. CIT, PP. 65 - 107.

(17) - POPULATION CHANGE AND ECONOMIC DEVELOPMENT, OP. CIT PP. 2-4.

وانظر أيضا:

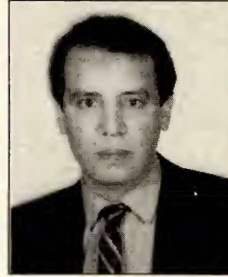
-TSUI, A. & BEGUE, D. "DECILINING" WORLD FERTILITY: TRENDS, CAUSES, IMPLICATIONS, POPULATION BULLETIN, 33, 1978.

(18) - EDWARD G., STOCKWELL & KAREN A. LAIDLAW. OP. CIT, P. 47.

(19) - EDWARD G. CIT, P. 87.

عودة القروي في الرواية العربية
وجدلية الصراع الحضاري "أصوات نموذجًا"

د. محمد عبدالحكم عبدالباقي



اهتم الروائيون العرب برصد محاور هذا الصدام الحضاري بين الشرق والغرب عبر عدد من الروايات التي تجسد رؤى مختلفة من خلال أبنية فنية متباينة(1)، وقد بدا لنا في بعضها ملامح الرحلة في ضوء ثنائية القرية والمدينة مثلما وجدنا في رحلة مصطفى سعيد بطل «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، وفي رحلة إبراهيم بطل «أديب» لطه حسين، وفي رحلة حامد البحيري بطل «أصوات» لسليمان فياض. ولكن الأول عاد إلى القرية ليقدم نفسه إلى الانتحار، والثاني آثر الرحيل والجنون والموت في أوروبا، أما الثالث فعاد عودة مؤقتة فضاعت أحلامه بموت زوجته سيمون.

وقد آثرت أن أقف عند محاولة سليمان فياض لأتبين من خلالها ردة الفعل لدى القرويين إزاء الوافد القيمي والحضاري، فهي تمتلك القدرة الفائقة على ربط الموقف الروائي بالمكان، بحيث جاءت الأحداث منصبّة منذ البداية على وصل هذا الوافد الغريب وتفاعله مع المكان، وما نتج عن ذلك من بروز عنصر الصراع الذي أسهم في درامية الأحداث.

والواقع أن الرواية تعد واحدة من الروايات الفنية التي تعكس حقيقة هذ الصراع الجدلي من خلال رحلة أحد فتيان القرية «حامد البحيري» بخروجه هاربًا من الدراويش إثر تعرضه لموقف تأديب وطرد من أبيه، ترك في أعقابه القرية متنقلاً بين عدد من البلدان حتى انتهى به المطاف إلى العمل خادمًا في مقهى جزائري بباريس، ومنه بدأت بشارات التحول - بفضل كفاحه - إلى أن أصبح في عداد رجال الأعمال المشهورين في فرنسا، وهو ما أهله للزواج من «سيمون» إحدى الصحفيات الفرنسيات.

وبعد غياب طويل دام ثلاثين عامًا - دون مراسلة ودون اعتقاد منهم أنه لا يزال على قيد الحياة - فكر حامد البحيري في اصطحاب زوجته سيمون إلى الدراويش «مسقط رأسه» فأرسل إلى المأمور برقية يخبره فيها برغبته في زيارة قريته وأهله، راجيًا منه إحاطتهم بنبأ عودته، كما أرسل إلى أخيه تكاليف إقامة بيت خاص ينزل فيه هو وزوجته.

وربما كان من عادة المأمور ألا يهتم بمثل هذه المشاعر لدى الآخرين، وخاصة إذا كانت تتصل بأمور تبدو خارجة عن نطاق علاقاته الشخصية، ولكن المسألة بدت له مهمة وعاجلة فأسرع في طلب عمدة القرية وألقى أوامره لأهلها بضرورة التكاتف والتفاعل بغية الظهور بالمظهر اللائق صحيًا وبدنيًا ونفسيًا واجتماعيًا أمام هذا القادم الباريسي، في حين أخذ أحمد البحيري يعد منزل العائلة إعدادًا يليق بحياة كريمة، كما أعد أمه وزوجته زينب وأبناءه وكذا متجره بصورة طيبة.

اليوم المشهود

وحان وقت العودة وسط احتفالات كبيرة شارك فيها المأمور وعساكره والعمدة والخفراء وأهل القرية صغارًا وكبارًا.. رجالاً ونساء، وقد عبر محمود بن المنسي أحد شخوص الرواية عن هذا الموقف بقوله: «جاء اليوم المشهود، ازينت من الصباح الباكر نسوة القرية، وزيّنّ معهن الأولاد من البنين والبنات بخير ما لديهم من ثياب، بدا الأطفال والصبية وكأنهم في يوم عيد، دونه كل الأعياد. الملابس قديمة حقًا، ولكنها كانت مع الصباح نظيفة، لا يخلو بعضها من رقع خيطت بغير دقة أو إحكام، كان أكثرهم بغير أحذية، ولكنهم حرصوا على غسل أقدامهم وتجفيفها... أما الأعيان الميسورون فقد ارتدوا ملابس نظيفة بعضها كُوي حديثًا بمكواة قدم في المدينة...»(2).

وتحولت القرية إلى مظاهرة شعبية تضم معظم الفئات للتعبير عن سعادتهم بعودة ابن قريتهم المغترب في باريس، وأحاطوا بسيارته تلاحقه صيحاتهم وزغاريدهم وغبارهم وابتساماتهم، وأصبحت ساحة المكان تعج بالضوضاء، ثم نزل حامد البحيري وسيمون وقد بدا عليهما آثار الترف والسعادة، وبدت سحنة حامد في تمامها «مع أنه كان ذات يوم واحدًا من صبيتها الحفاة، المرقعي الثياب الدائمي الشكوى من المغص والبول الأحمر والصداع والدوار وآلام العينين، وكان يمكن أن يضل كذلك إذا قدر له أن يعيش حيًا في الدراويش حتى الآن»(3).

مجموعة من المواقف

وكان لعودة حامد البحيري صداها العميق في كثير من شخوص القرية، واستطاع الكاتب أن يرصدها بلماحية شديدة من خلال الشكل (التكنيكي) الجديد الذي ابتدعه في روايته والذي يقترب كثيراً من شكل الكرنك وميرامار لنجيب محفوظ، وأصبحنا تبعًا لذلك أمام مجموعة من المواقف الروائية التي تكشف رؤية كل نمط على حدة وموقفه من هذه الزيارة المفاجئة، والعودة

غير المرتقبة، ويمكننا تحديد ذلك فيما يلي:

الموقف الأول: موقف أحمد البحيري الذي لم ير أخاه من قبل، حيث ولد بعد رحيله بسنوات عديدة، وكان يعيش مذ علم بعودة أخيه في سعادة كبيرة، ولكن سرعان ما شابته مشاعر حقد وضغينة حين أعطى نفسه فرصة الموازنة بينه وبين أخيه وخاصة حين يقول: «والحق يقال، كنت فخوراً أمام أهل الدراويش بأخي ومعتزاً برفع رأسي بينهم أكثر من العمدة نفسه، ومعه بطانته كلها، وبيني وبين نفسي، ولا أكتم ذلك، أشعر بغيرة من حامد وأقارن بين ماله ومالي، وحاله وحالي، وزوجته التي لم أرها بعد وزوجتي، حتى إني رأيت في الحلم ذات ليلة أنني أقتل حامد بسعادة»(4).

ويبدو أن الشعور النفسي كان يلاحقه بين اللحظة والأخرى، فبدت لديه ازدواجية النظرة، فكان يحب أخاه، بل ازدادت نشوته وسعادته بوجوده حتى دعاه ذلك إلى التفاخر به، وفي الوقت ذاته بدأ يختلس نظرات خبيثة إلى زوجته انتهت بصدها له وابتذال ألاعيبه.. ولكنه - مع كل ذلك - ظل يرنو إلى زوجة أخيه لكونها الفتيل الذي يحرك غرائزه نحو زوجته زينب التي أخذت هي الأخرى تمقت فيه صفات كثيرة وأخذت تتطلع إلى حامد الحلم الذي يحقق لها تشوفها وطموحاتها.

الموقف الثاني: موقف العمدة: وهو رجل الأمن في القرية وعليه تقع مسؤولية تجهيز المكان وتهيئته لنزول حامد وسيمون، وقد نفذ أوامر المأمور كاملة رغم ما أخذ يجول في ذاكرته من حكايات قصها عليه جده وجدته عما فعله الفرنسيس منذ مئة وخمسين سنة بأهل الدراويش من قتل واغتصاب ونهب.

وأيضاً رغم خوفه الشديد من تغير الوضع الاجتماعي لحامد البحيري والذي سوف ينسحب بطبيعة الحال على مركز عائلته ومستواهم الاجتماعي، مما قد يهدد مركز العمدة ويزعزع مكانته وأحقيته بمنصبه دون سائر العائلات.

الموقف الثالث: موقف محمود بن المنسي وهو أحد المتعلمين في القرية وقد حصل على الثانوية العامة بتفوق كبير، ويأمل أن يلتحق بإحدى الجامعات الفرنسية للحصول على شهادة الطب. وربما أهّله هذا القسط من التعليم لإجادة اللغة الفرنسية، ولذا تجده يقوم بدور رئيسي في الرواية نتيجة مصاحبته لسيمون بعد رحيل حامد إلى القاهرة لمتابعة نشاطاته وإنهاء صفقاته التجارية.

والواقع أن هذه الشخصية قامت برصد المواقف وتسجيلها بوعي كامل، كما كانت همزة الوصل بين سيمون بثقافتها وحضارتها وتفوقها العلمي، وأحمد البحيري، وزينب، والعمدة، وأهل القرية بجهلهم وتخلفهم الصحي والحضاري والاجتماعي، ولكنه لم يكن جهازاً تسجيلياً ينقل رأي كل واحد منهما في الآخر بأمانة شديدة وتصوير دقيق، وإنما كان متفهماً لنفسية كلا الطرفين ودارساً لطبيعة كل فئة، فيستبعد ما يجرح النفس، ويحذف الكلمات التي من شأنها أن تولد الانفجار بين العالمين، ويبدو أنه كان حريصاً على مصلحته الذاتية، فلا يريد أن يخسر سيمون؛ لأنه يتمنى من أعماقه أن تعينه على إتمام دراساته الطبية في فرنسا، ولهذا أبدى كل ما من شأنه أن يحقق التواصل ويعمق الأواصر العاطفية والإنسانية، فشرب الجعة وعمل مرشداً لها في سياحاتها وتنقلاتها عبر المدينة والقرية متحملاً السخط والإهانة من أهله، إلى جانب أنه لم يستطع أن يخدش مشاعرها بمكاشفتها عن الآلاف الذين قتلوا من الدراويش بأيدي قومها، وعن النساء اللاتي قُدّت بطونهن، وعن القرى التي أبيدت بأسرها على يد جيش نابليون، وبيان مدى ما أحدثته هذه الجرائم وهذا التاريخ المحفور في الذاكرة من تأثير في الوعي الشعبي وفي نفسية أبناء الدراويش ذاتهم. وهو في الوقت ذاته لا يريد أن يخسر أهل قريته لأنهم الباقون له سواء رحل أم لم يرحل، وخاصة أن صورة حامد المزدوجة التي تضفي لديه ثنائية الطفولة والشباب أو ثنائية الفقر والثراء - لا تزال تطارده، كما أنه في النهاية لم يستطع التملص من قريته وأهله فحنّ إليهم وعاد بعد غياب طويل حتى وإن بدت في ظاهرها أنها عودة مؤقتة زمنياً سرعان ما يعود بعدها إلى باريس.

الموقف الرابع: موقف زينب وقد بدت منذ البداية أنها تؤكد ذاتها من جراء منافستها لسيمون، وربما تذكرنا زينب في هذا الموقف بفتحية بطلة الندامة حين رأت نساء المدينة للوهلة الأولى فأخذت توازن بين وجهها ووجوههن وقوامها وقوامهن، وأرادت بذلك أن تعلن تفوقها إذا ما عادت الوجوه إلى طبيعتها دون تصنع أو تلون.

لقد حاولت زينب أن تنافس سيمون فأخذت منها الشكل الحضاري في المأكل من خلال ملاحظة دقيقة لأفعالها والرغبة في محاكاتها، حيث «كانت تراقب ما تفعله سيمون على المائدة وتفعل مثلها، إن رفعت الملعقة وإن وضعتها، حتى في درجة فتحة فمها لتدخل الطعام فيه. وكان منظرها مضحكاً، وهي تحاول أن تأكل مثلها بالسكين» ص 43. كما لاحظت مع زوجها «إبطها الممتلئ بالشعر الطويل الأصفر» وأيدت زوجها في استيائه واشمئزازه لما يراه، وفي الوقت ذاته أكدت تشفّيها ووقوفها على إحدى سقطاتها.

إن أفعالها تكشف عن حقدها الدفين، كما أن تصرفاتها مع زوجها على حياته وطريقة تفكيره ونظراته تنم عن وصول الكراهية إلى ذروتها، وكم تمنت أن تكون لحامد وليست لأحمد، وهو ما يبدو للقارئ في كثرة سبابها ورفع صوتها على زوجها وتمنّعها حتى انتهى بها المطاف إلى تدبير النهاية لها لتبقى وحدها الرمز الذي يبحث عن سبل التغير، ويبحث عن الحياة والوجود.

ولا شك أن زينب /الرمز قد أخطأت كثيراً بتآمرها على سيمون/الرمز، فمحاولة قتلها على أرضها يعني الموت الحقيقي لها أيضاً، وكان بمقدورها أن تتعلم منها، وتستفيد من تجاربها، ثم تنهض بنفسها وبأبنائها وبزوجها وبمن حولها نحو حياة أفضل، ولكنها جهلت هذا الأمر وأخطأت المعالجة فضاعت سيمون على أرض الدراويش، وبقيت زينب حائرة تبحث عن وجودها الحقيقي ولكن هيهات، وقد برز هنا بجلاء في قول الكاتب على لسانها: «ذهبت بسرعة وكسرت بصلة وجئت بزجاجة كولونيا كانت سيمون قد أهدتها إليّ مع حقيبة يد وعدة فساتين، شممتها الكولونيا، دفقت منها على جبينها ووجهها، ودلكت على صدرها، وعصرت عند فتحة أنفها... وظلت العينان موّارتين. صرخت: ماتت.. ماتت يا حماتي. وقعقعت من قلبي صوتاً داوياً»(5).

الموقف الخامس: موقف المأمور وهو رجل الأمن الأول الذي يمثل رمزاً لنمط الواقفين على تنفيذ القانون، ولهذا جاء ظهوره في بداية الرواية، وفي نهايتها بوصفه محوراً أساسياً من محاور هذا الصراع وعليه تقع مهمة رعاية سيمون في أرض الدراويش ومحاولة غرس بذورها وأفكارها ونتاج عقلها في تراب القرية ليأخذ أبناؤها دورهم الناهض في ركب الحضارة والتقدم وليضعوا حداً للمرض والتخلف والضياع.

لقد وقف المأمور وراء التجهيزات والاستعدادات الكاملة لاستقبال سيمون وحامد. كما كان وراء تهيئة المناخ الملائم وتوفير سبل الإقامة الهادئة والهادفة. والواقع أنه استطاع في وقت وجيز أن يغير معالم الدراويش وأن يلقي أوامره على أهلها بضرورة الحفاظ على شكل المكان ورونقه والظهور بالصورة المثلى أمام ممثلي الحضارة الغربية، وكأنه أراد أن يشحنهم قومياً ويبعث فيهم روح التحدي والإحساس بالمسؤولية أمام عدو يتربص بهم ويسعى إلى التقاط صورهم ونشرها على الرأي العام عندهم.

وإذا كان هذا النمط قد نجح في ترقيع الشكل الخارجي للمكان دون المساس بالجوهر، ودون قدرة منه على النفاذ إلى بواطن الأنماط وغرس أفكار سيمون وطباعها، فإنه - تبعاً لذلك - قد أثبت فشله الذريع في تحقيق هذا التوازن الذي كان نتيجته موت سيمون وضياع الحلم الذي كان يتمنى أن يصل به إلى نهايته السعيدة مثلما وضع في قوله: «لذلك قفزت من مقعدي، وبدأت أهتم شخصياً بهذه المسألة النادرة الحدوث والتي ينبغي أن تكون لي فيها اليد الطولى، في تحقيق أمنية إنسان غير عادي والوصول بها إلى خاتمة سعيدة، لا شك أنها ستعود عليّ أيضاً بالخير. لم أكلف أحداً سواي بهذه المسألة، ولم أرسل من يطلب عمدة الدراويش لسؤاله، وأخذ المعلومات منه.. أمرت العسكري بإعداد سيارتي الحكومية الخاصة، وصحبته معنا إلى الدراويش فطار بنا السائق إليها، برغم وعورة الطريق»(6).

ثم يأتي موقفه في نهاية الرواية ليؤكد هذه المسؤولية الملقاة على كاهله وليوضح محاور الصراع التي تؤزمه وليبرز قضية الخلاص بوجه آخر وخاصة حين يقول: «أية بربرية هذه التي أحكمها، وعليّ أن أعيش فيها؟ حتى مع الأجانب يا عالم؟ ومع النساء؟ هه.. عصفور من

عودة القروي في الرواية العربية

الشرق؟! قنديل أم هاشم؟ كيف وصلنا إلى هذا الدرك الأسفل؟ مسكين أنت يا حامد؟ الندامة نادتك فقطعت بحاراً وبلاداً، لتفقد أعز ما تحرص عليه هنا في بلدك»(7).

اندماج دون تسلُّط

إن موت سيمون يماثل بطريقة أخرى تراجع «إسماعيل» في قنديل أم هاشم عن أفكاره الغربية وإعادة التوازن مرة أخرى بين ماضيه وحاضره، وبين تراثه وما تعلّمه في أوروبا وتشبعت به نفسه وكأنه يؤكد وفق هذا المنظور «أن مصر ترفض الروح الجديدة إذا جاءت إليها فرضًا تعسفيًا آليًا من الخارج، ولكنها تقبلها بشرط أن تحترم التراث وأن تحيي الإنسان، أن تسعى إلى الاندماج دون تسلط، وهي بهذا المفهوم احتجاج فني على الزحف الأوروبي الرأسمالي الذي تقوده الدول المتقدمة، ولذا لم تستجب عينا فاطمة للروح المتغطرسة. بل تفاقم خطبها. فلما تنازلت الروح الجديدة عن غرورها أمكن للعلم المسلح بالإيمان أن يحقق المعجزة»(8).

وإذا كان إسماعيل عاد بعقله وأفكاره الجديدة ليهدم القديم ويقيم حاضراً على غير ماض، فإن حامد البحيري عاد ومعه سيمون، ثم هيأ لها المقام وتركها تؤتي ثمارها دون أن يراعي قريته وعادات أهلها، ودون أدنى تحرز من العقيدة، فكانت ترقص وترتدي الفاضح من الثياب وتشرب الخمر وتمارس حياتها العادية دون اكتراث بطبيعة النقلة فكان مصيرها القتل.

ومن ثم، فإن الرواية تحكي في مجملها «رحلة حياة ورحلة نفس ليس في الانتقال من بيئة إلى بيئة فحسب، بل في انتقالها، أو قل في انتقالاتها النفسية والعاطفية، ومن ثم الفكرية من عقيدة إلى عقيدة، ومن أسلوب في الحياة إلى أسلوب آخر، ثم العودة من جديد»(9).

كما أن موت سيمون يشبه انتحار مصطفى سعيد في «موسم الهجرة إلى الشمال» بكل ما يحمله الموت من دلالة رامزة، إنه يحمل في طياته الضياع والحرمان وفقدان الأمل وهي ملامح يمكن أن تجدها في الحوار الأخير في الرواية بين المأمور والطبيب وأحمد البحيري:

المأمور: هاتوا نجاراً ليعدَّ لها صندوقاً، سندفنها الليلة في مقابرة الأسرة.

والتفت لأحمد قائلاً: أتسمعني؟ مقابر الأسرة. لكي تذكرها دائماً، أنت وأمك وزوجتك وكل الدراويش يا غجر.

نطق أحمد وقال باستنكار: صندوق؟ ودون تغسيل؟

صحت في وجهه: اخرس.

فخرس على الأثر، وجلست أفكر فيما ينبغي أن أفعله بنفيسة، قررت أنه لا ينبغي أن تفلت من العقاب مهما كان سببه المعلن وأخذت الطبيب جانباً... فكرت في المحنة الأليمة التي سوف يواجهها حامد غداً، ابتداء من غد، إن بقي في الدراويش وإن هرب عائداً إلى باريس. فكرت أن سيمون وأن الطبيب يعرف الموت جيداً معرفته بالحياة، قلت له هامساً: قل لي.. ما سبب الموت الحقيقي؟

كان الطبيب شارداً.. فقال لي باضطراب، والدهشة مرتسمة على وجهه: نعم آه.. موتنا أم موتها؟!(10).

فالكاتب - إذن - يمزج بين الواقع والرمز مزجًا دقيقًا فما فعلته النسوة لسيمون يبلور أزمة القيود التي تفرضها العادات الشعبية، والتي تقف حائلاً يمنع الوقوف على الجوهر وعدم المبالاة بالشكليات والظواهر السطحية العقيمة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، أما على المستوى الرمزي فإن الكاتب كان واضحاً في رصد أماراته ودلالاته سواء على مستوى اختياره لمسميات الشخوص (نفيسة، زينب) أو على مستوى البناء ذاته وما يمكن أن يترجمه من معان وأفكار.

الموقف السادس: وهو موقف يعبر عن نمط بأكمله يمثل الصورة الحقيقية للامتزاج بين حضارتين، ولكن صورته تختلف بعض الشيء عن صورة إسماعيل/حقي، أو صورة محسن/الحكيم، أو مصطفى سعيد/الطيب صالح؛ لأنه رحل عن قريته وهو في العاشرة من عمره، أي إنه لم يتشبع بروح الشرق تشبعاً كاملاً للدرجة التي تدعوه إلى الإحساس بالمفارقة بين المادة والروح، وتمييز رغبته وتحديدها التحديد الأمثل، ومن ثم كانت عودته مؤقتة ومحددة زمنيًا بأسبوعين، يعود بعدها إلى المكان الذي شغل لبّه وعقله، حيث ينتظره هناك ولده وابنته.

لقد عاد حامد لا من أجل البقاء الدائم وإنما ليضرب عصفورين في آن واحد، أي ليزور أهله وقريته دون وقفة متأنية أمام الذكريات ومكتفيًا فقط بالسؤال عن أهله وموت أبيه والسؤال عن أقاربه والإحسان إليهم بما جاد الله عليه من خير وفير، ثم لينهي إجراءات بعض صفقاته الخاصة لفندقه ومطعمه في باريس؛ وهذا يعني أن قرار عودته كان مهمشًا؛ لأن الماضي انسحق وذاب ولم يبق له سوى وجهه المادي الذي تربى عليه في أحضان سيمون، وليست لديه الدوافع النفسية لتغييره أو الارتداد عنه.

وربما تعددت المواقف والصور داخل الرواية لتأكيد هذا المعنى الجوهري، مثل موقف رقصه مع سيمون على أنغام الموسيقى الغربية وسط ذهول أمه وأخيه وزينب ص 62، ومثل موقف أخذها معه إلى حفل الغداء بملابسها الغربية الفاتنة التي خشي منها أهل القرية على فتنة نسائهم المحجبات وبناتهم العفيفات ص 50، ومثل موقف عدم قدرته على التخلي عن اللغة الفرنسية عند الحديث مع أمه الريفية ص 44.

ومثل موقف وصايته للشاب محمود بن المنسي وهو شاب غريب بملازمته لسيمون في تجوالها وحركاتها ملازمة الزوج لزوجته(11) ومثل موقف استيائه الشديد من الدراويش حين وقف يصفها لسيمون قائلاً" «هذه هي قريتي الدراويش، بيوتها الطينية الواطئة، شوارعها الضيقة كأنما تخشى أبداً من غزو متوقع. السواد الذي يكسو الوجوه ويلون ملابس النسوة، والأرض الترابية الجافة السبخة، وأكوام القش فوق أسطح البيوت»(12).

صحيح أن حامد كشف في روايته عن حلم العودة التي كان يراوده بين اللحظة والأخرى حين قال: «هذا هو الحلم الذي عشته وشدني، وجئت من أجله. برغم كل شيء، فهو هنا في قلبي جارف وعارم، أشعر معه مع الغيظ والقرف بالحب والراحة» ص 38 إلا أنه ربط هذا الموقف في التو واللحظة برغبة سيمون التي تمثل لديه كل شيء فأكمل حديثه قائلا: «فكرت: ترى سيمون سعيدة حقًا بما ترى وتسمع وتشم؟ سألتها فقالت وهي تهز رأسها وعيناها تلتمعان برضا بالغ: بوكو (أي «كثيراً» بالفرنسية)، لكنني كنت أعلم أنه في ذات لحظة سوف تذهب السكرة وتبقى الفكرة» (13).

إنه يؤكد عدم تنصله من سيطرة سيمون عليه وأنه أصبح خاضعًا لإرادتها إضافة إلى عدم وجود ما يبرز دوره الإيجابي كرجل شرقي له عاداته وقيمه، وله أفكاره التي يؤمن بها ويزج بها إلى حلبة الصراع مع عادات سيمون. وإنما اكتفى بأن يكون سلبيًا الأمر الذي انسحب على الجانب الروحي عنده فبدا باهتًا لا يقوى على الظهور.

الهوامش

(1) للمزيد عن هذا الصراع انظر رفاعة الطهطاوي في «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وعلي مبارك في «علم الدين»، وتوفيق الحكيم في «عصفور من الشرق»، ويحيى حقي في «قنديل أم هاشم»، والطيب صالح في «موسم الهجرة إلى الشمال»، وطه حسين في «أديب»، وسعدي إبراهيم في «المرفوضون»، وسهيل إدريس في «الحي اللاتيني».. إلخ وللمزيد من الدراسات النقدية، انظر: د. سيد النساج - «بانوراما الرواية العربية الحديثة» ود. عصام بهي في «الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة»، ود. علي الراعي في «دراسات في الرواية المصرية»، ود. أحمد الهواري في كتابه «البطل المعاصر في الرواية المصرية»، ود. شكري عياد في «الرؤية المقيدة».

(2) انظر رواية أصوات ص 25، 26.

(3) السابق ص 29.

(4) السابق ص 19، 20.

(5) السابق ص 111، 122.

(6) السابق ص 7.

(7) السابق ص 113.

(8) انظر: د. علي الراعي - دراسات في الرواية المصرية، ص 162، 163، د. أحمد الهواري - البطل المعاصر في الرواية المصرية ص 260، 261.

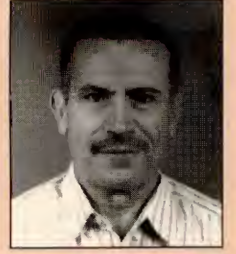
(9) انظر: د. عصام بهي - الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة، ص 176 في تطبيقه على قنديل أم هاشم - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1991م، ط 1.

(10) انظر رواية أصوات ص 119، 120.

(11) السابق ص 66.

(12) السابق ص 38.

(13) السابق ص 38، 39.



د. توفيق علي منصور

دراسة في النقد الأدبي

قضية الشعر الحر

أثارت قضية الشعر الحر منذ أوائل هذا القرن العشرين حتى يومنا هذا جدالاً حاراً بين فئتين من الشعراء والنقاد والأدباء والمثقفين: فئة تلتزم الشعر التقليدي العمودي وتدافع عنه، وأخرى مجددة متحررة من قيوده وأنماطه، نافرة منه وهاربة إلى آفاق أرحب.

وبين هاتين الفئتين فئة ثالثة محايدة، تمسك بميزان العدالة في ساحة النقد الأدبي المنصف. وهذه الفئة الأخيرة يتعين عليها أن لا يميل بها الهوى إلى إحدى الفئتين المتصارعتين، وألا تحيد عن جادة الطريق المستقيم، تمحص الأمور وتلم بالفروع والثمار مثلما تلم بالجذور والأغوار، تصدر حكمها نزيهاً مبرّأً من أي عيب، مرضيًا للحق، منصفاً للعدالة.

تقرر الفئة الأولى من المدافعين عن الشعر العمودي أن القافية أهم مظهر من المظاهر الغنائية في الشعر العربي، والتقطيع الصوتي والتقسيم من المظاهر الغنائية في الشعر الجاهلي، فالرجز المشطور يشبه مشي الجمال الهويني، وهو ما يسمى بالرجز المنهوك، فالعربي حسّاس رقيق الإحساس سريع الانفعال ملهم ذو بديهة وارتجال. والوزن والقافية هما العماد الأول لموسيقى الشعر العربي. «فلا يوهمن دعاة التجديد أنفسهم أن بشعرنا العربي عجزاً، إنما العجز كامن في أنفسهم»(1).

شعر أصيل أو «لا شعر»

وتعترض الدكتورة الشاعرة الناقدة عاتكة بنت وهب الخزرجي على تسمية الشعر العمودي بالشعر التقليدي فتقول دفاعًا عنه: أنا أعترض على قولك الشعر التقليدي؛ فليس هناك شعر تقليدي وشعر غير تقليدي، هناك شعر أصيل وهناك اللاشعر. فالشعر الأصيل هو الذي يفرض أصالته سواء في وزنه وقافيته، أو في روحه أو في معانيه أو في موسيقاه أو في كل هذه مجتمعة. لكن لا شعر مثل هذا الهراء الذي ملأ الدنيا عجيجًا وضجيجًا»(2). وهي تسترشد في هذا بقول الدكتور طه حسين: «إنهم أزعجوا الناس ولم يخرجوا بشيء جديد».

والشعر الحر في نظر عاتكة «عملية هدم مقصودة من قبل الشباب المغرر بهم. فأنا أخشى على هذه النبتة الطيبة أن تُسمَّمَ أفكارُها وأن تنحرف عن النهج. ولذا فنحن نناهض عملية الهدم هذه. وقد خاض في هذا الموضوع أكابر نقاد الأدب العربي الحديث أمثال مصطفى صادق الرافعي الذي يقول عنهم: «إن هؤلاء تنقصهم الملكة ولكن لا ينقصهم الادّعاء»(3). وهي تدعم نظرتها بنظرة العقاد الذي يقول (نقلاً عنها): «إنها عملية هدم». وأنا أضم صوتي إلى أصوات هؤلاء الأساتذة وجهابذة الأدب وأقول: إن الذي نريده لشبابنا ألاّ يُغَرَّر بهم وألاّ ينحرفوا عن النهج، وأن يُبْقوا على الجذور، وأن يجددوا ما شاء لهم التجديد في الفروع. فلا بأس أن تجدد في الفرع ولكن بشرط أن تبقي على الجذور. فلا يمكن أن يقوم الفرع والجذر مُقتلَع. فالمهجريون صنعوا شيئًا ما في حركة التجديد (ومنهم أبو القاسم الشابي الشاعر المجدد)؛ فأبقوا على الجذور في التربة الصالحة. فقد جددوا في الأفكار وفي الأخيلة وفي الموضوعات. وحصيلة الشعر المهجري هي حصيلة الشعر العربي والشعر الغربي. وما نريد أن ننادي به هو أن نحافظ على التراث. وأن نجدد ما شاء لنا التجديد، لا أن نهدم كل شيء، ثم نقول: إننا صنعنا شيئًا جديداً .

البحث عن الجديد

ويدعي الفريق الثاني من رواد الشعر الحديث «أن القافية العربية السائدة إلى اليوم ليست إلا قيداً من حديد يربط قرائح شعرائنا، وقد حان تحطيمه منذ زمن»(4).

ويقول الدكتور جلال الخياط «إن التحرر من القافية حدث منذ أوائل القرن العشرين في إنتاج العقاد والمازني». ومنذ عام 1908م دعا عباس محمود العقاد إلى أن يكون لكل قصيدة وحدة موضوع. «وللشاعر ألاّ يلتزم بقافية موحدة»(5).

ويقرر الخياط أن «السأم من النماذج القديمة المتكررة والموضوعات المطروقة آلاف المرات دعا الشعراء إلى أن يبحثوا عن مواكب جديدة. حمل لواء التجديد من درسوا الأدب الفرنسي والإنجليزي كالشاعر السياب. وكثرت ترجمة شيكسبير وبيرون وكيتس وإليوت وغيرهم. فالشعراء المحدثون استفادوا من تجارب الآخرين لتطوير الشعر في العراق في ضوء المفاهيم الأدبية العالمية. وإن شكل القصيدة التقليدي أصبح عاجزاً عن أن يقدم مضامين الشعراء الجُدُد لطول العهد به وكثرة استعماله حتى استنفدت طاقته»(6).

وينقل جلال الخياط آراء كثير من الأدباء والنقاد والشعراء في الشعر الحديث. فيروي عن محمد مندور «أن الشعر الحديث لا يقلِّد ولكنه يستفيد من تجارب الحركات الأخرى؛ لأن الشعر الحديث استيراد من الشعر الأجنبي كما استوردنا غيره من مظاهر الحضارة الغربية» (ص 119).

ويروي عن طه حسين أنه «ليس على شبابنا بأس في

أن يتحرروا من قيود الوزن والقافية. ولا يطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين. فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تنزل من السماء» (ص 123).

ويروى عن بدر شاكر السياب «أن علي أحمد باكثير هو أول من كتب على طريقة الشعر الحرّ في ترجمته لرواية شيكسبير «روميو وجولييت» التي صدرت في كانون الثاني/يناير سنة 1947م» (ص 115).

وينقل ما قال عبد الجبار البصري من: «أن موسيقى الشعر الحر أكثر انطباعًا وتجاوبًا مع شاعر العصر الحديث الذي رقت مشاعره وأصبح ينفر من الموسيقى الصاخبة»(ص 123).

وأصبح تعريف الشعر الحديث عند الخياط كالآتي (ص 117):

هو تعبير معقول، موزون خليليًا، ولكن بدون نظام الشطرين أو عدد التفعيلات الثابت. وهو لا يلتزم بقافية واحدة، بل يستخدم أنواعًا مختلفة من القوافي أو يتحلل منها تمامًا. وهو لا يقتصر على المديح والرثاء والهجاء والفخر والوصف، والغزل [والحكمة والتأمل]، فأحاسيس الإنسان أوسع من هذه القوالب الثمانية للموضوعات الشعرية.

أما يوسف سامي اليوسف، وهو من رواد الفئة الثانية التي تدافع عن الشعر الحديث، فيعزف النغمة نفسها بإيقاع آخر، شارحًا الباعث على ظهور حركة الشعر الحر، فيقول: (7)

إن الجفاف الذي أصاب الشعر في السبعينيات جعل هذا الشعر مسكونًا بالبلادة وباعثًا على السأم. فانغمس في اجترار وتكرار نماذجه، الشيء الذي يعني أنه أصيب بالنمطية أو بأحادية النموذج. لقد كان الشعر الجاهلي مبدعًا ولكن الشعر النمطي المعاصر مقلد غير مجدد.

ويختتم أحد رواد حركة الشعر الحر تحدياته للشعر العمودي ومؤازرته للشعر الجديد قائلاً: «إن حركة الشعر الجديد قد حققت وجودها وفرضت نفسها على الواقع. صحيح أنه كان لها خصوم كثيرون، ولكنهم تساقطوا الواحد بعد الآخر». (الخياط، ص 133).

أصالة الشعر

وبعد أن استمعت المجموعة الثالثة الخاصة بالمحايدين والمحكمين إلى دفوع الفئتين المتخاصمتين، عليها أن تبحث أفرع القضية وأقسامها وأن تتحرى الدقة والنزاهة في توصيف الشعر وتعريفه على أنه أقدم الوسائل الفنية، وأول الأجناس الأدبية التي تعبر عما يدور في النفس البشرية من أفراح وآلام، وما يعتمل في العقل البشري من فكر، وما يُخالج القلب الإنساني من عواطف وآمال. فقد توصل علماء السلالات (الانثروبولوجيا:Anthrpology) إلى أن الإنسان البدائي استخدم الشعر بأوزان ابتكرها لتساعده على حفظ الأنساب، والتغنيّ بالأدعية للخالق جل وعلا لكي ينبت له الزرع ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويحفظ له دورة الحياة في ذريته ويهبهم الخصوبة في الرزق وفي النسل. كما استخدم الشعر في إشاعة البهجة في نفوس الأحفاد والعشيرة، وفي التفاخر بأمجاد قبيلته وسرد البطولات والخوارق والمعجزات فيما عرف قديمًا «بأساطير الأولين».

ولو لم يكن للشعر وزنٌ ما كان قادرًا على القيام بوظائفه المذكورة، ولخلا من الموسيقى التي تزفّ المعاني والصور البلاغية إلى قلوب المستمعين. فإذا اجتمعت أوزان الشعر وموسيقاه الداخلية مع الموسيقى المصاحبة على نفس الأنغام والإيقاعات ظهرت «الأغنية» التي تجمع فنين الواحد مع الآخر: فن الشعر مع فن الموسيقى.

وتطورت البحور والإيقاعات على مر العصور وفي مختلف البقاع، كما تطورت وظيفة الشعر وأجناسه، فظهر الشعر الملحمي أول ما ظهر على أرض الرافدين فيما عرف بملحمة قلقميش Gilgamesh، وتلتها إلياذة هوميروس وأوديسته وإنيادة فيرجيل Aeneid. ثم ظهرت أنماط أخرى من الشعر المسرحي والشعر الرومانسي وما إلى ذلك. ولكل نمط ما يميزه من الأوزان المعالجة والمعاني والوظائف والطرائق التي ابتدع من أجلها بما يناسب العصر وظروف الحياة.

والشعر إذن متأصل في جذور تراثنا وفي روحنا الميالة إلى التأمل والانفعال. «وما كان للإنسان أن يخترع الشعر إلا لأنه يتجول أو يتوتر بين آنين متعارضين: آن الواقع وآن الأسطورة. وإن كونية الشعر، أي انتشاره في كل زمان ومكان، ليس لها من تفسير سوى رغبة الإنسان الأبدية في معانقة روحه أو الغوص فيها حتى نواتها المركزية. ومن هنا جاءت قدسانية الشعر وأسبقيته على الموسيقى»(8).

والأسطورة تحتل مكانًا رفيعًا في الشعر العربي والأجنبي على السواء. فهي أحد العناصر الأساسية في مضمون الشعر، مثل أساطير الخصب وتجدد الحياة، وجلال الأضداد المفضي إلى التحول.

القمة والسطح

والرمز في القصيدة قد يكون صورة موازية لأحداث الموضوع. فالجزء يرمز إلى الكل، والتاج يرمز إلى الملك. وقد يبدو من جبل الجليد قمة لا تتجاوز عشر حجمه، بينما الأعشار التسعة تظل مغمورة تحت سطح الماء. فالقمة الطافية فوق السطح ترمز ظاهريًا إلى الكيان الكبير المتواري تحت السطح. وقد تتشابك الرموز فوق السطح لتشكل لوحة شاملة (بانوراما) بديعة التكوين، بينما تتشابك تحت السطح من الأحجام والمعاني الحقيقية لمضمون الرمز. وقد يكون الرمز متناثرًا على ساحة القصيدة الواحدة على شكل لمحات خاطفة وصور شعرية تدور كلها حول وحدة أو موضوع ما.

فالشعر لهذا صوت وصورة: صوت إيقاع الأوزان يضم في طياته صورًا شعرية ترسمها الأحرف والكلمات والمقاطع والجمل. فإذا غاب أحد العنصرين: موسيقى الأوزان أو الصور البلاغية عن العمل الشعري الفني، فهو شيء آخر غير الشعر. فإذا اشتملت القصيدة على موسيقى الوزن وخلت من الصور البلاغية ولجأت إلى الكلام المباشر ذي المعاني الأحادية التي لا تقبل التأويل فلنسمها «النثر المنظوم». وإذا اشتمل العمل الفني على صور بلاغية وصنعة فنية دون أن تنتظمها الأوزان والموسيقى فهي نثر فني أو «شعر منثور». أما إذا احتضنت موسيقى الأوزان (أيًا كانت هذه الأوزان) صورًا بديعة الصنعة جميلة الرؤيا فهي شعر.

نماذج من الرؤى الشعرية

ولكي تتضح الرؤية الشعرية يجب أن يسوق رجال العالم الشعري الثالث المحايد أمثلة لكل نوع من الأنواع.

المثال الأول: القصيدة الشعرية المنظومة على أوزان التفعيلات، وتربطها قافية واحدة، تسري فيها صنعة التصوير وجودة انتقاء الألفاظ المعبرة عن الصورة ذات الألوان البهيجة، وتجري في أبياتها الصور والأشكال مجرى الماء السلسبيل في جدول يتراقص على أنغام الطبيعة وموسيقى الوزن والقافية.

اختار أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري لهذا النمط الشعري أبيات قصيدة للدكتور غازي القصيبي في الغزل الحسي:(9)

وكنتِ أمس بقربي نخلةً نَثَرتْ
على هَجير حياتي الظلَّ والرطبا
وكنتِ شلاّلَ حُبٍ ما شكوت ظَماً
إلا أطلّ على دنياي وانسكبا
لعلني خِفتُ من حُبٍ يُطوِّقُني
حَنانُهُ كلّما نَاشَدْتُه وهَبَا
خِفتُ الينابيعَ والرمضاءُ تقتلني
وقلت: قد يُدمنُ الينبوعَ من شربا

والمثال الثاني: القصيدة الشعرية المنظومة على أوزان التفعيلات، وترتبط بقافية متنوعة، توحد كل بيتين أو أربعة أبيات أو أكثر. تمرح فيها الصور البلاغية البديعة ببساطة وانشراح ودون معاناة تقع على الشاعر في البحث عن الكلمات المناسبة للقوافي مثلما هو متبع في الرباعيات

الشعر صوت وصورة، صوت إيقاع الأوزان يضم في طياته صورًا شعرية ترسمها الأحرف، والكلمات والمقاطع والجمل

قضية الشعر الحر

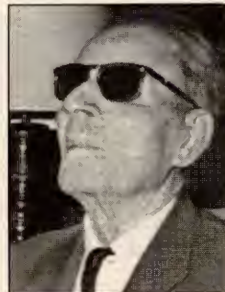
والمسمّطات والموشحات والشعر الدوري.

اختار لنا محمد بن أحمد العقيلي ثنائيات من نظم الشاعر صالح الأحمد العثيمين في نشيد فلسطين:(10)

فلسطين يا بَلَدَ الأكرَمين
ورمزَ البطولةِ منذ القدمْ
أراكِ على مُقَل الحادثَات
جحيماً يؤجِ بحُمْرِ الحِمَمْ
أراكِ وشتى الرؤى شعلة
تذيب الظلام تَفُلُّ الحديدْ
فأنتِ ترفِّين في كل قلب
يبارك كل صباح جديدْ
بنفسي أبناؤكِ التائهون
حيارى جفاهم لذيذُ الكَرَى
يهيمون كالوهم عبر الأسى
كطيف الخيال إذا ما سرى
ودمدمة الثأر في عزمهم
تكاد تهزّ أعالي الذُّرَا
وعَصْفُ الفداء بأرواحهمْ
يكاد يضرِّم بطنَ الثرى

والمثال الثالث: القصيدة الشعرية المنظومة على أوزان التفعيلات، ولا ترتبط بقافية إلا ما أتى عفو الخاطر. تسري فيها الصور البلاغية مسرى النّور في الظُّلَم. وتتعانق فيها الموسيقى الخفيفة في الوزن المتكرّر مع الصور البلاغية الحبيبة المجاهدة، وكأنها موسيقى القرب تعزف ألحانًا عسكرية تنتظم عليها خطوات المجاهدين: اختار لنا الدكتور صالح جواد الطعمة لهذا النمط الشعري أنشودة من شعر أحمد صالح الصالح: «عندما يسقط العراف»:(11).

يا أيها العرّاف!
حبيبتي الحسناء ـ تدعى أورشليم
تنام كالسبيّ
في عيون المذنبين
وتشتهي قراءة الهوى
في أعين المجاهدين في دموع التائبين
متاعها الصبّار واليقطين


د. طه حسين


د. غازي القصيبي

حبيبتي؟
وديعة وطيّبة
تحب كل الطيبين
فما تعشقت أو مارست
إلا هوى صلاح الدين

والمثال الرابع: القصيدة الشعرية المنظومة على أوزان التفعيلات، ترقص فيها موسيقى الأوزان رقصًا منفردًا دون أن تجد ما يعانقها من الصور البلاغية، ولا تجد إلا كلامًا مباشرًا لا يجيد الرقص ولا تنتظم توقيعاته مع خفقات الموسيقى وإيقاعات الأوزان والتفعيلات.

ومن هذا اللون اختار لنا محمد بن أحمد العقيلي فقرة من نشيد أبناء الجزيرة العربية:(12)

نحن وحّدنا الجزيره
نحن حرّرنا العشيره
نحن في السعي الأوالي
إن دعا داعي الكفاح

والمثال الخامس: القصة القصيرة «صاحبة الكوخ» التي نظمها مؤلفها على شكل أبيات تربطها قافية لكل ستة أو سبعة أبيات ولا تربطها أوزان التفعيلات.

فموسيقى الوزن ليست متجانسة فيها. وأما المعاني فهي خالية من المجسّمات اللفظية أو الصور الشعرية، برغم أن ناشرها أسماها «قصيدة شعر»، وما هي من الشعر في شيء: لا في الوزن ولا في المعنى، بل هي قصة قصيدة كلامها مباشر.

ومن هذا اللون اختار لنا الفريق الثالث المحايد سداسية من قصة سعد البواردي:(13)

وفي الثلاثين من عمره
مات أبوه ميتة غادره
رصاصة حمقاء في صدره
أفضت بدنياه إلى الآخرة
من موسر عاشا على فضله
(أفكاره في رأسه حائرة)

والمثال السادس: فقرة من النثر الفني الذي بدت فيه الصنعة الفنّية في اختيار الكلمات والعبارات المنمقة، وربطها في تناسق سجعي أشبه بالشعر، ولكن لا تنقصه إلا موسيقى الأوزان. فهو لهذا شعر منثور أو نثر فني:

اختار هذه الفقرة الدكتور عبد السلام سرحان وهو يضعها تقديمًا لكتاب ألفه تلميذه محمد بن سعد بن حسين؛ يقول سرحان:(14)

ولقد رغب إليّ المؤلف الشاب أن أسبر نجادها وأغوارها، وأخبر جثجاثها وعرارها، في عمق نظرة، ودقة فكرة، ورقة فطرة، ووضع حر،... في بوتقة الفحص والمحص، وفوق نضد البحث والدرس، وعلى درج التحقيق والتوثيق.. فإذا ما راقت مادتها، واستقامت جادتها، وأورقت شجرتها، وأشرقت بسمتها، وتهدلت أغصانها، واعتدلت أفنانها، كان من حق الناس أن تطلع عليهم مثقفة القناة.. مصقولة السّياق، وكان من حقها عليهم أن ينظروا في دراساتها القيمة، وبحوثها الهامة، ووقفاتها اليتيمة، أمام روح الأدب الحديث في «نجد» المعاصرة.

حدود الحرية

وبهذا العرض تستطيع عدالة الفئة المحايدة أن تقرر أن المثال الأول شعر ترقص فيه الصور الشعرية على إيقاع موسيقيٍّ موزون لحنه الخليل بن أحمد في حركاته السيمفونية الست عشرة. بينما المثالان الثاني والثالث شعر كذلك ترقص فيه الصور الشعرية على إيقاع موسيقيٍّ موزون ولكنه متطور بنيت موسيقاه على حركة من حركات الخليل المتحررة. وما أكثر ما تتطور الموسيقى وما أسرع خصبها وتكاثرها. وما أحرى أن تتواكب حركة التعبير بالخطوط والدوائر والألوان لترسم صورةً منقولة من الطبيعة لتساير الحركات الفكرية والثقافية في كل مكان وكل زمان. وما أحرى الحروف والكلمات والمقاطع والعبارات أن تتطور كذلك لترسم صورة بليغة ترقص على أنغام العصر الذي نعيش فيه.

لقد استخدم الشاعر الحديث التفعيلات المستخدمة في الشعر القديم دون أن يلتزم عددًا معينًا ثابتًا من التفعيلات في كل بيت. وقد لا يلتزم قافية، وقد لا يلتزم طولَ البيت. فمن بحر الكامل استخدم أربع تفعيلات «متفاعلن»:

ناديت باسـ	ـمك في شوا	رعها، فجا	وبني الظلام
متفاعلن	مُتفاعلن	متَفاعلن	متفاعلن + ن ـ متفاعلان

وبهذا يتحلل الشاعر من وحدة البناء في البيت كأساس. وعلى نفس هذا المنوال وفي نفس البحر كتبت الدكتورة عاتكة الخزرجي قصيدتها عن مدينة الرياض قالت فيها:

وسئلت أن	أصف الريا	ض فقلت في	ها روح جنة
متَفاعلن	متَفاعلن	متفاعلن	متْفاعلن + لن ـ متفاعلاتن

ولهذا فقد وجهت إليها السؤال التالي:(15)

س ـ الشعر التقليدي العمودي هو الذي يلتزم أصول العروض كما أوضحها الخليل بن أحمد. إلا أننا نجدك تناهضين الشعر الحر وتناهضين الخروج على الشعر التقليدي. فقد قلت: «إن الشعر الحر خرافة وليس فيه أي وزن». فإذا وضعنا قصيدتيك الرائعتين الأخيرتين: «مرحى رحاب الأكرمين»، «وسئلت أن أصف الرياض: «في الميزان النقدي وجدناهما يسيران على بحر الكامل وعدد التفعيلات فيهما أربع فقط، علمًا بأن علم العروض كما وضعه الخليل بن أحمد يحددها بست تفعيلات. فما هو تبريرك لهذا؟

جـ ـ أنا أقول الشعر عن طبع. ولي أذن موسيقية. وكتبت الشعر وأنا صبية في العاشرة. وأنت الآن تخبرني أنها

من بحر الكامل. وصدقني والله أنني لم أفكر لحظة في أنها من بحر واحد أو من أيّ بحر كان إطلاقًا؛ لأن الشعر هو طبع بالنسبة لي. فأنا أكره العروض، وهناك فجوة بيني وبينه.

وعفوًا، أنا أعترض على قولك الشعر التقليدي؛ فليس هناك شعر تقليدي وشعر غير تقليدي. هناك شعر أصيل وهناك اللاشعر، فالشعر الأصيل هو الذي يفرض أصالته سواء في وزنه وقافيته أو في روحه أو معانيه أو موسيقاه أو كل هذه مجتمعة. لكن لا شعر مثل هذا الهراء الذي ملأ الدنيا عجيجًا وضجيجًا.

وللتعقيب على رأي عاتكة أرى أنها على حق فيما تقول إذا كان القصد من اللاشعر أو الهراء الذي تقصده لا يمس المثالين الأول والثاني والثالث التي سبقت الإشارة إليها، حيث إنها ملتزمة الوزن الموسيقي والإيقاع التفعيلي وكذلك البناء الشعري الجزل. أما فيما عداهما من الأمثلة فلها مطلق الحرية في أن تسميها كما تشاء.

فإذا كان الإيقاع الموسيقى ينشأ في القصيدة الشعرية بالتقسيم والتقطيع والتزام التفعيلات التي تقطع البيت قطعًا منسقة متناغمة: rythm فإن المجانسة اللفظية بين لفظة ولفظة لها أثر في موسيقية الشعر والنثر على السواء. والسجع الداخلي internal rhyme واللفظ أو الحرف أو المقطع المتناغم مع تركيبة الكلمة وتعاقبها مع الكلمات الأخرى assonance واللفظ أو الحرف أو المقطع الذي يدل على معناها onomatopoeia مثل خرير الماء وزئير الأسد كلها تتفاعل مع إيقاع موسيقى الأوزان والقوافي لتشيع جوًا موسيقيًا تتراقص على أنغامها الصور البلاغية.

ادعاءات باطلة

وتبنى الصور البلاغية بالتشبيه والاستعارة والكناية والتورية والإيماءة والترصيع الذي يوائم بين لفظة وأخرى في البيت فيما يعرف بفن التنميق وصناعة الجمال. كما يبنى بالرمزية واستخدام الأسطورة. ونترك للدكتورة عاتكة أن تسهب في شرح هذه الصور الشعرية فتقول:

يتوهم بعض الأدعياء اليوم أن الرمز استخدم حديثًا، وأنه في الغالب مذهب جاء من الغرب، ونحن نفند هذا بإصرار بشاهد بسيط من البلاغة العربية، يعني أن أي كتاب بيان أو بلاغة نقرأ فيه الكناية والتورية والإيماءة والاستعارة والمجاز، وهذه كلها رموز. والقرآن الكريم حافل بهذا. فيأتي الأدعياء فيتشدقون ويقولون إن هذه المذاهب كلها غربية وإنها حديثة. وهم دائمًا تبع لما يفعل الأجنبي. فنحن ننكر بشدة هذه الدعوى.

وهناك العديد من الادعاءات الشبيهة بهذه، فقد ذكروا أن الشعر العربي تعوزه القصة الشعرية، فجن جنوني حين سمعت ذلك. فكيف يزعمون ذلك والقصة الشعرية ولدت مع الشعر الجاهلي. وبذور القصة الشعرية موجودة في معلقة امرئ القيس... نتف من قصص هنا وهناك: حادثة دارة جلجل، وموقفه من عنيزة أو فاطمة كما يحلو له أن يسمي ابنة عمه.

ثم أتت القصة الشعرية لدى عمر بن أبي ربيعة، «فرائية عمر» وهي سر اشتهاره رائية طويلة فيها من حبكة القصة ما لا يقوى عليه الناثر... قصة محبوكة في كل عناصر القصة الحديثة من التشويق إلى العقدة والحل والمفاجأة. وكل شيء بأسلوب شعري سمح وسلس.

وقبل أن تفض عدالة المحكمة النزاع الفني حول قضية الشعر الحر تلزم الإحاطة بأن هناك دراسة للحصول على درجة الدكتوراه تقدمت بها الطالبة هدى العقاد وناقشتها لجنة مشكلة في كلية آداب جامعة عين شمس، قسم اللغة الإنجليزية عن الأدب المقارن موضوعها «أثر الشاعر البريطاني تي. إس. إليوت رائد حركة الشعر الحديث في الشعراء العرب عامة، وفي شعر صلاح عبد الصبور، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة خاصة». وتلخصت الدراسة في إبراز أوجه هذا التأثر في الشاعرين الأولين، أما الشاعرة الثالثة فقد تركزت الدراسة على إبراز أثره فيها وإن كانت تنكر هي ذاتها هذه الآثار.

وفي هذا الشأن: ما أشبه عاتكة بنازك! فكلتاهما تمتص رحيق التراث وتتمثله ثم تخرجه شعرًا صافيًا، فيه شفاء للقلوب وراحة للنفوس التي تتطلع إلى الجديد. ولا بأس أن تتحررا من قيود القافية والوزن التي ابتكرها الإنسان ولم تنزل من السماء. وليس المقصود هو التحرر من الوزن، ولكن المقصود فقط هو التحرر من عدد التفعيلات. فإذا لم تكن هناك تفعيلات تسري في أوصال القصيدة فلا شعر هناك على الإطلاق، ولكن هو الهراء الذي قصدت إليه الدكتورة عاتكة، ويؤيدها في ذلك الدكتور شوقي ضيف حيث يقول:(19)

وليس الغموض وحده هو الذي يتهدد مصير الشعر الحر ومنظوماته، بل يتهدده تهددًا أشد بدعٌ جديد فيه، هو بدع القصيدة النثرية التي أخذ يشيع في بعض شعرائه الكبار، وهي قصيدة تقطع أواصر الصلة بينها وبين عروض الشعر العربي، ولا أدري كيف يسمونها قصيدة وهي لا تحتفظ بأي عنصر من عناصر الموسيقى في القصيدة العربية، بل إنها تفقد جميع الوشائج التي تصل بينها وبين الشعر الحر، إذ سقطت فيها التفعيلة عماده، بل انتزعت منها انتزاعًا، وهو إلى غير مآب. وهو تماد في الحداثة إلى أقصى حد، وكأني بهم يقصدون إلى ذلك قصدًا، حتى يستقر في الأذهان أن ما يسمى بعروض الشعر العربي وبتفاعيله إنما هو لغو وهراء ما بعده هراء، ونعجب - كما أسلفنا - أن يسمى هذا الصنيع قصيدة نثرية وهو ليس فيه أي سمة من سمات القصيدة العربية، إنما هو لون من ألوان النثر الخالص، وإن دل على شيء فإنما يدل على تخبط أصحابه فيما يبتغون من حداثة.

الشويعر والمتشاعر

ويحتج أصحاب الشعر الحر الموهوبون بأن التزام القافية الموحدة كما في القصائد، أو القافية المنوعة كما في المسمّطات والموشحات والرباعيات والشعر الدوري قد يدفع الشاعر إلى إقحام كلمات زائدة أو مقاطع تخلخل المعاني في منظوماتهم الشعرية؛ إذ يضطر الشاعر إلى أن يجتلب ألفاظًا للحفاظ على القافية لا يحتاج إليها المعنى، فتشعر القارئ بأن ترهلا دخل السطر في المنظومة، فأفسد صياغتها وأصابها بغير قليل من الركاكة.

ويؤكد الدكتور شوقي ضيف أن «ذلك لا يحدث لشاعر موهوب ممتاز، إنما يحدث لشاعر ضعيف أو متشاعر يجف نبع شاعريته إزاء المعاني قبل وصوله إلى القافية المنوعة المنشودة، فلا يستطيع إكمال سطوره إلا بملحقات وإضافات لا حاجة إليها، ومثله لا يكون شاعرًا يستحق هذا الوصف إنما يكون شويعرا أو متشاعرًا، وينبغي أن تغلق أبواب الشعر الحر أمامه... ومعروف أن الشاعر لا يفكر - مثل الناس العاديين - بألفاظ ثم يصوغها صياغة موسيقية، بل ينشأ في نفسه المعنى بصيغته الموسيقية الكاملة... ولا شك في أن أخطر ما يهدد منظومات الشعر الحر خلوها من القافية المنوعة... لأنها ظلت - كما ظلت أختها الموحدة - تعد ركنًا أساسيًا في شعرنا - على توالي العصور - بحيث إذا سقطتا جميعًا منه أحسسنا كأنما خر أو تداعى من قواعده... وحريٌ بي أن أشير إلى أن بعض النابهين من أصحاب الشعر الحر أخذوا يحسون بذلك إحساسًا عميقًا مما جعلهم يحاولون التحام إيقاعهم الجديد بإيقاع الشعر الموروث في قوافيه المتنوعة المعروفة في الشعر الدوري والمسمّطات والموشحات، وبذلك أخذ نغم السطور في منظوماتهم ينتهي بقرار القافية المنوعة متقابلة ومتعانقة»(17).

وفي رأيي أن التزام التفعيلات وترديد موسيقاها الذاتية على نهج أسلافنا الأوائل بقوافيهم الموحدة في عصرنا هذا يعتبر ضربًا من ضروب البراعة في تعبئة


بدر شاكر السياب


إليوت

قضية الشعر الحر

أوزان التراث ليست منزلة من السماء، وهي قابلة للخضوع لقواعد الطبيعة ونظم الكون في التطور والتطوير، وفي التأثر والتأثير

المعاني الرصينة المتناغمة في قوالب التراث الشعري. وأقل من ذلك درجة التزام هذه التفعيلات بموسيقاها العربية والعباسية والأندلسية بالقافية المتنوعة في إطار الشعر الدوري والرباعيات والمسمطات والموشحات. ولكن لا بأس كذلك أن يتطلع أصحاب الشعر الحر إلى التحرر من القافية مع التزامهم التام موسيقى التفعيلات بشرط توافر المعاني البلاغية والصور الشعرية التي تعوضنا عن فقد القافية الموحدة أو المنوعة. فأوزان التراث كما يقول طه حسين «ليست منزلة من السماء»، ولهذا فهي قابلة للخضوع لقواعد الطبيعة ونظم الكون في التطور والتطوير، وفي التأثر والتأثير. فليس اللجوء إلى التحرر من القافية الواحدة في قصائد الشعر الجاهلي وإبداع أنماط القافية المنوعة في الشعر الدوري والمسمّطات والرباعيات والموشحات، إلا خضوعًا لقواعد التطور. فكيف نطالب الشعراء المعاصرين أن يتجمدوا في قوالب الماضي ونحرم عليهم الخضوع إلى نظم التطور والتأثر إذا كانوا ملتزمين إسماعنا موسيقى سطورهم المتناغمة وإمتاعنا بصور بديعة التلوين، رائعة المذاق، شذية العطر، ناعمة الملمس ساحرة الجمال دون غموض أو ابتذال.

لقد خضع الشعر العربي إلى التطور والتأثير، إذ تطور من أشكال القصيدة إلى الرباعية والموشح وما إليها. وأثر في الآداب الأوربية، فأدخل فيها عن طريق الأندلس وشعراء التروبادور قصائد الحب العذري والصوفي، كما تأثرت أنماط الشعر الأسطوري والبطولي والملحمي والغنائي والرومانسي والديني والقصصي والمسرحي عند الإغريق والرومان والفراعنة والبابليين والآشوريين والعرب. وتطور الشعر البريطاني (والفرنسي) من تفعيلات تسع في قصيدة مقفاة إلى تفعيلات خمس في عصر النهضة iambic Pentametre خالية من القافية blanc verse هي التي كتب بها شيكسبير وبلابل العش البريطاني المغرد، ثم تطور إلى الشعر الحر Free verse الذي تبناه إيزرا باوند Ezra Pound 1885-1972. وتي. اس. إيليوت T.S. Eliot 1888- 1965م في مطلع القرن العشرين، وهو القطب الموجب الذي جُذب إليه وتأثر به شعراؤنا المعاصرون. ولا يندرج تحت هذا الرأي بطبيعة الحال كل كلام منثور أو منظوم أغفل موسيقى التفعيلات وحلاوة الصورة الشعرية البليغة كما رأينا ذلك في الأمثلة الثلاثة الأخيرة: الرابع والخامس والسادس.

وبهذا، يمكننا في نظري أن نستمع إلى التراث الشعري على إيقاعات الدفوف والقيثارة، في العرضة النجدية أو في الدبكة الشامية، في المناسبات الوطنية والحفلات الغنائية، على صفحات الصحف والمجلات، ممتطيًا صهوة الطائرات وعابرًا كل المحيطات بما يناسب حياة العصر، ونفسية الشاعر والقارئ والمستمع وظروف البيئة والمجتمع.

لقد أحل الله البيع وحرم الربا، وأحل التطور وحرم الجمود، وفضل المجاهدين على القاعدين، يقول تعالى: *وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فوقَ بعضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتاكُمْ*. **الأنعام**: 165.

وبعد هذه المناقشة المسهبة يجدر بنا أن نستخلص عدة حقائق وأن نصدر عدة أحكام نوجزها فيما يلي:

أولاً: إن الشعر هو كل منظوم في قوالب شعرية تكفل له الموسيقى المنتظمة، بفعل التفعيلات والقوافي التي تتعانق مع الصور البلاغية الباهرة. فالكلام المباشر الذي يخلو من الصور الشعرية البلاغية هو نثر لا يرقى إلى مرتبة الشعر حتى ولو صب في قوالب شعرية. أما الكلام المنثور الذي تتوافر فيه الصنعة الفنية والقيم الجمالية، فهو بعيد عن الشعر بعده عن الانتظام في صفوف التفعيلات على أنغام الموسيقى الشعرية والأوزان والقوافي، فلا يزيد عن كونه نثرًا فنيًا.

ثانيًا: إن الشعر الأصيل الذي يلتزم موسيقى التفعيلات ووحدة القافية في القصيدة الواحدة مع توافر مقومات الشعر الأخرى من صور بلاغية وصنعة فنية، ويعدّ شعر هذه الفئة شعرًا من الدرجة الأولى مثلما هو واضح في المثال الأول.

ثالثًا: إن الشعر الأصيل الذي يلتزم موسيقى التفعيلات ويستخدم قافية متنوعة تتغير في كل مجموعة من الأبيات مع توافر مقومات الشعر الفنية الأخرى هو تطوير لشعر الدرجة الأولى، ولهذا فهو أدنى منه درجة ويستحق أن يكون شعرًا من الدرجة الثانية. والأمثلة على ذلك ما أوردناه في متن هذا البحث من المثال الثاني.

رابعًا: إن الشعر الحر الذي التزم موسيقى التفعيلات ولم يلتزم عدد التفعيلات ولا القافية الموحدة أو المتنوعة، مع توافر مقومات الشعر الأخرى من صور بلاغية رصينة فنية، هو تطوير لشعر الدرجة الثانية، ولكنه لا يرقى إلى مستواه، وخليق بنا أن نجيزه نوعًا من أنواع الشعر، ولكنه يقع في الدرجة الثالثة من أنماط الشعر، والمثال الثالث السابق ذكره يوضح ذلك.

خامسًا: إن الكلام المباشر الذي يخلو من المحسنات البديعية والصور البلاغية لا يرقى إلى مستوى الشعر مهما انتظمته الأوزان والقوافي، إذ إنه يلتزم موسيقى بلا مضمون ولا روح تسري في عروقه. والمثال الرابع أحد هذه الأنماط.

والمثال الخامس الذي يصور كلامًا مباشرًا ليس فيه أية فكرة مبدعة، وليس فيه وزن أو تفعيلة، ولكنه مرصوص في سطور تربطها قافية هو كذلك من أنماط اللاشعر كما تقول الدكتورة عاتكة والدكتور شوقي ضيف.

والمثال السادس، الكلام النثري الفني المسجوع لا يرقى إلى مرتبة الشعر مثل سابقيه.

سادسًا: بهذا تتم المصالحة بين طرفي النزاع بتوضيح مقومات وسمات الشعر وتحديد ما هو الشعر وما هو اللاشعر على ما أسلفناه؛ وصدق الدكتور طه حسين عندما قال: «ليس على شبابنا بأس في أن يتحرروا من قيود الوزن والقافية. ولا يطلب إليهم في هذه الحرية إلا أن يكونوا صادقين؛ فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تنزل من السماء، على ألا يلتبس الفهم في التحرر من قيود الوزن والقافية ليعني خلو القصيدة من الوزن التفعيلي. فموسيقى التفعيلات ضرورة ملحة لإدخال القصيدة في رياض الشعر، وبدونها تستبعد من دوحة الشعر، وإن كانت تحتل الدرجة الثالثة من درجات الشعر كما أسلفنا.

الهوامش والمراجع:

1 - ملحق مجلة الأستاذ، 1969م، ص-131 129.
2 - ت. ع. منصور، «حديث مع الشاعرة الدكتورة الخزرجي»، جريدة المدينة المنورة ملحق الأربعاء الصادر في يوم الأربعاء 15 شعبان 1404هـ الموافق 16 مايو 1984م، ص12.
3 - المصدر السابق.
4 - د. جلال الخياط، الشعر العراقي الحديث: مرحلة وتطور [بيروت دار صادر، 1970]، ص ص 119 – 122.
5 - نفس المصدر، ص 113.
6 - نفس المصدر، ص 111.
7 - يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر (دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 1980م)، ص 59.
8 - نفس المصدر، ص 251.
9 - أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، الشعر في البلاد السعودية في الغابر والحاضر: حسين سرحان - ابن خميس - القصيبي - الدافع (الرياض: دار الأصالة والمعاصرة للطباعة والإعلام والنشر، ——)، ص 139.
10 - محمد بن أحمد العقيلي، الأنغام المضيئة (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1391هـ/1971م)، ص 118.
11 - الدكتور صالح جواد الطعمة، صلاح الدين في الشعر العربي المعاصر، (الرياض: النادي الأدبي، 1399هـ/1979م)، ص 109.
12 - العقيلي، نفس المصدر، 145.
13 - سعد البواردي، «صاحبة الكوخ»، الحرس الوطني العدد السادس والستون، شعبان 1408هـ/إبريل 1988م، ص 122.
13 - محمد بن سعد بن حسين، الأدب الحديث في نجد (القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، 1971)، ص ب.
14 - منصور، نفس المصدر، ص 12.
16 - د. شوقي ضيف، «الشعر الحر بين التراث الشعري والحداثة»، الحرس الوطني العدد 67 - رمضان 1408هـ - مايو 1988م، ص 111.
17 - نفس المصدر، ص 110.



مع عمر بهاء الدين الأميري: شهادات ورفات ورؤى

سعيد ساجد الكرواني

حق لشاعر الإنسانية المؤمنة - رحمه الله - أن يطلعنا على تجربته مع ديوانه الموسوم بـ «ألوان طيف»(1)، لأنه مهما تحدث الناقد عنه فلن يبلغ ماأراده الشاعر. قال الأميري:

«اصطنعت في "جبل الأربعين"(2) رأس «أريحا»(3) المشرئب بيتًا تصطاف فيه الأسرة، وأتخذه دار عزلتي، ألوذ به من وعثاء الزمان، و«منغصات العيش في حلب»! خلسًا من خريف.. وأياما من ربيع، أفرغ فيها لذاتي، طلقا من إسار الناس، أعد لنفسي أبسط الطعام، أحيا على السجية، وأنطلق مع الشعر:

هو في غربته يأنس بي
وأنا في لحنه أشكو الدنى

أسرح ولاأمرح! أجعل الخبز فتاتا في دروب النمل، أنقذ الفراش من شباك العناكب، أستمتع بتأمل العصافير تختلس أثمار شجري بنهم، وتغرد في نشوة، أتسلى بالقطة الشرود والمستوحشة، أهّلها بِرّي، فأخذت تأنس بي وتهــرّلي، تثب إلى حضني، تنطح يدي، وتلعق أصابعي:

والهرة الشعراء تنطحني
وتمد أيديها على ركبي
كَسْلى تشم أناملي ملقا
وتموء في رفق وفي أدب
وتعضُها هَوْنًا وتلعقها
ولسانها كالمخمل الزغب
وتعوق خطوي في تدللها
وتسير إما سرتُ في طلبي

فإذا جلست جثت على قدمي
والرأس معكوف على الذنب
(شبح الخريف ٣٠٠-٣٠١)

في وحدتي

في وحدتي حتى الفرا
شة خَلّفتْ خدي وطارت
ورمت بهيكلها على
بلور نافذتي ودارت
ففتحتها حتى تطيـ
ـر ولست أدري أين صارت
(178/177)

التمس في الزهر والشجر وفاء وصفاء أفتقدهما في البشر:

في غلق

وصحاب في جدالٍ
ومُضيٍ غيرِ صائبْ (399)
فإذا وانتهم الأيـ
ـام فالربّان سائب (400)
ضَلَّ مَنْ يأمُلُ أن يقـ
ـهر باللغو المصائب
خاب في الناس اعتمادي
ومضائي غير خائب
كلما بادر بي عَزْ
مي إلى شُمِّ المطالب
ردني صحبي إلى مر
تَهَنِي من غير صاحب
فحياتي غلق في
غلق، والدهر دائب (401)

في هذا الزمان حيث تبحث عن الخلان لتجد الخذلان، وصدق الإمام علي كرم الله وجهه:

وماأكثر الإخوانَ حين تعدهم
ولكنهم في النائبات قليل

ولكن، ليس هذا الأمر غريبا في هذا الواقع الغريب، حيث صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، إذ انكفأ الميزان:

يارحمة الله

نعيش في عصر موازينه
في الحق قد آلت إلى ضده
هزاله أفعل من عزمه
وهزله أمثل من جده
أمَا أُخيٌّ واحدٌ في الدنى
يحبوك ماتحبوه في ودِّه؟
قد تعب الحر، وأعياه في
دنياه، مايعجز عن عده (425)

لاشك أنه شعور حاد، حين يتنكر لك الأصحاب، لايعرفه إلا من ذاقه... «أصنع بالأوهام من هيولَى الغمام عرائس الأحلام، أملأ من أعناب الإشراق، دنان الآفاق، وأشارب بنات الأذواق، سلاف الأشواق، أبكي بدمع الغروب الحزين، وأفترّ مع الفجر البسام، وقد أرسل من القلم، مداد ألم، وأخط في السطور بوارق سرور، أسكب المشاعر شعرا، من كيان حيران، بين أنى وكيف؟! في أشكال وألوان.

"ألوان طيف"، وحي سنواتي الخمس الأخيرة، يزيد على أربعمئة قطعة، منها القصيدة تبلغ أبياتها المئتين ومنها الرباعية في بيتين، وفي هذا الديوان مختارات، موضوعاتها أفانين متباينة متلاقية، نبات مختلف ألوانه يسقى من ماء واحد، ولعلها تبرزني كما أنا، وتنقذني من شبهة النفاق، وسمة الصوفية، التي أعبرها نقية تقية، ولكنني لاأستحقها!!

هذا الديوان أضاميم شوك وزهر من نتاج شطر من العمر، جزء يسير، ولكنه قد لايكفي لإظهار ملامح شاعر، والتعريف بإنسان إنسان، إنه أثارة من شعري المسطور»(4).

مَنْ من أصحاب العقول والقلوب لايعرف الأميري عمر؟ ومن من العرب والمسلمين ومثقفي العالم، لايعرف قيمة الشاعر المفكر العملاق بهاء الدين الأميري؟

مَنْ من الشعراء والنقاد والأدباء لايعرف صاحب الدواوين الثلاثين التي تحكي قصة (العبقرية) الفذة، والشاعرية المتألقة، اللتين امتلك الأميري نواصيهما في سبحات روحه الشفيفة، وعروج نفسه ذات الألق الحضاري الموسوم بذوق إسلامي رفيع، هيهات أن يكون في غير أصحاب النفوس الكبيرة، والقلوب الحية، والعقول التي استنارت بنور الربانية، فهفت إلى الحق والحقيقة الإلهية، فصاغت في حاملها شاعرا ذواقا، جميل الوجه واليد واللسان، جميل المحيا ويحب الجمال ويهيم فيه، فكان مثلا حيا لذوق رفيع.. رفيع.. رفيع، وخلق تسامى وتسامى، حتى صار مضرب المثل مدى الحياة المريرة التي ملأها شاعرنا العظيم بألوان زاهية في ذكريات حبيبة

ضمخت حيوات أصدقائه ومعارفه وتلاميذه بأشذاء روحية لاتبلى على الزمان، (...) وعندما سألته عن صحته في آخر مكالمة هاتفية في مهاجره في «الهرهورة» المغربية، أجاب: ماذا يهمك من صحة رجل أكل عمره؟ اسأل عن صحة أحوال المسلمين، فالمسلمون مرضى وأحوالهم بائسة وتعيسة، تدمي القلب... هيه أبا البراء.. يابقية بقايا الصالحين والعمالقة في دنيانا» (5).

«إنه فيض غامر من الشاعرية، والرؤى المستوحاة من نبع الإسلام، تمتزج في قصائده صوفية الحب، بقيم الإسلام وقضاياه، واستجلاء المواقف لاستنهاض العقيدة، مع رصد نابض بالإحساس لكل مايستجد في ساحة الأوطان الإسلامية، واستشراف المستقبل الذي تتطلع إليه الأمة، في الحرية والكرامة»(6) كان موغلا في التفاؤل والأمل رغم كبر سنه، رحمه الله رحمة واسعة، كان موغلا في الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين، كنت أقرأ في محياه كتاباً يمتد في ذاكرة القرن العشرين، أيَّ روحٍ حملَ ذلك الجسدُ الطاعن في الإصرار؟ إصرار النقاء والطهر رغم انغراس العفونة في تفاصيل حياتنا العربية المريرة؟! أيُّ نفس شعت من تلك الانحناءة الأبوية؟! أية طاقة كان يحملها ذلك الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية؟!(7).

كان الأميري رحمه الله، فارساً ورائداً طموحًا في ميدانه، شديد الغيرة على الأدب والثقافة داخل المغرب الأقصى ـ حيث استقر منذ ثلاثين عاما ـ وخارجه(8) ثم إنه يستحق بحق صفة شاعر الإنسانية المؤمنة، وأمير الشعراء الإسلاميين، للنصف الثاني من القرن العشرين قاطبة، الذي يوافق أمير الشعراء في النصف الأول، وهو محمد إقبال في أقصى شرق العالم الإسلامي(9).

إن الشاعر النموذجي الذي تتوافر فيه كل خصائص الشعر الإسلامي، هو الشاعر عمر بهاء الدين الأميري ـ يرحمه الله ـ لأنه استطاع ببراعة فائقة أن يوفق بين المضامين الإسلامية الإنسانية، والجماليات الفنية، واستطاع أن يتبنى من الناحية الفنية مأأسميه بالرومانسية الروحية، وأعني بها الانطلاق بالنفس والروح والخيال في أعماق الذات البشرية وأعماق الشخصية المسلمة، وأعماق ذاته في المناجاة والروحيات. فإذن نحن أمام خيال ابتكاري، لايضرب في مجالات الشرود والانطلاق المغرق، ولكنه جعل من النفس الإنسانية والمسلمة أفقا أوسع من آفاق الطبيعة، فتشعر أنك أمام عوالم بلا حدود، متسعة، مترامية، لاعالم واحد، ذي نطاق محدد. واستطاع الأميري أن يمزج الحقيقة الإسلامية بالجمال الوجداني والانفعال الصادق في عجينة واحدة. وهو بمسلكه هذا، يُعدّ دفاعا عمليا عن الشعر الإسلامي المتهم بالجفافية الفكرية، على حساب الجمالية الفنية. وعمر بهاء الدين الأميري ـ زيادة على ذلك ـ متفرد بجانب آخر لم ينتبه إليه أحد(10) وهو تقديمه النثري لكثير من قصائده، فالذي لم يدرس عروضاً، قد يعتقد أن هذا التقديم النثري داخل في صلب القصيدة، يقول الدكتور جابر قميحة: «وأنا أرى أنه إذا أصر دعاة (قصيدة النثر) على ادعائهم، لكانت مقدمات بهاء الدين لقصائده هي المثال الحي لقصيدة النثر»(11).

ويشبه الأميري في هذه السلاسة نزار قباني وأحمد مطر نثراً وشعراً، فكلامهم يأسر بغض النظر ـ إذا جاز ـ عن المضمون، خذ على سبيل المثال وفي نفس السياق الذي نحن بصدده مايقول الأميري: «مضت شهور أربعون، والديوان جاثم حيث كان، في ترقب من يصنع له لوحات، تتلاقى وبعض صوره وأخيلته، وجاءت لوحات، لأأدري ماذا أقول عنها؟! تشكلات الغيوم أوضح منها!! لو جعلنا معاني الشعر دخانا، وأحلنا روحه، من آفاق وأعماق إلى أخلاق!(12) وصوره من أبعاد وامتداد إلى رماد! ثم جئنا بالريح ملونة، تمزج هذا بذا خبط عشواء، وكانت اللوحة الخالدة للعبقرية الفذة!! على أن الأمر في التصوير، أهون منه في التفكير، فما هي إلا مجاجات على ورقة، من ريشة «رسام» مختلفة الألوان والقوام، يسيل بعضها على بعض، في عبث سريع، حتى ينتهي الأمر، ويفرض «ذوق العصر» هذا الهذيان السائل، والهراء الملون، آية من آيات الفن، لك أن تسميه «تجريديًّا» أو «سرياليًّا»، أو أن تبتدع له شكله «عشوائيا» وتدعوه «عنقائيا»! أما إذا أردت إبداعا منطلقا من روائع الرسم، وفنه العريق، فيقول «المجددون»: لا ليس من فن العصر، تصوير الرقائق والدقائق، هذا جمود!! ألا رحم الله الكيلاني(13)؛ إنهم المجددونات(14)وكم لهم من نظراء في الشعراء، يرون من «رجعية» الأدب أن يقيموا وزنا لـ "وزن"! أو أن يقفوا عند "قافية"!!!» (15).

ولابد أن نقيد هذا الكلام حتى لايبقى على إطلاقه، فيفهم الأميري وغيره خطأ. إننا نرى أن المسألة تدور حول ثلاث قضايا: الوضوح ثم الغموض فالإبهام: ولك أن ترحب بالوضوح التام، شرط أن يحضر الجانب الفني حضورا مهما، أما في الغموض، فالفهم يبقى ضربة لازم، حتى إذا قمنا بتشريح للمتن الأدبي، أوفى على تبليغ رسالته بعبارات فنية وأدبية، أما الإبهام فلانملك إلا رفضه، مادام طلاسم غير ذات حلول، في الحال والمآل. وقد نقبل الجمال أحيانا.. هل نفهم صوت العصفور؟! هل نقرأ ألوان الطاووس؟! والوردة؟! في غير القراءة المتصلة طبعا؟!

ـ نزار قباني: (المتنبي شاعر الحمراء)!!

هل دخل الشعر العربي مرحلة الشذوذ؟

هل أصبح الشعراء الذين يكتبون القصيدة (الطبيعية) مدانين بجرم الاتصال بالشعب العربي؟!

بعد ثلاثين سنة من العمل الشعري يجد (الشعراء الطبيعيون) أنفسهم ملاحقين بتهمة (ارتكاب) شعر يقرؤه العامل والمزارع والموظف والجندي و..(16) فالقصيدة العظيمة ـ حسب منظور الحداثة ـ ممنوعة من الاقتراب من أحد.. ممنوعة من الاختلاط بأحد..(17)

ـ أحمد مطر: وتحديدا لموقفي الشعري أود القول بأنني أستند إلى الوضوح التام، ولاأبدي خجلي منه، لأنني اعتبر نفسي محاربا، ولست منشدًا في جوقة ما، ولأنني صاحب قضية، ترمي إلى التغيير السريع، وإلى عرض مأساتنا بصفتنا مواطنين عربا، وهذا كله لايحدث إذا غنيت ليسكر الآخرون، وإذا تجاوزت تحديد الموقف بصراحة وشجاعة إلى الدخول في دهاليز النغمات اللفظية والتغريب والتنظير والحذلقة(18) تجدونني أتعلق بأذيال الصورة الرمزية الشفافة، كما تجدونني أحيانا أضع أصبعي في عيون المظالم، ولي العذر في حال كهذه، لأنني لاأكتب الشعر ترفا، كما لاأحب كتابته بلغة لايفهمها إلا النمل!!(19) أنا لاأصنع الصورة الشعرية أو أتكلفها، أنا أنفعل بما حولي وأعبر عنه، ولاأرى في حياتنا مايبعث على البهجة، لكي احتفل بها(٢٠).

وختاما، رحمك الله ياأبا البراء لقد كنت شاعرا حقا وصدقًا واضحا، حاملا لهموم أمتك، جاهدت بقلمك حتى أتاك اليقين، فرحمة الله عليك.

الهوامش :

1ـ ديوان شعري لعمر بهاء الدين الأميري رحمه الله، بغير طبعة أو تاريخ.
2ـ من مراكز الاصطياف في شمال سورية.
3ـ منطقة اصطياف في محافظة "ادلب" بسورية.
4ـ «ألوان طيف» (ص 22 ـ 26).
5ـ جريدة «الراية» المغربية ع: 23، ص 16 (دمعة على الأميري) بقلم: عبدالله الطنطاوي.
6ـ ملحق عالم الفكر الإسلامي، السنة الأولى، ع:30، الجمعة 4 من ذي القعدة 1412هـ.
7ـ بتصرف من استهلال الحوار الذي أجراه الأستاذ محمد إقبال عروي، مع شاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله، الملحق الثقافي لجريدة الإصلاح المغربية، ع: 20، ص 20/ مجلد الإصلاح س 87 ـ 88 ـ 1989م.
8ـ مجلة العالم اللندنية ع: 438، 3 محرم 1413هـ، ص 35.
9ـ جريدة "الراية" ع: 22، 15من ذي القعدة 1412هـ، ص16، (إنا على فراقك يابهاء الدين محزونون) للأستاذ المقرئ أبي زيد الإدريسي.
10ـ نستميح الدكتور جابر قميحة العذر، فقد تفطن لهذا الأمر الكثيرون من قبل.
١١ـ الدكتور جابر قميحة، مصر، جريدة (المسلمون) السنة: 8ع: 394، الجمعة 23 صفر الخير 1413هـ، ص 8 (صفحة الأدب والثقافة) من حوار أجراه معه في القاهرة محمد سيد بركة). و(قصيدة النثر) في الحقيقة تحمل عناصر فنائها فيها للتناقض السافر، وبهذا الصدد، يقول الأميري: "إن إعطاء القيمة للأثر الأدبي، لاينبغي أن تكون مرهونة بهذا الشكل أو ذاك، حتى لانقحم على الشعر إنتاجا جديدا، هو يبتعد ـ حسب فهمي ـ من جمالية الشعر وخصائصه. لماذا؟! خذ مقامك الأدبي بجوهر ماتعطي، سواء كنت شاعرا أو ناثرا! فكم من ناثر قيمة نثره أكثر من قيمة كثير من دواوين الشعر(!!)".
أقول أما "التنغيم" ـ إذا وظفنا مصطلح الدكتور حسن الأمراني ـ شريطة كونه ملحنا أو قابلا على الأقل، فنحن نحتضنه.
12ـ الخَلْق وجمعه أخلاق: الشيء البالي.
13ـ الأديب العربي كامل الكيلاني، وكانت له ندوة في القاهرة يغشاها الأدباء والعلماء من مختلف البلاد.
14ـ كان العالم المحقق الكبير "عبدالعزيز الميمني الراجكوتي" يباحث الأستاذ «الكيلاني» في أمر لغوي، فسأله: وماذا يقول المجددون؟ فأجابه ساخراً: نحن ندعوهم: «المجددونات».
15ـ انظر ألوان طيف (ص 29 ـ 33).
16و17ـ نزار قباني (شيء من النثر) ط١ تشرين الأول (أكتوبر) 1979م، منشورات نزار قباني، بيروت.
18ـ حوار مع أحمد مطر أجراه الهداجي السيد بجريدة العمل التونسية مطلع 1986م
19ـ المعطيات نفسها.
20 ـ لقاء مع أحمد مطر بمجلة الأديب الطلابية، تصدرها جمعية اللغة العربية بجامعة الكويت. ع: ١س: 7 نيسان (أبريل) 1975م.

الرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ

الذّريعَة إلى مَكارمِ الشّريعَةِ

د. أبو اليزيد العجمي

قد يبدو غير معقول أن يحيط بسيرة عالم جليل كالراغب الأصفهاني شبه غموض وسمات اضطراب فيما كتب عنه، فاسم الرجل وهو في مجموع كتب التراجم: أبوالقاسم الحسين بن محمّد بن المفضل الراغب الأصفهاني، اسمه هذا لم ينج مما اتسمت به سيرة الرجل، فقد ترجم له السيوطي باسم «المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب»(1).

أما سنة مولده فلم يتعرض لها بالتحديد سوى صاحب «تاريخ حكماء الإسلام» إذ جعل مولده عام تسعة وتسعين وأربعمئة للهجرة (499هـ). لكن هذا جره إلى خطأ تفرد فيه وذلك حين جعل سنة وفاته خمساً وستين وخمسمئة للهجرة (565هـ)(2).

ويرى باحث معاصر أنه لم يذكر شيء عن مولده، لكنه من المتيقّن أنه عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وأنه عاش بين أصفهان وبغداد، فمن يذكره كالمفروضي يذكر أنّه من المتأخرين الذين جاؤوا في نهاية القرن الرابع الهجري، قال هذا وهو يحصر علماء أصفهان في القرن الخامس الهجري، ويذكرون أنه نزيل بغداد لكنهم لا يذكرون شيئاً عن سبب الانتقال(3).

وواضح أن الأمر في نطاق الافتراض الذي لا يملك دليل القطع في المسألة موضوع البحث.

حياته

نلحظ من خلال الترجمات التي عرّفت الراغب الأصفهاني أن حياته ومراحلها يكتنفها غموض كبير، وكثير من الذين ترجموا له اعترفوا بهذا حتّى الموسوعات المتخصصة، فنقرأ مثلاً في دائرة المعارف الإسلامية «ولا نعرف من تفصيلات حياته شيئاً أكثر من أنه توفي بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، ولعلّ ذلك كان في عام 502هـ (1108م) (4).

ويقول صاحب القاموس الأعلامي: «ويُحيط بسيرة الراغب الأصفهاني الغموض ولم يستدلّ من مؤلفاته العديدة على مراحل حياته»(5)، ولعل ذلك لأن الراغب لم يتحدث عن نفسه كسيرة ذاتية، أو عن صلاته بعلماء عصره أو حكامه.

أما صاحب «كنوز الأجداد» فيرى أن الغموض الذي اكتنف حياته يظهر واضحاً في أن كتب طبقات مذهبه الفقهي لم تترجم له، وهو يعزو هذا إلى عدم لجوئه إلى سلطان أو رجال الدعاية في عصره: «لم يترجم له أصحاب الطبقات، من أهل مذهبه، وغاية ما اتصل بنا من أخباره أنّه كان صاحب حديث ولغة، وشعر وأدب، وأخلاق، وحكمة، وأنه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك، وأنه كان مقبولاً عند العامة والخاصة، ومن أئمة السنة، شافعي المذهب، وقرنوه بالغزالي، وقيل: إن الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفاسته، وإن القاضي البيضاوي اعتمد على كتاب مفردات الراغب في التفسير»(6).

ويتفق مع الرأي السابق في تفسير الغموض في حياة الراغب رأي آخر يقرر أن الراغب لم يكن ذا اتجاه سياسي أو ديني (أي: مذهبي) بل كان يحاول جاهداً إخفاء أحاسيسه، ولهذا أهمله المؤرخون ولم يوجد من يعنى بأعماله إعلاماً ونشراً وتأريخاً، وربما كان هذا هو السبب أيضاً في أن معظم الاتجاهات ترجمت له وإن كانت لم تَجْلُ الغموض كثيراً (7).

أما أبرز الأعمال والوظائف التي تقلدها فالأمر حوله وجهات نظر، فإلى جانب الذين لم يتعرضوا لهذا الأمر إشارة أو تصريحاً وجد من يرى في ذلك رأياً.

فهناك من يرى أن شهرة الناس ترتبط بتقلدهم وظائف للسلطان تقربهم منه، وتسلط عليهم الضوء فتتناقل آراءَهم الكتبُ والألسنة، وأما الذين لم يتقلدوا مثل الوظائف المذكورة فكثيراً ما يبعد الضوء عنهم، بل ربما أُخفيَ ذكرهم عن عمد «وكم من عظيم لم يتول قضاء ولا عملاً للدولة بقي على خمول لا يكاد يشعر به، ولا يعرفه غير بعض أبناء حيه، ومنهم على ما يظهر الراغب الأصفهاني» (8).

وعليه فالراغب الأصفهاني في رأي هذا الباحث لم يتول مناصب رسمية، وإن كان هذا لا يمنع من نشاطه العلمي بصورة أو بأخرى.

وإلى هذا يميل أكثر الذين ترجموا للراغب الأصفهاني وإن كانوا لا يصرّحون بذلك، لكنه يلمح من تركيزهم على بيان أوصافه العلمية وبيان مؤلفاته التي تتنوع لتشمل مجالات عديدة من المعرفة الإسلامية. وصاحب الأعلام مع إيجازه الشديد في ترجمة الراغب قد أحال إلى مظانّ ترجمته ممن يرون هذا الرأي(9).

وهناك من استنبط من أوصاف علماء عصر الراغب له أن الراغب كان يعمل بالتدريس في معاهد عصره، وأنه تمرس بعديد من العلوم فيها كاللغة، والشعر، والأخلاق، والحكمة، ويؤكد فهمه هذا بأن الناظر إلى كتب الراغب يجدها تتنوع وتتكامل، كما يجد فيها دراسة مستوعبة للإنسان ما له وما عليه(10).

وسواء صح عندنا هذا الرأي أو الذي قبله فإنّ الأمر - كما هو واضح - لا يعدو أن يكون مجرد فرض لا يملك الدليل القوي، وكذلك فهو توضيح جزئي، لأن من استنبط

...اني وكتابه

اشتغاله بأعمال لم يقدم دليلاً كافياً.

والتدريس بالمعاهد آنذاك هل كان وظيفة رسمية أم تطوعاً من علماء العصر ومفكريه؟

ومتى كان ذلك وأين؟ وما الصلة بعلماء عصره إذا استثنينا الإشارات إلى الغزالي؟

كل هذه أسئلة لم تجد بعد جواباً، ولكنْ حسب الذين افترضوا أنهم حاولوا واجتهدوا قدر الطاقة.

مكانته العلمية

ربما كان بيان مكانة الراغب العلمية أسعد حالاً، وإن غطى الغموض جوانب ترجمته، لأن الذي وصل من مؤلفاته كان كافياً لتكوين فكرة عن الرجل وعلمه. كذلك فإن كثيراً من الذين كتبوا عنه قديماً-مع اختلاف مذاهبهم- امتدحوا علمه، وثراء تنوعه، وجودته فيه.

فقد ذكر بعضهم أنه شافعي المذهب، كما استفيد من فقه محاضراته، وذكروا أنه كان أشعري الأصول(11)، وإن كان هذا سيتباين مع دعوى اتهامه بالاعتزال والتشيع كما سيجيء. ويكاد يتفق مجموع من ترجموا له على مسألة تقدير الغزالي لكتاب الذريعة، حتّى كان يحمله دائماً لنفاسته، وأن البيضاوي أخذ في تفسيره غالب تحقيقاته من كتاب تفسير لم يتمّ للراغب الأصفهاني، سواء كان هذا الكتاب هو المفردات أم مقدمّة في التفسير كما تشير إلى ذلك بعض الكتب، فإن النتيجة واحدة في عطاء الراغب علماء عصره وبعد عصره، ويشهد بذلك من يتاح له أن يقرأ مفردات الراغب ليجد فيها معجماً قرآنياً لم يسبق إليه. وكذلك من يقرأ كتبه الأخرى - وبخاصّة (الذريعة) و (تفصيل النشأتين) - يدرك سعة علمه، وتعمقه في معارف عصره(12) ولا أريد أن أنقل سجلاً لأوصاف المترجمين له إذ الأمر ليس موضع شك، وحسبك أن تضيف إلى ما سبق حرص الشيعة على أن يؤرخوا له في كتبهم، وأن يعتبروه من الحكماء، ولو بفهمهم الخاص للحكمة، في الوقت الذي لم يغفل أهل السنة الترجمة له والاعتزاز به، بل ونفي التهم عنه كالاعتزال وغيره(13).

فقد ترجم له ظهير الدين البيهقي (ت: 565هـ) في «تاريخ حكماء الإسلام» وكان قد سماه من قبل: تتمة صوان الحكمة، وقد ولد البيهقي في 499هـ فهو قريب من عصر الراغب الأصفهاني الذي توفي 502هـ ووصفه البيهقي: بأنه "كان من حكماء الإسلام فهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه".

كذلك ترجم له من السنيين السيوطي(ت: 911هـ) في «بغية الوعاة»، كما ترجم له حاجي خليفة (ت: 1067هـ) في «كشف الظنون»، وطاش كبرى زاده (ت:968هـ) في «مصباح السعادة».

كذلك اهتمّ به محمد باقر بن زين العابدين الخوانساري الشيعي (ت: 1313هـ) في «روضات الجنات»، والعاملي الشيعي في «أعيان الشيعة» وأقابزرك الطهراني في «الذريعة إلى تصانيف الشيعة». وغير هؤلاء كثيرون.

وما كان ذلك ليكون لولا أنّ الراغب - مع الغموض المضروب حوله - كان عالماً فذاً يشرّف من ينتمي إليه هذا العالم.

أما كتبه فالموجود منها: الذريعة إلى مكارم الشريعة، ومفردات الراغب، ومقدمة التفسير، وتفصيل النشأتين، ومحاضرات الأدباء.

وأما المفقود فكثير: الإيمان والكفر، وتحقيق البيان في تأويل القرآن، وأفانين البلاغة، وكتاب حل متشابهات القرآن، والأمر لا يزال موضع اختلاف(14).

وفاته

اضطربت الكتب في تاريخ وفاة الراغب الأصفهاني، لكن صاحب «أعيان الشيعة» حقق هذا الأمر وذكر الاضطراب فيه، وكثير من المحدّثين أخذوا عنه هذا البيا(15)، ولذا آثرنا نقل عبارته «توفي سنة 502هـ، وفي كشف الظنون في أخلاق راغب: خمسمئة ونيف، وفي الروضات.. أنه توفي 565هـ وهو غلط، فإنه قال بعد ذلك إن وفاته كانت قبل وفاة جار الله الزمخشري، على أنّ الزمخشري توفي 538هـ، ويأتي عن كشف الظنون أنّ الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة للمترجم له والغزالي توفي 505هـ، كما يذكر العاملي أنّ السيوطي في بغية الوعاة ذكر أنه كان في أوائل المئة الخامسة، ولكن الصواب أنه كان في أوائل السادسة(16)ولعل السيوطي يذكر أنه كان في أوائل المئة الخامسة ويعني مولده، فما الذي يمنع أن يكون مولده في العقد الأول من القرن الخامس وعمّر حتّى بداية السادس الهجري؟

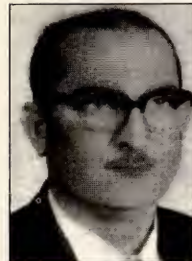
على أية حال فالرأي الراجح والمرتضى أنّه توفي 502هـ.

أمّا مكان وفاته وكيف انتهت حياته، فلم يتعرض لها سوى العاملي نقلاً عن الروضات إذ يقول: «وفي الروضات الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصبهان»(17).

وسوى صاحب الأعلام حيث ذكر كما سبق: «ولما كانت وقعة قتندة بثغر الأندلس شهدها غازياً واستشهد فيها»(18). والله أعلم.



عباس العقاد



د. عبد الرحمن بدوي

اتّهام الراغب الأصفهاني بالتشيع والاعتزال

وضح من الإشارات السابقة أن الراغب لم يكن من رجال الدولة ولا مشايعاً لحزب معين فيها، وقد عرف عن الراغب كذلك أنه لم يمحض كتاباً بعينه ليرد به على مذهب أو طائفة، وإنما كان جل اهتمامه بالإنسان وقضاياه في معاشه ومعاده(19).

يضاف إلى هذا الغموض الذي شاب سيرة حياته، ولم يكن الغموض خاصّاً بأسفاره وأعماله، وإنّما تخطى ذلك إلى مذهبه وانتمائه الفكري، وكان من نتيجة هذا أن عده أصحاب التراجم السنية عالماً من علماء أهل السنة، كما عده أصحاب التراجم الشيعية علماً وحكيماً من حكمائهم، ونتج عن كلّ هذه الظروف أن ألصقت به تهمة التشيع حيناً وتهمة الاعتزال حيناً آخر، وواضح أن هذا الاتهام لم يكن في حياته، وإنّما كان بعد موته ولدى من ترجموا له، ولعله من باب الشغف بتصنيف الناس، وكأن الأصل أن يكون المسلمون شيعاً وأحزاباً!!

اتهامه بالتشيع

بدهي أن الذين أثاروا هذه التهمة هم مترجمو الشيعة وإن بدا عندهم بعض الاضطراب كما في روضات الجنات، حين ذكر صاحبه أن الراغب شافعي المذهب كما بدا في فقه محاضراته، وذكر أنه أشعري الأصول، ثم يذكر كذلك أنّه مختلف في تشيعه، والدليل عنده على ذلك: حب الراغب لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروايته عنهم ومديحه إياهم ، ثم تبلغ المبالغة بالخوانساري حداً يحتاج إلى نظر حين يقرر أن الراغب لم ينقل في كتبه عن خلفاء غير علي رضي الله عنه وحاول ذلك جاهداً(20).

أما العاملي فيقول مثل سابقه بأنه مختلف في تشيع الرجل ثم يقول: «ولكن الشيخ حسين الطبرسي قد صرح في آخر كتاب أسرار الإمامة بأنه من حكماء الشيعة» (21).

ويربط العاملي بين هذا واتهام الراغب بالاعتزال ليخلص من ذلك إلى أن هذا يؤكد شيعيته «أقول يؤيد تشيعه قول من قال إنه معتزلي فإنهم كثيراً ما يخلطون بين الشيعي والمعتزلي للتوافق في بعض الأصول»(22).

وكأني به يوضح - عن غير قصد - اضطراب الخوانساري حين ذكر أنه أشعري الأصول ثم ذكر أنه شيعي، وقيل إنّه معتزلي، لأنه مادامت-كما يقول العاملي- أصول الشيعة والمعتزلة متفقة في بعضها فليس من المنطقي أن تتفق أصول الأشاعرة مع واحدة منهما.

أما دليل تشيعه الأكيد فهو كثرة رواياته عن أهل البيت وإيراده لبعض الأحاديث في فضل علي رضي الله عنه.

وليت الأمر وقف عند هؤلاء الشيعة، فإن باحثاً معاصراً حاول أن يفسر شيعية الراغب كما حاول أن يفسر اعتزاله، ومحاولته تتسم-في نظرنا- بالتوفيق المضطرب بين الآراء. إذ يرى هذا الباحث أنّه - الراغب - كان شيعياً معتدلاً بعيداً عن المغالاة مستشهداً على ذلك بكونه من أصفهان-وهي بيئة شيعية-، وبروايته عن آل البيت رضوان الله عليهم، وبكونه اتهم بالاعتزال لقربه من التشيع - ولنلاحظ هنا كلام العاملي فيما سبق - ويورد عدة نقاط لا تخرج عن هذا الذي ذكرنا.

ويرى أنه وضع بين أهل السنة لأنه لم يكفّر الخلفاء ولم يشطح في تفسيره شطحات الشيعة(23).

أما اعتزال الرجل فلأنه-كما يقول الباحث- اهتم بالعقل وبالإنسان ثم يقول: «كذلك سار الراغب على منهجهم - المعتزلة - في نفي الصفات عن الله، وهو أحد الأصول الهامة في مذهب المعتزلة، وإن لم يفرد لها باباً خاصاً في كتاباته، ولكنّه جعلها في مفترق كلامه»(24) ويشير الباحث إلى صفحة معينة في كتاب الذريعة. ويحاول الباحث أن يعتذر من فهمه السابق حين يذكر أنّ الاهتمام بالعقل عند الراغب لعله من عدوى الفكر اليوناني، فكان عذره هذا أقبح من الذنب، لأنّه - كما سنذكر - ليس غريباً على الإسلام اهتمامه بالعقل(25).

تعقيب

لعله وضح من أدلة هؤلاء أنهم يركزون على حب الرجل لآل البيت، وعلى نقله عن الإمام عليّ رضي الله عنه، وهذا أمر لا يخلو منه قلب مؤمن بكتاب الله وسنة رسوله، لذا فليس لهم في هذا دليل دامغ.

أما أن الراغب ركز روايته على علي رضي الله عنه معتمداً عدم روايته عن غيره فهذا لا يتفق وحقيقة ما جاء في كتب الرجل، ففي «الذريعة» و«تفصيل النشأتين» روايات عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كما أن الرجل يروي عن زُهّاد كالحسن البصري والفضيل بن عياض وغيرهما، ولعل هذا يرد على سؤال: لماذا يكثر النقل عن عليّ رضي الله عنه؟ إذ الأمر مرتبط بمناسبة النقطة التي يبحثها، هذا إلى جانب أن للإمام عليّ كلاماً مجموعاً يسهل الاستدلال منه.

كذلك فإن أهل السنة الذين ترجموا للشيخ الراغب لم يشيروا إلى هذه النقطة، ولو كانت واردة كشائعة أو متضمنة في كتبه لما سكتوا عنها، بل ربما ما ترجموا للرجل ولا اهتمّوا به. وما أظن أن هناك مسوغاً لمحاولة افتعال موقف متوسط للرجل بين السنة والشيعة، وحسبنا أن نتذكر ما أجمع عليه المترجمون له، من عدم تمذهبه، ولا تورطه في فكر حزبي بل كان مشغولاً باستخراج طريق شرعي للإنسان من خلال فهمه للكتاب والسنة.

اتهامه بالاعتزال

جاء في بغية الوعاة «وقد كان ظني أن الراغب معتزلي، حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام ما نصه: ذكر الإمام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس في الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة» وقرنه بالغزالي.

وهي فائدة حسنة، فإن كثيراً من الناس يظنون أنّه معتزلي(26).

واستخدام كلمة «في ظني» من السيوطي العالم المؤرخ أمر له دلالته، فلم يكن الأمر عنده محققاً وبالغاً حد الاعتقاد مع معرفته بالفكر وغوصه في أبوابه وفروعه.

كذلك نلحظ أن «كثيراً من الناس يظنون» عبارة تدل على أن الأمر بين الناس كان في دائرة الشائعات التي تدور بين العامة، ربما عن قصد ممن أثارها لغرض بعيد، وربما لكلمة أطلقت بحسن قصد.

ويبدو أن الاتهام بالاعتزال في هذا العصر كان شيئاً مألوفاً حتّى بين العلماء أنفسهم أحياناً، فقد اتهم ابنُ الصَّلاح الماورديّ صاحب أدب الدنيا والدين (ت:450) بالاعتزال، كما جاء في طبقات السبكي، وبنى ابن الصلاح اتهامه على فهم فهمه من كلام الماوردي، وإن كان قد أنصف الرجل حين قال: «رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة.. ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل: *ما يأتيهمْ من ذكر من ربّهم مُحدَث*. **الأنبياء**:2 وغير ذلك»(27).

ويدفع هذه التهمة محقق «أدب الدنيا والدين» فيقول: «غير أنّا نقول إنّ اتهام المحدثين للعلماء بالاعتزال وبالتشيع وبما هو أكبر من ذلك. قد كثر وشاع، ولعل هذا الذي ذكره ابن الصلاح كان نوعاً من اجتهاد الماوردي، وترجيحه بين الآراء العلمية ترجيحاً عقلياً، يوافق بعض آراء المعتزلة أحياناً، وهو بريء من الاعتزال جملة، وكل ما في الأمر أنّه غلبت عليه صفة الفقيه العالم الذي يوازن بين الآراء، ويرجح بعضها على بعض، دون نظر إلى القائل بهذا الرأي أو ذاك»(28).

ويؤكد هذا بأن موافقة عالم من العلماء لطائفة ما في بعض آرائهم لا يسوغ عده منهم، بل الموضوعية تقتضي بأن نتحرى الموقف العلمي، وغاية ما نرتضيه أن نحكم على الرجل أنه حادَ في كذا عن سمته الفكري.

هذا والأمر لايزال في دائرة الظن، والظن هنا لا يغني عن الحق شيئاً، لأن الأمر لا يخص واحداً من عامة الناس، بل يخص عالماً يملأ دنيا عصره، فكيف يقبل أن يكون فكره ومذهبه فيه مجهولين إلى حد الظن الذي يستوي فيه هنا العلماء والعامة.

أما أنّ هذه التهمة ألصقت بالراغب لاهتمامه بالعقل في كتاباته، ونفي الصفات عن الله كما يقول البعض(29) فهذا أمر يحتاج إلى وقفة ولو موجزة، فنقول، وبالله التوفيق:

أولاً: لا يختلف اثنان في أنّ العقل قيمة كبرى، حتى فهم لدى البعض أن الإنسان كُرّم من أجل العقل لا بالعقل، ولعل هذه القيمة الكبرى للعقل هي التي جعلت الإمام القرطبي يعتبر أن التفضيل الذي يعول عليه في قوله تعالى: *ولقدْ كرّمنا بني آدم وحملناهُمْ في البرِّ والبحر ورزقْناهُمْ من الطّيِّبات وفضّلْناهُمْ*. **الإسراء**: 70 إنما يكون بالعقل الذي به تتمّ معرفة الله سبحانه، وتفهم كلامه، وتصديق رسله، ويذكر هذه الأهمية مقرونة بأنّها عمدة التكليف، أقول لعل شيوع هذه الأهمية هو الذي حدا بالإمام القرطبي إلى هذا الفهم، مع أنّ اللفظ القرآني لا يمنع التفضيل بغير العقل كما حكى القرطبي عن الأئمة المفسرين(30).

ويقول الأستاذ العقاد: «إذا كان العقل وازعاً يعقل صاحبه عن الشر، ويقلّب النظر، ويوازن بين الأشياء، وهو كذلك رشد يميز بين الهداية والضلال، ويأخذ من الماضي للحاضر، ويعي ويتدبر، أقول وإذا كان كذلك فإنه موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف ونهي عن منكر.

«أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يتذكرون؟ أليس فيكم رجل رشيد؟»

إنّ هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر السماء والأرض، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء لأنّهم: *يتفكّرون في خلْق السموات والأرض ربّنا ما خلقْت هذا باطلاً سُبْحانك*.**آل عمران**: 191. (31). *أولَمْ يتفكّروا في أنفُسهم ما خلق الله السّموات والأرضَ وما بينهُما إلا بالحقِّ*. **الروم** 8. (32 - 33).

فإذا أضفنا إلى هذه الأهمية تقدير الشرع للعقل، وحاجته إليه في التفهم لا في الإثبات، وأنّه يلتقي مع الشرع في الحق الذي يأتي به الرسل الكرام، وأن الشريعة كفلت حماية هذا العقل وجعلته من الضروريات التي هي من مقاصد الشريعة الإسلامية.

أقول: إذا أخذنا كل هذا في الاعتبار كان لنا أن نقول إنّ الاهتمام بالعقل استجابة لأمر إسلامي نصّيّ في القرآن والسنة، ولسنا بحاجة إلى أخذ هذا الاهتمام عن اليونان أو عن غيرهم(34).

ثانياً- من الفهم السابق لقيمة العقل في الإسلام كان اهتمام العلماء المسلمين على اختلاف أزمانهم واتّجاهاتهم، وها هي ذي مجرد أمثلة على صحة ما نقول:

يقول الحارث المحاسبي في الرعاية لحقوق الله (ت: 243هـ): «مثل العقل مثل البصر، ومثل العلم مثل السراج، فمن لا بصر له لا ينتفع بالسراج، ومن له بصر بلا سراج لا يرى ما يحتاج إليه»(35).

وقد أفرد الماوردي (ت: 450) في كتابه: «أدب الدنيا والدين» فصلاً عن فضل العقل وذم الهوى ذكر فيه أن

لم يكن الراغب من رجال الدولة ولا مشايعًا لحزب معين فيها، وكان جل اهتمامه بالإنسان وقضاياه في معاشه ومعاده

الراغب الأصفهاني وكتابه

«الذريعة إلى مكارم الشريعة»

العقل أس الفضائل، وأن الله قد جعله للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، وألف به بين الناس مع اختلاف هممهم ومآربهم، وربط بين العقل ومعرفة حقائق العلوم. ثمّ تحدث عن العقل الغريزي وهو الحد الحقيقي الذي يتعلق به التكليف، والعقل المكتسب الذي يمثل التمرس والخبرات التي يكتسبها الإنسان من العمل. كما ناقش محل العقل واختلاف العلماء فيه هل هو بالقلب أو بالدماغ؟ وربط العقل بالأخلاق حيث إنه الرادع عن الهوى والمحارب للشيطان، إلى غير هذا من مباحث أبرزت اهتمام الماوردي بالعقل الإنساني(36).

كما اهتم به السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت: 489هـ) حين تحدث عن طبيعة العقل هل هو جوهر يمكن أن يستقل بذاته أو هو نوع من العلم يدخل في جملة أقسامه ويذكر في ذلك بعض الآراء فيقول: «واختلفوا في حقيقته على أقاويل شتى: فقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: هو آلة التمييز».

وقال بعضهم: العقل بصر القلب وهو بمنزلة البصر من العين تُدرك به المعلومات كما يدرك به البصر المشاهدات، قاله أبو الحسن عليّ بن حمزة الطبري.

وقال بعضهم: هو قوّة تفصل بين حقائق المعلومات.

... والعقل عقلان: عقل غريزيٌ وهو القوة المتهيئة لقبول العلم، وهو من حيث القوة موجود في كل خليقة من الآدميين، قالوا ووجوده في الطفل كوجود النخلة في النواة، والسنبلة في الحبة.

والثاني عقل مستفاد وهو الذي تتقوى به تلك القوة، وقد يحصل باختيار من العبد، ويحصل بغير اختيار منه.

قالوا والعقل الغريزيّ بمنزلة البصر للجسد والمستفاد بمنزلة النور، فكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجوّ لم يدرك بصره شيئاً، فكذلك العقل إذا لم يكن له نور من العلم المستفاد لم تفد بصيرته، قال الله تعالى: *ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور*. **النور**: 40 (37 - 38)

وإذا كان هذا هو اهتمام العلماء قبل الراغب (ت: 502هـ) فإن شيخ الإسلام ابن تيمية اهتم بهذا الأمر فوق كل اهتمام سبقه، إذ أفرد للصلة بين العقل والشرع سفراً ضخماً من أجزاء عديدة هو درء تعارض العقل والنقل (39) ومنطقي أن يتحدّث فيه عن قيمة العقل والبحوث المتصلة بهذا.

ولقد تحدث عن العقل المستفاد وأنّه لا يتدخّل في ثبوت الرسالة أو صدق رسولها، وهو ليس أصلاً لثبوت الشرع إذ الشرع ثابت علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، وبحث صلة العقل بالعلم الخبريّ والعلم النظريّ.

"فإن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه، فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا» (40) وحين يتحدث عن العقل الغريزيّ يقرر أن حاجتنا إليه ماسة «لأنّ تلك الغريزة ليست علماً يتصور أن يعارض النقل، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة، وما كان في الشيء امتنع أن يكون منافياً له، فالحياة أو الغريزة شرط في كل العلوم سمعيُها وعقليُها، فامتنع أن تكون منافية لها، وهي أيضاً شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال وإن لم تكن علماً، فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له»(41).

فبعد هذه الإشارات الدالة على اهتمام العلماء هل يصلح أن نبني حكماً بالاعتزال على عالم مسلم لمجرد أنّه اهتمّ بالعقل في بحوثه؟ يغلب الظن أن أمانة البحث تقضي بالإجابة بـ :لا يصح هذا، وإلا اتهمنا الجميع بالاعتزال حتّى أشد الناس سلفية وارتباطاً بأهل السنة.

ثالثاً - بعد أن تداعت حجة الاهتمام بالعقل سبباً لاتهام الراغب بالاعتزال، نقول: أما بالنسبة لما ذكره أحد الباحثين من أنّ الشيخ الأصفهاني يوافق المعتزلة في نفيهم الصفات عن الله سبحانه. نقول: تفرد بهذا الزعم هذا الباحث، فلم نجده عند غيره ممّن ذكرنا تعريفهم الرجل شيئاً كهذا.

وإلى جانب تفرده به فهو محض افتراء لأنّ الصفحة التي أشار إليها من (الذريعة) ليس بها ما نسبه إلى الرجل، فضلاً عنْ أنّ دراستنا للذريعة تثبت أن الراغب الأصفهاني يذكر في أكثر من موضع أن صفات الله سبحانه نعلمها من الكتاب والسنة، ويقرر أنه لو لم ترد صفات كالرؤوف والرحيم في القرآن وصفاً لله لما تجاسر أحد على وصفه بها

موافقة عالم من العلماء لطائفة ما في بعض آرائهم لا يسوغ عدّه منهم، بل الموضوعية تقتضي بأن نتحرى الموقف العلمي

لأن البشر يصفون أنفسهم بها، وهو العالم اللغوي يدرك الفرق بين إطلاق اللفظ بالنسبة لله سبحانه وبين إطلاقه صفةً للبشر المخلوقين(42).

وبهذا لم يبق لزاعم حجة، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الذريعة إلى مكارم الشريعة

لعلّ أول شيء يجب أن نقرره هنا هو أن كتاب «الذريعة» صحيح النسبة إلى مؤلّفه الراغب الأصفهاني، ويتفق على ذلك كل الذين ترجموا للراغب وتعرّضوا لبيان مؤلفاته (43) لكن هذا لم يمنع من حدوث لبس أوقع في خطأ، فقد ذكر العيدروس (ت: 1038هـ) في كتابه «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» المطبوع على هامش «إتحاف السادة المتقين» للمرتضى الزبيدي، (ت:1205 هـ)، ذكر العيدروس «عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس» أن كتاب الذريعة للغزالي.

ولكن الدكتور عبد الرحمن بدوي نبّه على هذا فقال: «وقد لاحظ موريس بويج في كتابه عن مؤلفات الغزالي أنّه لأبي القاسم الحسين الراغب الأصفهاني»(44).

مرحلة تأليفه

ليس في الأمر قول قاطع لأن الغموض الذي ضرب حول الرجل لم يهيئ ترتيب مؤلفاته بوضوح ودقة، لكن ذلك لا يمنعنا من تقديم ما فهمناه في هذا الصدد.

ففي مقدّمة (الذريعة) يقول الراغب: «كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها...» وهذا معناه أن الذريعة ألفت بعد الكتاب الذي أشار إليه الشيخ ولايزال مفقوداً.

ثم يقول الشيخ الراغب في مقدمة: «المفردات في غريب القرآن» ما نصه: «وأشرت في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة: أن القرآن وإن كان لا يخلو الناظر فيه من نور ما يريه ونفع ما يوليه فإنه:

كالبدرِ من حيث التفتَّ رأيته
يُهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالشمسِ في كبدِ السماء وضوؤها
يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

لكن محاسن أنواره لا يتقنها إلا البصائر الجلية،...»(45).

وهذا معناه أن الذريعة ألف قبل «المفردات في غريب القرآن».

لكن صاحب كشف الظنون قال عند ذكر «الذريعة» ما يفيد أنّه يعدُ الذريعة مقدمة لكتاب «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، والأمر هنا يتوقّف على ماذا يعنيه حاجي خليفة بمقدّمة للكتاب السابق، فإن كان ... سبقه له زمناً وتفصيلاً فهذا لا نخالفه فيه، أما إذا كان يعني كمقدمة مجملة أتى تفصيلها في «التفصيل» فهذا ما لا تقرّه المادة العلمية الموجودة في كليهما.

والأقرب إلى الظن أنّ كتاب «الذريعة» تفصيل وتعميق لما ورد بكتاب «المفردات في غريب القرآن» ورسالة «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» كما يلحظ من مباحث كليهما وطريقة المعالجة فيهما.

وبذلك نميل إلى أنّ الذريعة توسط دراستين قرآنيتين هما: «تحقيق البيان» و«المفردات في غريب القرآن»، كما أن الذريعة قد مهّد لإيجاز قضاياه في رسالة «تفصيل النشأتين» أو جاء بياناً واضحاً لما فيها من قضايا.

وعلى مجموع الاحتمالات فإن الذريعة - بما يتضح فيه من سعة معرفة، وعمق في فهم الأمور - قد ألّف في مرحلة نضج وتفهّم من الراغب الأصفهاني، ويتضح هذا حين يجد القارئ فيه اللغة إلى جوار الحكمة وسندهما من القرآن والسنة، مما يتطلّب دراسة مستقلة ومفصّلة له.

المكانة العلمية للكتاب

ولسنا نعني بذلك تقديم دراسة تحليلية وتأصيلية في آن معاً، نخرج منها بنتائج مفهرسة ومرتبة لوضع الكتاب في المكتبة الإسلامية، إذ إن هذا يتطلب دراسة مطولة تعنى بالمناهج ومقارنتها، ونرجو أن يتيسر لنا ذلك إن شاء الله.

لكن الذي نعنيه هنا هو تأكيد لما أشرنا إليه قبلاً من مسوغات الاهتمام بالمؤلّف والكتاب، يقول كارل بروكلمان: "كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، وهو كتاب في الأخلاق،

يقال: إنّ الغزالي كان يحمله دائماً معه»(46).

ويقول محمد كرد علي: "وقيل إنّ الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة ويستحسنه لنفاسته»(47).

ويقول كاتب مادّته في دائرة المعارف الإسلامية ـ وهو يتحدث عن كتاب «حل متشابهات القرآن»: ويتضح لنا من فقرة في المقدمة أنه كان قد أتم كتابه الكبير في الأخلاق، وعنوانه: «الذريعة إلى مكارم الشريعة قبل كتاب المفردات».

ويقال إنّ الغزالي كان يحمل دائماً نسخة من هذا الكتاب(48).

ولعل ذلك راجع إلى الموضوع الذي تبناه الكتاب، إلى جانب الإضافات التي أضافها تكميلاً لموضوعه واهتماماً بباب في الأخلاق له أهميته هو باب الأخلاق الاجتماعية التي تضبط حركة التعامل بين المسلم وغيره في مجالات شتى هي محور ابتلائه وجهاده ضد ما ينقص من الإنسانية.

فالموضوع الرئيسي للكتاب هو وضع الضوابط التي تأخذ بيد الفرد لتؤهّله لما خلق له من الخلافة المتضمنة للعبادة، ولحمل الأمانة، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن هذا الموضوع الأساسي والكبير للكتاب لم يمنع الأصفهاني من إضافات قد تدخل جزءاً من الكتاب في مناهج البحث وأصول التعليم كما نرى مثلاً حين يتحدث عن العلوم، ومعاداة الجهال بعضهم لبعض، وأحوال الناس في استفادتهم العلم، مبيناً أثر الفروق الفردية، وأثر البيئة في ذلك، وكذلك حين يتحدث عن الرأي الآخر، وأنواع الجدل، وآداب المناظرة وغير هذا ممّا هو في بابه كثير في الذريعة.

كذلك لم يخل الكتاب من مباحث تدخل ضمن ما يسمّى (بعلم الاجتماع) مثل بحثه قضية الإنسان بين العزلة والاختلاط، وحاجة الناس في حياتهم إلى الاجتماع والتظاهر، وكذلك اختلاف الرغبات في حب الأعمال كي تسير الحياة دون توقف.

وبالكتاب كذلك لمسات تدخل في باب (الحكمة والعقيدة) حيث يتحدث عن الأعمال الإرادية والأعمال غير الإرادية، والأسباب التي ينسب الفعل إليها، والصلة بين العقل والشرع. وما شابه هذه القضايا.

كلُّ هذا يعالجه الكتاب دون أن تستشعر قلقاً لمبحث ما، بل تراك كأنّك في ترتيب منطقيٍّ إلى حد كبير.

ولعل تنوع القضايا، واختلاف فروع المعرفة التي يدخل الكتاب إليها، تبرز مكانته العلمية، وإن كانت تضع سؤالاً: أين نضعه في التصنيف المكتبي للكتاب الإسلامي؟ ولعل أجمع منحى له هو (الأخلاق الاجتماعية أو الأخلاق الدينية).

الكتاب وصلته بالفكر قبله

لعل أكثر الكتب قبل الذريعة شبهاً بها في موضوعاتها كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ت: 450هـ) فجل موضوعاته تكاد تتفق في عناوينها مع ما جاء في الذريعة الأمر الذي قد يوحي لأول وهلة بتأثر الذريعة أدبَ الدنيا والدين، ولكن النظرة المتأنية تظهر خلاف هذه النتيجة.

فقد عالج الماوردي «فضل العقل وذم الهوى» وبحث فيه كثيراً مما بحثه الأصفهاني في الذريعة كأنواع العقل، ومحله، والحاجة إليه، والصراع الذي بينه وبين الهوى (49).

كما عالج الماوردي أدب العلم، شرفه وفضله، أخلاق العلماء، وأخلاق المتعلمين، واختلاف الناس في المعارف والحاجة إلى ذلك (50).

كما تعرض الماوردي لقضية عقدية هامّة هي صلة العقل بالشرع وأيهما أسبق من الآخر. كما تحدث عن أمور اجتماعية كالكسب، وتحدث عن بعض الفضائل والرذائل، كالحياء والصدق والكذب، والحسد وغير ذلك (51).

وهذه الموضوعات جميعها عولجت في الذريعة، ولكي ندرك الصلة إيجاباً أو سلباً نذكر موضوعاً عند كليهما.

يقول الماوردي عن الحياء(52): «اعلم أنّ الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: حياؤه من الله تعالى. والثاني: حياؤه من الناس. والثالث: حياؤه من نفسه. فأمّا حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره، والكف عن زواجره، وروى ابن مسعود أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال «استحيوا من الله حق الحياء. فقيل: يارسول الله، فكيف نستحيي من الله عز وجل حقّ الحياء؟ قال: «مَن حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى، فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء» وهذا الحديث من أبلغ الوصايا.

وأمّا حياؤه من الناس فيكون بكفِّ الأذى وترك المجاهرة بالقبيح، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تقوى الله اتقاء الناس» وروي أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس، وقال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس.

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات، وقال بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر.

ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال: إني دخلت البارحة في الأربعين وأنا استحي من سني" أ.هـ.

أمّا نص الراغب الأصفهاني عن الحياء(53) فهو: الحياء انقباض النفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان، وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان، وجعله الله تعالى في الإنسان ليرتدع عما تنزع إليه الشهوة من القبائح، وهو مركب من جبن وعفة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً لتنافي اجتماع العفة والفسق، وقل ما يكون الشجاع مستحيياً والمستحي شجاعاً، لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة، ولعزة وجود ذلك يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء نحو قوله:

يجري الحياء الغض من قسماتهم
في حين يجري من أكفهم الدم

وقال آخر:

كريم يغضّ الطرف فضل حيائه
ويدنو وأطراف الرماح دواني

ومتى قصد به الانقباض فهو مدح للصبيان دون المشايخ، ومتى قصد به ترك القبيح فمدح للكل.

....فأمّا مداواة اكتساب الحياء فحق الإنسان إذا هَمَّ بقبيح أن يتصور أجلَّ من في نفسه حتى كأنّه يراه، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه، ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال ولا من الذين لا يميزون، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد.

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة: البشر وهم أكثر من يُستحَى منه، ثم نفسه، ثم الله عز وجل، ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره، ومن استحيا منهم ولم يستحي من الله عز وجل فلعدم معرفته بالله تعالى.

فإن الإنسان يستحي ممن يستعظمه ويعلم أنّه يراه أو يسمع بخبره فيبكته، ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنّه مطّلع عليه. وقول النبي صلى الله عليه وسلم «استحيوا من الله حق الحياء» في ضمنه حث على معرفته، وقال تعالى: *ألم يعلم بأن الله يرى.* **العلق:** 14تنبيهاً أن العبد إذا علم أن الله يراه استحيا من ارتكاب الذنب..».

ولعلنا لا نستبعد أن يكون الراغب قد قرأ فكر الماوردي واطلع عليه، فلا تزال كثير من أسس الفكرة عن الحياء متشابهة إلى حدٍّ كبير، ولكن الباحث لا يستطيع القطع بالتأثر لأن ترتيب الفكرة، وطريقة المعالجة، واستخدام المصطلحات الأخلاقية، ودقة الاستشهاد بالآية والحديث، ووضوح جانب التنظير للحياء كفضيلة، كل هذا ربما لا نجده عند الماوردي إلا ملامح شاحبة مما يقوّي الظن عندنا بأن الراغب– سواء عرف الماوردي أم لا– فإن فكرته أدخل في باب المفاهيم الخلقية الإسلامية من الماوردي الفقيه الأديب، وأنه لم يحذ حذو الماوردي في معالجاته، إذ على الرغم من الاتفاق في الموضوعات التي ذكرنا فإنه ـ الراغب ـ يضعها ضمن خطة أخرى ويضيف إليها كثيراً من المباحث المكملة، لكن ذلك لا يجعلنا نقول إن الراغب لم ينقل عن أحد ممن سبقه لأنه وضح–كما أشرنا– ونحن نتحدث عن معالجات موضوع العقل عند المحاسبي والسمعاني وابن تيمية– أن الراغب نقل ألفاظاً بعينها في باب بيان فضل العقل إما من المحاسبي أو من السمعاني دون أن يشير إليهما (54)، ولكنا نضع الأمر في نصابه حين نقول: إن من

أفرز اتّصال الراغب بالنص القرآني حاسة لغوية تعنى ببيان الأشياء بدقة بالغة، ولذا وجدنا تشقيقات ودلالات في كل مباحث «الذريعة»

يستخدم عبارات غيره في موضوع هو له فيه فهم واستقلال في المعالجة يختلف عن التبعية الفكرية لمن سبقه حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة، وهذا ما أردنا التنبيه عليه.

وللأمانة فإن الأمر يحتاج إلى دراسة مقارنة تستوعب جوانب المنهج وقواعده ومكانها غير هذا التمهيد.

ملاحظات عامة في «الذريعة»:

نريد - مع إيماننا بضرورة دراسة مقارنة - أن نقدم ملاحظات عامة لاحظناها من خلال معايشتنا للذريعة، وأهم هذه الملاحظات ما يلي:

1 - سمة التقسيم وتحديد الفضائل:

أخذ الراغب بتقسيم ابن مسكويه (ت: 456هـ) المتأثر بالتقسيم الأرسطي حيث تحدث عن قوى الإنسان وجعلها ثلاثة: القوى الفكرية، والقوى الغضبية، والقوى الشهوية، كما جعل الفضائل الكبرى أو أصول الفضائل التي تتولد من ضبط هذه القوى أربعاً هي: فضيلة الحكمة وهذه من القوّة الفكرية، وفضيلة الشجاعة وهذه من القوّة الغضبية، وفضيلة العفة وهذه من القوة الشهوية، ومن وجود هذه الفضائل الثلاث توجد فضيلة رابعة هي (العدالة)(55).

لكن الراغب لم يتبع مسكويه في هذا التقسيم حرفياً بل دلف من هذا إلى حديث عن الخلافة والعبادة، وحدد رسالة الإنسان من خلال معالجة ربطها بالقوى السابقة من ناحية، وجدد في تناولها من جهة أخرى، ذلك أنّ الراغب يملأ هذا التقسيم بفهم إسلامي، و محتوى قرآني وحديثي، الأمر الذي يجعلنا نقول إنّ الراغب مع أخذه بالتقسيم الأرسطي فإنه لم يخضع لكل ما جاء به، بل كأنه أثبت أن من الممكن الاستفادة من شكل لا يؤثر في المضمون الإسلامي. وقد لاحظنا على الراغب- كما يظهر مع التحقيق- تأثره ببعض كلمات أرسطية مثل (الكون والفساد) (القوى السبعية) وذلك في مناسبات متعددة، لكنها قليلة يغطي عليها إسلامية اللغة والمحتوى عند الراغب الأصفهاني.

أما تحديده لمعنى الفضيلة ووقوعه في حبائل الوسطية الأرسطية التي تعني أنّ الفضيلة وسط بين رذيلتين، أقول هو في هذا قد تبع أو سار مع كثيرين من المفكرين الإسلاميين الذين خدعوا بآيات وأحاديث تدل على التوسُّط، وقد أشرنا إلى هذا ضمن التحقيق للذريعة.

2 - نقول لم تردّ إلى أصحابها:

شاع في زمن بين العلماء أن يأخذوا ممن سبقهم دون أن يشيروا إلى ذلك، وقد بدا هذا واضحاً لدى الغزالي في الإحياء، إذ إنّ بعض الدراسات وجدت جملاً بألفاظها في مكانها نفسه للمحاسبي ولغيره، وقد يكون منها للراغب نظراً لاعتزاز الغزالي بالذريعة وحمله لها كثيراً كما يقال(56).

وقد وجد ذلك عند الراغب نفسه كما أشرنا إلى موضوع العقل إذ العبارات تكاد تتحدَّث عند المحاسبي وعند السمعاني وعند الراغب، لكنها غالباً ما تكون في وصف شيء أو تقسيمه، وإلا فالراغب له سَمْتُه الخاصّ به في الاستشهاد وبيان المعنى اللغوي والاصطلاحي وغيرهما(57).

3 - كثرة الاستشهاد بالآيات والأحاديث:

لعل هذه علامة مميزة لاتجاه الراغب الأصفهاني، حيث ما يطرق موضوعاً فإنه يحشد له من الآيات والأحاديث ما يؤكد المعنى الذي يقصده، وحسبك أن تعلم أن نسخته المخطوطة وهي مئة ورقة تقريباً تحتوى على قرابة مئَتَي حديث، وقرابة ضعف ذلك من الآيات الكريمة.

واستدلاله بهذه النصوص في مجموعه جيد ودقيق، لأنّا لا نجهل أنّ الراغب الأصفهاني هو صاحب «تحقيق البيان في تأويل القرآن» وإن كنا لم نطلع عليه، وصاحب «المفردات في غريب القرآن»، وقد أشار في مقدمة المفردات إلى عزمه على تأليف كتاب يعني ببيان الألفاظ القرآنية التي يظن أنها مترادفة (لقوم يعملون) (لقوم يفقهون)(58)، وكل هذا ينبئ عن تتابع المعاني القرآنية وحضور الآيات في عقله ووجدانه، ويلحظ هذا كل من يقرأ في (الذريعة) دون تحديد لموضوع معين.

4 - وضوح التأصيل اللغوي في تعريفات الفضائل والمسميات:

وقد أفرز اتصال الراغب بالنص القرآني حاسة لغوية تعنى ببيان الأشياء بدقة بالغة، ولذا وجدنا تشقيقات ودلالات في كل مباحث الذريعة، فمثلاً حين يتحدث عن العقل يتحدث عن أسمائه كالحِجْر، والنُّهى، ثم يتحدث عن أسماء تتصل بالعقل كالفطنة، والفهم، والخاطر، والوهم، والبديهة، والرؤية، والخبر، والظن، والفراسة..وغير ذلك(59).

وكل هذه المصطلحات يعرفها الراغب في اللغة ككلمة معجمية، ثم يبرز دلالتها الاصطلاحية التي تتصل بالقضية موضوع البحث.

5 - إشارات موجزة إلى بعض القضايا دون تفصيل:

كذلك يجد القارئ للذريعة أنّ الراغب له صلة بالحكمة والعقيدة، ويجده يثير قضايا بإشارات خاطفة دون أن يقف أمامها كثيراً، كما فعل في صلة العقل بالشرع، فقد أثارها لكنّه لم يقف عند الآراء فيها؛ كما يشير أحياناً إلى بعض الآراء مثل الحُسْن والقُبْح عند المعتزلة دون أن يبحث هذا الأمر، ولعل إشارته هذه- من وجهة نظره- ضوء يثير أصحاب الطموح للكشف والتعمق، وإن كنا نرى أن الأفضل في مثل هذه الأحوال إما أن يعالج بوضوح أو يسكت بإعراض، ولكن للإنصاف يجب أن نقدر الراغب في حدود وقته وعصره، وإمكانية إثارة هذه القضايا أو حظر ذلك.

الهوامش :

1 - السيوطي - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - 2/ 297 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الأولى 1965م.
2 - ظهير الدين البيهقي - تاريخ حكماء الإسلام نشر وتحقيق - محمد كرد علي - مطبوعات المجمع العلمي بدمشق.
3 - عباس محمد أحمد- الراغب الأصفهاني ومنهجه في كتابه المفردات ص 60 - ماجستير بآداب الإسكندرية 1971م.
4 - دائرة المعارف الإسلامية- مادة الراغب.
5 - أحمد عطية/القاموس الأعلامي - 472/2 - نشر مكتبة النهضة المصرية- طبعة أولى مايو1966م.
6 - محمد كرد علي- كنوز الأجداد - 268 - 271 - طبعة المجمع العلمي بدمشق 1370هـ 1950م.
7 - عباس محمد أحمد- الراغب الأصفهاني ومنهجه في المفردات/2 مقدمة الباحث.
8 - محمد كرد علي - كنوز الأجداد - 268.
9 - الزركلي - الأعلام - 2 ترجمة الراغب
10- عباس محمد أحمد - الراغب ومنهجه في المفردات 68. -
11- الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات 1971م ص3 - طهران - كنوز الأجداد 268.
12- طه عبد الرؤوف سعد - الذريعة - 5 طبعة الكليات الأزهرية - 1392هـ 1972- كنوز الأجداد 269، روضات الجنات - 197 ج3 * ودائرة المعارف الإسلامية/الراغب.
13 - عباس محمد أحمد - الراغب ومنهجه في المفردات - 51.
14- انظر في هذا - دائرة المعارف الإسلامية - كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي - 209/5.، والراغب ومنهجه في المفردات 95/90، مقدمة الذريعة طبعة الكليات الأزهرية.
15- مثل عباس محمد أحمد - الراغب ومنهجه في المفردات - 55 ومثل طه عبد الرؤوف سعد في- مقدمة الذريعة 5.
16- السيد محسن الأمين الحسيني العاملي- أعيان الشيعة - 27، 220، 228، طبعة أولى 1948م بدمشق.
17- السابق 220.
18- الأعلام 2 الراغب.
19- عباس محمد أحمد - الراغب ومنهجه في المفردات - 96.
20 - الخوانساري «محمد باقر» روضات الجنات 197/3.
21 - العاملي- أعيان الشيعة 221/27.
22 - السابق 222.
23 - عباس محمد أحمد - الراغب ومنهجه في المفردات 77/70.
24 - السابق 78.
25 - السابق 79.
26 - السيوطي- بغية الوعاة 297/2.
27 - السبكي - طبقات الشافعية - 313/2.
28 - الماوردي - أدب الدنيا والدين - تحقيق د. مصطفى السقا ص6 من المقدمة ط1.
29 - عباس محمد أحمد- الراغب ومنهجه في المفردات 79.
30 - القرطبي - تفسير القرطبي - المجلد الخامس الإسراء 292.
31 - سورة آل عمران الآية 191.
32 - سورة الروم الآية 8.
33 - عباس العقاد - الإنسان في القرآن - 233، 249 * عبد الكريم عثمان- معالم الثقافة الإسلامية 18.
34 - للتفصيل انظر- أبو اليزيد العجمي - حقيقة الإنسان في ضوء الحقيقة القرآنية - الفصل الثاني كاملاً - سلسلة دعوة الحق - نشر رابطة العالم الإسلامي- المحرم 1404هـ.
35 - المحاسبي- الرعاية لحقوق الله- 69.
36 - الماوردي - أدب الدنيا والدين - 25 - 40 تحقيق مصطفى السقا- الطبعة الأولى.
37 - سورة النور الآية 40.
38 - ابن السمعاني - قواطع الأدلة في الأصول - تحقيق د. محمد حسن هيتو مجلة معهد المخطوطات العربية يونية 1982م صفحات 239 - 251.
39 - في عشرة أجزاء - طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
40 - درء التعارض بين العقل والنقل - 88/1.
41 - السابق ٨٩/١.
42 - الذريعة إلى مكارم الشريعة مبحث ذكر المكر والحيلة والخديعة، وكذا الفصل السابع بمباحثه كلها، هذا فضلاً عن عبارات عديدة تؤكد أنه ليس من النفاة للصفات كما زعم الزاعم . الكتاب بتحقيقنا - دار الوفاء/1984م.
43- انظر - كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي 221/5 - ترجمة د. رمضان عبد التواب وآخر، عباس محمد أحمد- الراغب ومنهجه في المفردات 99، العاملي أعيان الشيعة 226/27 وكثير من الكتب التي ذكرنا في ترجمة الراغب الأصفهاني سابقاً.
44 - عبد الرحمن بدوى (د.) من مؤلفات الغزالي 383 - طبعة ثانية الكويت 1977م.
45 - المفردات في غريب القرآن - المقدمة ص د.
46 - تاريخ الأدب العربي 211/5.
47 - كنوز الأجداد 268.
48 - دائرة المعارف الإسلامية- مادة الراغب.
49 - أدب الدنيا والدين 25.
50 - السابق 25، 59 - 65، 119، 120.
51 - السابق 193، 195، 215، 226، 332 - 245.
52 - السابق 226، 227.
53 - الذريعة إلى مكارم الشريعة ورقة 61 من النسخة (أ).
54 - انظر مبحث اتهام الراغب بالاعتزال.
55 - انظر الفصل الأول من الذريعة وقارنه بمسكويه- تهذيب الأخلاق 190/65.
56 - انظر زكي مبارك - الأخلاق عند الغزالي 125 طبعة 1953م.
57 - انظر الذريعة مباحث فضل العقل، وأنواع العقل وتوابع العقل.
58 - انظر المفردات- المقدمة/15 ص 5 إشراف د. محمد أحمد خلف الله (الأنجلو المصرية) 1970م.
59 - انظر الفصل الثاني المبحث السابع.



مادة الفكر

من اللغة إلى الفلسفة والأدب

الشيخ أبو عبد الرحمن
ابن عقيل الظاهري

الفكر بكسر الفاء اسم للعمل الذي يقوم به العقل للوصول إلى معرفة مجهول من تصور أو تصديق، لاستحضار صورة المجهول، أو حكمه، أو جلاء الشبهة حوله.

وأما المصدر فيكون بفتح الفاء، والفعل ثلاثي، وهو فَكَرَ.. إلا أن هذا الفعل أُميت وبقي منه الاسم، وقام مقامه الرباعي فكَّر، وقام مصدره التفكير مقام مصدر الثلاثي بفتح الفاء.

والسر في ذلك أن عمل العقل يكثر في البحث عن المجهول، فجُعل فعله فكَّر الرباعي لأن زيادة المبنى لزيادة المعنى، وجعل اسم ما حصل بالتفكير نفس الاسم من الثلاثي فلم يحتج لزيادة مبنى، لأنه بعد حصوله صار سهلاً وإن حصل عن مشقة.

وأعمال العقل المسماة تفكيرًا من أجل الوصول إلى المجهول كثيرة كالتذكر والتصور، والتخيل، والتفطن، والفهم، والتمييز، والمفارقة.

ولكون التفكير عن عناء وأعمال عقلية توقَّع بعض اللغويين أن يكون الفكر مقلوب الفرك، لأنه فرك للمعاني.

ولئن لم تصح دعوى القلب فالعلاقة بين الفكر والفرك متأصلة بنظرية الجذر الثنائي.

ويرادف التفكر التأمل، لأن الأمل للبعيد، والرجاء للقريب، وما عند اللّه قريب، ولهذا نرجوه.

والتأمل زيادة مبنى على «الأمل» فيه رجاء البعيد وانتظاره.

واللغويون يعبرون عن التفكّر بإعمال الخاطر، وإعمال النظر.. ويريدون ما يخطر على العقل من صور أو حجج أو شبهات.. ويريدون نظر العقل.

وبعضهم يعبر بالقوة، وهي قوى العقل.

وبعضهم يدخل القلب وسيطًا في أعمال التفكر، والواقع أن العمل للعقل لا للقلب.. إلا أن القلب ـ وهو محل المشاعر ـ هو الذي يحسم عمل العقل بعد عنائه باعتقاده اليقين أو الرجحان أو البطلان أو التوقف.

والله سبحانه يخاطب القلب والفؤاد واللب كثيرًا، لأن نتيجة عمل العقل تقر فيه، ولأن لصلاح مشاعره وفسادها أثرًا في صدق التفكير.

وأسند ابن فارس كل عمل الفكر للقلب، فقال: الفكر تردد القلب في الشيء.

قال أبو عبدالرحمن: ليس هذا معنى الفكر الذي هو عمل العقل، وإنما هو تعريف بالباعث للتفكر عندما لا يكون في وجدان القلب يقين.

وقصر الراغب ـ وتابعه السمين ـ مجال الفكر في الشيء الذي يمكن أن تحصل له صورة في القلب.

قال أبو عبدالرحمن: الصورة في العقل لا في القلب، وإنما القلب يعتقدها ويؤمن بها.

ودعوى حصر مجال الفكر فيما له صورة في العقل ليست على إطلاقها، بل لابد من التفريق بين عناصر المعرفة وبين ما تُراد معرفته.

فعناصر المعرفة صور في العقل بلا ريب، لأن العقل لا يعمل إلا بمدارك الحس.

وأما ما تُراد معرفته فقد لا تحصل صورته، وإنما المتحصل معرفة وجوده وإدراك صورة آثاره مع العجز عن تكييفه.

وقد يكون المتصوَّر المعاني اللغوية، لأن المراد التفكر فيه لأجل معرفته إنما يعرف بالوصف، وتحتم وجوده، ومعاينة آثاره.

وقد يعرف المصطلحون التفكير فلا يذكرون العقل ونظره اتكالاً على فهم السامع كقول الجرجاني: الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول.

ويرى الدكتور جميل صليبا أن الفكر يطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية.

قال أبو عبدالرحمن: من الظواهر العقلية التذكر ولا يسمى وحده فكرًا، والتخيل ولا يسمى وحده فكرًا.

وإنما التفكر عمل العقل للوصول إلى المجهول، وقد يكون من عمل العقل التذكر والتخيل.

والفكر مجموع ما حصل به التفكر.

وذكر الدكتور جميل صليبا من معاني الفكر لدى الفلاسفة حركة النفس في

المعقولات.

قال أبو عبدالرحمن: النفس شاملة للعقل والروح والجسد والمشاعر والحواس الظاهرة، فهذا المعنى عائم، وإنما العمل للعقل.

كما أن الحركة قاصرة ومجازية بالنسبة للعقل، والمشهود أن التفكر أعمال عقلية.

وذكر صليبا أنه من الأولى أن يشترط في معنى الفكر القصد لتخرج أعمال العقل في المنام.

قال أبو عبدالرحمن: العقل في عمله يطلب يقينًا ومعرفة، فأعماله قصدية بلا ريب.

وما يحصل في المنام يظهر في صورة أن العقل يفكر عن قصد.. إذن القصد ليس هو المميز، وإنما المميز أن العقل في اليقظة يعمل بنفسه وينظر ويرى، وأما في المنام فالعقل يُرى - بصيغة المجهول - وتُحضر له العناصر التي تأتي في صورة القصد.

وذكر صليبا من معاني الفكر عند الفلاسفة أن التفكير يبدأ من المطلوب إلى مبادئه الموصلة إليه إلى أن يجدها ويرتبها ثم يرجع إليها من المطلوب.

قال أبو عبدالرحمن: ما ذكره ليس أحد المعاني، وإنما هو جزء المعنى لأن كل ذلك عمل عقلي، وصورة من صوره.. أي إنه مذهب في التفكير، وليس معنى له.. وهكذا المذهب الثالث الذي ذكره صليبا.

وجعل الدكتور صليبا الحدس خلاف هذا المذهب، لأنه انتقال من المبادئ إلى المطالب.

قال أبو عبدالرحمن: والمحقق أن الحدس انتقال إلى المطالب رأسًا من دون توسط المبادئ، لأنه بغير عملية فكرية.

وابن سينا في كتابه الإشارات يعرف التفكير بأنه ترتيب للمعارف الحاضرة في الذهن للانتقال بها إلى معرفة الغائب.

قال أبو عبدالرحمن: وهذا أحد معاني التفكير، وأحد الظواهر الغالبة فيه.

ومثل قولهم: «الفكر السياسي» يشعر بأن الفكر والتفكير يطلقان على الموضوع الذي حصل فيه التفكير.. وهذا صحيح مجازًا لا وضعًا.. ووجه المجاز أن المدركات في ذلك الموضوع حصلت بتفكير، ولهذا سمي ما حصل بالتفكير أفكارًا.

وتوسعوا مجازًا فجعلوا ما استجد في الذهن من صورة متخيلة فكرة، لأنها تحصل عادة بتفكير من ضمنه التخيل.

وذكر صليبا أن الفكرة ترادف المعنى، وليس هذا بصحيح، وإنما تكون الفكرة معنى كلام إذا كانت شرحًا له، فالمعنى أعم.

وتكلم ديكارت في التأملات عن الفكرة، فقال: «من خواطر نفسي ما يكون أشبه بصور للأشياء.

وهذه وحدها يطابقها اسم الفكرة على التحديد.

مثال ذلك أن أتمثل إنسانًا، أو غولاً، أو ملكًا، أو الله(1) نفسه.

ومنها أيضًا ما يكون له صور أخرى، فإني مثلاً حين أريد أو أخاف، أو أثبت، أو أنفي، إنما أتصور دائمًا شيئًا هو كالحامل لفعل ذهني، ولكني أضيف أيضا شيئًا آخر بهذا الفعل إلى الفكرة التي لدي عن ذلك الشيء.

وهذا الضرب من الخواطر بعضه يسمى إرادات أو أهواء، وبعضه الآخر يسمى أحكامًا.

وقال أيضًا: هذه الأفكار يبدو بعضها مفطوراً فيَّ، وبعضها غريبًا عني ومستمداً من الخارج، والبعض الآخر وليد صنعي واختراعي.

وعلق صليبا بقوله: ومعنى ذلك أن للفكرة عند ديكارت ثلاثة أنواع وهي:

الفكرة العارضة: وهي الآتية من الحواس

والفكرة المصطنعة، وهي التي ينشئها الذهن ويبدعها.

والفكرة الفطرية، وهي التي تستمدها النفس من ذاتها قبل اتصالها بالعالم الخارجي، وهي تمتاز من غيرها بالوضوح والبساطة.

قال أبو عبدالرحمن: إنما الفكرة عند ديكارت الصورة التجريدية المتخيلة، ولهذا قال: «فهذه وحدها يطابقها اسم الفكرة».

والأقسام الأخرى التي ذكرها أقسام للصور، ولم يجعلها كلها معنى للفكرة.

وقال صليبا: «ويطلق اصطلاح الفكرة المطابقة على الفكرة التي تمثل موضوعها وتستوعبه استيعابًا تامًا، وهي مقابلة للفكرة غير المطابقة التي يشوبها الغموض، أو يعوزها التحديد».

قال أبو عبدالرحمن: لا عمل للفكر في استحضار الصورة المطابقة إلا تذكرها، والتذكر ليس تفكرًا.. وعندي شك في إطلاق الفكرة على هذا المعنى فلسفيًا، وعلى فرض وجود هذا الإطلاق فهو بعيد عن المعنى اللغوي.

وقال صليبا: «والفكرة القوة اصطلاح وضعه فويه للدلالة على أن للظواهر النفسية صفتين: إحداهما ذهنية، والأخرى إرادية.. وإذا كانت الفكرة قوة فمرد ذلك إلى أنها تبعث على الحركة، ومنه قولهم: الأفكار تحرك العالم.

قال أبو عبدالرحمن: هذا معنى لغوي مجازي صحيح، لأن العلم والمعارف تبدأ أحيانًا بأفكار.

والفكرة في العمل الأدبي تكون جزئية وكلية، فيكون النص الأدبي مجموعة فكر.

والفكرة في العمل الأدبي تشمل المفردة من الأفكار التي تحصل بتعقل أو تخيل.

وهب أن قصيدتك عن وصف البحر، فلابد من فكرة عامة عن الهدف من الوصف بحيث يكون الوصف تعبيرًا بالصورة، وهو تعبير غير مباشر عن الهدف.

ولابد من صور جزئية تؤلفها، فتمثل لك الزرقة، وهياج البحر، والموج... إلخ أهدافًا جزئية تعبر عنها بصور من البحر.

وقال الدكتور مجاهد عبدالمنعم عن الفكرة أدبيًا: «الفكرة هي بالنسبة للفنان الأساس الذي ينبني عليه العمل الفني، وهي بالنسبة للقارئ الاستخلاص النظري عما عبر عنه الفنان بالصور.. إنها التعميم المباشر للهدف الذي قصد إليه الفنان.. وانعدام الهدف الواضح عندالفنان يرجع إلى سطحية نظريته للعالم وعجزه عن الوصول إلى جوهر الواقع.. والفكرة يجب أن تكون ذائبة في العمل الفني ولا نجدها بشكل مباشر.. وكلما اختفت الفكرة وتقنعت جاء العمل أكثر فنية، وذوبان الفكرة في الصورة يخلق المثال في العمل الفني كما يقول هيجل.. وإذا تصادف وجود الفكرة بشكل مباشر كان هذا دليلاً على ضعف العمل الفني، أو عدم فنيته على الإطلاق»(2).

الهوامش

1 - الله سبحانه لا نتمثله بتخيل، وإنما نعلم وجوده بالبرهان، ونعلم كماله بالبرهان إجمالاً، ونعلم كماله تفصيلاً بالخبر الشرعي الذي أخبرنا عن ربنا بالوصف لا بالتكييف والتشبيه والتمثيل.

ونتخيل صورة الموصوف بمقتضى صور الأوصاف في أذهاننا إلا ما يتعلق بربنا سبحانه فلم يؤذن لنا بذلك شرعًا، والتخيل عاجز عن استكناهه عقلاً.

2 - دراسات في علم الجمال ص 35 - 36.

قصيدة

النبأُ العظيمُ

د. وليد قصاب

عَرَت المذيعَ حماسةٌ   فَغَلى وأرعد واستَعَرْ
أخذَته حُمَّى نشوةٍ   ثمّ استَطَارَ فما استَقَر
عيناه جاحظتان تَخْـ   ـشَى منهما وَهْجَ الشَّرَرْ
لابدَّ، أمرٌ حازبٌ   لا ريبَ، شأنٌ ذو خَطَرْ
وَسَرَتْ، لعلَّ، وربَّما   فيمنْ هنالك قد حَضَرْ
فلعلَّه نجمٌ هوى   أو ربّما انشقَّ القَمَرْ
أو ربّما دنت القيا   مةُ، أو بدا وجهُ سَقَرْ
أو ربّما عدت العرو   بةُ، كالسحاب إذا انهمرْ
فاسترجعتْ من كفّ صهـ   ـيون البداوةَ والحَضَرْ
ما عاد شبرٌ من بلا   د القومِ في كفِّ التَّتَر
ما عاد أقصانا تُرَنْـ   ـنِقُهُ سحابات الكدرْ
ما عاد محرومٌ لديْـ   ـنَا أو أخو ذلٍّ وَضُرْ
وغدًا يَشُدُّ القومُ نحـ   ـوَ القدسِ أطنابَ السَّفَر
أو ربما رجعوا - كما   كانوا - أساتذة البشر
خلنَاه ذلكَ والمذيـ   ـعُ كأنه أسدٌ زَأَرْ
أوْدَاجُهُ منفوخةٌ   شعرٌ تطاير وانتشر
فُتِحَتْ عيونُ الرغبة الْـ   ـلَهفاء تصطادُ الخَبر
وتمَسَّكَتْ أيد بأذ   يالِ المنادي فاستَقَرْ
سأل الجميعُ وقدّ تَخَطْـ   ـطَى القلبُ أضلاعَ الصَّدرْ
سألوا عن النبأ العظيـ   ـمِ يَهُزُّ إحساسُ الحجر
فإذا به ما طافَ في   أُفُقِ الخيال ولا خَطَرْ
وإذا التوقُّعُ فوقَ ما   كان التَّوقُّعُ والنَّظَرْ
كرةُ القدم رمز الحضا   رة، والوثوب إلى القمر
خبز الجياع التائهيـ   ـن على صخور المُنحدر
كرةُ القدم دَخَلَتْ شِبا   ك عدونا، يا لَلظَّفَرْ!!

المستشرقة الإيطالية إيزابيلا كاميرا دافيتو:

عندما أترجم أهتم بقيمة النصّ لا بشهرة الكاتب

أجراه :

عامر الدبك - إبراهيم كسّار

إن التواصل الثقافي بين البشر ضرورة إنسانية وحضارية من أجل أن تنمو الثقافات وتتجدد. ولو وقفنا وقفة تأمل أمام كل الحضارات، منذ فجر التاريخ وحتى الآن، لوجدنا أنه ما من حضارة بَنَتْ صَرحها، وآتت أُكُلَها إلا كان لها تواصل فعال مع الحضارات التي سبقتها أو عاصرتها.

ولا شك أن الظروف التاريخية تؤدي دورًا مهمًا في هذه العملية، وثقافتنا العربية هي إحدى الثقافات التي أخذت وأعطت، وكان لها، وما يزال، دور مهم في بناء الحضارات الإنسانية.

وما تمر به الآن أمتنا العربية ليس إلا مرحلة ستنقضي - إن شاء الله - أدّت إليها ظروف تاريخية وسياسية مرتبطة بطبيعة التغيرات والتبدلات العالمية، بحيث شكلت حاجزًا ثقافيًا مبنيًا على مواقف سياسية وفكرية «أيديولوجية»، بل وحضارية.

وقد نال الأدب العربي - لاسيما في الآونة الأخيرة - اهتمامًا من النقّاد الغربيين، ومن هؤلاء الدكتورة إيزابيلا كاميرا، التي يكتسب مشروعها الثقافي أهمية في نشر الثقافة العربية في إيطاليا، بل في الغرب، وتعريف القارئ الأوروبي آخر ما وصل إليه الأدب العربي وآخر ما وصلت إليه التقنيات الإبداعية عند الأديب العربي.

والدكتورة إيزابيلا هي من مواليد النكبة (كما قالت) 1948م جنوب إيطاليا، أستاذة في جامعة (نابولي) في معهد الاستشراق، حيث تدرّس اللغات الشرقية وتدرّس أيضًا الأدب العربي في كلية اللغات الحية، وكانت تدرّس في المعهد الإسلامي (وهو ما بعد الجامعة للمستشرقين).

وقبل أن نبدأ بالحوار، أرادت الدكتورة أن تتحدث عن مفهومها للاستشراق فقالت:

سأتحدث عن مفهوم الاستشراق من خلال تجربتي في معهد الاستشراق في جامعة نابولي. فرغم كل ما يقدمه هذا المعهد، إلا أنه لا يكفي لتقديم صورة واضحة عن الآداب الأخرى، وأخص الأدب العربي ، فلابد أن تدرس اللغة العربية (مثلاً) في كل الجامعات، ولا تبقى مقتصرة على هذا المعهد فقط.

وأعتقد أن هذا الأسلوب الخاطئ هو الذي أدى إلى خلق صورة غير واضحة عن الأدب العربي، فالقارئ الإيطالي لا يعرف شيئًا عن الأدباء العرب ولا حتى عن العرب، لذلك عندما كنت أكتب في بعض المجلات الاستشراقية عن العرب، كان يستغرب كثيرون عملي. وهذا ما حدث عندما ترجمت للأديب الفلسطيني الأصل غسان كنفاني وكتبت عنه. أما عندما أخذ نجيب محفوظ جائزة نوبل تغيرت الصورة تمامًا، وأصبح الناس هناك يهتمون بالأدب العربي، وبدأت الترجمات الكثيرة، واطلع القارئ الإيطالي على كثير من الكتّاب العرب.

ولكن السؤال الذي أريد أن أسأله:

لماذا انتظرنا حتى آخر الثمانينيات حتى نتعرف الأدبَ العربي، ونتعرف الحضارة العربية؟ أنا أرى أن هذا الانتظار كان خطأ.

ـ ما هو السبب برأيك؟

* السبب ينقسم إلى شقين:

الأول: له علاقة بصعوبة اللغة العربية، ولم يكن هناك مترجمون مهتمون.

الثاني : له علاقة بطبيعة الاهتمام العَام بالأدب العربي، وبالعرب، وهذا كان واضحًا في بداية مشروعي، بحيث لم يكن عندي أية فكرة مسبقة عن الأدب العربي عندما بدأت. لذلك تعبت كثيرًا حتى وقف هذا المشروع على قدميه. فأنا درست اللغة العربية ونحوها، لأن اللغة هي الوسيلة الأهم من أجل الاطلاع والقراءة وتعرّف الأدب العربي.

ـ هذا يقودنا إلى سؤال عن طبيعة العقبات والصعوبات؟

* المتاعب كثيرة، وكما قلت قبل قليل: إن إحدى هذه الصعوبات هي عدم وجود أية تجارب مترجمة لكي أطلع عليها؛ فاقتصرت على جهدي الذاتي والشخصي، ولم يكن هناك أية مساعدات من أية جهة رسمية، لا من طرف بلدي، ولا من طرف العرب. وما جعلني أستمر بهذا المشروع هو الإرادة والتصميم والرسالة الثقافية التي أريد أن أوصلها إلى القارئ الإيطالي. فأنا أرى أن مشروعي مهم جدًا بالنسبة إلى الثقافة العربية والثقافة الإيطالية، وأعتقد أن هذه العقبة هي عقبة كبيرة أمامي، بحيث كنت أسافر بنفسي إلى جميع الدول العربية، وألتقي بالكتّاب، وأتعرف إليهم، وإلى أدبهم، ومن ثم أقرأ لهم حتى تبدأ عملية الاختيار والترجمة.

ـ طبعًا هذا الاختيار ـ كما قلت ـ سبقته قراءات متعددة ومختلفة. فما الأسس التي استندت إليها في اختيارك هذا؟ وهل كان لشهرة الاسم دور في ذلك؟ أم هناك أسس خاصة بك وبطبيعة توجهك الثقافي؟

* لا.. لا.. اسم الكاتب وشهرته لا علاقة لهما باختياري، فأنا أختار النص ذا القيمة، وهذا لا ينفي أن آخذ بالحسبان شهرة الكاتب، لأن الكاتب المهم لابد أن يكون أدبه ذا قيمة ما تدفعني لقراءته. أما إذا وجدت عملاً لكاتب مهم لم يعجبني فلا أترجمه؛ فأنا مستقلة تمامًا باختياراتي. وحتى صاحب دار النشر، عندما اقترحت عليه هذا المشروع قال لي: أنت حرة في اختيارك، وأكّد على نجيب محفوظ لأنه معروف عندنا، وطلب مني أن أترجم للأديب الجزائري الطاهر بن جلون فاعتذرت، لأنه يكتب باللغة الفرنسية، وأنا أترجم لكتّاب عرب يكتبون باللغة العربية.

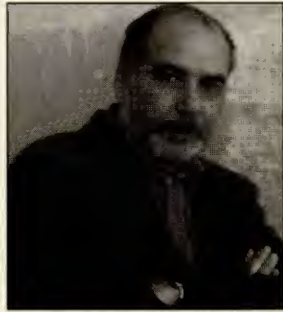
ـ يقال إن الترجمة هي كتابة جديدة للنص المترجم، وإذا لم تستطع الترجمة أن تضع يدها على جوهر النص ومفاصله الدقيقة فمصيرها الإخفاق، ومصير النص التشويه. فما هو مفهومك للترجمة ؟ وهل شكلت اللهجات العامية في بعض النصوص عائقًا أمامك؟ وهل استطعت أن تنقلي اللهجات بالحرارة نفسها كما في النص العربي؟

* أنا كنت في البداية أترجم كثيرًا ولا أنشر، بحيث كنت أقوم بتجارب على الترجمة. فيما بعد، وبعد فترة كبيرة بدأت أترجم النص العربي بأسلوب أدبي بعيدًا عن الترجمة الحرفية التي كان يتبعها كثير من المترجمين. فأنا أعرف أن اللغة العربية تختلف عن اللغة الإيطالية بتراكيبها وقواعدها وبنيتها، فلابد إذًا أن أنقل ذلك كله إلى اللغة الإيطالية، ولكن بالأسلوب الإيطالي. وبذلك أحافظ على جمالية العمل الإبداعي العربي، حتى وإن عدّني بعضهم خائنة للنص، فأنا خائنة لأنني أريد أن أقدم للقارئ الإيطالي نصوصًا أدبية عربية يعجب بها، والترجمة الحرفية هي موت للنص وتشويه له.

ولأول مرة في إيطاليا ـ عندما ترجمت الجاحظ ترجمة أدبية ـ تمنح جائزة لمترجم عن اللغة العربية، وهي جائزة اتحاد المترجمين الإيطاليين. فقد منحت لي منذ شهرين، وإن دل هذا على شيء فإنما يدلّ على إعجابهم وتفهمهم لأسلوبي في الترجمة.


نجيب محفوظ


الطيب صالح


الطاهر بن جلون

ـ عود على بدء، لابد لكل عمل يقوم به الإنسان من دوافع وهدف يسعى إلى تحقيقه. فما هي الدوافع التي وجهت اهتمامك إلى ترجمة نصوص عربية؟

* هناك عدة دوافع، من أهمها ـ حب المعرفة ـ هذا إلى جانب حبي للعرب، ورغبتي في معرفة الشعب العربي. وبما أن الأدب هو مرآة المجتمع، توجهت إلى دراسته وترجمته، فإذا الأمرُ يصبح مشروعًا ثقافيًا؛ فوجدتها فرصة لكي أعرّف القارئ الإيطالي بهذا الأدب الذي لا أنكر إعجابي بإنجازاته على المستويات كافة. وهذا الإعجاب نشأ بعد اطلاعي على الكثير من النصوص والإبداعات العربية.

عندما أترجم أهتم بقيمة النص لا بشهرة الكاتب

ـ بعد هذه القراءات والترجمات. ما الانطباع الذي تركه في نفسك الأدب العربي؟

* كما قلت تعلقي بالأدب العربي لم يكن فقط لمعرفة العرب، وإلا كنت قرأت كتبًا في التاريخ، بل هو الحب الذي تركه هذا الأدب في نفسي. فالأديب العربي عندما يكتب عن قضيته (كالقضية الفلسطينية مثلاً) لا يبقى أدبه محصوراً ضمن حدود هذه القضية، بل يفتح من خلال ذلك أفقًا إنسانيًا، وأجمل مثل رواية غسان كنفاني «رجال تحت الشمس» التي تدور حول ثلاثة رجال مهجّرين يبحثون عن حياة أفضل إلخ. بحيث لم تبق القضية قضية مهاجرين فلسطينيين، وإنما أصبحت قضية كل مهجّر عن وطنه، وهنا تكمن الروح الإنسانية، وهذه الإنسانية لاحظتها في مجمل ما قرأت من أعمال وترجمتها.

وهناك نقطة أخرى وهي أن الكاتب العربي مرتبط بالأصالة والتراث بشكل جميل. فالقصة عنده تحمل تلك الروح الحكائية المتميزة، مما يذكرنا بحكايات «ألف ليلة وليلة»، وهذا الأمر غير موجود عندنا بهذا الوضوح.



غسان كنفاني

ومن الأساليب الجميلة في القصة العربية: القصة داخل القصة، والرواية داخل الرواية. ويمكن أن نقول: إن القصة القصيرة العربية هي من أهم الفنون الأدبية في الأدب العربي، وإن خالفني بعضهم، ولكن هذا رأيي.

ـ قلتِ إن الأدب هو مرآة المجتمع، ولكن الأدب ليس قصة ورواية فقط، هناك الشعر والمسرح وحتى النقد. فلماذا لم تترجمي الشعر مثلاً؟

* أولاً، أنا أحب الرواية والقصة. ثانيًا، ترجمة الشعر أصعب من ترجمة القصة. وأعتقد أن ترجمة الشعر تحتاج إلى مستعرب وشاعر في الوقت نفسه. ولا أنكر أهمية الشعر العربي، فأنا قرأت بعض الترجمات له، وأعجبت بها، وقرأته بلغته واستطعت أن أصل إلى معانيه، إلا أنني لم أترجمه، وربما هذا شيء خاص بي.

ـ بعد هذا الاهتمام الجميل بالأدب العربي. ما موقع الأدب العربي الآن في الوسط الثقافي الإيطالي؟

* في هذه المرحلة هناك اهتمام كبير بالأدب العربي، وهناك كثير من دور النشر تترجم وتنشر للكثير من المؤلفين العرب، بخاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، فقد أصبح الوسط الثقافي الإيطالي اليوم يعرف، إلى جانب نجيب محفوظ، أن هناك عبدالرحمن منيف وحنا مينه وجمال الغيطاني وجبرا إبراهيم جبرا.. الخ، والقارئ الإيطالي بدأ يهتم بهذه الترجمات، وبدأ يكتشف أهميتها وأهمية الأدب العربي، بعد أن كان مغيّبًا عنه.

> **الأديب العربي مرتبط بالأصالة والتراث، ولا يزال يملك تلك الروح الحكائية المتميزة التي تذكرنا بحكايات «ألف ليلة وليلة» !!**

ـ بوصفك مدرّسة للأدب العربي، ودارسةً وباحثةً في هذا المجال، لابد أن يكون عندك توجه نقديٌ معين. فما هو مفهومك للنقد؟

* مفهومي للنقد مفهوم جمالي. فأنا أهتم بجماليات النص الإبداعي، إلا أن هذا المنحى ليس وحيداً في قراءتي للنص، فهناك قيمة الموضوع المطروق، فأنا أرى أن النص الأدبي الذي لا يقدم هدفًا، ولا يطرح موضوعًا مهمًا نص فاشل، ومن دون معنى.

ـ هل تحبين السياسة؟

* (ضحكت) لا يوجد شيء من دون السياسة، السياسة جزء من الحياة، كلامنا سياسة، اختيارنا سياسة، وحوارنا سياسة، وحتى المشروع الثقافي الذي أقوم به هو سياسة، لأنه يعبر عن موقف. أما السياسة كنشاط حزبي فأنا لا علاقة لي به.

ـ إذًا ما موقف المثقف الإيطالي، بل ما موقفك من النظام العالمي الجديد؟ وما منظورك للمستقبَل؟

* أنا متفائلة بالمستقبل، وأعتقد أن كل التغيرات هي في صالح الإنسان؛ لأن المتغيرات القادمة قد تغيّر الكثير من المفاهيم والقيم. والمستقبل هو الكفيل بتوضيح مدى نجاعة هذه المفاهيم. إلا أنني أبقى متفائلة.

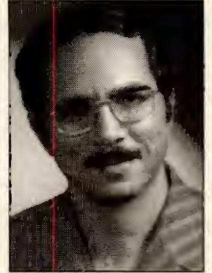
ـ من هم الكتّاب الذين ترجمت لهم قصصًا قصيرة في المجموعة الي أخذت فيها قاصين عربا من أنحاء الوطن العربي؟

* طبعًا في هذه المجموعة اتبعت التاريخ لظاهرة القصة. وممن ترجمت لهم: نجيب محفوظ، جورج سالم، حنا مينه، يحيى حقي، ميخائيل نعيمة، ألفت الأدلبي، يوسف إدريس، عبدالسلام العجيلي، فؤاد التكرلي، زكريا تامر، عبدالرحمن منيف، إميل حبيبي، سميرة عزام، غسان كنفاني، أدوارد الخراط، يوسف الشاروني، بهاء طاهر، حليم بركات، الطاهر وطار، جمال الغيطاني، الطيب صالح، حيدر حيدر، محمد برادة، صنع الله إبراهيم، عمر بن سالم، محمد شكري، يحيى يخلف، غادة السمان، حنان الشيخ، محمد زفزاف، أحمد إبراهيم الفقيه، إبراهيم صموئيل وآخرون.. وقد صدر هذا الكتاب تحت عنوان «القاصون العرب في القرن العشرين».

ـ هل هناك مشروعات أخرى؟

* هناك إلى جانب سلسلة «الكتّاب العرب المعاصرون» كتاب آخر طلب مني أن أؤلفه حول تاريخ الأدب العربي الحديث. وأنا أعمل الآن على تأليفه، وأعتقد أن هذا الكتاب ضروري، فحتى الآن لدينا كتاب وحيد ومهم وهو كتاب للدكتور (جابرييلي)، وأنا من طالبات هذا المستشرق، وهو كتاب يقع في مئتي صفحة، وعلى أهميته فهو لا يكفي لإعطاء فكرة واضحة للطالب الإيطالي عن الأدب العربي المعاصر. ومن هنا تأتي ضرورة كتابي.

المسرح الشعري في



د. عبده بدوي

لعله من المفيد أن نقف عند صلة الإنسان العربي بالمسرح، وكيف أنّ هذه الصلة كانت شبه مفقودة في الماضي، وقد يكون الحديث عن أصالة المسرح عند غيرنا معروفا من الدِّين والفن بالضرورة، ولكن عند العرب يُعدّ الأمر مختلفا.

إن هناك بعض المستشرقين - كرينان - يرى أن العرب كالساميين ليست عندهم أساطير في شعرهم وعقائدهم، وقد كان هذا نتيجة لضمور الخيال، وعدم الرغبة في البحث. ولكن الثابت أنه كان للشعوب القديمة مخزون من الأساطير «الميثولوجيا» وأن العرب لم يكونوا شذوذًا على القاعدة، فمن المعروف أنهم عرفوا الأصنام والأوثان والنُّصب، وكان لهم اتصال أسطوري بعالم الكواكب والإنسان والحيوان والنبات وما وراء الطبيعة. بالإضافة إلى عدد كبير من الأساطير التي دارت حول سدّ مأرب، والقصور - وبخاصة غمدان والخورنق - وما يتصل بعام الفيل، وأيام العرب.

أضف إلى ذلك أنه كانت لهم الكعبة، وما يتصل بشعائر الحج، ومفاهيمها عن الجن والشعر.

التوحيد.. القضية الجوهرية

ويبدو أنه كان وراء كل صنم عبدوه أسطورة(1)، ومع أننا نسلم بهذه، إلا أنّه يبدو أن هناك أمرًا يتجاهله الكثيرون، وهو أمر «التوحيد» وما يتصل به في الجزيرة العربية، فكل هذه الأساطير لم تكن في الصميم من الحضارة العربية القديمة، ذلك لأن الذي كان في الصميم هو قضية التوحيد، لعدد من الأسباب، يجيءُ في مقدمتها:

1 - ما يقرره القرآنُ الكريم في عدد من الآيات(2).

2 - كما أن هناك أحاديث تؤكد هذا، وأن رسائلهم وعهودهم وعقودهم كما تحدثنا الكتب الأمهات كانت تبدأ بكلمة «باسمك اللهم، وتختم بكلمة شهد الله والمَلكان.

3 - كانت الجزيرة قد عرفت دين إبراهيم وإسماعيل، ثم كان التسلل الوثني بادئا من قريش في مكة، فقد جاء في تاريخ اليعقوبي: أن العرب كانت إذا حجت البيت، فرأت تلك الأصنام سألت قريشًا وخُزاعة، فيقولون: نعبدها لتُقرّبنا إلى الله زلفى، فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصنامًا، فجعلت كل قبيلة لها صنمًا، يصلون له تقربًا إلى الله(3). من هذا نصل إلى أن تلك الأصنام كانت مداخل للآلهة، ومجرد إشارات لحقيقة مطلقة سابحة في اللاوعي العربي، ولقد كان كثير منها خاليا من القداسة، بدليل أن بعضها كأساف ونائلة كانا جُرْهُميَّين فَجَرَا في الكعبة، فَمُسخا حجرين(4)، وقد عُرضا في أول الأمر ليتّعظ الناس بهما، ثم كانت الغفلة والعبادة، والمعروف أن قصتهما كانت متداولة بدليل ما يروى عن السيدة عائشة في هذا الأمر.

ثم إن هناك من كان لايحترم هذه الأصنام بدليل أن بعض القبائل كانت تأكل آلهتها عند الحاجة إذا كانت مُقامةً من المواد الغذائية، وكتاب الأصنام(5) يحدثنا عن كثيرين كانوا يسْخرون من الأصنام، ولقد كانت هناك «تلبيات» صَرّحت بعودة بعضهم إلى الله، وبهَجْر الأصنام كهذه التلبية التي تقول: لبيك من كل قبيلَ لبوك، همدان أبناء الملوك تدعوك، قد تركوا أصنامهم، وانتابوك، فاسمع دُعاءً من جميع الأملوك(6).

وقد كان هناك بعض تجاوز لآلهة القبائل على نحو ما هو معروف من استنجاد أبي سفيان بإله قبيلته فقط، فقد كان يقول: أُعْلُ هُبَلْ. أعْلُ هُبَلْ، فيأتيه جواب الرّسول على لسان عمر: الله أعلى وأجل، وحين يقول أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، يأمر الرسول أن يكون الردّ: الله مولانا ولا مولى لكم!

4 - فيما يتصل بمحاولة هدْم أبرهة الأشرم للبيت، نعرف أن عبدالمطلب كلّمه في مئتي بعير كانت له، فقال أبرهة مُسْتغربا: أتكلمني في إبلك؟ وتترك بيتًا هو دينك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهَدْمه، فيردُّ عبدالمطلب: أنا ربّ الإبل، وللبيت رب يمنعه، وحين يقول أبرهة، ما كان لِيُمْنَع مني، وأمَر بردِّ الإبل، نرى عبدالمطلب ينصح قومه بالخروج إلى رؤوس الجبال، ويذهب في نفر من قريش إلى الكعبة، آخذا بحلقة بابها يدعو الله، ويستنصرُه(7).

5 - ثم إن العرب لم يخْلقوا أساسا هذه الأصنام، ذلك لأنهم كانوا يستقدمونها في الحقيقة من الشام ومن اليمن، ولقد كانتْ دميمةً لاتعرف الجمال، والملاحظ أنه كان جهد البعض حين لايجد حجرًا أن يجمع «حَثِيَّةً من التُراب» ثم يجيء بالشاة فتحلب عليها، ثمّ يكون الطّواف حول «الحثيثة» على نحو ما يحدثنا به ابن كثير في البداية والنهاية(8).

6 - أمر التلبية كان موجها أساسا للإله الواحد، فالصيغة الأساسية تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ثم كانت الإضافة الوثنية إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام

الأدب العربي

حين يسمع الفقرة الأولى يقول: قَدْ. قَدْ. أي حَسْب. حَسْب، ومعنى هذا إنكاره للعبارة الثانية، فالفقرة الأولى تراث إبراهيمي تنفيذاً لأمرالله في سورة الحج: *وأذّن في الناس بالحج*. **الحج**: 27. أما الفقرة الثانية فتنسب لعمرو بن لحى الخزاعي الذي يقال: إن الشيطان قد زينها له، فقالها، وسارت وراءه العرب، وعمرو هذا هو الذي تنسب إليه طريقة استقدام الأصنام من الخارج(9).

7 ـ من المعروف أن الجزيرة العربية قد فتحت قلبها لدين إبراهيم وإسماعيل، وممثليه من المُتَحَنِّفين الذين يجيء في مقدمتهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي يقول:

أربًا واحدًا أم ألف رب
أدينُ إذا تقسَّمت الأمورُ
عَزلتُ اللاَّت والْعُزَّى جميعًا
كذلك يفعل الجَلْدُ الصّبور
فلا العُزّى أدينُ ولا ابنتيها
ولا صَنَمَيْ بني عمروٍ أزور
ولا غنما أدينُ وكان ربًا
لنا في الدهر إذْ حلْمي صغير(10)

وهكذا كان الاتصال بالسماء ـ على أي وجه من الوجوه ـ كثيرا، ذلك لأن الأرض ـ والحياة ـ كانت فاقدة الخصوبة. هذا وفي الوقت نفسه لا ننسى دور اليهودية والمسيحية، والصابئة التي تقول بإله خالق يعجز عن الوصول إليه إلا بوساطة، وهناك تراث شعري غزير يؤيد هذا، ويشهد عليه.

الطقوس الاحتفالية ليست مسرحًا

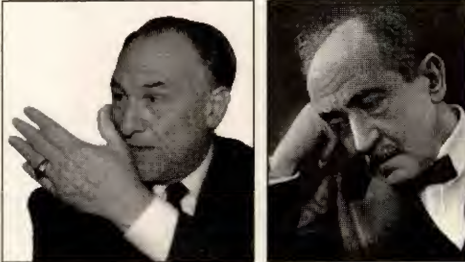
من كل هذا يمكن أن نتصور مشاهد لطقوس تبدأ بالتلبية، ويمكن أن نتصور الصور الاحتفالية التي كانت تقوم بها القبائل مثل قبيلة «عك» التي كانت تقدم عَبْدين عُريانين يُرَدِّدان: نحن غُرابا عَكّ، فتردد القبيلة: عَكّ إليك عانية، عبادك اليمانية، كيْما تحجّ الثانية، على الشّداد الناجية.. وبصفة عامة فقد كانت مجرد شعائر، ومشاهد كلية وقفت ولمْ تتطور كما حدث في اليونان، فلم تتعد المُغَنّي والمردّدين (الكورس) إلى مرحلة الحُوار بين الشخصيات داخل حَدَث متطوّر، مع ملاحظة أن هذه الشعائر وأمثالها كانت تؤدى تأدية جماعية لكل العرب، ولم تكن تقوم بها فرقة بعينها(11)، وفي ضوء هذا يمكن القول بأنها لم تساعد على خلق مَسْرح عربي، وإذا افترضنا أنه كان من الممكن أن تتطور إلى مسرح، فإن من المعروف أن الإسلام قد جاء، وابتعد عن هذا كله، ثم إنه يضاف إلى ذلك أن البدويّ لم يكن يعرف الاستقرار، ولم يمرّ بالأدوار الاجتماعية المتعارفة، وكان في الوقت نفسه يدين بالولاء المطلق كَكُتْلَة بشرية لشيخ القبيلة، ومعنى هذا أن شخصية الانسان المُميز كانت غائبة في هذا المجتمع، ثم إنه ما كان يميل للتحليل والتطويل، لأن البلاغة في نظره كانت الإيجاز، بالإضافة إلى أنها كبلت نفسها ببعض القيود كالسجع والبديع، والشكل العروضي المتوارث. ومهما يكن من شيء فالمسرح ليس خاصية بشرية تتفوق به أمة على أخرى، ذلك لأن المطلوب هو أن تحسن كل أمة في التعبير عن نفسها بأي فن من الفنون، وقد أحسن العرب التعبير عن أنفسهم بالقصيدة الغنائية حتى في أداء الشعائر، على حد ما نعرف مثلا من أغاني «النُّصب» التي كان يتغنّى بها فوق الأنصاب، فعبقرية العربي القديم كانت تظهر أساسا في الغناء لا في القصص، وفي إدارة النجْوَى لا إدارة الصراع، وفي الأخذ بالتجريد الإلهي، لا التشخيص للإنسان أو الآلهة. صحيح أن الشيعة مثلا قد ركزوا على شخصية الحسين، ولكن هذا التركيز لم يصل إلى المدى الذي وصل إليه التعرض للشخصيات في الغرب.

وعلى كل فالإسلام حين جاء رأيناه يصادمُ كلّ المخلفات الوثنية، ورأيناه يُفَرِّغ الجزيرة من كل ما يتعارض مع الإسلام، ومع التوحيد النّقي، والملاحظ أن الإسلام قد تعرض لعدد من المساومات بشأن بقاء بعض الأصنام، والتخويف مَن هدمها، ولقد كان فتح مكة إشارة البدء في هذا كله، وكان من النداءات التي وجهت بحسْم: من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في بيته صنما إلا كسره، أو أحرقه، وثمنه حرام(12)، فلم يبق من كل ذلك إلا ماله صلة بشعيرة الحج، وما يرتبط بإبراهيم وإسماعيل، فقد رفض التصفيق والصفير: *وما كان صلاتهم عند البَيْت إلا مُكاءً وتَصْدية*. **الأنفال**: 35، ورُفضت أشياء وراء ذلك مثل طقوس الذبح، والنّسيء وخصوصيات «الحُمْس» المتشدِّدين الذين كانوا إذا نسكوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، ولم يمسّوا النساء والطِّيب، ولم يأكلوا لَحَمًا... الخ.

من كل هذا نرى أن العرب كانوا معذورين في أنّهم لم يكن لهم مسرح، ذلك لأن قضية «التوحيد» وما فيها من تجريد كانت لا تساعد على خلق مسرح، ثم إنّ الإسلام قد أضاء في النفوس هذه القضية الأساسية، وركّز عليها تركيزًا شديدًا، ولأن قضية «الميثولوجيا» في الأساس كانت مستوردة في أكثر من جانب منها، وبعضها كانت وراءه دوافع اقتصادية، وكان وراءها التعامل مع «الجلال» لا «الجمال»، كما أنه لم تكن توجد بوضوح ترسبات في اللاّوعي على المستوى الفردي والجماعي، وبالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه كانت المسيرة العربية تخلو من الموضوعات التي دفعتْ غيرهم إلى النظْم فيها، فما كان عندهم لم يتجاوز المراسم التي تتّفق مع البداوة، ومع ارتباط الأحاسيس بالكعبة، والرّغْبة في عدم الاستقرار، والتعامل مع الشخصيات المتكررة لا المتميزة.

انعدام الفن المشاهَد

إذا جئنا إلى إمكانية وجود المسْرح في العصر العباسي، وجدنا أن هذه الإمكانية تتخلّف، ذلك لأن



احمد شوقي — عزيز أباظة

العرب فتحوا عقولهم وقلوبهم على الحضارتيْن الفارسية والهندية ـ علما وأدبا ـ على نحو ما هو معروف مثلا من كتاب «الفهرست» لابن النديم، فإذا جئنا إلى الحضارة اليونانية وجدناهم يَعُبُّون عبًا من علومها، ولكنهم يديرون وجوههم عن الأدب، وليس معنى هذا أنهم رفضوا هذا العالم عن جهل به، ذلك لأن الثابت أنهم اختبروه وجَسّوه، فهناك نصوص تؤكد أنهم تَعَرّفوا ما سمعوه مثلاً «بالطراغوزيا»، وأنهم تعرفوا بعض الأعمال الملحمية والمسرحية، وترجموا طرفًا منهما، وحاولوا عرض ما ترجموه على الناس، ولكن الناس رفضوا ذلك ما وسعهم الرّفض، ذلك لأنهم تجاوزوا مفاهيم هذا الأدب، وكانوا يرون أنها لا ترضي إلا عقليات النساء والأطفال.

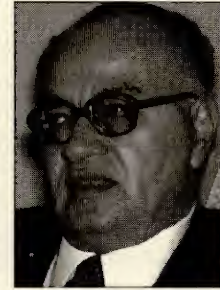
ثم إن محاولة توظيف هذا الأدب بمفاهيم جديدة لم تكن مطروحةً في هذه الفترة، ومن المعروف أن سيادة

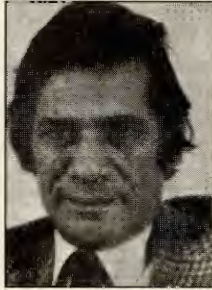
فكر أسطوري بالمفاهيم القديمة كان معناه العبوس في وجه النظام السائد، وكان معناه سيادة العبودية الاجتماعية على الطبقات.. ثم ما الذي كان موجودا من المسرح في العالم أثناء هذه الفترة؟ فالذي كان عند الروم كان تقليدا رديئا لما كان عند اليونان، ثم إنه كان هناك اضطهاد ديني للمسرح في هذه الفترة بدعوى استغراقه في الوثنية، ومعنى هذا أنه لم يكن هناك أمام العرب «فن مشاهَد»، فالذي كان موجوداً فقط - على حياء - كان شيئًا يُقْرأُ ولا يُرى، ومن وجهة نظر أخرى كانت النظرة إلى المأساة على أنها شعر المديح، والنظرة إلى الملهاة على أنها شعر الهجاء، صحيح أنه كانت هناك بزوغات عند الشيعة، وكانت مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء لها طقوس خاصة بها، وكانت للعامة ملاهيهم وفي مقدمتها الفرجة على القرّادين، والحوائين، والقصاصين، والحكّائيين الذين كانوا يحكون في دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب، والنّبط، والخراسانيين، والزنوج، والفرس، والهنود، والروم، بالإضافة إلى ما كان يجري في دور أعيانها كدار «ابن رامين» ودار «إسماعيل القراطيسي»، وفي الاحتفالات في الأعياد، والاجتماع في البساتين والديّارات، ونحن نعرف أن «نصر بن سعيد» حاول إضحاك المتوكل من خليفة أموي كان يحب الطعام، وقد جاء في الديّارات أنهم عرفوا خيال الظل، يروى أن واحداً قال: والله إن فعلت لأخرجنّ أمّك في الخيال(13)، وعلى الرغم من أن كل هذا لا يرقى إلى ما يعرف بالمسرح، فإن هذا لا يمنع من أن يكون عندنا مسرح مُحكَم؛ لأنه ليس من الضروري الآن على الأقل أن تكون للمسرح جذوره الدينية، وعالمه الأسطوري، فالمسرح في العالم من زمن بعيد قد قفز بعيداً عن هذا كله، وعالج القضايا بأساليب ليستْ لها صلة بالدين وبالأساطير، أو على الأقل وظّفهما توظيفًا ذكيًا في خدمة الحياة.. ومن هنا كان دخول العرب لهذا العالم في العصر الحديث ظاهرة طبيعية، خاصة حين جعل الغَرْب قبلته في هذا المجال، وحين جعل الواقعية على وجه الخصوص أسلوبًا مأخوذًا به.

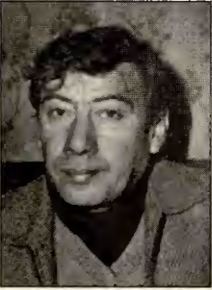
بداية المسرح الشعري

وعلى كل فقد كان الصمتُ عن هذا العالم قديمًا، وكانت محاولات التعليل بعد ذلك لخلو الأدب العربي من عالميْ الملحمة والمسرحية، فالدكتور طه حسين في كتابه «من حديث الشعر والنثر»، يذكر أنه إذا لم توجد عندنا «إلياذة» أو«أوديسًا»، ففي شعرنا العربي ما يؤدي ما أدّتا، وتكون ترجمة «الإلياذة» للبستاني، وتكون محاولة أحمد محرم في «إلياذة الإسلام» بعيدة بعداً تامًا عن عالم الملحمة، ذلك لأنها لا تخرج عن كونها سَرْدًا تاريخيًا جافًا لمسيرة الإسلام، ومع أنه كان من قبل ومن بعد دورٌ لخيال الظل، وفرق «المُحبَظين» و«البابات»، وللقراقوز، ولَمَسْرح الفرد الواحد، إلا أنه من المتصور أن المسرح - بما تنطبق عليه كلمة مسرح - لم يعرفه العالم العربي ابتداء إلا في لغة غير عربية في العصر الحديث، وذلك حين قدّم الفرنسيون في مصر - بعد أن اقتحموها - عروضًا لبعض المسرحيات باللغة الفرنسية، فقد كانت مشاهدتها متاحة للبعض الذي كان يكتفي بمشاهدة الحركة، والإيقاع، والإضاءة، والديكور، والملابس، والموسيقى، والإشارات حول هذا موجودة في كتاب وصف مصر، وعند الجبرتي في «عجائب الآثار»، كما أن الجنرال مينو شغل نفسه بتشييد مسرح سماه مسرح الجمهورية والفنون، وقريب من هذا ما نعرف من أن الإنجليز قدّموا في بغداد عدداً من المسرحيات بالإنجليزية، وأن الناس كانوا يقبلون عليها إقبالاً شديداً.. وعلى كل فلعل أوّل ما يقابلنا حديثًا عن المسرح، هو رفاعة الطهطاوي حين حدثنا عن مشاهداته للمسرح في باريس وقوله: «لا مانع من أن نترجم كلمة «تياتر» أو «سبكتاكل» بلفظ خيالي(14).

ثم يقابلنا اهتمامُ الخديوي إسماعيل بالمسرح وتشييده دار الأوبرا التي قَدَّمتْ - فيما قَدَّمت - أوبرا «عايدة»، فقد كان في مخططه أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، وفي سوريا كان هناك اهتمام واضح بالمسرح عن طريق الإرساليات الأجنبية، وفي ضوء هذا تجيء ريادة مارون النقاش اللبناني لهذا الفن الذي تعرف إليه في إيطاليا عام 1846م، وقريب من هذا الدور ما قام به القبّاني، وما قام به يعقوب بن صنوع في مصر، وكان قد اقتبس هو الآخر هذا الفن من إيطاليا.. يضاف إلى ذلك ما قام به سليم النقاش، ونجيب الحداد، ومحمد عثمان جلال، ويلاحظ على المسرح في هذه الفترة أنه كان عاميًا مترجمًا.


عبد الرحمن الشرقاوي


معين بسيسو


ممدوح عدوان

والمسرح الشعري يقابلنا أول ما يقابلنا عند خليل اليازجي الذي كتب بالشعر مسرحية «المروءة والوفاء» وقدمت على مسرح بيروت عام 1888م، ثم كانت نقلة أحمد خليل القباني من دمشق إلى مصر عام 1884م، وكانت نقلة التعريب والتمصير إلى عالم العروبة والإسلام، وكانت النقلة من العامية إلى الفصحى حين تراوح السجع مع الشعر على نحو ما هو معروف من مسرحية محمود نجم شاه العجم المقتبسة من ألف ليلة وليلة.. وفي هذا الاتجاه سار المصري علي نور حين كتب عن عنترة مسرحية شهامة العرب، وسار الزعيم «مصطفى كامل» في هذا الطريق حين كتب فتح الأندلس، مزاوجًا فيها بين النثر المسجوع والشعر، كما سار في الخط نفسه محمود واصف، بالإضافة إلى دور محمد تيمور في «العصفور الأزرق» التي مثلتها فرقة عبدالرحمن الرشدي عام 1918م، فقد جعل شخصيته «حسن» في المسرحية تتكلم شعراً.

الشعر المسرحي لا المسرح الشعري

ثم يجيء الدور الحاسم للمسرح الشعري حين تتكون الفرقة القومية للتمثيل عام 1935م بقيادة شاعر كبير هو خليل مطران، وقد كان من الطبيعي أن يهتم بالمسرح الشعري، والترويج له، ومن هنا رأيناه يقوم بترجمة عدد من مسرحيات شيكسبير، ورأيناه ينضم إلى الجماعة التي اشترطت بأن يكون ما يُقَدّم على المسرح بالفُصحى، ثم نرى أحمد شوقي يقوم بالرِّيادة الحقيقية للمسرح الشعري، فنراه يقدم ست مسرحيات هي: قيس وليلى، عنترة، قمبيز، كليوبترا، أميرة الأندلس، وعلي بك الكبير، وهي أساسًا تعتمد على الأخذ من التاريخ، وتراعي مشاعر الطبقة العليا في المجتمع في هذه الفترة، وتعتمد على الغنائية المُفْرطة إلى حدّ أن كثيرين يرتاحون إلى تسميتها شعراً مسرحيًا لا مسرحًا شعريًا؛ أما الذي ينطبق عليه المسرح الشعري فهو مسرحية «الست هدى»، ثم مسرحية «البخيلة» التي صدرت أخيراً عام 1984م بتحقيق سعد درويش ومراجعة عزالدين إسماعيل، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهو من خلال كل هذا يقوم ببعض الإسقاطات الآلية، فيمجّد تاريخ العرب، ومصر على وجه الخصوص، ويجيدُ في رسم الشخصيات النسائية القوية، بينما تبدو شخصيات كثير من الرجال شاحبة وواهنة؛ لأنه لا يضعها في دائرة الصراع المتنامي؛ ولأنه لا يوفّق بين الشعر والدراما، ولأنه لم يسأل نفسه السؤال الذي يقول: هل هناك شعر عظيم إلا وهو شعر درامي؟، ثم إنه حتى الشعر الغنائي العظيم شعر درامي في صيغته، ولأنه كان يريد التوفيق بين روح العصر وروح «القصر» في هذه الفترة، ولعله كان وراء صمته الطويل بعد أن كتب مسرحية علي بك الكبير وهو طالب في فرنسا، وحين لم يجد قبولاً من الخديوي نراه

يصمت طويلاً عن عالم المسرح، ولا يعود إليه إلا في نهايات العمر، وتغيّر الأحوال السياسية، ومن ثم تكون إعادته لكتابة مسرحية علي بك الكبير عام 1932م، ويكون تقديمها في ثوب جديد، وعلى كل فوراء هذا كلّه كانت مشاهداته للمسرح الفرنسي، وإحساسه بالمزاج الطروب الذي كان دائماً منجذباً للغنائية(15).. مع ملاحظة مسرحية ظهرت أخيراً له(16).

وحين يتسلم عزيز أباظة الرّاية لا نراه يبعد كثيراً عن عالم أحمد شوقي، وعن الدّوران حول محاوره الرئيسية، وإن كان لا يصل إلى الآفاق الغنائية العليا الخاصة بشوقي، ولقد كان من المفارقات إدخاله بعض قصائد ديوانه «أنات حائرة» في صميم مسرحية قيس ولُبْنى، ومع أنه يقترب من أساليب الدراما أكثر من شوقي، إلا أنه يقف دون شوقي، على الرغم من أنه قدّم المسرحيات الآتية: «قَيْصر، زهرة وشهريار، قافلة النور، شجرة الدر، قيس ولُبْنى، العباسة، النّاصر، غروب الأندلس»، ومع أنه اتكأ على التاريخ إلا أنه انفرد ـ كشوقي ـ في تقديم «أوراق الخريف» بعيداً عن التاريخ(17)، وإذا كانت أعماله قد وَجَدَتْ طريقها إلى المسرح، ووجدت من يلقي عليها الأضواء، فإننا نرى محمود غنيم يسير في هذا الاتجاه، ويكتب بسلاسة وغنائية حارّة أعماله: «يومان للنعمان، غرام يزيد، الجاه المستعار، المروءة المقنعة، النصر لمصر».. ولما كان لم يرفع عليها ستار، ولم تكتب عنها كلمة، فقد غرقت في الصمت المهين.

ولا يبعد عن هذا الدور ما قام به أحمد رامي حين قدم مسرحية مسطّحة تدور حول حب ابن زيدون وولادة.. ويبدو أن حافظ إبراهيم حاول أن يجرب الكتابة المسرحية، فكتب حوارية عن حرب بيروت حين ضرب الأسطول الطلياني مدينة بيروت انتقاماً من الأتراك عام 1912م، وقد أجرى هذا الحوار بين جريح من أهل بيروت، وزوج له اسمها ليلى، وطبيب، ورجل عربي، وقريب من هذا تلك المحاورة التي جرت بينه وبين خليل مطران في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل بالأوبرا، ونشرت في 31 من آذار/ مارس 1913م، وحين لم يجد نفسه في هذا المجال نراه يغادر سريعاً، ويصمت عنه.

ومجمل الأمر أن كل هذا النوع من الشعر كان يدور في دائرة «الشعر المسرحي»، لا «المسرح الشعري». وما يحكم الأمر كله في هذا النوع من الشعر هو عدم وجود رصيد له في المسيرة العربية، وهو عامل اللغة باعتبارها الأداة التي تقدم الحدث والشخصية وما يتصل بهما، وباعتبارها متعاونة مع التمثيل والإثارة، بحيث لا تخضعهما، فهما ليسا إضافة، ولكن وسيلة لتجسيم ما تحتويه الكلمات(18)، زد على ذلك عدم وجود الصراع على أكثر من مستوى في هذه الفترة، وسطوة الوزن والقافية على الحدث.

المسرح وتطوير الشعر

ولعل النجدة الحقيقية للمسرح الشعري جاءت فيما كتبه محمد فريد أبو حديد حين قدّم «مقتل سيدنا عثمان عام 1918م»، ونشرها عام 1924م بالشعر المرسل(19)، ونراه يتخلى عن قسمة البيت إلى شطرين، ويتوسع في التضمين، ويراوح بين التفعيلات حين يتطلبها المعنى بالإضافة إلى بعض التغييرات على البنية الشكلية للشعر الشطري؛ ثم فيما كتبه علي أحمد باكثير حين اهتدى إلى التعامل بالتفعيلة الواحدة لا البحر، فقد ترجم في أول الأمر فصولاً من مسرحية الليلة الثانية عشرة لشيكسبير على طريقة الشعر الموزون المقفى، وكانت معاناته واضحة في هذا الجانب، وحين كان يدرس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب اختار مشهداً من مسرحية كانت مقررة في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وهي: «روميو وجولييت»، وجعل في خدمته تلقائيًا تفعيلة المتقارب «فعولن» وبعض البحور المناسبة للموضوع وللموقف، فقد أدرك أن البحور ذات التفعيلة الواحدة كالكامل، والرجز، والمتقارب، والمتدارك، هي الأنسب للترجمة، ثم يجيء دور التأليف ويقدم مسرحية أخناتون ونفرتيتي من تفعيلة بحر المتدارك «فاعلن» عام 1938، متجاوزاً المرحلة المتقدمة التي كتب فيها مسرحية «همام»، والملاحظ أنه اعتمد على الجملة الطويلة المسترسلة التي يمكن أن يلقيها الممثل في نَفَس واحد قَدْر المُسْتطاع، كما اعتمد على الجُمل القصيرة المتوترة التي تخدم المواقفَ المحتدمة، أما القوافي فلم تكن رتيبة، وإنما كانت في ومضات كالبَرْق الخاطف، وفي الوقت نفسه قدم ما يمكن تسميته أوبرا في «قصر الهودج» وقد راعى فيها إمكانيات الغناء واستطراده، وهو في هذا العمل لم يتقيد ببحر واحد، أو قافية واحدة.. وأخيراً نراه يقدم لنا «الأوبريت» في عمله المسمّى: «الشيماء»(20).

والملاحظة الجديرة بالنّظر هنا أن المسرح كان وراء تطوير الشعر في هذه الفترة التي تُوّجَتْ بالنصوص الجيدة التي كتبها بعد ذلك بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وفؤاد الخشن.. الخ، والتي وصلت إلى ما يسمّى «شعر الجملة» بعد ذلك.

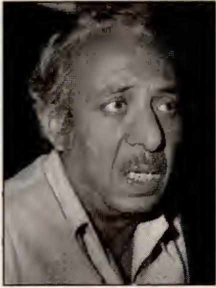
الاقتراب من البناء الدرامي

الاهتداء إلى ما يسمى الشعر الحر ـ أو شعر التفعيلة ـ بالإضافة إلى قيام ثورة تموز/ يوليو 1952م كان نجدةً حقيقيّة للمسرح الشعري، فعلى الرغم من أن القائمين على الثورة لم يلتفتوا إلى المسرح في أول الأمر، إلا أنه سرعان ما كانت لها أكثر من التفاتة، وذلك حين رأتْ أن يكون المسرح في خدمة العصر بقضاياه السياسية والاجتماعية، وحين تأكّد بعض الشعراء أن المسرح هو الوسط الأمثل للشعر، وهو أقرب السبل وأقومها إلى النفع الاجتماعي، بالإضافة إلى قدرته على تقديم أكثر من مستوى للواقع، وإلى نفاذه إلى الواقع، وما وراء الواقع بوساطة الإيقاع، وخلق إحساس بأن الفعل يتشكل في مكانين في وقت واحد. فقد رأيناهم يهرولون إلى هذه الساحة، ومن ثم سنجد تحولاً عن عالم التاريخ إلى عالم يتصل بقضايا الناس وهمومهم، ولقد كان عبدالرحمن الشرقاوي أول من تلقف الرّاية، وطمح إلى تجديد الشعر وإحياء الدرامات التسجيلية في وقت واحد، ومن ثم كان تحسّسه لهذا العالم بقصيدته الرحبة المسماة «من أب مصري إلى الرئيس ترومان»، ثم كان انطلاقة إلى هذا العالم الذي اتّسم بالجدية والالتزام ممثلاً في مسرحياته:

مأساة جميلة 1962م ،والفتى مهران 1966م،والحسين شهيداً 1971م، والحسين ثائراً 1971، ووطني عكّا 1969م، والنسر الأحمر 1974م، والنسر والغربان، والنسر وقلب الأسد، وعرابي زعيم الفلاحين 1982م.

وهكذا رأينا خطوة تالية ومتطورة للمسرح قبل ذلك، فمن المعروف أنه اقترب من البناء الدرامي الجيد،


فاروق جويدة


صلاح عبد الصبور

ومن تصوير الحياة وهي في صميم الحدث، ولقد تجاوز إلى حد كبير روح الغنائية والسّكون التي كانت سائدة من قبل، وفي الوقت نفسه ابتعد عن المصادفات، واقترب من لغة الناس، ورتّب كل حدث على الحدث الذي يسبقه، بحيث يكون هناك نُموّ متطوّر للشخصيات، وإن كان الدكتور علي الراعي يأخذ عليه أنه لم ينجح في خلق شخصيات كاملة الاستدارة، وإنه يتحدث من داخل بناء ممتد، بالإضافة إلى الداء القديم المتمثل في طغيان الروح الغنائية على الروح الدرامية، مع نجاحه في الشعر المستوعب تراثَ الماضي، والمعبّر عن فكر الحاضر (21).

ثم يجيء دور صلاح عبد الصبور في مسرحياته:

مأساة الحلاج، ومسافر ليل، وليلى والمجنون،والأميرة تنتظر،وبعد أن يموت الملك، فيعبّر عن أحداث درامية متعددة المعاني والظلال وهو ينطلق في هذا كله من إحساسه بأن الشعر هو الأساس في المسرح، وأن هناك رغبة الآن في العودة إلى ينابيعه الأولى، وفي ضوء هذا

رأيناهُ يتقدم إلى هذا العالم بأسلحة جديدة، يجيء في مقدمتها طرح هموم الإنسان المعاصر، والاقتراب من اللغة الحية للناس، والتعامل مع بلاغة حديثة تعتمد على الخيال والتكثيف، واللامعقول أحيانًا، والإفضاء الذاتي بالإيحاء، والانتفاع بعدد من أشكال المسرح العالمي المعاصر، مع ملاحظة أن لكل عمل فني بلاغته الخاصة به، وإذا كان لم يركز على عنصر الحكاية الجديدة في المسرحية، فإن تأثره الواضح - بتأثير من المسرح السابق له - كان على الكلمة المكتوبة بمهارة، والتي يجب أن تخضع لها الخشبة ومتطلباتها وليس العكس، وقد كان من الطبيعي أن يختار تفعيلات مأنوسة ومتداولة في وجدان الناس، ومساعدة على الحركة مثل تفعيلة الرّجز - مُستَفْعلن -، وتفعيلة الوافر - مُفَاعَلَتُن -، وتفعيلة المتدارك - فَعْلن المحوّرة عن فاعلن - وتفعيلة المتقارب - فعولن -.

ومع ذلك نراه لم يتخلص من التعامل مع التاريخ، كما نحس شحوب بعض الشخصيات، والاسترسال في الحوار، وعدم الوصول بكفاءة واقتدار إلى الكمال الشعري والدرامي معًا؛

مسرحية «قيس وليلى»، وعلى نحو ما فعل مهدي بندق حين عارض بمسرحيته «غيط العنب»، و«ريم على الدم» حكاية ميديا في «قصة زواج الكترا» التي كتبها «يوربيدس» وبطلة مسرحية «عرس الدم» للشاعر «لوركا». والمعارضة ليس بالضرورة نوعًا من التبني لرأي الآخر، فقد تنطلق أساسًا من فكرة معارضة للفكرة التي بُني عليها العمل الأصلي(23).

على أن أغلب هذه الأعمال تغلب عليها الغنائية المتدفقة، وتتعارض في الوقت نفسه مع أساليب الدراما العصرية التي يظهر فيها أسلوب الصراع واضحًا بين الأشخاص والأفكار، فهم واقعون في أسر الدكتور طه حسين الذي يرى: أن على الشعر أن يصوّر الأشياء لا كما تشاء الأشياء، أو كما تشاء الطبيعة، بينما يرى ستانسلافسكي أنه لا شأن لنا بالوجود الطبيعي للأشياء المحيطة بنا، فظهورها إن كان لابد منه يمكن أن يكون في الخلفية فقط(24)، فمن الضروري أن تتحقق له قيمة درامية، لا أن يكون اسْترسالاً غنائيًا محضًا، أو اسْترسالاً في قالب درامي.

المسرح الشعري في بعض الدول العربية

وتكاد هذه المسيرة تتشابه في عدد من البُلدان العربية على حد ما نعرف من المسرح في سوريا ولبنان، فعلى الرغم من ريادتهما في هذا المجال، فإن المسرح الشعري لم يلمع هناك، فروايات ذي قار لعمر أبو ريشة لا تخرج عن كونها مجموعة من القصائد، ومثل هذا يمكن أن يقال عمّا كتبه سعيد عقل وعمّا قدّمه نجيب حداد حين كتب عن عبدالرحمن الداخل، أما الذي اقترب شديدا من المعاصرة، فقد كان آخرون يجيء في مقدمتهم ممدوح عدوان في مسرحية المخاض مثلاً، ومثل هذا يمكن أن يقال في الأقطار العربية مثل دُول المغرب، والعراق، والسودان، وبعض دول الخليج كالبحرين، فإبراهيم العريض سار على خطوات شوقي في مسرحيتيْ «وامعتصماه»، و«بين الدولتين»، وإذا كان شوقي تناول التاريخ بشيء من التغْيير، فإنه نظر إلى التاريخ على أنّه أحداث منفصلة، وإلى الشخصيات على أنها ذات مستوىً واحد، مع الاستعانة ببعض أبيات من الشعر القديم(29).

والملاحظة الجديرة بالذكر أن الفلسطينيين كان لهم دور واضح في المسرح، وبخاصة حين وظّفوه لخدمة قضيتهم، فهم ابتداء تحركوا في ظلال التاريخ العربي القديم، حين كتب برهان الدين العبوشي مسرحية شعرية اسمها «شبه الأندلس» عام 1949م، وحين كتب محمد حسن علاء الدين مسرحية شعرية عن امرئ القيس، وحين كتب محي الدين الحاج عيسى مسرحية عن معارك كليب مع جساس ابن عمه وصهره، أما الذي انعطف نحو القضية الفلسطينية انعطافًا مباشرًا وملحوظًا فقد كان معين بسيسو، وذلك حين جعل أعماله كلها في خدمة القضية، على نحو ما هو معروف من مسرحياته:

مأساة جيفارا، وثورة الزنج، وشمشون ودليلة، والعصافير تبني أعشاشها بين الأصابع، ومحاكمة كتاب كليلة ودمنة.

العرب معذورون في أنهم لم يكن لهم مسرح، لأن قضية التوحيد وما فيها من تجريد كانت لا تساعد على إيجاد مسرح، كما لم يكن أمامهم «فن مشاهَد» يقتدون به

ولكنه مع ذلك كان خطوة ذكية في عالم المسرح الشعري، فقد اقترب من المزاوجة بين الدراما والشعر أكثر من غيره، وفتح الطريق واسعًا أمام عدد من الشعراء في هذا المجال، يجيء في مقدمتهم نجيب سرور الذي مزج بين شعر الفصحى وشعر العامية، واعتمد مقولات تراثية شعبية «فلكلورية» في أكثر من عمل.. ثم سار على الطريق شعراء كثيرون يجيء في مقدمتهم فاروق جويدة، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وفتحي سعيد، ومحمد مهران، ووفاء وجدي، وأنس داود، وأحمد سويلم، وإسماعيل الصيفي، ومحمد العفيفي.. الخ. ويلاحظ أن أكثر أعمال هؤلاء تَمُتُّ إلى التراث بسبب أو بأسباب، أو إلى بعض الظواهر الاجتماعية الحديثة، وإن كانت تلمع من بين هذه الأعمال أعمال فاروق جويدة مثل: الوزير العاشق، والخديوي، ودماء على الكعبة؛ لأنّه وازن بين الأصالة والمعاصرة، وجعل الإسقاطات تؤدّي دورًا مهمًا.

طغيان الغنائية المتدفقة

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى ظاهرة «المعارضة» فإذا كان عزيز أباظة، ومحمود غنيم قد عارضا أحمد شوقي، فإن أحمد شوقي نفسه عارض ما كتبه شيكسبير وشو عن كيلوباترا مثلا، كما عارض صلاح الدين عبدالصبور بليلاه في مسرحية «ليلى والمجنون» ليلى أحمد شوقي في

ولقد كان مما ساعد المسرحيين الجدد أنهم انتقلوا أساسًا من القالب التقليدي للبيت، ذلك لأن البيت العروضي يمتاز من الناحية الموسيقية بشدة وضوح الإيقاع فيه، ثم إن التفعيلة في موسيقى الشعر العربي تعتمد هي الأخرى على الحركة والسكون، ومعنى هذا أنها تعتمد على عناصر إيقاعية، أما الشعر الجديد عندما يستخدم في الحوار الدرامي، نراه يتخلص إلى حد بعيد من الإيقاع الواضح الرتيب الذي يوحي بالاصطناع(25)، ولعل من المفارقات أن أحمد شوقي حين نوّعَ في الأبحر والقوافي، ومزج بين خصائص الشعر المرسل، وبعض خصائص الشعر الحر في مسرحية قمبيز رأينا عباس محمود العقاد ينقده حين يقول: «وأيًا كان اعتذار الشاعر في تغيير الأوزان مَوْقفًا بعد موقف، فما نخال واحداً يَعْذره، حين يغيّر الوزن في البيتين الاثنين، يلقي بهما الممثل والممثلان في الحوار الواحد.. فإن أحد البيتين من بحر وقافية، وإذا البيت الثاني من بحر آخر، وقافية أخرى، نعم إلى هذا الدرك من الخلل والإسفاف هبط شوقي(26).

«كما هاجمه د. عوض محمد عوض لأنه استخدم بحوراً وقوافي مختلفة في كلام صادر عن شخصية واحدة في موقف واحد (27).. ثم كانت انحناءة بعد ذلك في المسرح(28).

وأخيرًا شارك في هذا سميح القاسم بمسرحية ساطعة، ومثل هذا فعل هارون هاشم رشيد.. والمشاهد أن المسرح الغنائي توّج أخيرًا بما يسمى حديثًا بالمسرح الرحباني في لبنان، وكانت هناك الالتفاتة إلى مسرح شيكسبير، وإلى مختارات من المسرح الفرنسي، وهناك نهضة وبزوغات في عدد من الدول العربية، ولكنها لم تصل إلى حد السطوع.

ظاهرة الأنموذج الفردي

من كل هذا نعرف أن المسرح الشعري لم يكن له وجود في الجاهلية؛ لأنه كان، وراء المخزون الأسطوري، والأخذ بالمظاهر الوثنية، ظاهرةٌ ضاربة في الأعماق هي ظاهرة «التّوْحيد» في العديد من أشكاله، وحين جاء

الإسلام عَمَّق هذه الظاهرة ونَقَّاها، وساعد على أن يكون الإنسان العربي أسيرًا للغنائية المتوارثة، ولعَالم النَّجْوى الذي يتفق مع التَّصالح مع الإله، لا عالَم الصراع مع الآلهة الذي اشتعل منذ الحضارة اليونانية، المهم أن الإنسان العربي ابتعد بقدر الإمكان عن عالم الصراع مع السماء، وما تمثله السماء، وكل ما هو خارج عن ظروفه وبيئته.

ثم إنه لم يفصل بشكل حاسم بين الشَّكْل الغنائي والشكل المسرحي على نحو ما فعل الأوروبيون حين خصَّصوا لعالم الغناء فنونًا مثل الأوبرا، والأوبريت، والقصيد السيمفوني، وفن الباليه، ولعله كان وراء الالتصاق الحميم بالغنائية جمود «العربية» في عدد من العصور، فقد كان نثرها يخضع للسجع، وشعرها ينوء بالقافية الواحدة، وبسلاسل من المحسنات، وفكْرُها يدور في دائرة محدودة لا يتعداها، بالإضافة إلى عَدم الوقوف عند درامية اللغة، ودرامية الشعر بما فيه الشعر الغنائي، وعدم خلق صراع حقيقي بين الشعر والنثر إلا في العصر الحديث، وبالملاحظة نجد العربي ما كان يركِّز في مسيرته إلا على ما يسمَّى «بالأنموذج الفردي» في عدد من المجالات، ولعل هذا كان وراء ظاهرة البطل الفرد في المقاومة، ووراء ما يُسمَّى الآن مسرح الفرد الواحد: كالحكواتي، والمقلداتي، والرَّاوي، والمدَّاح، والخلاَّيْقي، فالكلُّ كان يعتمد على المونولوج المسترسل داخل الحلقة - السامر - بأبسط لتكاليف، وبعيداً عن المسرح المشاهد المحكم بمعنى الكلمة.

كيف نتجاوز القصيدة الغنائية؟

ولكن كلُّ هذا لا يمنع الآن من الإبداع في هذا المجال، في ظل الظروف الحضارية التي نعيشها الآن، ونحسب أن المسرح الشعري هو المرشح في العالم العربي لنهضة جديدة في عالم جديد، فالجمهور والمبدعون أسرى في الأساس لعالم الكلمة وظلالها، وبخاصة بعد أن أصبحت ظاهرة «المسرح المشاهد» متاحة الآن، والتي كانت في تصوري هي العامل الرئيسي في عدم الإقبال على ظاهرة المسرح الشعري في الأزمنة القديمة، والتي حين أتيحت عن طريق اللغتين الإنجليزية والفرنسية كان الميلاد الحقيقي للمسرح الشعري العربي، ولعله من المفيد أن نذكر أن طريق القصيدة الغنائية قد أصبح - أو كاد - مسدودًا، وفي ضوء هذا يكون من الضروري الالتفات إلى عالم الدراما، وإلى الأشكال المركّبة في مسيرة الشعر العربي، فكما نهتم بالتراجيديا نظرًا لمستواها الشعري، فإننا نهتم في الوقت نفسه بالشعر داخل الإطار المسرحي، حيث الخطوط الخلاّبة، والألوان المتعددة، والأصوات الجذابة، والإيقاعات المثيرة، فضلاً عن الإحساس الدائم باللذة (30). ومن حيث الشكل، فالأساليب الجديدة أصبحت تخدم القالب الدرامي، فهناك الشطر، ومجمع البحور، والشعر المرسل، وشعر التفعيلة، والشكل المدور، بل وما يسمّى بقصيدة النثر.. وفي كلٍّ إمكاناتٌ درامية رحبة، ومعروف أن مسرحيات شيكسبير كتبت من الشعر المرسل الذي يلتزم تراث الوزن الخماسي الأيامبي، وفي الوقت نفسه يتحرر من القافية التي لا يلجأ إليها إلا في البدايات والنهايات للفصول، وفي المشاهد التي تعتمد على الغناء والرقص، أو بعض مشاهد الخطب أو المواعظ، أو المواقف الساخرة، وخلاصة القول «إن موهبة الشاعر هي التي تحدِّد الشكل الشعري في جميع الأحوال»(31)، ونحسب أن الشعر العربي سائر باقتدار على هذا الطريق. على أننا يجب أن لا ننسى أن العشق الحقيقي للإنسان العربي هو عالم القصيدة الغنائية، ومن هنا كانت الدعوة الحارة لما يسمى «الليالي الشعرية» التي كان يشجع عليها الدكتور محمد مندور فيقول «تلك الليالي سوف تشبع حالة أصيلةً في النفوس للمُتعة الجمالية، والتنفيس العاطفي مما سيكون له أكبر الأثر في تطهير النّفوس من جهة، ورفع مستوى الذوق العام الجمالي والعاطفي من جهة أخرى» (32)، وإن كان هناك من يرى أنّ الدراما الشعرية لن تستردّ مكانتها، إلاَّ إذا دخلت في صراع سافر مع الدراما النثرية، ونزلت إلى لغة الحياة التي يعود إليها المشاهد بعد الخروج من المسرح(33).. وعلى كل فلا مناص الآن من تجاوز القصيدة الغنائية إلى عالم الدراما بسبب التّقنيات الحديثة، والمُعطيات الجديدة.

المراجع والهوامش

1 - تأمل مثلا وجهة النّظر التي ترى أن «أم عمرو» في شعر أبي ذؤيب الهُذلي، يمكن أن تكون معادلاً «لسواع» ربة هذيل في الجاهلية، والتي كانت تمثل الإخصاب الإنساني، كما تمثل الحرب، وكيف كان لها معبد يضم كاهنات وبنات، وأن الكاهنة في كل حالاتها كانت تمثل «سواعا»، فقد كانت تمضي أربعة أشهر في خيمة على ضفّة نهر عُشَر، وأنها كانت تَغْتذي على لبن الأركات، وتقيم علاقات جنسية سريّة بفتيان، وفي الوقت نفسه كان على الفتى الذي يروم وصالها أن يطوف حول المعبد ثلاثة أعوام، فإذا مالت إليه وقَبَّلَتْهُ صار «خليل السِّر»، وكان عليه أن يراسلها في العلن بوساطة غلام، ثم يتحول هذا الغلام بعد فترة حين يكبر إلى «خليل السر».. ومهما يكن من أمر فهناك تشابه بين أم عمرو في شعر أبي ذؤيب الهُذلي وبين عشتار البابلية في الإخصاب، والخصب، والحرب، ويرجّح أن تكون أم عمرو كناية عن سواع الهُذلية - «الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهُذلي الجاهلي». د.نصرت عبدالرحمن ص 187 - 194 - والمهم أن الأسطورة ماتت في الطقوس، وعاشت في الفن.

2 - انظر قول الله: .. *ولَئِن سألتهم من خَلَقَ السموات والأرضَ ليقولُنَّ خلقهن العزيزُ العليم*. الزخرف 9، *ولَئِن سألتهم من خَلَقَ السموات والأرضَ ليقولُن الله*. الزمر 38، *والذين اتَّخذوا من دونه أولياءَ ما نَعْبدهم إلاَّ ليُقرِّبونا إلى الله زُلفى*. الزمر 3، «*وما يُؤمنُ أكثرُهم بالله إلا وهُمْ مُشْركون*». يوسف106.

3 - 295/1 وقد وجد في الجزيرة من قبل: هود نبيّ عاد، وصالح نبيّ ثمود، وخالد بن سنان العبسي الذي قال عنه الرسول: نبي ضيَّعهُ قومه، فهو الذي أطفأ الله به نار الحرّتين. الإكليل للهمداني - تحقيق محمد بن علي الأكوع 292/2 ط. 1 - القاهرة.

4 - السيرة لابن هشام، ص 54، تحقيق إبراهيم الأبياري ط. القاهرة.

5 - الأصنام لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي، ص 34 - 37، وتأمل ما قيل عن عربي أراد أن يتبرك بالإله، وكان صخرة طويلة يهراق عليها الدماء، فنفرت إبله فقال:

أتينا إلى سَعْد ليجْمعَ شملنا
فشتَّتنا سعدٌ، فلا نحنُ من سعد
وهل سعدُ إلاَّ صخرة بتنوفة
من الأرض لا يُدعَى لغَيٍّ ولا رُشْد

6 - رسالة الغفران للمعري الأملوك: الملوك، تحقيق د. بنت الشاطئ ص 543.

7 - العامل في التاريخ 320/1 وما بعدها.

8 - نفسه 1808/2.

9 - أخبار مكة المشرفة للفاكهي، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيس 33/1، مكة المكرّمة 1407هـ - 1986م.

10 - الأصنام لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي ص 109.

11 - أخبار مكة للأزْرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس. مطابع دار الثقافة، ص 78 مكة المكرمة 1398- 1978م.

12 - العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف ص 55 ط 2، دار المعارف. القاهرة، مع ملاحظة أن مأساة الحسين عولجت في الأدب الفارسي بما يسمى «نصوص التّعازي» على حدّ ما يذكره د. محمد عزيزة في كتاب الإسلام والمسرح ص 86.

13- الديارات للشابُشتي، وقد وجد في الجزيرة من قبل: هود نبيّ عاد، وصالح نبيّ ثمود، وخالد بن سنان العبسي الذي قال عنه الرسول نبي ضيّعه قومه، فهو الذي أطفأ اللّهُ به نار الحرّتين - الإكليل للهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع 292/2 ط. القاهرة.

14 - قراءة التراث النقدي، د. جابر عصفور، ص 336، ط. دار سعاد الصباح.

15 - تطوّر الأدب العربي الحديث، د. أحمد هيكل، ص 132، ط. دار المعارف 1968.

16 - بالإضافة إلى مسرحية البخيلة التي نشرتها الهيئة المصرية العامة عام 1984م.

17 - ومن المفارقات أنّ الدكتور طه حسين رضي عن نصّ شهريار لعزيز أباظة وعبدالله البشير المكتوب بالفرنسية، ولكن لم يرضَ عنه في العربية؛ لأنه كان غير مقتنع بمسرحه المكتوب بالعربية - الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين ص 193، د. شوقي ضيف.

18 - الشاعر في المسرح، رونالد بيكوك، ترجمة ممدوح عدوان، ص 187.

19 - الشعر العربي المعاصر، أنور الجندي ص 562، ط. القاهرة.

20 - فن المسرحية من خلال تجاربي، علي أحمد باكثير، ص 6 وما وراءها من مطبوعات معهد الدراسات العربية، علي أحمد باكثير شاعراً غنائيًا، د. عبده بدوي - حولية كلية الآداب بجامعة الكويت. والملاحظ أنّه أفاد من شيكسبير في التدفق، وجعل الفقرة - وليس البيت - وحْدة المعنى.

21 - المسرح في الوطن العربي ص 172 سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1980.

22 - نفسه ص 173.

23 - معمار النص ومعمار العرض المسرحي، د. أبو الحسن سلام ص 70 - دار المطبوعات الجديدة بالإسكندرية.

24 - عن المصدر نفسه ص 125.

25 - في المسرح المصري المعاصر، د. محمد مندور، ص 6 - دار نهضة مصر.

26 - رواية قمبيز في الميزان، ص 400، ضمن مجموعة أعلام الشعر، ص 400، عباس محمود العقاد، ط. بيروت.

27 - الرسالة 54 عام 1933.

28 - ظهر هذا حين ظهر بُعْدٌ عن الشعر المألوف، واقتراب النُّثر إلى مستواه، بالإضافة إلى التأثر بالمسرح الملحمي والتّجريبي، وإلى ما يسمى التُّمسرح وتوظيف التراث - تطور البناء الفنّي في أداء المسرح، د. السعيد الورقي، ص 259 وما بعدها، دار المعرفة بالإسكندرية.

29 - ظواهر التجربة المسرحية في البحرين، د. إبراهيم عبدالله غلوم 29، 34 ط 1. شركة الربيعان.

30 - النقد الفني، جيروم ستولنيتز، ص 424، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للنشر.

31 - الشعر ومتغيرات المرحلة، د. عبدالواحد لؤلؤة، ص 115، ط. بيروت، بل إن هناك من يَرى أن صوت التراجيديا يرجع في الأساس إلى انسحاب الشعر من هذا الميدان.

32 - في المسرح المصري المعاصر، ص 60، ط. دار نهضة مصر.

33 - في النقد المسرحي. د. محمود السمرة، ص 58، الدار المتحدة للنشر - بيروت، ط. 1، وإن كان توفيق الحيكم يقرّر أن عصرنا ليس عصر الشعر لفَرْط ما يلاقي الآن من ازْورار وفتور، فقلّما توجد في عواصم العالم المتحضر اليوم دار نشر تُقبل على طبع ديوان شعر، أو دار تمثيل إلاَّ في النادر تجازف بإخراج تمثيلية شعرية، ومن هنا كانت صيحة بعض النقاد: الرواية - وليس الشعر - ديوان العرب.

قراءة نقدية

قراءة في أبجدية الموت



حسني سيد لبيب

للشاعر محمد أحمد العزب(1) مزاج خاص يملي عليه قصائده، فيغوص في عمق المشاعر، ويسبر الأغوار، عساه يصل إلى معنى الأشياء أو كنه الوجود؛ لكنه لايفسر بقدر ما يطرح تساؤلات. ويكفي أن ندلل بقصيدة «قراءات في أبجديات شتى»(2)، التي تضم خمسة مقاطع أو قراءات، بادئًا بقراءة في أبجدية الموت، ثم قراءة في أبجدية الحب، وقراءة ثالثة في أبجدية الزمن الرديء، ورابعة في أبجدية الخوف من الخوف، والقراءة الأخيرة في أبجدية كل القراءات. وبلغ به الاستدلال على المعنى حدا يصل به إلى إفراغه من المعنى!. حتى تبدى لنا أنه يعرف الشيء إذا عرف اللاشيء، أو أن الشيء واللاشيء معنيان متداخلان. كما أنه كي يتعرف شيئا أو معنى، كان لزاما عليه تعرّف الأصول، وأصل الكلمة أبجدية الحروف، زد على ذلك بحثه عن أصول الأصول ـ إن جاز التعبير ـ والمثل واضح في عنوان القراءة الرابعة عن أبجدية الخوف من الخوف، وفي القراءة الأخيرة التي جعلها أبجدية لكل القراءات. حتى القراءات الأربع يراها تتداخل فيما بينها وتملي أبجدية جديدة تتصف بالإحاطة والشمول.. كمثل الحالم الذي يدرس تركيب الذرة من نواة بها بروتونات ونيترونات، ومدارات إلكترونية، ويدرس مستويات الطاقة، ويمتد به التطور التقني إلى تفتيت الذرة، وأيضا يواصل بحثه في العلاقة التي تربط الذرات بعضها ببعض، ليخرج من تلك العلاقة بدلالة جديدة تؤدي إلى اكتشاف جديد. أما الشاعر فقد أضنته الأبجديات التي تتداخل فيما بينها، فيتصورها تكوّن أبجدية خامسة. ترى، هل ينشد الشاعر فصلاً خامسا جامعا للفصول الأربعة، مثلما أنشد محمود أبو الوفا، متأسيا بنظرية (إنسان الفصل الخامس)؟

وغرام الشاعر بالإحاطة بتفاصيل الشيء من الداخل، والإحاطة به من الخارج، وبالإشارات الخارجية التي يتأثر بها، ومدى تأثيره في أشياء أخرى، جعلت نظرته إلى العالم والكون نظرة فلسفية، زادته غموضًا وانفلاتًا، فانفلتت عباراته عن دائرة الفهم العادي، وتاه في دائرة لاحدود لها، باحثا عن أبجدية جديدة وعقلية غير تقليدية، فدفعه هذا إلى التيه «في احتواء الفعل واللافعل»، وإلى الرحيل للخلف «من فراغ راكض في كل آفاق الفراغ/ لفراغات بلا حتى فراغ»، وإلى الخوف من المجهول فيقول: «نحن محكومون بالخوف من الخوف. وبالخوف من الخوف.. نموت!!. «ويقول في تحد سافر لغرور الإنسان بما يعلم: «نحن لانعرف أن نعرف معنى لامتدادات العصور!!» كما أنه يُشيّئُ اللاشيء، عل حد تعبيره في إحدى القصائد.

ينعي العزب الإنسان لمصيره المظلم، وما ينتظره في غياهب المجهول، وليس بيد الإنسان ما يفعله لدفع القضاء.. فقبل أن يولد ويحبو، يتهجى أن يموت!!.. نفس المنحى الذي دفع الروائي الدكتور يوسف عز الدين عيسى إلى كتابة روايته «الواجهة»، باحثا في الموت المقدّر لكل كائن حي. لذا لايهتم الشاعر بما يحققه الإنسان من تقدم.. فالإنسان «راحل للخلف» و«يسبق الآن ويكبو..».. والنظرة نفسها تملي عليه عنوان قصيدته «يوميات مسافر إلى الوراء»(3) التي يقول فيها: «أنا راحل من ألف عام لم يصل للبدء بعد».. «أنا راحل من ألف عام.. ميت من ألف عام». ويبدو أن صدمة الشاعر بموت أمه التي أملت عليه قصيدة «موت أمي»(4).. قد أملت عليه ـ أيضا ـ أبجدية الموت كما عرفها فيما بعد، كلما أمعن التفكير في لغز الإنسان.. وتعد قصيدة «موت أمي» من أروع ما كتب محمد أحمد العزب، يقول مطلعها:

«أمي ماتت»!!
وأحدّقُ خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا
يا قسوة عين لاتبكي للناس إذا مات حبيب

ويقول:

«أمي ماتت»
ويتمتم شيخٌ ثلجيُّ الإحساس:
«أجل يرحمها الله»
يا شيخ تألم لي صعّد حتى من شفتيك الآه
ما أقسى قلبكَ.. ما أقساه!!

ورغم أنه يقرّ بحكمة الموت وقضاء الله، إلا أن لوعة الفراق تُدمي قلبه. يتخيل أباه في قبره يحقق ما يتمنى، فيكتب هذه الصورة الموحية التي تأسر القلب:

لكني أنشدُ أن أسمع يأبتِ صوتك مهموسًا
حتى يا أبت مهموسا
يهمس عطرًا..
ينبئني أنك سوف تمزق أكفان عروسك
وبأنك سوف تسُل السيفَ لتدفعَ عنها الأشباح
كل الأشباح
لتحلقَ معكم يا أبت روحًا هائمة في الأرواح
لكن أبي لا ينبس حتى بالرفض!!

ويتفق الشاعر في صدق التعبير عن فجيعة الموت، وفي وقدة الحس وحرارة التجربة مع ما كتبه بدر شاكر السياب في رائعته «نداء الموت» (5)، وما قاله من أن أمه تناديه من قبرها.. «بُني احتضنّي فبرد الردى في عروقي».

تشغله كثيرًا أبجديةُ الموت ـ كما سماها ـ فتؤثر في مشاعره، وتلون صوره، وترسم أخيلته.. ترسم للموت بعدًا سرمديا، يجعله يغوص في عمق الأشياء، أو في قلبها، فيبحث في (الشيء) عن (اللاشيء).. ويخاف من الخوف.. ويسافر إلى الوراء.. ويرى التاريخ بأحداثه ومروياته يسير إلى الخلف.. فالموت شيء غامض، أو هو الحقيقة المجهولة، تشكل مأساة الإنسان، فيملي عالمُ الغيب على الشاعر أحاسيس مبهمة تجعله يبحث عن لغة جديدة وقالب جديد، لكنه يفكر في

المجهول بقلب شاعر وعقل فيلسوف.

على أن الحب يرقق مشاعره ويلطف أحاسيسه، يستشرفه حين تجيء الحبيبة، والعنوان الموحي «تجيئين تضحك كل العصافير!»(6).. بصيغة المضارعة التي تنقل المتلقي من عالمه إلى عالم الشاعر، فيعيش اللحظة (الآنية) كما عاشها الشاعر. ولاتقتصر صيغة المضارعة على تلك القصيدة وحدها، وإنما نجدها في الكثير من عناوين قصائده في ديواني: «فوق سلاسلي اكْتبني» و«تجليات شتى لامرأة ملأى بالفراشات»، مثل: (يطاردنا ظلنا) و (أسألها.. وتجيب بكلمات غير قاموسية) و(تضحكين.. أتواترا!!) و(يقرأ من كتاب القتل والحضور) و(أطأطئ في حضرة عينيك).

وإذا كان الموت يرعب الإنسان ويشقيه، فإن الحب نقطة اتزان في حياة الانسان، فيفني عمره عشقا للحبيب، لذا جاءت أبجدية الحب تالية لأبجدية الموت في قصيدته التي أشرنا إليها.

وقد أوضح الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي تأثر الشاعر محمد أحمد العزب بالشعراء الرمزيين، أمثال بودلير ومالرميه ورامبو وستيفن سبندر وبول فاليري وغيرهم، ويقول عنه «إنه صنع الضباب الكثيف حول قصائده، وغلف كلماته بأغلفة سميكة»(7).

إن الشاعر الدكتور محمد أحمد العزب ينزع إلى التمرد على عالمنا المتعارف عليه، فسعى إلى خلق عالمه الخاص، وغاص في معنى الأشياء، وقد يعتريه شك، إلا أنه مرحلة ضرورية للوصول إلى اليقين.

الهوامش:

1 _ صدر له عام 1995م: (الأعمال الشعرية الكاملة) تضم ستة دواوين تمثل الفترة 1958م - 1994م). وهي، حسب ترتيبها الزمني: (أبعاد غائمة) و(مسافر في التاريخ) و(أسألكم عن معنى الأشياء) و(عن التعامد والانحناء في فصول الزمن الميت) و(فوق سلاسلي.. اكتبني) و(تجليات شتى لامرأة ملأى بالفراشات). ولد الشاعر بالدقهلية عام 1932م. تلقى تعليمه بالأزهر الشريف، وحصل على الدكتوراه عن رسالته: (ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر).

2_ الأعمال الشعرية الكاملة: ديوان (أسألكم عن معنى الأشياء) ص443/438

3_المصدر السابق ص449/444

4_ المصدر السابق: ديوان (مسافر في التاريخ) ص617/613

5_انظر مقال (أضواء على قصيدة «نداء الموت) لحسني سيد لبيب - مجلة الخفجي) - فبراير1989م - ص33/32

6_مجلة (الثقافة) المصرية - العدد 56 - مايو 1978م. والقصيدة لم تنشر في (الأعمال الشعرية الكاملة).

7_انظر مقال: (مسافر في التاريخ) للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي - مجلة الأديب) - نوفمبر 1970م - ص50/49

قصيدة

إله الكون

شعر:

فاطمة حداد

يارب سبحانكْ!
مجَّدتُ بنيانك...
يا منشئَ البنيان، يا رحمانْ..
يا خالق الأنام، والأزمان، والأوزانْ..
يا صانع الأكوان !!!
ربَّاه كيف صنعتها؟؟
أنشأتها سيرتَها؛ تديرها وحدكْ..
نوَّرتها، لوّنتها، روّيتها، زيّنتها..
يقودها علمُكْ!..
تجري كما ترضى ويرتضي أمرُكْ!
يا عالمَ الأسرار، يا غفّار ما سرّك؟؟!
ما أنتِ يا ربّاه يا الله؟
ما أنت يا من لا إله سواه؟!
ياذا القوى والعين أعجزُ أن تراكْ
وإذا النواظر لاتراك ففي جوارحنا رؤاك
نبضاتها خفّاقة بلقاك ما خفقت بنا لولاك
يا مَنْ بنا أعلمْ
مما به نعلم
ياذا الجلال، يا أعظمُ، يا أكرم، يا أرحم
يارب غفرانك!
يارب سبحانك!!..
ماذا تُرى عندكْ؟
مطاوعًا هديك!
النجمُ، والآفاقُ، والأفلاكْ..
تجري على وردك
لا دعمٌ، لا أسلاكْ!!!
والغيثُ، والأنواءُ، والأرياحْ..
يارب؛ والأرواح؟
بعثتها، أودعتها، بالإنسِ، بالملائكة..
بالجان! بالحيوان؟!
بالطير، بالأسماك، بالديدان

أحييتنا اللهمَّ، انطقتنا، علمتنا..
تميتنا، تعيدنا!
وما ترى الحياة؟
والموت، والنعيم، والسراط
يا عالم الغيوبْ!
وباسط الدروب..
يا كاشف الخفيِّ في القلوب!
يا من به السلام والأمانْ!
يا غافر الذنوب...
يارب غفرانك
يارب سبحانك
أدهشتني ربّاه، أذهلتني..
بالخلق، بالكائناتْ!!
بالغيب، بالمعجزات..
أسائل الريح والأصداء تسألني
وكلنا سائل نسترجع الكلمات
توحَّدتْ ياربنا قدرتُك!
وهيمنت تحيطنا قوتُك
وخيمتْ على الملا رحمتك
فكيفَ يارب لا نعبدكْ..
وكيف لا نحمدك..
وكلنا من عطاك!
نرجو إلهي رضاكْ..
أوجدتنا ياربّنا وحدكْ..
أوجدت كل العالمينْ
ولاشريك ولا معين
ولا بشيء تستعين
لا خلٌّ، لا والد اللهُمَّ ، لا ولدْ..
يا واحدًا أحدْ!
يا حيّ يا صمد!
يارب غفرانكْ
يارب سبحانك

الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

في شعر جنوبي الجزيرة العربية



د. عبدالله أبو داهش

1338- 1373هـ / 1919- 1953م

1

ولما أخذ الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود 1293- 1373هـ يؤلف بين أجزاء البلاد السعودية، بدأ الشعراء في جنوبي الجزيرة العربية يشيدون بهذا العهد الجديد، ويُصوِّرون في شعرهم حال بلادهم، وما أصبحت عليه مجتمعاتهم من الأمن والاستقرار، فقد أسعدهم كثيرا ما يشهدون من مظاهر الإصلاح، وما يلمسون من أسباب الثقافة والتعليم، فقد دفع هذا العهد بفضل الله ما أصاب بعض بلدان جنوبي الجزيرة العربية من البدع والاتجاهات الدينية المختلفة، بل أعاد لها عهدها السابق الذي كانت عليه في عهد الدولة السعودية الأولى خلال الثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري(1).

ولعل خير من يمثل هذا الواقع شعراء: عسير(2)ورجال ألمع(3)، وجازان(4)، واليمن. أما شعراء، عسير فقد كانوا من أوائل الشعراء الذين أشادوا بهذا العهد، وأخذوا يرصدون معالم الإصلاح في بلادهم، ولعل من أشهرهم: القاضي عبدالعزيز بن محمد المنصوري الغامدي(5) الذي يقول في الملك عبدالعزيز ونصرته للدين.

عبدالعزيز الذي سارت فضائله	**مسيرة الشمس ضَحْوًا مالها حُجُبُ**
فبلِّغوه سلامًا دائمًا أبدًا	**والريحُ تبلغ ما تأتي به النُّجُبُ**
مني السلام عليه كلما طلعت	**شَمْسُ الضحى وإذا(6) لم تحجب الكُتُبُ**
والله ينصر في الإسلام قَوْمَتَه	**لينصر الدين حتَّى يَنْفَدَ الكَذِبُ**
ذاك الإمامُ الذي تُرجى مواهبه	**ومن جزيل عطاه(7) تخجَلُ السُحُبُ(8)**

والحق أن شعر عبدالعزيز الغامدي قد حفل بشيء من المدائح الشعرية في هذا الميدان. وذلك مثل مقطوعته الشعرية التي مدح بها الملك عبدالعزيز من بعد ذلك (9)، ولعل الغالب على قصائده التي أنشأها في هذا العهد، أنها تصطبغ بصبغة مميزة، تختلف عن بعض قصائده التي قيلت من قبل في مدح أشراف مكة المكرمة، والإدريسي في تهامة(10).

وينهج الشعراء المتأخرون في عسير نهج إخوانهم السابقين، فقد أشبه الشاعر عبدالله بن علي بن حميد1326- 1399هـ (11) مواطنه الغامدي، حين قال في مدح الملك عبدالعزيز .

عبدُ العزيز الذي زادت به شرفا	**كُلُّ الجزيرة حضارٌ وباديها**
وقبله الصِّيد من آل السُّعود هُمُ	**كالشُّهب ما ضَلَ في الظَّلماء ساريها**
يا حاميَ الدين والبيت العتيق ومَنْ	**أقام جامعة الإسلام يُعْليها**
في طيبة المصطفى تُحيي مآثره	**وسُنة المصطفى مستمسكًا فيها**
هذي تحية أبناء الجنوب لكم	**قبائل وشعوب لست أحصيها**
من المشارف من أرض التهام ومن	**مضارب البدو من أبها وأهليها(12)**

وربما تحقق واقع هذه البلاد بوضوح في شعر هذا الشاعر وغيره من الشعراء المعاصرين في عسير، حينما أخذوا بأسباب النهضة الأدبية في الحجاز وفي غيره (13) خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، فقد بدأ الشعراء عندئذ يدركون بواعث النهضة التعليمية والثقافية، ويشهدون ما تنعم به بلادهم من الأمن والاستقرار والصحوة الإسلامية الجادة، مما جعلهم يشاركون بنتاجهم الشعري في هذه المظاهر الاجتماعية والفكرية المختلفة.

أما شعراء رجال ألمع، فرغم نشاط الشعر الذي كانت عليه هذه المدينة في القرن الثالث عشر الهجري(14)، وما عرف به شعراؤها من تأييد للدولة السعودية الأولى، ونصرة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب(15)، فإنها أصبحت في هذه الفترة لاتمثل مستوى الشعر المعهود فيها من قبل، إذ لم يكد يظهر شيء من ذلك النتاج الشعري المناسب إلا في العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجري، حينما ضمت تلك الأجزاء إلى بقية أجزاء البلاد السعودية الأخرى، ولعل خير من يمثل شعراء رجال ألمع الذين أعجبوا بشخصية الملك عبدالعزيز، وشهدوا مظاهر الإصلاح في عهده، الشاعر: إبراهيم بن علي زين العابدين الحفظي 1305- 1372هـ (16) الذي حظي برعاية أولي الأمر السعوديين عندئذ، فقد بعث إليه الملك عبدالعزيز نفسه رسالة أشاد بمواقفه فيها،

يقول: «وقد عرفنا مندوبنا عن مواقفكم الحسنة واجتهادكم في الإصلاح»(17)، ولذلك لم يخل شعر هذا الشاعر من ملامح التأييد والإعجاب، فقد أنشأ جملة قصائد يشيد فيها بجهود الملك عبدالعزيز، ويظهر فيها أثر دفعه لمظاهر البدع والمعتقدات الباطلة، فقد قال في هذا الشأن:

دَلَهْمَسُ أَهْلِ الشِّرْكِ والزَّيْغِ والرَّدَى
وَلَيْثُ الوَغَى مُرْدِي العِدَا بالظُّبَا الحُدِّ
مُجِيْزٌ على مَنْ خَالَفَ الدِّين سيفه
لتنزيه تَوْحِيد الإلَه عَنِ الضِّدِّ(18)

ولئن كان الشعراء في عسير ورجال ألمع قد شاركوا بشيء من نتاجهم الشعري في هذا الميدان، فإن إخوانهم الشعراء في جازان كانوا أكثر مشاركة منهم، وأوسع نتاجًا؛ وذلك لأنهم كانوا أكثر استعدادًا من غيرهم، لما كانت عليه بلادهم حينذاك من الثقافة واليقظة الفكرية، فقد عرف من شعراء تلك الأنحاء في هذه الفترة عدد ممن شارك في هذا المجال، إذ استطاعوا أن يصوروا بوضوح ما أصبحت عليه بلادهم بعد انضمامها إلى بقية أجزاء البلاد السعودية الأخرى، فقد تحقق في ذلك الشعر صلاح المعتقد ووضوح الرؤية، إلى جانب الإعجاب بسياسة الملك عبدالعزيز وأثرها في بسط الأمن والاستقرار في ربوع بلادهم، وتسهيل سبل الحج ونحوه، فقد وصف ذلك الشعر حياة الناس المطمئنة الآمنة. ومن أبرز أولئك الشعراء: السيد محمد بن علي الإدريسي 1293- 1341هـ (19)، وعلي بن محمد السنوسي 1315- 1363هـ (20)، وعبدالله بن علي العمودي 1278- 1398هـ (21)، وحافظ ين أحمد الحكمي 1342- 1377هـ (22)، وغيرهم من الشعراء المعاصرين.

أما السيد محمد بن علي الإدريسي، فقد أدرك صلاح ما يدعو إليه الملك عبدالعزيز من نبذ المعتقدات الباطلة ودفع ما ينافي التوحيد. إذ كانت تهامة عندئذ تحيا حياة صوفية ظاهرة، ولعل إدراك الإدريسي للنهج السلفي الذي يسلكه السعوديون حينذاك، قد جعله يكاتب الملك عبدالعزيز برسالة نثرية سنة 1340هـ/1921م شفعها بقصيدة شعرية أيد فيها القائمين على هذا الاتجاه السلفي من قبل، وأثنى على آثارهم.

ومنها، قوله:

حَبَّذا جِيْرَةٌ كِرامٌ بنَجْد ... سكنوا في ظلاله ورمالهْ
لَيْتَهم عَرَّجوا (بنا) يوم بانُوا ... هادى ليس لي عن مثالهْ
* * * ... * * *
صادحُ البَيْنِ في الرُّبَى قَدْ تَغَنَّى ... عن مُعَنًّى يهوى رُبى أطلالهْ
باقتفاء الرسول حقًّا قفيتهم ... بالهُدى ناصحين مَنْ في ضلالهْ
وبتوحيد ربنا قد أبنتم ... في سناء الكتاب من أمثالهْ
حبذا حبذا الدَّاعي إنِّي ... شائقٌ عاكفٌ لِنَهْجِ مقالهْ(23)

ويزداد اعتدال هذا الشاعر الأمير حينما صدر عن روح سلفية، أدرك فيها تحقيق مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على يد الملك عبدالعزيز، وأوضح ميله لهذه الدعوة، واستحسانه لها، إذ قال:

دعوة الحقِّ قد أتانا شذاها ... عَبِقَ الكون تائهًا في جلاله
فبذا كان صحب الرسول قديما ... زمرة التابعين هُمْ مِنْ رجالَه
ليس لي عن ودُكم بسلوٍ ... فأميطوا الحجاب عني لخاله(24)
فمناتي أنتم ولاة ودادي ... ودوائي عن عَلّتي بوصَالِه(25)

ومما يؤكد هذا التأييد قول الإدريسي في مقدمة هذه القصيدة: إن الباعث على إنشائها يعود إلى المحبة والوداد بينه وبين ممدوحه الملك عبدالعزيز آل سعود(26)، فقد ذكر المؤرخ العمودي أن هذا الاتصال الفكري مما: «يقوي الرابطة»(27).

الهوامش

1 - انظر «أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية» للباحث، وانظر مجلة الدارة، ع3، س10، (ربيع الثاني 1405هـ)، ص 9- 24.
2 - عسير: يراد بعسير في هذا البحث: الأرض الجبلية الممتدة من نجران في الجنوب حتى زهران في الشمال.
3 - انظر تفصيلاً عنها في كتاب: (في بلاد عسير)، لفؤاد حمزة، ص 151.
4 - انظر المعجم الجغرافي: مقاطعة جازان، ص 95 - 115، ويعرف قديما بالمخلاف السليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي حكم تهامة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، انظر تاريخ المخلاف السليماني، للعقيلي ح1: ص3.
5 - ولد في بلجرشي بغامد، وتلقى تعليمه على يد والده محمد بن عبدالله المنصوري، تولى القضاء ببلاد غامد وزهران والخواة، وذلك في العهد الإدريسي، وفي عهد الأشراف، ثم في العهد السعودي حتى سنة 1356هـ، توفي - كما قال محمد سعد البركي - في أوائل العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجري.
6 - هنا اضطراب في الوزن
7 - كذا في الأصل
8 - يوجد الأصل المخطوط لهذه القصيدة لدى: محمد سعد البركي ببلجرشي. ولم تسلم هذه القصيدة من ضعف في الحس العروضي واللغوي.
9 - توجد هذه القصيدة لدى عبدالوهاب بن عبدالعزيز الغامدي ببلجرشي
10 - انظر تاريخ المخلاف السليماني، لمحمد بن أحمد العقيلي، ح2، ص224.
11- ولد سنة 1326هـ/1908م وتلقى تعليمه الأولي في كُتّاب قريته، ثم طلب العلم على يد بعض مشايخ مدينتي: أبها والرياض، وقد تقلب في وظائف مختلفة في: بيشة، والقنفذة، ونجران، وأبها، له مشاركات صحفية، وله بعض التحقيقات العلمية، توفى عام 1399هـ/1978م. انظر «أديب من عسير»، جمع محمد بن عبدالله بن حميد، ص5،6.
12 - توجد هذه القصيدة لدى محمد بن عبدالله الحميد، وقد نشرت في كتاب: «أديب من عسير» جمع محمد بن عبدالله الحميد مع تغير فيها.
13- محمد عبدالرحمن الشامخ «ملامح التجديد في الأدب السعودي»، مجلة الدارة، ع1، س5 (ربيع الآخر 1399هـ) ص154.
14- انظر كتاب «الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية» (1200- 1351هـ) للباحث.
15 - انظر «أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية» للباحث.
16 - ولد سنة 1305هـ/1887م وتلقى تعليمه الأولي على يد والده: علي زين العابدين الحفظي، ثم هاجرفي طلب العلم إلى المراوعة في تهامة اليمن، فأخذ على أشهر علمائها، ولما عاد من رحلته العلمية إلى وطنه، وشارك أباه في القضاء والتدريس. وقد عين قاضيا في عهد الملك عبدالعزيز، ولبث في القضاء ثلاثين سنة، حتى توفى عام 1372هـ/1952م. انظر «نفحات من عسير» جمع محمد بن إبراهيم زين العابدين الحفظي،ص202-203.
17 - محمد بن إبراهيم الحفظي، نفحات من عسير، ص 202، 203.
18- المصدر نفسه، ص 208.
19- ولد في صبيا سنة 1293هـ، ونشأ في حجر والده، حيث حفظ القرآن الكريم، وحينما أنهى تعليمه الأولي التحق بحلقة الشيخ سالم بن عبدالرحمن باصهي بصبيا، ثم انتقل إلى حلقة الشيخ إسماعيل بن الحسن عاكش بأبي عريش. وفي سنة 1313هـ هاجر في سبيل العلم إلى مصر، حيث التحق بالجامع الأزهر. وقد انتقل بعد ذلك إلى السودان، ثم عاد إلى صبيا عام 1324هـ، ناهض الترك وطردهم من تهامة عام 1326هـ، واستقل بتهامة في 1329هـ، وظل يحكمها حتى توفي سنة 1341هـ. انظر «الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية» للباحث، ص237، وانظر تاريخ المخلاف السليماني ح 2، للعقيلي.
20 - «ولد بمكة المكرمة عام 1315هـ، ورحل في سبيل العلم إلى: زبيد والمراوعة بتهامة اليمن عام 1328هـ، ثم عاد إلى جازان عام 1334هـ، فاستقر فيها، حيث تزوج عام 1337هـ. وقد عمل في القضاء في العهد الإدريسي، ثم في العهد السعودي، إذ بقي قاضيا لجازان حتى عام 1354هـ.
وكان يقوم بعد ذلك بالتدريس في حلقته المشهورة حتى توفي عام 1363هـ» الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية، ص 242.
21 - هو عبدالله بن علي بن عبدالله العمودي البكري الصديقي العريشي، ولد سنة 1278هـ/ 1861م نشأ يتيما، وتلقى تعليمه الأولي على مشايخ أبي عريش، ثم هاجر في طلب العلم إلى المراوعة، وزبيد، وبيت الفقه، والحديدة، وتعز، وصنعاء، ولما عاد إلى وطنه عمل في الوعظ والإرشاد والقضاء، فقد تولى القضاء في عهد الإدريسي، ثم في العهد السعودي. وكان يتولى التدريس في حلقته العلمية، وله جملة من المؤلفات المفيدة، أهمها: اللامع اليماني في التاريخ، عمر طويلاً وتوفي سنة 1398هـ / 1977م.
من النبذة اليسيرة التي ترجم بها إبراهيم بن عبدالله العمودي لأبيه.
22 - ولد سنة 1342هـ/1923م في قرية السَّلام بالمضايا من أعمال جازان، تلقى تعليمه على يد الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي، وحفظ القرآن الكريم قبل الثانية عشرة من عمره، له مولفات عديدة في مختلف العلوم، وتوفي سنة 1377هـ/1957م. قال عنه شيخه القرعاوي: «لم يكن له نظير في التحصيل والتأليف والتعليم والإدارة»، مجلة العرب ج3، س7 رمضان 1392هـ، ص 229.
23 - عبدالله بن علي العمودي سيرة السيد الإمام الحسن بن علي الإدريسي، مخطوط، ورقة3.
24 - كذا في الأصل.
25 - عبدالله بن علي العمودي، سيرة السيد الإمام الحسن بن علي الإدريسي، مخطوطة ورق رقم 3.
26 - المصدر نفسه، ورقة 3.
27 - المصدر نفسه، ورقة 3.

ستيف جونسون

درس لاهوت النصارى فآمن بالإسلام

ولد وترعرع في أحضان أسرة كاثوليكية. وكان يطيب له في طفولته الجلوس تحت شجرة كبيرة في مزرعة والده، يستغرقه التأمل في خلق الله، وآياته - عز وجل - الكونية. متسائلاً عن حقيقة هذا الإله العظيم، ومتمنيًا أن يصبح يومًا من خدمه المخلصين.

وقضى ستيف جونسون - وهذا هو اسمه - اثنتين وعشرين سنة من عمره في تحولات نفسية مبعثها رغبته الصادقة في مزيد من القرب من الله، تعينه على ذلك رغبة جارفة في نهل المعارف والعلوم، وكونه ميالاً للعزلة، فكان يقضي ساعات طويلة يقرأ ويقرأ. حتى صار من أوائل تلاميذ فصله.

حادثة.. وثمرة

وحين بلغ الشاب الصغير ستيف الصف الثامن الدراسي، تُوُفِّيت جدته، وتعرض لحادثة سيارة أثناء توجهه لحضور جنازتها، أثمرت عن إصابته في رأسه، وفقدانه الشعور بأدنى إحساس في النصف الأيسر من جسده، كما أنه أيضا فقد السمع في أذنه اليمنى، وكانت هذه الحادثة بداية تغير شامل في حياته، إذ بكى بحرقة، ونذر أن يهب حياته كلها لخدمة الله، وكان - آنذاك بالطبع - ما يزال نصرانيًا كاثوليكيًا.

كان من ثمرات هذه الحادثة أن صرف ستيف كامل طاقته في القراءة والدرس، بعدما صار مستحيلاً عليه أن يمارس أي نشاط رياضي، إلا أنه لم ينس ما نذر نفسه له، فسعى للالتحاق بالكنيسة راهبًا، ولأن الكنيسة كانت في حاجة إلى أطباء، فقد اتجه إلى الالتحاق بالجامعة لنيل درجة علمية في الكيمياء وعلم النفس، تمهيدًا لدخول كلية الطب. ودرس بجهد واجتهاد في عامه الأول، حتى تصدر قائمة الطلاب ونال المركز الأول على زملائه، ونجح في تقسيم وقته بين الدراسة العلمية، وشغفه المتأصل في قرارة نفسه بالفلسفة واللاهوت، إلا أن هذا الشغف تغلب عليه، فبات لا يميل إلى دراسة الطب، إلا أنه - ودونما توقع أو انتظار - تم ترشيحه لدراسة هذا العلم، مما جعله يشعر بأن هذا من تخطيط الله.

تمزق داخلي

قسم ستيف وقته بين دراسة التشريح والكيمياء والأنسجة والغدد وغيرها من علوم الطب، والاطلاع على كتب الفلسفة، واللاهوت والصلاة والتعبد في الكنيسة، إضافة إلى قيامه بالخدمة في الكنيسة المحلية، لكنه ما لبث شيئًا فشيئًا أن بدأ يشعر بالملل والاكتئاب، وبكره شديد للدراسة، كما بدأت الفطرة السليمة تستيقظ في داخله ليبدأ بالإحساس بقدرٍ من الشك في حقيقة ما آمن به طوال سنوات عمره.

كان هذا التمزق مؤلما لصاحبه إلى أقسى حد، فحاول جاهدًا ألا يفكر بشيء، لكنه فشل، ولجأ إلى المخدرات والخمر، لعله يجد في غيبوبتهما الكئيبة النسيان، لكن هيهات أن يجد الدواء بين أحضان الداء، فتحولت حياته إلى جحيم، لم يستطع معه الاستمرار في دراسة الطب، فاتخذ قرارًا بتركها، وأبلغ الكنيسة برغبته في التفرغ للرهبنة والفلسفة، إذ كان أمله أن يتمكن عبر دراسة الفلسفة من تعميق إيمانه، بعدما شعر باهتزاز هذا الإيمان.

قضى ستيف عامين يعمل في أبرشية تابعة للكنيسة كمعلم دين إلى جانب التطوع بالخدمة في السجون، مع مواصلة دراسة اللاهوت والفلسفة، حتى تتعمق صلته بالكنيسة حيث الإيمان الذي كان يعتقد أنه ينشده.

داوني بالتي كانت هي الداء

وعلى الرغم من انقطاعه للعبادة طوال النهار، إلا أنه حين كان الليل يجن، كان يغرق نفسه في بحور الخمر ودوامات المخدرات، حتى جاءت بشارة الفرج حين طلبت منه الكنيسة أن يحدد المدرسة اللاهوتية التي يرغب في التعلم بها، فسافر إلى أوروبا لعل ذلك يعينه على اتخاذ القرار، وكان قراره التوجه إلى تورنتو، حيث نال درجة في الفلسفة، ومنها إلى جامعة أنديانا لنيل درجة في الفلسفة والدراسات الدينية والتربية.

في جامعة أنديانا بلغ به الشك أقصى مداه، فلم يعد يؤمن بما يدرسه وما قضى حياته يمارس طقوسه التعبدية، وبرغم ذلك كان متفوقًا في دراسته، حتى إنه نال شهادات زمالة ومنحًا أكاديمية في جامعات أخرى، مما أشعره في قرارة نفسه باحتقار لذاته.

بارقة أمل

وفي زحمة هذا التشتت والضياع جاءت بارقة الأمل، تمثلت في شاب عربي مسلم يدعى إسماعيل حسان سعيد من أبو ظبي، إذ التقى ستيف هذا الشاب الإماراتي، وتحدثا معًا وشرح له صديقه المسلم بعض حقائق الإسلام، مما حدا به إلى التفكير في زيارة المسجد في اليوم التالي، ثم توجه الصديقان إلى دنفر وكولورادو في إجازة، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما، حتى تشاركا في السكن، فكان ذلك بداية خلاص روح ستيف الحيرى، إذ كان رفيقه على علم بأصول الدعوة، فلم يدعه مباشرة إلى الدخول في الدين الإسلامي، ولكنه كان يحرص أن

يؤدي بانتظام الصلوات الخمس في أوقاتها، وقراءة القرآن الكريم، مقدما القدوة الصالحة لرفيق السكن، الذي كان يشاهده وهو يؤدي نسكه، فيبادره بسؤال عن الإسلام، فيكتفي إسماعيل بالإجابة على قدر السؤال.

كان لقاء ستيف بإسماعيل نقطة تحول غيرت مجرى حياته، إذ بدأ يعرف كل يوم شيئًا عن الإسلام الحقيقي من مصادره الصحيحة، بعيدًا عن الزيف والمغرضات التي بثتها وقدمتها الكنيسة عنه. ولم يكد عام 1981م يحل حتى سعى ستيف للالتحاق بدورة دراسية نظمها أحد المستشرقين عن الصوفية، وبعد ثلاثة أشهر من هذه الدورة أعطاه صديقه كتابًا للأحاديث القدسية شعر حين بدأ في قراءته برعشة شديدة تسري في جسده، وببرودة تسري في أوصاله، مما حدا بصديقه إبراهيم إلى تدفئته (بالبطاطين)، لكن محال أن تزيل البطاطين بدفئها الصناعي برودة روح تكسر الجليد الذي تشرنقت فيه، وتسعى إلى دفء الحياة الحقيقي المتمثل في الإيمان بالإله الحق، الإله الواحد الأحد، وتأكد لستيف يومها أنه توصل إلى ما قضى عمره يبحث عنه، وأنه قد ولد من جديد.

إشهار إسلامه

ولم يكد شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1981م يدخل حتى كان ستيف ينطق بشهادتي لا إله إلا الله محمد رسول الله، معلنًا بلغة عربية ضعيفة دخوله دين الحق، وإيمانه بالله ربًا لا شريك له، وبالإسلام دينًا اختاره الله لعباده، وشعر وهو ينطق الشهادتين أن روحه قد بدأت تستقر في سلام وسكينة، وهو ما لم يتحقق لها يومًا حين كانت تحيا ضلال الشرك.

لقد تحولت حياة ستيف تمامًا بعد إسلامه، إذ هجر المخدرات والخمر، وسخر نفسه لخدمة الدعوة الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان يعلم قبل غيره، بحكم النشأة في مجتمعه المادي، أن كثيرًا من الشباب الأمريكي يمكن أن يعتنق الإسلام لو وجد القدوة التي تقدم له الإسلام في جوهره الحقيقي النقي. وإلى جانب عمله الدعوي، يمارس حياته الوظيفية أستاذًا للتاريخ في جامعة أنديانا. يفخر به طلبته وبسلوكياته الإسلامية التي تتعالى على صغائر الأمور وتوافهها.

قصيدة

سأعود لروضك

الدكتور ناصر بوكلي حسن

اللـيـلُ الحـالـكُ يـأسِـرنـي ... والبـرقُ الصـاعقُ يخطفني
وسحـابٌ يـرسـلُ أمطارًا ... كـالشـهبِ أراها تقـذِفني
الأرضُ تهـزُّ جناحَـيْـهـا ... والبحـرُ يمورُ ليغـرقَني
وشـراعي أضـحـىَ والصـاري ... كـدمى في أيدي الصبيانِ
وسفين نجاتي حطَّمـهـا ... بركـانٌ تلوَ البركـانِ
زلـزالٌ أودىَ بـجـبـالي ... أوَ كـنـتُ هزيـلَ البُنْيـانِ
ألـهـيبٌ حَـرَّق أغـصـاني ... أمْ أفْـسَـدَ زَرْعِي عِـصْيـاني
ياوَيحَ ربوعيَ خَـالَطَـهـا ... رجسٌ من وحي الشيطان
وعذوبةُ نسـمـاتِ الفـجـرِ ... صـارَتْ أحـلامًـا وأمـاني
هَـلْ يجـري المـاءُ بودياني ... هل يُنْبِتُ زهرًا بستاني
والطيـرُ أيجـري بسمائي ... والنَّحْلُ أيلـثـمُ أفنـاني؟
في بحـرٍ يغـسلُ أدراني ... ربَّاهُ سـبـحـتُ لتلقاني
سـأعـودُ لروضِكَ أرشدني ... كَـيْ أقْطُفَ بَلْسَمَ أحـزاني

طريق الهدى

فضيلة الشيخ
د. صالح بن فوزان الفوزان

الزواج بنية الطلاق

ما حكم الزواج بنية الطلاق؟
هشام صقر ـ المنصورة ـ جمهورية مصر العربية

سبق أن صدر فيها فتوى من سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية وبإمكان السائل أن يطلب صورة منها.

بين الأم والزوج

كنت أساعد أمي كثيرًا من غير أن يعلم زوجي، وتركت لها مفتاح شقتي بالقاهرة ، ولكنني فوجئت بها تأخذ أشياء ثمينة من دون علمي أثناء سفري مع زوجي بالمملكة ، وقد تأكدت من ذلك لدى زيارتي لمنزلها في غيابها، مع أنها كانت قد أنكرت ذلك من قبل عند سؤالي لها، وقد أثر هذا الأمر في نفسي كثيراً حتى لم أعد أطيق سماع صوتها في الهاتف لفقداني الثقة فيها مع أنني ابنتها الوحيدة، ماذا تنصحون لي؟

ع. ب . إسماعيل عبدالعظيم
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

عليك بحفظ أموال زوجك وعدم تمكين أمك من الوصول إليها. وأحسني إلى أمك ولا تقاطعيها، لأن حق الوالدين عظيم، وما حصل منها من أخذ المال أنت السبب فيه، فاللوم عليك أكثر. وإن استطعت أن تغرميه لزوجك وإلا فاطلبي منه المسامحة.

إيداع الأموال في البنوك

هل الحساب الجاري في البنوك الربوية محرم، علمًا بأن المودع لا يأخذ أي فائدة مقابل ذلك؟

صبري محمد قورتي
أسوان ـ مصر

إذا دعت الضرورة إلى إيداع المال في البنوك للخوف عليها من الضياع والسرقة، ومن دون أخذ فوائد، فلا بأس بذلك للضرورة. وإن أمكن الابتعاد عن ذلك والاستغناء عنه بحفظ الأموال في غير البنوك فإنه لا يجوز الإيداع فيها.

تعاون على الإثم

هل العمل لدى مؤسسة أو شركة تودع أموالها لدى البنوك الربوية من أجل الحصول على فوائد حرام أو لا؟

إسلام شريف دهب
الولاية الشمالية ـ السودان

لا يجوز العمل عند مؤسسة تتعامل بالربا لأنه من التعاون على الإثم والعدوان ـ والله تعالى يقول: (ولا تَعَاوَنُوا على الإثم والعدوان) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه) وما لعن الشاهدين والكاتب والموكل إلا لتعاونهم مع آكل الربا.

إلقاء التحية

ما حكم إلقاء تحية الإسلام على غير المسلمين؟ وإذا ألقوها علينا فهل نرد أم لا؟

س.ع.ل

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ابتداء اليهود والنصارى بالسلام وأمرنا إذا سلموا علينا أن نقول: (وعليكم) وذلك لأنه لاتجوز موادة الكفار بل تجب عداوتهم، وابتداؤهم بالسلام يدل على مودتهم بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم (لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم. أفشوا السلام بينكم)

القضاء يعالج بالقضاء

ما حكم قول «اللهم لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه»؟
محمد عبداللطيف علي ـ الكويت

الدعاء يجب أن يكون بما ورد به الشرع، أو ما يوافق الوارد. وهذا اللفظ في الدعاء لا أعلم له أصلاً. ومعناه فيما يظهر لي غير صحيح، لأنه ورد في الحديث: «لا يرد القضاء إلا الدعاء» وذلك أن الله سبحانه جعل أسبابًا يدفع الله بها المكروه إذا فعلت، وهي من قضاء الله سبحانه، فالقضاء يعالج بالقضاء.

من باب الرجاء لا الجزم

ما حكم الأقوال التالية والتي يوصف به المتوفى «انتقل إلى جوار ربه ـ انتقل إلى الرفيق الأعلى؟
مي فيصل ـ جدة ـ السعودية

قولهم انتقل إلى رحمة الله أو إلى جوار ربه هو من باب الرجاء والتفاؤل لا من باب الجزم، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ونحن لا نجزم لأحد بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك. لكننا نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. ولا نزكي على الله أحدا.

ختان المرأة

ما حكم ختان المرأة؟ وهل ورد في ذلك أحاديث صحيحة؟

إسماعيل محمد الحكمي
جيزان ـ السعودية

ختان المرأة مستحب إذا كان على الصفة المشروعة، وهو ما يسمى بالخفاض. وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للخافضة: (اخفضي ولاتنهكي)، وكان الخفاض معروفا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره الفقهاء في كتب الفقه عندما ذكروا خصال الفطرة.

تعليم القراءة

لتلاميذ الصّفوفِ الابتدائيّة الأولى

د. زياد الحكيم

يمكننا أن نُعرِّف التعليم بأنه عملية توفير الشروط اللازمة للتعلم. وتعليم القراءة ينطبق عليه هذا التعريف. ونتحدث في هذا البحث عن الشروط اللازمة ليحقق الأطفال التقدم الأعظمي في تعلم القراءة.

وتشمل هذه الشروط ما يلي:

الصحة البدنية، الصحة النفسية، البصر والسمع، الذكاء، الخبرة، معرفة اللغة، الرغبة في القراءة، المهارات التي تستلزمها القراءة.

من حسن الحظ أن جميع الأطفال تقريبًا يبدؤون المدرسة وهم مسلحون بمعظم هذه الشروط وإن كان ذلك بنسب متفاوتة. ويتعلم بعض الأطفال القراءة على افتقارهم لبعض هذه الشروط. فبإمكان الأطفال الذين لا يبصرون ولا يسمعون أن يتعلموا القراءة. ولكن يزداد عجز الأطفال عن تعلم القراءة كلما ازداد افتقارهم للشروط التي هي موضوع بحثنا هذا.

ولا تقع المسؤولية الكاملة على المعلم والمدرسة في توفير جميع الشروط اللازمة؛ بل يقع جانب كبير من المسؤولية على الأسرة أيضًا. ولكن لا شك أن المدرسة تُعدّ المُسهم الكبير في المساعدة على توفير الشروط الضرورية لتعليم القراءة للأطفال.

ونحن إذ نحدد هذه الشروط في تنمية الطفل - وهي شروط أساسية للنجاح في تعلم القراءة - لا نقصد من وراء ذلك تحديد نمط هرمي للقيم التعليمية. فمثلاً الصحة البدنية والنفسية هي مقصد بحد ذاتها، وليست مهمة لمجرد أنّ لها دوراً كبيراً في تعلم القراءة، وكأنّ تعليم القراءة هو الغرض الأسمى للمدرسة.

الصحة البدنية

لا جدال في أن قدرًا معينًا من الصحة البدنية ضروري لتعلم أي موضوع من الموضوعات المدرسية. فالتعب والإرهاق وانخفاض معدل حيوية التلميذ وغير ذلك من أعراض المشكلات الصحية له أثر سلبي في إحراز تقدم في تعلم القراءة. والتوتر العصبي أو الانحطاط البدني يمكن أن يفقد التلميذ الرغبة في تعلم القراءة وممارستها. كما أن نقص الفيتامينات في الجسم واضطراب وظائف الغدد الصماء له أثر في اضطراب عملية تعلم القراءة. ويذكر علماء التربية أعراضًا أخرى تسبب تدني قدرة التلميذ على تعلم القراءة، منها: التهاب اللوزتين والربو والحساسية والسل وألم الأسنان.

ومن الواضح أن تغيب التلميذ المتكرر عن المدرسة بسبب هذه الأعراض يعوق عملية تعلم القراءة. وقد يتشكل نتيجة له موقف عدائي أو غير مبالٍ بالقراءة إجمالاً.

ومن مهام طبيب المدرسة أن يحدد إن كان تخلف التلميذ في تعلم القراءة مرده إلى أسباب صحية بدنية. ولكن من مهام المعلمين بذل كل ما في الإمكان لتحسين الشروط الصحية في غرفة الصف. فالوجبات المغذية المجانية أو الزهيدة الثمن تساعد في تزويد التلميذ بما يحتاج إليه من غذاء ضروري وطاقة بدنية. وبإمكان المعلم أيضًا توفير البيئة الصحية الضرورية في المدرسة من إضاءة جيدة ودرجة حرارة مناسبة ومقاعد مريحة. وبإمكان المعلم تخصيص وقت مناسب للرياضة والراحة.

الصحة النفسية

من بين الشروط الأساسية لتعلم التلاميذ القراءة الشعور بالأمان والقبول والحب والثقة وبأنهم قادرون على القيام بالمهام المتوقعة منهم. ولا شك أن قدرة أي فرد على القراءة تزداد بازدياد ثقته بنفسه، وبازدياد رغبته في الإنجاز. ولا يستطيع التلميذ أن يتعلم إذا كان فريسة للقلق والإحباط والإحساس بالعجز. ولهذه الأسباب وغيرها تسعى المدارس الحديثة إلى تشكيل مواقف صحية في نفوس التلاميذ ومنحهم شعوراً بالانتماء والقبول واحترام الذات. وتعليم القراءة يكون ذا جدوى في بيئة يسودها الشعور بالأمان والصداقة والراحة النفسية والاطمئنان.

إن أي خبرة من شأنها أن تزيد من ثقة التلميذ بأنه قادر ومحبوب ومحترم، تفيد في تيسير عملية تعليم القراءة. ويؤكد المربون أهمية العلاقة بين النشاطات الاجتماعية والعاطفية من جهة، وقدرة التلميذ على تعلم القراءة من جهة أخرى. فهم يرون أن التلميذ المعتاد أن يكون فردًا في جماعة متعاونة ومتآلفة من التلاميذ هو أقدر على التكيف مع الوضع

المدرسي، ومن ثم أقدر على تعلم القراءة من تلميذ لا يربطه برفاقه أي رابط من الود والصداقة، أو أي نشاط خارج غرفة الصف. ويرى المربون أيضًا أن تلميذًا كهذا لن يستمتع بما يقرؤه عندما يشارك أقرانه في قراءة قصة مثلاً كما يستمتع تلميذ يشعر بالراحة والثقة في صحبة أبناء صفه.

وبيّنت بعض الدراسات التربوية أن التوتر والنفور بين أفراد بعض الأسر يؤديان في كثير جدًا من الحالات إلى عجز التلميذ عن تحقيق تقدم سريع وكبير في تعلم القراءة. ويقول المربون: إن التلاميذ يجلبون أسرهم إلى المدرسة، بمعنى أن التلاميذ يذهبون إلى المدرسة وهم يحملون المواقف التي تعلموها من أسرهم ومن الأحياء التي نشؤوا فيها في السنوات الأولى من حياتهم. ويدرك المربون أن التلاميذ الذين يبالغ أهلهم في حمايتهم، أو الذين يعانون من إفراط أهلهم في دفعهم إلى التعلم والتحقق، أو الذين يشعرون بأنهم عبء على أهلهم وبأنهم غير محبوبين، أو الذين يشعرون بعدم الأمان والاطمئنان بسبب صراع بين الأب والأم أو بسبب فقدان أحد الأبوين أو كليهما. هؤلاء التلاميذ يواجهون تحديات كبرى في المدرسة ويقاسون من عوائق في التعلم. ومن الناحية الأخرى فإن التلاميذ القادمين من أسر مستقرة اجتماعيًا واقتصاديًا، ويشعرون بأنهم محبوبون ومحترمون، يقبلون على القراءة وتعلمها بحظ أوفر وبإمكانات أكبر للتحقق والنجاح.

وإذا كانت الظروف الاجتماعية للتلميذ غير مؤاتية؛ فإن من واجب المدرسة أن تأخذ ذلك في الحسبان للتعويض عن هذه الظروف قدر الإمكان.

البصر والسمع

من الأسئلة الأولى التي يطرحها طبيب المدرسة عن التلميذ الذي لا يقرأ: هل هذا التلميذ يبصر جيدًا؟ فالتلميذ الذي تؤلم القراءة عينيه لن يتمتع بالقراءة وسيتجنبها قدر الإمكان. وإذا كان إبصاره ضعيفًا بحيث لا يستطيع التمييز بين الحروف فإنه لن يتعلم القراءة إلا إذا عولجت عيناه. ويتعين على المعلم أن ينتبه إلى أي أعراض قد تشير إلى ضعف البصر لدى التلاميذ.

ولكن يجب ألا نفترض أن ضعف البصر هو السبب الرئيس لإخفاق التلميذ في تعلم القراءة لأن من المعروف أن أعراضًا مختلفة لأمراض العيون من بُعد نظر وقصر نظر وانحراف وعدم اتساق في عمل عضلات العينين هي أعراض يمكن ملاحظتها في التلاميذ الذين يقرؤون جيدًا والتلاميذ الذين لا يقرؤون جيدًا. ولكن جميع التلاميذ الضعاف والمتوسطين والجيدين يمكن أن نساعدهم في تحسين قراءتهم إذا عالجنا القصور في عيونهم.

أما التلاميذ الذين يعانون من قصور في السمع فلا شك أنهم يعانون من مشكلة كبيرة؛ فهم مثلاً يجدون صعوبة في الإفادة من شروح المعلم الشفهية، ومن ثم يحصلون على صور سمعية مشوهة للكلمات التي يقرؤونها.

الشعور بالأمان والقبول والحب والثقة في نفس الطفل من الشروط الأساسية التي تجعله يقبل على تعلم القراءة

ويترتب على ذلك أنهم يواجهون صعوبة في تمييز الكلمات. ولكن من الممكن مساعدة التلاميذ الذين يعانون من ضعف في السمع بالاهتمام المناسب من الأهل والمعلم والطبيب. ويختلف المربون في تحديد نسبة من يعانون من ضعف في السمع بين تلاميذ المدارس الابتدائية؛ فمنهم من يقول إن ما بين واحد ونصف بالمئة وثلاثة ونصف بالمئة من التلاميذ مصابون بضعف في السمع. بينما يقول بعض آخر إن ما يصل إلى ثلاثين بالمئة من البنات وخمسين بالمئة من الأولاد مصابون بضعف في السمع. ومهما يكن فإن بإمكاننا إن نستخلص أن من المهم أن نولي السمع لدى جميع التلاميذ في المدارس الابتدائية اهتمامًا كبيرًا.

الذكاء

من المعروف أن هناك علاقة وثيقة بين الذكاء والقدرة على القراءة؛ ويمكن أن يعزى جانب من هذه العلاقة إلى أن اختبارات الذكاء واختبارات القراءة فيها مهام متشابهة على التلاميذ القيام بها. ولكن بصفة عامة إذا كان تعريف الذكاء هو معدل سرعة الفرد في التعلم فإن معنى ذلك أن تقدم التلميذ في تعلم القراءة مرتبط سلبًا أو إيجابًا بذكائه.

وإذا كان الاعتقاد الاسائد هو أن الذكاء صفة وراثية، فإن معنى ذلك أن المدرسة لا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال هذا الشرط من شروط تعلم القراءة. ولكن هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد أنه في السنوات الأولى من حياة التلميذ قد يكون للبيئة التي يعيش فيها أثر فيما يُحسب عمومًا بأنه ذكاء. فلا شك أن البيئة الغنية التي توفر للتلميذ فرصًا كثيرة للتعلم يمكن أن تساعد التلميذ ذا القدرات الذهنية المحدودة على الاستفادة من هذه القدرات واستثمارها إلى حد أفضل مما يفعل التلميذ الذي يعيش في بيئة ليس فيها تحريض للملكات الذهنية.

الخبرة

إذا كان صحيحًا أن النجاح في القراءة يعتمد على ما مر به القارئ من خبرات، فإن من الممكن أن نولي أهمية كبرى لجملة الخبرات المباشرة وغير المباشرة التي شهدها التلميذ قبل دخوله المدرسة. فالمعلومات والانطباعات لدى التلميذ هي التي ستحدد إلى حد كبير كمية المعاني التي سيحصل عليها من الرموز البصرية على صفحة الكتاب الذي أمامه. وتشمل هذه المعلومات كل ما حدث له بصورة مباشرة، وكل الخبرات الرمزية التي حصل عليها من طريق القراءة والاستماع ومشاهدة أفلام السينما والتلفاز وما شابهها.

لقد غدا واضحًا أن العناصر الأساسية في فهم ما يقرؤه التلميذ مستمدة من الخبرة المباشرة التي مر بها. فالإشارة إلى مشاعر الغضب والحب والكره والحنان والألم والضوء والعتمة لا يمكن أن يكون لها معنى إلا بالقدر الذي خبره التلميذ خبرة مباشرة. يضاف إلى ذلك أن الخبرة المباشرة لا تفيد فقط في اكتساب معنى من الصفحة المطبوعة، ولكنها أيضًا تُوجِدُ رغبة أكيدة في ممارسة القراءة؛ وهذه الرغبة على درجة عالية من الأهمية في تعلم القراءة وإجادتها. فالتلميذ الذي زار حديقة حيوان مثلاً سيقبل إقبالاً قويًا على قراءة نص يصف حديقة حيوان. والتلميذ المهتم بجمع الطوابع سيقبل إقبالاً قويًا على قراءة نص عن هذه الهواية يفوق إقبال تلميذ لا يعرف شيئًا عن الطوابع أو لا يهتم بها. إذن فإن عمق فهم التلميذ لما في النص المقروء يعتمد - إلى حد كبير - على عمق خبراته السابقة.

إن تعلم القراءة يعتمد أساسا على اتصال التلميذ اتصالاً مباشرًا بالأشياء والناس والأحداث. ولاشك أن القراءة بحد ذاتها خبرة مهمة. فمن طريق القراءة يستطيع التلميذ تشكيل صور ومفاهيم جديدة تمكنه من توسيع رؤياه للواقع. وهذا يعني أن كل خبرة جديدة في القراءة تفيد في تشكيل أرضية مناسبة لفهم مزيد من النصوص والتمتع بها.

معرفة اللغة

إذا أردنا أن تكون الخبرة المباشرة عونًا كبيرًا في القراءة فإنه يجب أن يرافق تلك الخبرة خبرة لغوية كافية. فالتلاميذ الذين يزورون موقع فوج للإطفاء ويتعرّفون سيارات الإطفاء وما فيها من معدات من خراطيم مياه وسلالم متحركة.. إلخ. ولكن من دون سماع الكلمات التي تستعمل في وصف هذه المعدات لا يستفيدون من هذه الخبرة في قراءة نص

عن رجال الإطفاء وعن إطفاء الحرائق. ويؤكد المتخصصون بالتربية أن هناك علاقة قوية بين قدرة التلميذ اللغوية وما يحققه في مجال تعلم القراءة، وإن قدرة التلميذ على فهم اللغة واستعمالها شفهيًا عامل مهم في تعلم القراءة. وكل ما نعرفه عن لغة الطفل يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الوجوه اللغوية الأربعة: القراءة والكتابة والتكلم والإصغاء. لذلك فبإمكاننا أن نستخلص أن هذه الخبرات اللغوية، بما فيها الاتصال الواسع بالكلمات والجمل، تساعد على تحسين قدرة التلميذ على تعلم القراءة. فتعلم القراءة في أفضل الأحوال لا يتم من طريق تمرينات تحليلية، ولكنه يتم في بيئة تُستعمل فيها اللغة استعمالاً غنيًا ومنوعًا وملونًا ومن طريق منهج يتطلع إلى تحفيز التلميذ إلى اكتساب خبرات لغوية غنية.

الرغبة في القراءة

وهي الحافز الذي يدفع التلميذ إلى القراءة. وقد تكون هي الرغبة في تقليد التلاميذ الآخرين حوله، وقد تكون الرغبة في الحصول على معلومات أو في الحصول على المتعة. ومهما يكن فإن الرغبة في القراءة تنشأ من إحساس بالحاجة إلى القراءة. ولذلك فإن تعليم القراءة يقتضي إيقاظ رغبة التلميذ في القراءة وإطلاق طاقته في الاتجاه الصحيح وجعله قادراً على توجيه نفسه بنفسه. وبذلك تنحصر مهمة المعلم في التوجيه وليس في الضغط والإجبار. ولكن على التلميذ أن يقوم بجهد طوعي إذا أُريد لعملية التعلم أن تتم.

وللحافز أهمية كبرى في المراحل الأولى لتعلم القراءة. والحافز ليس مجرد ضرورة آلية للقراءة نفسها، ولكنه نتيجة لمساعدة المعلم للتلميذ في اكتشاف مقاصد واضحة. وإذا كانت الخبرات الأولى للتلميذ في ميدان القراءة ترمي إلى تحقيق غاية واضحة؛ فإننا يجب أن نضع التلميذ على الطريق إلى تعلم القراءة بحيث تغدو القراءة ذات فائدة ومتعة. وليس بإمكاننا أن نسلحه في بادئ الأمر بمهارات ميكانيكية من دون عناية خاصة بالمعنى، ثم نتوقع منه أن يستفيد من هذه المهارات لاكتساب معلومات من القراءة.

ويجب أن يكون أي واجب نفرضه على التلميذ في ميدان القراءة ذا هدف واضح. فليس مفيداً أن نطلب إليه أن يقرأ نصًا من النصوص من دون أن نجهزه لهذا الواجب بأن نبحث معه المادة التي ينطوي عليها النص المطلوب؛ ومن المفيد أن نجهزه بعدد من الأسئلة ونطلب إليه أن يجد الإجابة عنها مما يكتسب من معلومات من قراءة النص.

ومن مهام المدرسة مساعدة التلميذ القارئ على طرح أسئلة ثم البحث عن إجابة عنها من النصوص التي يقرؤها. فإذا أحس بالإحباط بسبب تعدد العقبات، من صعوبة في المفردات أو من طول الجمل المبالغ فيه؛ فإنه يعزف عن العمل على تحقيق أغراضه من طريق القراءة، ويسعى إلى تحقيقها بوسائل أخرى. إن كثيراً من التلاميذ الصغار يتخلون عن البحث التلقائي في الكتب لأجوبة طرحوها بأنفسهم لأنهم لم يتلقوا التوجيه الكافي. ولكن إذا تلقوا التشجيع وحصلوا على الفرصة المناسبة فإنهم سيبذلون قصارى جهدهم لاستكشاف كل خبرة ممكنة طارحين من الأسئلة أكثر مما يستطيع الحكماء والعالمون بالأمور الإجابة عنه!

الاهتمام بالقراءة

يميل التلاميذ إلى قراءة وفهم المادة التي تتحدث عن موضوعات هي في مركز اهتمامهم. وقد بينت بعض الدراسات أن التلاميذ يميلون إلى قراءة قصص أعلى من مستواهم على سلم الصعوبة إذا كان في هذه القصص ما يجذبهم ويسليهم. لذلك فإن التلميذ المهتم بلعبة كرة القدم قد يقرأ قراءة مفيدة خبراً عن هذه اللعبة في الصحيفة بالرغم من أن الخبر مكتوب بلغة لم يصل إليها مستواه بعد.

وتتولد اهتمامات التلاميذ - جزئيًا على الأقل - من الخبرات التي مروا بها، وهي ذات علاقة وثيقة بأنشطة اللعب والعمل التي يمارسونها في حياتهم اليومية، وبعض هذه الأنشطة مشترك ما بين الأولاد والبنات، وبعضها الآخر مشترك ما بين الأولاد فقط أو ما بين البنات فقط، كما أن بعض الخبرات ذات طابع شخصي وفردي، وتتأثر بمستوى التلميذ الذهني والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها. ولما كانت الاهتمامات مكتسبة وليست موروثة فإن من الممكن توسيعها وتنويعها وتغذيتها، فأي نشاط يفتح أمام التلميذ مجالات جديدة من الاستكشاف يمكن أن يساعد التلميذ على توسيع دائرة اهتماماته في ميدان القراءة وفي إتقانه القراءة في وقت أقصر. لذلك فإنه يجب تعليم القراءة في إطار أنشطة ذات مقصد وغاية بقصد توسيع اهتمامات التلميذ. فالراديو والتلفاز والنشاطات المختلفة التي يمارسها أفراد الصف، وحلقات النقاش التي تقصد إلى تبادل الخبرات، كلها وسائل تمهد السبيل إلى تعلم القراءة في المناخ المناسب.

يؤكد المتخصصون أن ثمة علاقة قوية بين قدرة التلميذ اللغوية وما يحققه من تقدم في مجال تعلم القراءة

المهارات الضرورية للقراءة

يكتسب بعض التلاميذ المهارات اللازمة للقراءة من دون تدريب وتعليم. فإذا توافرت العوامل التي أتينا على ذكرها، وإذا تهيأت البيئة التي تساعد التلميذ على أن يرى ويسمع ويفكر ويتأمل، فإن هذا التلميذ سرعان ما يكتسب القدرة على تمييز الكلمات وعلى فهم الجمل. وبالنسبة لمثل هذا التلميذ تكون تمرينات القراءة التحليلية ضارة أكثر مما هي نافعة.

ولكن معظم التلاميذ يستفيدون من المعلم في اكتساب المهارات اللازمة للقراءة. وهم يحققون تقدمًا في هذه السبيل إذا بَيَّنَ لهم كيف يميزون الحروف، وكيف يكتشفون عناصر مألوفة في كلمات طويلة غير مألوفة، وكيف يلاحظون التفصيلات ويفهمون المعنى الذي يقصده الكاتب، وكيف يكيِّفون سرعة القراءة مع طبيعة النص الذي يقرؤونه ومع الغرض الذي يريدون تحقيقه من القراءة. وهذه المهارات يمكن تعلمها من طريق الممارسة الموجهة.

هذه العوامل المساعدة على تعلم القراءة تشير بوضوح إلى العلاقة الوثيقة بين تعلم القراءة من جهة، وتطور الطفل ونموه جسميًا ونفسيًا وعاطفيًا واجتماعيًا من جهة أخرى. وتتطلب القراءة مهارات كثيرة وقدرة على التفكير؛ وهي لذلك تؤثر في شخصية التلميذ تأثيراً عميقًا ودائمًا. فهي تشكل مواقفه نحو زملائه ومدرسته وأهله ونحو الحياة نفسها. وهي قد تدفعه إلى تذوق عظمة الكون وجماله. وقد تبث فيه الأمل في غد مشرق؛ ولكنها في الوقت نفسه قد تسبب للتلميذ الارتباك أو الخوف أو القلق. ولذلك يتحمل المعلم مسؤولية كبرى في عملية اختيار النصوص التي يكلِّف تلاميذه قراءتها وفي تقديم إرشاد وتوجيه في تفسير النصوص وتقريبها من أذهان التلاميذ.

المراجع:

ALMY, MILLIE C. CHILDREN'S EXPERIENCE PRIOR TO FIRST- GRADE AND SUCCESS IN BEGINNING READING. NEW YORK: BUREAU OF PUBLICATIONS, TEACHERS COLLEGE COLLEGE, COLUMBIA UNIVERSITY, 1979.

MONROE, MARION. GROWING INTO READING. CHICAGO: SCOTT, FORESMAN, AND COMPANY 1985.

VOLTERRA, V AND TAESCHNER, T. "THE ACQUISITION AND DEVELOPMENT OF LANGUAGE OF BILLINGUAL CHILDREN". AND OTHER TOPICS IN JOURNAL OF CHILDREN'S LANGUAGE.1978.

سموم فكرية غير...

وليد مدفعي

شغلت نظرية التطور حيزًا كبيرًا في العلوم الحيوية وذلك لوجود أنماط حيوية واضحة التباين منذ قديم الأزمان، وبسبب العثور على أنماط حيوانية لم يعد لها وجود عُرِفَت من النماذج المدفونة في طبقات الأرض، وبات على العلماء أن يفسروا ظواهر النشوء والارتقاء التي لحقت ـ كما قيل ـ حيوانًا دون آخر. وكانت قصة التطور قد بدأت بأول عرض جدي مع كتاب جان مونيه دي لامارك «فلسفة علم الحيوان»، واستمرت مع شارلز داروين بإضافة أفكار جديدة عن «تنازع البقاء» في كتابه «أصل الأنواع». ثم تعدى داروين الحيوانات إلى الإنسان في كتابه الجديد الذي عالج فيه موضوع الاصطفاء والأصل الحيواني للإنسان.

ولم تعد مادية أفكار داروين، ولا القصد منها إلى تحطيم نظرية الخلق الروحية، وإلى تشويه القيم المنبثقة عنها خافية على أحد. وكان ترحيب الأوساط المادية بالنظرية في النصف الأول من هذا القرن متكاملاً في العالمين الرأسمالي والشيوعي وكأنه متفق عليه. فأهمل الماديون ـ في الجانبين ـ النقد السليم الذي وُجِّه إلى صلب النظرية معتمدًا على علم الوراثة وكشوفُ «مندل» عن قوانينها المهمة، التي بينت بالتجربة اليقينية أن الصفات المكتسبة لا تورث؛ بل سرعان ما تعود الأفراد المهجنة إذا استمر التزاوج بينها إلى الصفات الأصلية. وهو ما سُمِّي بنظام عودة الأحفاد إلى الأجداد.

«هل يمكنك أن تحدد لنا بدقة طبيعة الانتقادات التي وُجِّهت إلى داروين في حينه؟».

أجاب مؤرخ العلوم بيير توليبيه: «فيما يتعلق بالوراثة، قام المدعو فليمنغ جنكين بتوجيه الاعتراض التالي إلى داروين: حتى لو سلمنا بظهور تغيرات، فلا يمكنها أن تُحفظ على مر الأجيال. وعلى عكس ذلك سوف تنقص بل ستنزع إلى الزوال. كما وجه العالم الفيزيائي الكبير لورد كلفن LORD KELVIN نقدًا لاذعًا فيما إذا كانت أزمان الحقب الجيولوجية(1)تتوافق مع التغيرات التي تكلم عنها داروين. مما اضطر داروين إلى تنقيح نظريته الأصلية إلى درجة ضعف معها الترابط المنطقي الداخلي بشكل خطير، ولجأ إلى فرضيات شتى من أجل سد الثغرات الواضحة، فصار يعزو بعض التغيرات ربما إلى المناخ أو البيئة أو الغذاء، وربما ظهرت كثيرًا في نظريته (العلمية)».

وشدد النقاد على سقطات داروين حين لجأ إلى تحميل المناخ أو البيئة أو الغذاء علة تغير الأنواع، ولو أني أتحفظ كثيرًا من أجل التمسك بالجو العلمي حسب ظنون الماديين، إلا أني لا أجد ما يمنع من ذكر آيات قرآنية هي حق ويقينٌ، وهي تبين سخف فرضيات داروين، مثل قوله تعالى: *ومن آياته خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكُمْ إنَّ في ذلك لآيات للعالمين.* **الروم:22** . وقوله جل شأنه: *ألم تر أن الله أنزلَ من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانُها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانُها وغرابيبُ سودٌ. ومن الناس والدوابِّ والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيزٌ غفور.* **فاطر: 27، 28.** وقوله عز من قائل: *ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلَكَهُ ينابيعَ في الأرض ثم يُخرِجُ به زرعًا مختلفًا ألوانُه ثم يَهيج فتراه مُصفرًا ثم يجعله حُطامًا إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب.* **الزمر: 21.**

لم أكتب هذا الموضوع لأفرض على القراء مناقشات متخصصة في مختلف العلوم الحيوية التي استُفتيَتْ من أجل بيان موقع النظرية الداروينية في العالم اليوم، ويُربكُ معظمُها فهم غير المختصين. وإنما كتبت الموضوع لأبين أنه لم تُعط فرضية من الفرص كما أُعطيت الدروانية، ولأبين أنه لم يسبق لنظرية أن قُبلت من دون برهان كما قُبلت الدروانية، وأنه لم يُمتدَح عالم وضع نظرية فاسدة كما امتُدح داروين، ومازال يُمتدح في كتب العلوم الحيوية وكتب الفلسفة.

لقد بلغ من حسن التخطيط لتوطيد الداروينية في أذهان الناس، أنه لا يظهر مرتدٌ عن الإلحاد الماركسي إلى الإيمان بالله ويؤلف كتابًا ينقض فيه ماركس، إلا ويؤكد في كتابه صحة نظرية داروين، وهو ما قرأناه عند الدكتور مصطفى محمود حين تاب عن الشيوعية ليصدر كتابًا بعنوان «القرآن نحو فهم عصري»، يقول فيه: «والمشرطُ وهو يعبث خلف الأذُن البشرية اكتشف شيئًا آخر. فها هي ذي نفس عضلات الأذن التي كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير، وقد تَلَيَّفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة.. وحينما اتخذت آذاننا أشكالاً تغنيها عن الحركة.

ثم ها هي ذي الحفريات تكشف عن جماجم بشرية ذات شكل قردي في الترنسفال وبكين وجاوة ونياندرتال، وبعض هذه الجماجم وجدت في كهوف عثر بها على بقايا خشب متفحم في مواقد تدل على أن أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين.

لم يبق إلا أن يكتب داروين نظريته في أصل الأنواع.

بل إن النظرية لتكتب نفسها فتقول. إن الأنواع انحدرت كلها من أصل واحد تباين واختلف إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تباين الظروف والبيئات» (2).

وجاء بعده الدكتور محمد شحرور بكتاب عنوانه مشابه «الكتاب والقرآن: قراءة عصرية» وقبل نظرية داروين في كتابه العتيد. يذكر الشحرور في ص 253: «إنّ هذا الفهم المادي لنظرية المعرفة القرآنية يرد على أوهام ذوي الفهم المثالي الذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء ويسخرون من نظرية داروين بزعم أنها غير علمية، وحجتهم في ذلك قائمة على التساؤل التالي: لماذا تطور الإنسان من القرد، وبقي القرد قردًا؟! وجوابنا هو أن الله تعالى نفخ الروح في البشر «وهو فصيلة من المملكة الحيوانية»، فأدى ذلك إلى أنسنته وارتقائه عن عالم

ـراقبة

المملكة الحيوانية. ولو أنه نفخ الروح في فصائل أخرى لارتقت أيضا. إن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين حول الأنسنة».

حاول «الرفيق» محمد شحرور أن يوفق في الكتاب بين مادية الماركسية ومادية الداروينية وواقعية الإسلام وهو أخطر مرمى دعا إليه الكتاب. وأخطر منه إقراره في الكتاب بوجود إنسان بعقل، وبشر من غير عقول بادوا لأنهم لم يتقنوا نظام التجريد والتعميم الفلسفي. ولاقى الكتاب رواجًا مهّد لطبعة ثانية شعبية، وقد لاحظتُ كثرة المصفقين (لإبداع الرفيق) من الحزب الشيوعي والثوريين الاشتراكيين والمنحلين، ولا عجب فبداية تخطيط ظهور الكتاب حدثت في موسكو بالاتفاق مع المستشرقين اللغويين السوفييت المتفقهين في اللغة العربية من الروس والأرمن.

أيجهل مصطفى محمود الشكوك التي حامت حول الداروينية منذ صدورها، وما آلت إليه من عجز عن تفسير إشكاليات البنية الحية حتى في حال دراسة التشريح المقارن بين الحيوان والإنسان، ودراسة ردود فعل الجزيئات الحيوية في أوساط غير ملائمة، ومتابعة سلوكها بين الكمون بالتكيس أو فورة نشاطها بالتكاثر من أجل التعويض، وهو ما يقول بصوت مرتفع: لا لتنازع البقاء ولا للاصطفاء.

ونسأل الدكتورين - محمود وشحرور -: كيف استقامت في ذهنيهما نظرية داروين مع وجود الآية الكريمة: وما من دابَّة في الأرض إلا على الله رزقُها ويعلم مُستَقَرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مُبين. هود: 6.

إذا جهل مصطفى محمود سقّوط الداروينية، وكتابه قديم بعض الشيء، ولزمه - في وقته وظرفه - بطاقة مرور من الحزب الشيوعي إلى أوساط أبعدته! أيجهل الدكتور محمد شحرور ما آلت إليه الداروينية وفق أحدث الدراسات المتخصصة في علم الأجنة وعلم الوراثة؟ أيجهل الاثنان فضيحة انتحار كامرر KAMMERER في عام 1926م حين أعلن عن تطور ضفدع في المخبر نتيجة تغير أصابه من شروط البيئة، ثم تبين وجود بيوض ضفدع من نوع آخر في المحاليل التي استُخدمت، وهكذا زالت اللاماركية والداروينية بوقوع أحداث مأساوية بانتحار كامرر، لأنه لم تتضح براءته من هذا العمل ولم يُعرف هل غَشَّ كامرر نفسُه التجربة أو أحدُ معاونيه المتحمسين إلى درجة الإفراط؟ أنا شخصيًا لا أصدق الغش من أجل نظرية لأن المحتال أول من يعرف بطلانها، ولكني أشك في المتحمسين إلى درجة الإفراط لوجود مصلحة لهم تربطهم مع مصالح جماعة تعمل في الخفاء، لاتريد لنظرية داروين التلمودية أن تختفي من الأذهان.

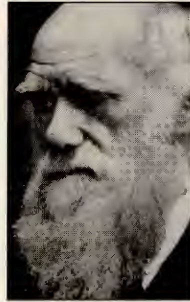
استمر العمل من جهات مشبوهة لصالح التحول الذي تكلم عنه دي لامارك وصاغه داروين في فرضية تخدم آمال «الشعب المختار». فظهر داروينيون حديثون وظهر لاماركيون حديثون بعد تدخلات العالم الأحيائي الألماني حاييم وايزمان وإعادته صياغة أفكار التحول من مفهوم قوانين الوراثة لمندل، وقام صموئيل بتلر SAMUEL BUTLER بإحياء ذكرى لامارك فطبع كتابًا بعنوان «التطور، القديم والحديث» لم يتعرض فيه لصحة النظرية، وإنما قال فيه إن داروين لم يكن قد اخترع شيئًا، وإن لامارك كان تحوليًا من قبله. وظهرت «لاماركية حديثة» كظاهرة دولية في كل مكان، حتى في فرنسا أُحدثَ كرسي في السوربون لتطور الكائنات المتعضية، وكان أول أستاذ لهذا الكرسي في عام 1885م هو ألفريد جيار AL-FRED GIARD وأسرة جيار معروفة في بلدان الشرق الأوسط.

في زحام الدعوة لنظرية الاصطفاء إلى جانب داروين في إنجلترا ظهر اسم ألفريد رسل والاس ALFRED ROSSEL WALLACE. الذي فكر هو الآخر بتفسير تطور الكائنات الحية، وكتب مقالاً حول الموضوع وأرسله إلى داروين نفسه، فقام الأصدقاء بالتوفيق بين الاثنين بأن يعلن والاس عن مقالته ويقدم داروين نصوصه في الوقت ذاته للجمعية اللينية في لندن في عام 1858م، ثم ظهر كتاب داروين «أصل الأنواع» الذي كان سبب شهرته في عام 1859م. ونحن لم نذكر هذه الحادثة عن ألفريد رسل إلا لنذكر أنه سليل أسرة رسل التي تُعدّ من أعرق الأسر في إنجلترا وأبعدها صيتًا، بل من أشهر الأسر في العالم أجمع؛ ففيها الجد اللورد جون رسل الذي كان رئيسًا للوزارة البريطانية على مبدأ الأحرار، وقد أثار حربًا شعواء ليظفر بحرية التجارة وليظفر بالتعليم المجاني وليظفر بتحرير طائفة اليهود.

وظهر بعد ذلك الفيلسوف برتراند رسل الذي لم يفهم أحد حتى الآن منابع عبقريته التي أهلته للشهرة، أإيمانه بالمعرفة والرياضيات على أسلوب فيثاغورس، الذي لم يوصله أسلوبه الرياضي إلى الكفر بنفي وجود إله يدير الكون الذي وصفه رسل بأنه كون جدير أن يكون صنيعة شيطان هازل، أم إيمانه على أسلوب ديكارت الذي تبنى أصولاً رياضية للمعرفة وبقي مع المحافظين؟

لقد وُجِدَ في كل فلسفة إمكانُ قيام صرح على قصد واضحٍ إلا مع برتراند رسل؛ فقد أوصله أسلوبه الرياضيّ إلى الكفر بالله من دون بيان مرماه. ثم ترك العلوم ليبشر باشتراكية ثورية من أجل الحرية، ولما فُجِعَ بغياب الحرية في الاتحاد السوفيتي ومنظومة الدول الاشتراكية، أثنى على الشعب الصيني: «والصين أعظم ما رأيت من الأمم»، وتعاطف مع اليهود وإسرائيل. وننقل هذه العبارة من تاريخ الفلسفة(3) عن رسل وهي كافية لتحديد حجمه في الفلسفة خارج الأطر التي كانت تُهيّأ له: «لئن شك بعض القوم في سلامة حكمته فلم يرتّبْ أحد في إخلاصه». وليست العبارة الأخيرة لي ولكن السؤال لي: لمن إخلاصه؟ وماذا يبقى منه فيلسوفًا بعد الشك في حكمته؟ أليس كلمة الفلسفة مؤلفة من الفيلو محب وسوفا الحكمة؟.

ثم نقرأ في كتاب هـ ج ويلز الذي صدر في عام 1920م: «ولكن الذي يحدث بصفة عامة هو أن يعيش من الأفراد أحسنها استعدادًا لأن تنمو وتتكاثر، كما يحدث في العادة أن يهوي الأضعف ويوطأ بالأقدام إذ يكون أقل مقدرة بالحصول على القوت وعلى مقاتلة عدوه ومواصلة حياته، وعلى ذلك ففي كل جيل - كما ترى - يندفع النوع المنتقى إلى أعلى، وتُطرَدُ غالبيةُ الضعفاء وغيرُ اللائقين ويُسَلَّمُ بالأفضلية للقويّ الأنسب، وتسمى هذه العملية «الانتخاب الطبيعي» أو «بقاء الأصلح» وإن كان اسم «بقاء أصلح الاثنين» أكثر ضبطًا ودقة».



تشارلز داروين

إن كتاب معالم تاريخ الإنسانية من تأليف ويلز، ولكن كثيرين ساعدوه بتزويده بالمعلومات، لأن ويلز لم يكن مؤرخًا بل كان يُدَرِّسُ العلوم، وله روايات خيالية مثل «آلة الزمن» وقد كان ج.ل. مايرز أحد مساعديه، واللفظ الصحيح لمايرز «مائيرز» وتكتب MAEYRS، وهو يهودي من أسرة مائير. وصار دور مائيرز اليهودي مرجعًا ثمينًا في تاريخ آثار البحر المتوسط للأسف الشديد؛ وأسرة مائير معروفة في أوساط تجارية متعددة كالعطور وصناعة الأفلام..

وعاونه السير هاري جونستون الذي يقول عنه ويلز: إنه يصر على أن يكتب بدل سولومون SOLOMON شيليموه SHELEMOH، ويصر على أن يكتب بدل هيبرز HEBREWS إبريم IBRIM(4) وهي كلها ألفاظ تبدو عسيرة مربكة للقارئ العادي - على حد قول ويلز -.

أُلقي على كاهل هذا الكتاب مهمة كبيرة جدًا هي التأثير في الشعوب وفي الذين يملكون مقدرات تلك الشعوب في حقبة التفكير بإنشاء عصبة الأمم، فَنُشِرَ في أجزاء مصورة في 1918- 1919م، ثم طبع في كتاب سنة 1920م، وتوالت الطبعات المنقحة والموسعة فطبعت الطبعة الثانية في 1923م والطبعة الثالثة في 1925م، والطبعة الرابعة المنقحة والموسعة مرة ثانية في 1932م، وذلك استجابة لمراسلات نُظمت بين مكتب المؤلف وعشرات الألوف من القراء حتى طُبع من الطبعة الخامسة ربع مليون نسخة. ومع وجود كل هذا الاهتمام لم يطل التنقيح كلمة

واحدة من العبارات التي كانت تؤيد الداروينية؛ بل ازداد تأكيد صحتها من طبعة إلى أخرى حتى بعد انتحار كامرر في 1926م.

ولم يطل التنقيح كذلك عبارة في الصفحة الثالثة قد لا ينتبه إليها أحد، لأنها وردت في المقدمة يقول فيها ويلز: ولكن سرعان ما اتضح له أن بداية الأمور الحقيقية لا تبدأ في روما ولا في أرض الميعاد JUDEA وأنه ليس في الإمكان قصر القصة على العالم الغربي.

فَلِمَ اختار ويلز أن يوجه الاهتمام في هذا المثال إلى أرض فَلسطين، وأن يسميها قبل أي مناقشة أرض الميعاد ولا يدعوها بالاسم الذي عُرفت به: أرض كنعان قبل JUDEA وذلك كما جاء في التوراة، سفر التكوين: 12 فقرة 5: وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان.

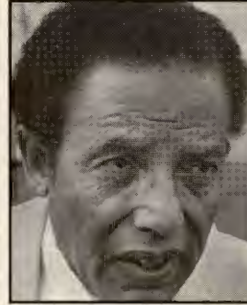
أفلا نستغرب أن يختار ملحد يؤمن بالمادية اسمًا دينيًا لأرض متجاهلاً اسمها غير الديني، أم هناك قوى خفية أرادت أن يشكل لفظ «أرض الميعاد» الانطباع الأولي في الذاكرة لدى عدد كبير من الناس داخل مناقشات عصبة الأمم وخارجها؟.. وماذا نفعل أمام شهرة شخص جُسِّمت بمخططات يهودية مركزة حتى بات أساتذتنا الجامعيون يتهيبون شهرته؟.

لاحظ أمين سر الحزب الشيوعي السوري خالد بكداش عجز كلمة الجدل والجدلية عن ترجمة الديالكتيك والديالكتيكية، فعبر عن رأيه بضرورة الاحتفاظ بكلمة الديالكتيك، حين نسخ كتاب «المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لستالين»، طبعة دار الفارابي، بيروت عام 1955م. وكان مما نقله خالد بكداش عن كتاب «ديالكتيك» ما جاء في الصفحة 19: «وبهذه المناسبة ينبغي أن نذكر بالدرجة الأولى داروين الذي وجه ضربة قاسية إلى الفهم الميتافيزي للطبيعة». وفرح الشيوعيون السوريون بتوجيه الضربة إلى المفهوم الروحي للدين الإسلامي. ولم يتساءل أحد عن صحة الضربة.

هل وجدت نظرية داروين برهانها في تطور الإنسان الذي هو أصلاً خارج نطاق الحيوان؛ لأنه صانع أدوات لا يساير التكيف بل يكيف البيئة من حوله؟ فمنذ ظهور الإنسان استعصى على التطور. فكيف يستقيم القول بقبول الداروينية مع القول بسيطرة الإنسان على الطبيعة. فإذا لم تجد برهانها في هذا المجال فهل وجدته في الجزئيات التي هي أثبت من المتعضيات والتي لديها أجهزة تنقح الصيغة المغلوطة إذا ما وقع خطأ خلال استنساخ الخلايا؟ ولن تجده طبعًا في علم المستحاثات حيث تصبح مسؤولة عن عدد من الحلقات المفقودة تعادل عدد أنواع الحيوانات التي كانت موضع بحثها، فأين وجدها خالد بكداش حتى صاح حين قرأ داروين: وجدتها وجدتها؟. هل نواصل الأسئلة عن احتمال المصادفة التي أفسدت التفاسير، أم عن الغائية التي أكدت وجود مخططات واضحة الغاية في خلق متنوع هو الأصل في بناء المتعضية وحالات نهوض الجينة بطفرة متوقعة؟ كل هذه البراهين والملحدون يريدون كونًا ماديًا لا خالق له!

ولقد كتب لينين بصدد عبارة عند هيراقلطس: «العالم هو واحد (لم يخلقه أي إله أو أي إنسان) وقد كان ولايزال وسيكون شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفئ تبعًا لقوانين معينة». ـ كتب لينين معلقًا على هذه العبارة ـ: يا له من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية.

وضعنا جزءًا من عبارة لينين ضمن قوسين؛ لأنه جزء منحول على لسان هيراقلطس الذي نادى باللوغوس LOGOS العقل الكوني الذي بقي محايثًا للطبيعة (ناظمًا لها). والذي يقول في بداية الشذرة (36): الله هو: النهار والليل، الشتاء والصيف، الحرب والسلم، الشبع والجوع. وينهي الشذرة بعد قائمة طويلة من مكونات الكون بالقول: إلا أنه خاضع للتقلبات كالنار فهي إذا امتزجت مع البهار، لم تدع بالاسم الخاص به.


د. مصطفى محمود

كان هيراقلطس شاعرًا وفيلسوفًا على الأسلوب الأيوني القديم وَعُدَّ شعره في مرات كثيرة كالأحاجي. ويلاحظ في الشذرة التأكيد على سيادة الله على كل ما يقوم في الكون. ويلاحظ في نهايتها أنه مع سيطرة الله على الصيرورة التي تُظهِرُه خاضعًا للتقلبات إلا أنه لا يمتزج مع شيء ويظل اسمه الله كالنار.

وإذا فهم عدد من الناس أن هيراقلطس ماديٌّ ملحد بالموازنة مع مفكري عصره الذين يؤمنون بالوثنية ويمارسون طقوسها السحرية بتلاوات غير منطقية، إلا أن أفكاره الواقعية لا تبعد من أفكار شعراء مؤمنين من هذا العصر، بل إنه أوضح إيمانًا من كل الماديين، لأنه ملحد بالوثنية وهو أمر مهم غفل عنه المؤرخون، واستثمره كثير من المفكرين الملحدين.

ولا ندري حتى نجري تحقيقًا: هل العبارة المنحولة والمقحمة أكاذيب من صنع لينين وحده في الدفاتر الفلسفية ص 318، أو إنها قرار سري متخذ ضمن اللجنة المركزية بتحوير كل الترجمات في روسيا لتوافق التصورات الماركسية عن الكون والحياة والله وتؤيدها فيتقنن عقل الشعب الروسي على المادية؟

سقطت الأنظمة الشيوعية في بلدان كثيرة، ولكن الماركسية مازالت تصر على تفسير الوجود بالتماحك المادي (الديالكتيك المادي). وتصر على تدريس الداروينية من دون إشارة إلى بطلانها. وتُدَرَّس نظرية داروين بكل سخفها في معظم المدارس الإسلامية، والعربية الإسلامية وخاصة في البلاد العربية والإسلامية ذات التوجه الاشتراكي على أنها علم، ويُطالَب الطلاب بحفظها وإيجاد أمثلة على التطور بالتأكيد على ظهور أغشية بين أصابع الطيور السابحة، لم تكن موجودة قبل إقامتها قرب البحيرات.

سموم فكرية غير مراقبة

تجددت المشادات العنيفة في الولايات المتحدة الأمريكية في الأشهر الأولى من العام 1995م بين مؤيدي نظرية داروين ومنكري صحتها. وكانت قد جرت محاكمة عقب حظر تدريسها في خلاف قديم في ولاية تنيسي في «ديتون»، ووضعت آنئذ حجج ومعلومات وليم جاننج بريان في الميزان إزاء عالم البيولوجيا بأكمله، وكان موقف بريان تقليدًا لنموذجه العظيم توماس جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية الذي رسخ الحرية قبل كل شيء. فسمح بتدريس داروين في ولاية تنيسي من قبيل حرية الرأي، من دون إعجاب بالنظرية ولا بصاحبها، والمعروف عن ولاية تنيسي صفاء أجوائها بالمقارنة مع بقية الولايات.

ومع أن كثيرين في الولايات المتحدة الأمريكية عدّوا نظرية التطور ناظمًا للتفكير الجديد في العالم الجديد، وينسجم مع فلسفة الذرائع (الفلسفة البراجماتية) وهو كلام غير صحيح وكاذب، إلا أن العالم بريجوجين PRIGOGINE وهو أحد الفائزين بجائزة نوبل للفيزياء، بيّن أن الحياة التي تبدو أنها تخرق قوانين الديناميكا الحرارية، تعمل ما هو مضاد للتحول للأنتروبيا (الاستحالة). ويقول بيير بول غراسيه PIERRE PAUL GRASSE من أكاديمية العلوم: ما آخذه غالبًا على الداروينيين الجدد عدم خضوعهم للحقائق ورفضهم رؤيتها.

لا يبدو الخلاف على الداروينية، كما هو ملاحظ حول صحة نظرية أو عدمه، فقد سقطت النظرية منذ ولادتها، وما قامت به المخابر من أبحاث بعد ذلك كنظرية التطور التركيبية التي لم تستقر بعد لا تمت بصلة إلى الداروينية، والذين يصرون على تسميتها بالداروينية يتطلعون إلى الاقتناع بتمايز الشعوب والناس من أجل تسويغ عدم المساواة، وإلى بقاء المادية ماثلة في ضمير البشر بدل الرحمانية. وهكذا يعبر الخلاف عن قوى ذات مآرب شيطانية، استطاعت أن تضلل الناس بتأييد الباطل لتكتشف الماديين الملحدين القابلين السير خلف الشيطان بإنكار وجود الله وحسبان الوجود المادي هو أصل الحياة من المؤمنين الذين بايعوا الله، أصحاب النفوس الآمنة المطمئنة فتفرزهم وتوظفهم لمآربها. يقول الله تعالى: *إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاءُ وهو أعلم بالمهتدين*. **القصص**: 56.

الهوامش:

1- قسَّمَ العلماء الزمنَ منذ بدء التكوين إلى ما بعد ظهور الإنسان إلى حقب جيولوجية حسب نوع الصخور وأنواع الحيوانات.

2- نقلت النص من ص56 كما هو محافظا على أسلوبه وركاكة ألفاظه وأخطائه الفكرية.

3- هذه العبارة من «قصة الفلسفة الحديثة» تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص597.

4- أي إن السير هاري يصر على إظهار الشين العبرية، وهو على حق في أن يكتب إبريم لأن إبري تعادل عبري والميم للجمع بالكنعانية التي هي أصل العبرية، بينما هيبرز، هيبري تعادل حبري والزاي للجمع في اللهجات اللتينية.

قصة قصيرة

أسئلة ناعمة

عائدة عزمي راشد معروف

كان صباحًا مضجرًا تمامًا ككل صباحاتي.. وقد كان لدي الكثير كي أفعله، فالمهمة التي جئت من أجلها لاتنفك أبدًا عن المطالبة بالمزيد من لحم أوقاتنا كالمرابي الشره.. وعلى عادة المعلمات المصابات بهاجس التعليم أفضل الالتقاء بمن يمكن تسميتهن بمصادر المعلومات ومراجع المواد على أي شيء آخر.. وحين يتعذر العثور على وسيلة مجدية لتمضية الوقت ألجأ إلى كراسات طالباتي. لا أقصد أنني مولعة بالتأمل، وأنني أحب أن أنفرد بهذه الكراسات لأكتشف منابت العبقرية وجذور النبوغ.. فما يحدث هو العكس تمامًا.. فالموعد مع كتاباتهن هو أشبه بالعطلة الذهنية ومحاولة الثأر من عمر يضيع بين قال أبو العلاء وَوَصَفَ البحتري.

كان صباحًا مضجرًا بالفعل.. فجلست مع أوراقهن وتعابيرهن وأخيلتهن.. فجأة تقدمت مني شابة وأبلغتني إنها معلمة جديدة وسألتني إن كانت تستطيع الجلوس معي.. وكان من الطبيعي أن أرحب بها.. فبقدر ما أشفق على نفسي أشفق على الوافدين إلى هذه المهنة.. وأدركت القلق الذي أصاب هذه الشابة إلى حد أنها لم تعثر على شيء تهدِّئ به من روعها سوى الجلوس معي.

لم يثر موقفها ذلك الشعور بالأهمية الذي ينتاب بعضهن حين تتقدم منهن زميلة للتعرف إليهن.. فبعد تفكير طويل وصلت إلى استنتاجات صريحة بأن أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه هذه المهنة هو شيء من آلام الظهر مع نظارة سميكة، بالإضافة إلى أعراض أخرى كثيرة.. ولكن الود سرعان ما ينعقد بين المعلمات في لحظة التعارف، وكأنما هي وليدة ذلك الشعور بالتضامن الذي ينتاب الغرقى حين يقتربون من بعضهم بعضا.

قالت: إنها معلمة جديدة وإنها تحب هذه المهنة، فلم أقاطعها إذ لم أجد ما يدعوني إلى إفساد هناءة مشاعرها.. ثم من يدري فقد تكون هذه المهنة لذيذة، وأن عجزي عن الاستمتاع بها يرجع إلى أسباب تخصني وحدي.. وتذكرت على الفور أنني كنت قبل عشرة أعوام في مثل سنها، وأني كنت أعتقد - بدوري - أنها مهنة جذابة تستحق المغامرة بالمستقبل وربط الليل بالنهار.. وشعرت بما يشبه الحنين إلى تلك الأيام الأولى حينما كنت أعد ملابسي ليلاً وأنتظر بفارغ الصبر صدر اليوم التالي لأرى نظرات طالباتي المتفحصة وأستمع إلى إطراء زميلاتي مما يزيدني تورطًا في تلك المعركة. وربما كانت تلك الأيام أجمل أيام المعلمة.. إذ غالبًا ما تكون السنة الأولى أجمل السنوات، والسنوات اللاحقة مجرد تكرار لما سبقها أو مجرد تقسيمات محدودة على اللحن نفسه.

ولأنني لا أحب الذهاب بعيدًا في حديث التعليم وشجونه قلت لنفسي: لأحدثها عن الطقس فهو موضوع صالح للفرار.. يقدر المرء أن يمتدحه إن كان جيدا، ثم يقدر أن يستطرد، فيقول إن الشتاء يعزز الميل إلى التأمل والانكفاء وإن الحر يشل القدرة على العمل.. ولكن لسوء الحظ لم تكن تلك الوافدة الجديدة معلمة لمادة الجغرافيا.. وكذلك لم تكن من المتبحرين في شؤون الطقس.. وبجدية شديدة سدت أمامي كل السبل، سارعت إلى إبلاغي بأنها جاءت للاستفادة من خبراتي.. لم أصدق في بداية الأمر وسألتها إن كانت تعني ما تقول.. وحينما ردت بالإيجاب أدركت أني سأقع في سلسلة من الأخطاء وأنا أعرض لها متاعب المهنة ومآسيها.

وبتهذيب شديد قلت للشابة: إنني درجت على الاعتقاد أن لا جدوى من مقابلة تجريها معلمة جديدة مع أخرى سابقة.. وحتى ولو افترضنا أن لدى هذه المعلمة ما تقوله فالحري بالجديدة على العمل أن تصل إلى هذه الاستنتاجات بنفسها.. ولكي لا أجرح مشاعرها قلت لها: إن الفائدة تكون أفضل لو لجأت إلى معلمة أخرى على شفير التقاعد لتمنحها عصارة تجاربها التعليمية.. وبما أني لم أصل إلى الأربعين بعد، ولم أدرج في سجل الدرجة الأولى السياحية في المهنة، فإني اعتذرت، وخالجني شعور أني نجوت وأن الشابة المتحمسة لن تتأخر في امتداح صراحتي، ولكن الذي حدث كان العكس تمامًا.. إذ أصرت - ظلمًا وبهتانًا - على تصنيف حججي في باب التواضع وأصرَّت على استجوابي.

وبعد أخذ ورد غلبتني الرغبة في التسلية فطلبت منها أن تعطيني فكرة عما تود معرفته.. وسرعان ما أطلقت جملة أسئلة عقدت لساني: ما رأيك بالحب؟ كيف تحولين مشاعر سالبة إلى أخرى موجبة؟ كيف تجعلين الآخرين ينجذبون إليك؟ كيف وكيف؟ حزمة من الأسئلة تدفقت أمامي من مدرسة الفيزياء تلك جعلتني أركض بيدي إلى الكراسات أمامي خوفًا من أن يتساقط شيء من تلك الأحاديث فوقها.. وأخذت أتساءل عما أوهم تلك الزميلة أني خبيرة في هذه المسائل.. وضحكت طويلاً فقد توهمت أنها ستسألني عن كيفية عرض نظرية إنشائية أو كيف تحلل شخصية نيوتن.. أما تلك المواضيع الطرية الناعمة فإنها تستلزم خبراء غيري.

نظرت الشابة إليَّ بحزن واستخفاف كأنها تعاتبني على إضاعة العمر في مواضيع جافة.. ثم لملمت أوراقها وانسلَّت.

قصة قصيدة

الحنين إلى الوطن

د. محمود جبر الربداوي

قال أبو المنهال عوف بن محلِّم الخُزاعي، بالولاء (ت: نحو 220هـ) يمدح عبدالله بن طاهر بن الحسين ويشكو له الكِبَر والاغتراب:

يا بن الذي دان له المَشرقان — وألبس الأمن به المَغربانْ
إن الثمانين - وبُلّغتَها - — قد أحوجت سمعي إلى تُرجُمانْ
وبَدّلتْني بالشّطاط(1) انْحِنَا — وكنتُ كالصعدة(2) تحت السِّنانْ
وقاربَتْ مني خُطًى لم تكن — مقاربات، وثَنَتْ من عِنانْ
فأنشأتْ بيني وبين الورى — عَنانةً(3) من غير نسج العنانْ
ولم تَدَعْ فيَّ لُمسْتَمتعٍ — إلا لساني، وبحسبي اللسانْ
أدعو به الله، وأُثني على — صُنع الأمير المصعبي(4) الهجانْ
وهِمْتُ بالأوطان وَجْدًا بها — لا بالغواني، أين مني الغوان؟
فقرّباني بأبي أنتما، — من وطني قبل اصفرار البنانْ(5)
وقبل منعاي إلى نسوةٍ — أوطانُها حَران(6) والرَّقتانْ
سقى قصور الشاذياخ الحيا(7) — من بعد عهدي وقصور الميانْ
فكم وكم من دعوة لي بها — أن تتخطاها صروف الزمانْ

تلك هي سنّة الحياة، وذلك هو ناموس الخَلْق، كلّ صغير يكبر، ومع الكِبَر يتعلم ما لم يكن يعلم، وكل كبير يهرم، وبعض من يهرم يُرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علمٍ شيئًا، وقد لخص القرآن فكرة التطور هذه بإعجازه الموجز حيث قال: اللهُ الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفًا وشَيْبَةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير. الروم: 54. وإذا كانت المخلوقات كلها من إنسان وحيوان ونبات تمر بهذه الأطوار، على تفاوت في عمر الطور، فإن بعضها غير قادر، وهو يتدرج في مراحل العمر، على وعي الطور الذي يمر به، وإذا استبعدنا الحيوان والنبات من دائرة الوعي هذه، لقصور ذاتي في تكوينهما، فيظل الإنسان وحده منوطًا به هذا الوعي التطوري المتدرج، وليس كل الناس بالذين يتحسسون هذا الوعي ويستطيعون رصده، اللهم إلا إذا استثنينا من الناس الشعراء، ومن الشعراء تلك الفئة المفكِّرة، ومن الشعراء المفكرين تلك الفئة التي امتدت أعمارها حتى سئموا تكاليف الحياة، كما وصفها زهير بن أبي سُلمى، ولكنَّ زهيرًا لم يكن الشاعر الوحيد الذي بلغ مرحلة السأم لبلوغه الثمانين، وإنما الشعراء الذين بلغوا الثمانينات وتجاوزوها أكثر من أن يُحصوا في تاريخ الشعر العربي. لقد جمع طائفةً منهم أبو حاتم السجستاني في كتاب «المُعَمَّرين»، وسرد نماذج من أشعارهم التي يتململون فيها من وطأة السنين وفعلِ الشيخوخة، ومازال صوت أحدهم يرن في آذاننا وهو يصيح:

ألا ليت الشباب يعود يومًا
فأخبرَه بما فعل المشيب

ولكن «ليت» هذه لا ترد شبابا رحل، فلهذا يتجاوب صدى تلك الصيحة فيرد شاعر آخر قائلاً:

ليت، وهل تنفع شيئًا «ليتُ»؟!
ليت شبابا بيع(1) فاشتريتُ

ولكيلا يطول بنا الحديث عن وقع الشيخوخة والهرم على نفوس الشعراء - وما أكثرهم - نحب أن نقف عند واحد منهم، واحد وصفته كتب التراجم بأنه أحد العلماء الأدباء الرواة الفُهماء النُدماء الظرفاء الشعراء الفُصحاء، وزادت هذه الكتب تعريفًا به فقالت: كان صاحب أخبار نوادر ومعرفة بأيام الناس(2). ذلك الرجل هو عوف بن مُحلِّم الخزاعي، صاحب البيت الذي طالما رددناه وتمثّلنا به وهو:

إن الثمانين - وبُلِّغتها -
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وإن شئت فقل: إنه صاحب قصيدتنا النونية التي أثبتناها في صدر هذا المقال. وعوف هذا من شعراء العصر العباسي الأول، وشعره يرقى به إلى مستوى شعراء الصف الثاني من شعراء ذلك العصر. وإذا كان الذكاء والفهم ـ كما وصفه علماء النفس ـ هو القدرة على التلاؤم مع الظروف الراهنة؛ فعوفٌ ـ كما وُصف ـ يرقى به ذكاؤه إلى مستوى رجال الصف الأول.

ومن دلائل ذكائه الاجتماعي وقدرة تلاؤمه مع الظروف الراهنة أنه اغتنم إحدى الفُرص فنظم ثلاثة أبيات جعلها زُلفى تَقَرَّب بها إلى قلب الشخصية الثانية في السلطة في دولة بني العباس في آخر القرن الهجري الثاني، هي شخصية «طاهر بن الحسين»، فضمه طاهر إلى حاشيته، وبقي معه ثلاثين سنة لا يفارقه، وكلما استأذنه بالانصراف إلى أهله ووطنه لم يأذن له، فلما مات طاهر ظنّ عوف أنه تخلص، ولكنّ ابنه عبد الله بن طاهر قرّبه إليه، وأنزله منزلته من أبيه، وأفضل عليه حتى كثر ماله وحسنت حاله، وكان عبدالله بن طاهر يصحبه حيث حلّ ويستشيره. يذكر ابن شاكر الكتبي أن عبدالله لما توجه إلى خراسان وشارف على «الري» سمع صوت عندليب يغرد فأُعجب بصوته، قال: يابن محلّم هل سمعت بأشجى من هذا؟ فقال: لا والله، فقال عبدالله: قاتل الله أبا كبير الهذلي حيث يقول:

ألا يا حمامَ الأيك، إلفُك حاضرٌ
وغصنُكَ ميّادٌ، ففيمَ تَنوحُ؟
أفِقْ لا تَنُحْ من غير شيء، فإنني
بكيتُ زمانًا والفؤاد صحيحُ
ولوعًا، فشطَّتْ غربةً دارُ زينب
فها أنا أبكي والفؤاد قريحُ

فقال عوف: أحسن والله أبو كبير، إنه كان في الهذليين مئة وثلاثون شاعرًا، مافيهم إلا مُفلق، وما كان فيهم مثل أبي كبير(3)، وأخذ عوف يصفه ـ وهنا تسعفه قدرته النقدية والأدبية ـ فقال له عبدالله: أقسمت عليك إلا عارضت قوله، فقال عوف: قد كَبر سنّي، وفَنيَ ذهني، وأنكرتُ كلّ ما أعرف، فكرر عبدالله القسم عليه ـ وهنا تسعف عوفًا موهبتُه الشعرية، ويستغل المناسبة ليتحدث عن الغربة التي أنهكته في هذه السن المتأخرة، فقال: **أفي كل عام غربةٌ ونزوح**

أما للنوى من ونية فتُريحُ؟
لقد طَلَّح البينُ المُشتّ ركائبي
فهل أرَيَنّ البينَ وهو طريحُ؟
وأرّقني بالري نوحُ حمامة
فنُحتُ، وذو البثّ الغريب ينوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمعةً
ونُحتُ وأسرابُ الدموع سُفوحُ
وناحت وفرخاها بحيث تراهُما
ومنْ دون أفراخي مهامهُ فِيحُ
(ألا يا حمام الأيك إلفُكَ حاضرٌ
وغصنُك ميّادٌ، ففيم تنوح؟)
عسى جود عبدالله أن يعكس النوى
فيُلقي عصا التطواف وهي طليحُ
فإن الغنى يُدني الفتى من صديقه
وعُدمُ الغنى بالمعسرين طروحُ

ففي آخر هذه القصيدة ـ كما رأيت ـ أسعف عوفًا ذكاؤه فعَرَض رغبته بعودته لوطنه الذي طال اغترابه عنه، فأثّرت القصيدة في نفس عبدالله لدرجة أنه استعبر ورَقّ له، وجرتْ دموعه، وقال له: والله إني لضنينٌ بمفارقتك، شحيح على الغائب من محاضرتك، ولكنْ والله لا أعملتَ خُفًّا ولا حافرًا إلا راجعًا إلى أهلك، وأمر له بثلاثين ألف درهم»(4). فوجد عوف لزامًا عليه أن يعترف بالجميل فمدحه بالنونية المشار إليها، وهي، وإن كانت قصيدة في المدح، فإن المدح لم يحظَ منها إلا ببيت واحد هو بيت المطلع، وببعض بيت في وسط القصيدة، أما قوام القصيدة فكان الحديث عن «الثمانين» التي بلغها عوف، ويدعو إلى الله أن يبلغها عبدالله، هذه الثمانون هي التي جعلتْ عوفًا يصف ما ألحقته به؛ فقد ضعف سمعه، وبَدَّلت قوام الشاب المعتدل الذي كان كالرمح السمهري بانحناءة كانحناءة القوس، فكان لسان حاله ينشد قول الشاعر:

قد كنتُ أمشي على ثنتين منتصبًا
والآن أمشي على أخرى من الشجر

فأيام الشيخوخة استبدلت بحركاته الرشيقة خُطًى متثاقلة متقاربة، وثنت من عنانه، كما أضعفت بصره، والشيء الوحيد الذي بقي يُمتعه ويمتع الآخرين هو لسانه وفصاحته، وحَسْبُه به معزيًا عما فقده، يكفيه هذا اللسان لأن له وظيفتين: الدعاء لله والثناء على الأمير؛ أما ما تبقى من القصيدة فقد أنفقه في الحنين والهيام إلى حبيبه الأول، وحذار أن تظن أن حبيبه غانية حسناء ـ كما يتبادر للذهن ـ فعهده بالغواني رحل مع رحيل الشباب، ولكنّ هيامه الآن للوطن الذي يتمنى الرجوع إليه قبل أن توافيه المنية، وقبل أن تنعاه نساء الحي، ويختم القصيدة بالدعاء بالسقيا لوطن قائده، والدعاء له بأن تتجنبه صروف الزمان وكوارثه.

والحديث عن الاغتراب ورغبة الشاعر في العودة إلى وطنه طالعنا به عوف مرتين: مرة في القصيدة الحائية على استحياء، ومرة في القصيدة النونية بصريح العبارة؛ لأن حنينه للوطن رغبة جامحة كان يعانيها الشاعر بعد مفارقة له استمرت عشرات السنين، ولكن حرص طاهر بن الحسين ومن بعده ابنه عبدالله على استبقاء الشاعر بجانبهما وإكرامهما له جعله يهادن هذه الرغبة، وحُسن مقام الشاعر عند هذين القائدين، وتحمله للاغتراب أيام الشباب خفّف من غلواء نفسه، ولكنه الآن، وقد أناخت عليه الثمانون بكلكلها صار الشاعر أكثر نزوعًا إلى وطنه، لأنه فيه أهله ومحبّيه وذوي قرباه، ولكنَّ الأهم من ذلك كله أن وطنه هو موطن ذكريات طفولته وصباه وشبابه، وهو رأس ماله المتبقي لديه، الحريص عليه، فلم يبق لديه مستقبل يرجوه، فكان لزامًا عليه أن يرتد إلى الماضي يجترّه، والماضي سداه ولحمته في وطنه وفي ترابه الذي منه نشأ وإليه يعود.

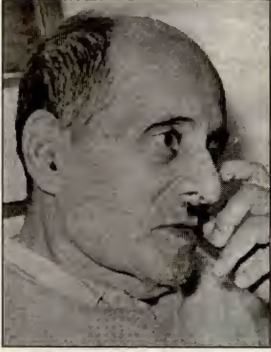
غريب الألفاظ:

1ـ الشُّطاط (بكسر الشين المشددة وفتحها): الطول وحسن القوام واعتداله.
2 ـ الصَّعْدة: القناة المستوية.
3 ـ العنانة: السحابة.
4 ـ الأمير المصعبي: يقصد عبدالله بن طاهر بن الحسين.
5 ـ اصفرار البنان: كناية عن الموت.
6 ـ حرّان والرقتان: بلاد في شمالي بلاد الشام.
7 ـ الشاذياخ: اسم نيسابورة أو قرية بمرو والميان: بلد بأذربيجان.

الحواشي:

1ـ بيع بالبناء للمجهول، وفي تخريجات بعض الصرفيين: بُوع.
2ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، جـ 3 ص 160.
3ـ المصدر السابق 163/3.
4ـ السابق نفسه.وأنا ف





تجربة عبد الرحمن شكري مع مهنة التعليم

د. ناول عبد الهادي

عبد الرحمن شكري الشاعر الأديب (1886- 1958م) تشتد عليه الحياة في أيامه الأخيرة، فيخوض تجربة الشقاء الإنساني كأقسى ما تكون... يأس مطلق من الدنيا... من فيها وما فيها يدفعه - ذات يوم - إلى أن يجمع كل ما لديه من نسخ مؤلفاته: ثمانية دواوين من الشعر، بالإضافة إلى خمسة كتب نثرية، كي يشعل فيها النار.. ويستمر العذاب في تصاعده، ارتفاع كبير في ضغط الدم، سرعان ما يصيبه بشلل نصفي.

وإلى مهنة التعليم، وإلى بعض من عاصرهم واحتك بهم من العاملين بوزارة المعارف يوجه الشاعر لومه المرير.. فعلى المهنة، وعلى تلك الفئة من العاملين بها، تقع - في رأي الشاعر - مسؤولية كل ما حل به من شقاء.

من بضع رسائل خاصة بعث بها عبد الوحمن شكري - خلال محنته الرهيبة - إلى أحد المشتغلين بالأدب، وكتبها جميعها بيده اليسرى، إذ لم تكن يده اليمنى بقادرة - حينذاك بسبب الشلل - على أن تمسك بالقلم، نقرأ الاتهامات التالية يوجهها واضحة صارخة إلى مهنة التعليم ذاتها، وإلى بعض هؤلاء من المشتغلين بها:

فعن مهنة التعليم وتأثيرها في الإنتاج الأدبي يقول شكري: «المدارس شغلها يصرف ويعوق عن طبع الدواوين والكتب، كما أنها تعوق عن كتابة المقالات».

وفي معرض الموازنة بين مصيره هو ومصير صاحبيه: العقاد والمازني يقول شكري: «إن العقاد والمازني خرجا من المأزق النفسي بالاشتغال بالصحافة والسياسة، أما أنا فتهدمت.. لكنني خرجت أيضًا بالتدريس.. درّست وتحطمت».

وخلال حديثه عن بعض الرؤساء في وزارة المعارف ممن صبوا سخطهم عليه بوصفه معلمًا وموظفًا تابعًا لهم، فحرموه حقه في الترقية، يقول شكري: «إن هذه المعاملة كانت من أسباب شللي.. وأرجو أن أنساها».

ثم ها هو ذا مصدر آخر من مصادر العذاب له صلته أيضًا بمهنة التعليم.. عذاب لا يأتي هذه المرة من ناحية طبيعة المهنة التي تُحَطِّم، أو على الأقل تصرف عن الاشتغال بالأدب، ولا من ناحية الرؤساء الذين تدعوهم الأهواء إلى أن يغلقوا أبواب الأمل في وجوه الناس.. إنما يأتي العذاب هذه المرة من ناحية التلاميذ.

هذه المرة تكاد كلمات عبدالرحمن شكري تنزف دمًا وهو يتحدث عن بعض الشبان ممن كانوا تلاميذه، ثم ها هم أولاء يلاحقونه - وهو في شيخوخته - كي يضيفوا إلى شقائه شقاءً جديدًا... لقد ذهب واحد من هؤلاء التلاميذ إلى درجة اتهام معلمه القديم في وطنيته. يقول شكري في رسالة كتبها في مدينة بورسعيد، حيث قضى فترة بعد إصابته بالشلل، وكان ذلك قبيل جلاء الإنجليز عن منطقة قناة السويس: «على كل حال إنني في سن الموت، بودي أن أترك حتى أموت.. فإن في بورسعيد شبابًا كانوا تلاميذي ويجتهدون لإعانتي.. ومن الغريب أن شابًا تاجرًا وله بالإنجليز صلات يدعي أني كنت في الدراسة أشكوه لأنه وطني،

وإنما يفعل ذلك لأنه لم يصر وطنيًا فيما بعد، وأنا لم أشكُ قط أحدًا من تلاميذي، وقصائدي تدل على الوطنية مثل «ثبات» و«الحرية» و«مصر سنة 1919» و«جنون الأقوياء» إلخ.. إلخ.. إلخ..». تلك بضعة سطور من تسع رسائل للشاعر عبدالرحمن شكري كتبها قبل وفاته بقليل خلال فترة الانعزال الذي فرضه على نفسه.

رسائل أو وثائق أدبية نهض الشاعر الكبير إلى كتابتها ونصف جسده في قبضة الداء الوبيل، فجاء كل ما فيها - خطا وأسلوبًا وفكرًا - ناطقًا بالمأساة بكل عناصرها، وبكل ما اشتملت عليه من صنوف العذاب.

في كتاب عن عبدالرحمن شكري من تأليف د. أحمد عبد الحميد غراب - وهو الذي وجه إليه الشاعر التعس رسائله التسع - صورة فوتوغرافية لواحدة من صفحات تلك الرسائل. نظرة واحدة إلى الخط الذي كتبت به سطور هذه الصفحة - وهذا ما أراده مؤلف الكتاب من طبع صورتها - كفيلة بأن تنقل إلينا صورة لما وصلت إليه حالة كاتبها.

ذلك إنسان، في نهاية العمر، وبعد أن أصيب بالشلل النصفي، يجبر يده اليسرى على أن تكتب.. على أن تفعل ما لم يسبق لها أن فعلته طوال العمر.

مع ذلك، فإن رقة الشاعر المسكين قد أبت عليه إلا أن يعتذر من رداءة خطه.

يقول شكري في أولى رسائله التي بعث بها إلى مؤلف الكتاب استجابة لما طلبه من معلومات عن حياة الشاعر الخاصة تساعده - أي المؤلف - على إعداد دراسة عن أدب عبد الرحمن شكري يتقدم بها لنيل درجة «الماجستير»:

«تحية واحترامًا وبعد، فلا مؤاخذة في رداءة الخط، فإنه مكتوب باليد اليسرى بسبب الشلل في الجانب الأيمن..»، وليست رداءة الخط هي كل ما اعتذر منه الشاعر، إن شكري يعتذر أيضًا من هفوات وسقطات في الفكر، وفي اللغة يحس أنه صار معرضًا لها بسبب ضعف الذاكرة، ويخشى أن يكون قد وقع فيها وهو يكتب رسائله. إلى تلك النهاية الرهيبة صارت حياة عبدالرحمن شكري! هكذا شاء الله أن تُختم حياة واحد من كبار شعراء العربية في العصر الحديث، بمثل تلك الفاجعة.

كيف نفسر ذلك الاتهام الصريح الصارخ الذي وجهه صاحب هذه الحياة التعسة إلى مهنة التعليم؟

وهل يعقل أن تكون مهنة التعليم أو أية مهنة شريفة أخرى، وراء هذا الذي حدث؟

وترى.. من يكون هؤلاء المشتغلون بمهنة التعليم الذين شملهم اتهام الشاعر وهو غارق في محنته؟

تساؤلات ينبغي - كي نصل بشأنها إلى رأي - أن نحاول الاقتراب قدر الإمكان من شخصية عبدالرحمن شكري وأن نبحث في سيرته عن علاقات له بزملاء التعليم، وعن مواقف له في قلب عملية التعليم قد تكشف عن صداقات لابد قد حدثت بين شخصية هذا الشاعر المعلم ومهنة التعليم بكل ما تتطلبه في المشتغلين بها - شأنها في ذلك شأن كل مهنة - من صفات واستعدادات خاصة.

أهل الرصيف.. وأهل الحصير!

ولكي نستطيع تفهم شخصية شكري ينبغي أن نرجع إلى عهده بالتلمذة، وذكرياته التي انطبعت في ذهنه عنها، على أساس أن معلم اليوم هو - بلا شك - تلميذ الأمس، ولابد أن تؤثر في سلوكه وفي مشاعره وهو ممسك بأصبع الطباشير في مواجهة التلاميذ.. تجارب ماضية مرت عليه حينما كان لا يزال على مقعده بين صفوف التلاميذ.

لقد كان أول ما رسخ في وجدان شكري من عهد التلمذة، هو صورة خاصة بنظام التدريس في أحد الكتاتيب بمدينة بورسعيد التي ولد بها.

ولم تكن الصورة مما يستطيع تقبله طفل الثامنة، وهو على ما هو عليه من رفاهة الحس ورقة المشاعر..

في مثل تلك السن المبكرة اصطدم الطفل عبدالرحمن بصورة مما تزدحم به حياة الناس من صور الظلم والتفرقة، ومحاباة الأغنياء على حساب الفقراء...

«كان عمري ثماني سنوات على ما أظن، وبقيت في «الكُتَّاب» نحو سنة، وتعلمت الكتابة والقراءة وجزءًا من القرآن، ولكن كان أولاد كبار الموظفين والأعيان يجلسون على رصيف مرتفع قرب مقعد المعلم وباقي التلاميذ يجلسون على حصير.. وكان المعلم يوجه التفاته إلى الجالسين على الرصيف، ومن أجل ذلك تعلمت القراءة والكتابة وجزءًا من القرآن؛ لأنني كنت جالسًا على الرصيف ومواجهًا للمعلم.. وكان «الكُتَّاب» به ضجة، فإذا أراد المعلم أن يصل إلى مصدر الشغب مدّ جريدة طويلة في يده إلى رأس المشاغب فيقرعها.. ولكن أهل الرصيف كانوا بعيدين عن قرع العصا والجريدة...».

وفي المدرسة الابتدائية - بعد الكتّاب - يظل التمييز في معاملة التلاميذ مستمرًا...

بل يتخذ القرع والضرب في المدرسة الابتدائية، ذات يوم، صورة رهيبة أثارت في نفس الصغير وفي نفوس زملائه حينذاك رعبًا ثقيلاً لا تقدر الأيام على محو آثاره.

«وذات يوم هدد المدرس تلميذًا شقيًا برميه من النافذة، وهجم عليه، ورفع التلميذ، وقارب النافذة.. وكنا واثقين أنه سيرميه، ولكنه عند صراخ التلميذ: حرَّمت.. تبت أنزله إلى الأرض وهو يرتجف..». ذلك هو الكُتَّاب وهذه هي المدرسة الابتدائية.. ونمضي إلى ما بعد التخرج في المرحلة الثانوية ونيل الباكالوريا كما كان يطلق حينذاك على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.

وما كان صاحبنا، وهو في مفترق الطريق، يفكر في أن يسلك طريقًا في التعليم العالي قد يؤدي به في يوم من الأيام إلى أن يصير معلمًا..

إن ظروف عبد الرحمن شكري - شأنه في هذا شأن زميليه في ريادة أولى مدارس التجديد في الشعر العربي المعاصر: العقاد والمازني - هي وحدها التي دفعت به إلى مهنة التعليم.

لقد سبق أن قرأ الناس ما كتبه المازني الساخر عن محاولته الالتحاق بمدرسة الطب، ثم محاولته بعد ذلك الالتحاق بمدرسة الحقوق، وكيف انتهى به الأمر إلى أن يلتحق قسرا بمدرسة المعلمين التي تُخَرِّج المعلمين.


ابراهيم عبد القادر المازني

بالنسبة لمدرسة الطب - كما علمنا - لم تصمد أعصاب المازني أمام جثث المشرحة.. وبالنسبة لمدرسة الحقوق لم تصمد القدرة المالية لأسرة المازني أمام ارتفاع المصروفات.

أما شكري فقد استطاع - على عكس صاحبه - أن يلتحق بمدرسة الحقوق، وأن يقضي فيها عامًا دراسيًا كاملاً، إلا أنه فُصلَ منها بعد ذلك، بسبب اشتراكه في إضرابات وتظاهرات نظمها الحزب الوطني آنذاك، وبسبب كتابته لقصيدة عن مأساة دنشواي ألقاها بنفسه أمام بعض حشود المتظاهرين.

واحد يحرمه الفقر من دخول المدرسة التي يريدها، والآخر يحرمه البطش السياسي بالإضافة إلى غير قليل من الفقر أيضًا، إذ لا شك أن أسرة عبدالرحمن شكري - ولم يكن أبوه إلا موظفًا

محدود الدخل - كانت إلى الفقر أقرب منها إلى الغنى.

وهكذا شاءت الظروف أن تجمع بين شكري والمازني في المدرسة التي أنشأتها وزارة المعارف لحاجتها إلى المعلمين، ثم لا يلبث العقاد أن ينضم إليهما حين تخرجا، وبعد عودة شكري من بعثته في إنجلترا، ليشتغل ثلاثتهم بالعلم، ولتقدم باجتماع هؤلاء الثلاثة لا نقول ظاهرة أدبية فحسب، وإنما نحن، فوق ذلك، بإزاء صورة فريدة من صور الصداقة والزمالة بين الأدباء كان لها - بلا شك - ثمارها الشهية، ولكنها - كأي شيء في حياة الناس - كان لا بد من أن يكون لها أشواكها أيضًا.

والأدباء الكبار الثلاثة متقاربون في تاريخ المولد. عاشوا حقبة واحدة من تاريخ مصر، وخضعوا - تبعًا لهذا - للظروف والأحوال والأحداث السياسية والاقتصادية نفسها، ثم إنهم جميعًا أبناء طبقة واحدة من طبقات المجتمع، والثلاثة أدباء شعراء لهم نتاجهم ونشاطهم الملحوظان في دنيا الكتاب والصحافة.

والثلاثة اشتغلوا بمهنة التعليم، لا بالاختيار الحر، وإنما بدافع من الحاجة وحدها. بعد ذلك يأتي ما يفرق ظروف هؤلاء الزملاء الثلاثة رُوّاد أولى مدارس التجديد في الشعر العربي المعاصر، وأكبر الممثلين لتيار الفكر الإنجليزي، والرومانسية الإنجليزية في أدبنا الحديث. فبينما لا يقضي العقاد في مهنة التعليم سوى سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، وبينما تطول مدة اشتغال المازني بالتعليم نسبيًا ولكنها لا تزيد على عشرة أعوام، إذا بالزميل الثالث شكري قد التصق بهذه المهنة، أو التصقت به المهنة طوال ستة وعشرين عامًا قضاها متنقلاً بين مدارس الوجهين البحري والقبلي، ومتنقلاً - في الوقت نفسه - من التدريس إلى النظارة إلى التفتيش.

ولقد كان جديرًا بمثل هذا التدرج الوظيفي العادي، وذلك التنقل المتكرر المألوف أن ينتهيا إلى النهاية الوظيفية المعروفة.. إذ ما دام الموت لم يتدخل، فلا عائق دون أن يؤدي الطريق إلى الوصول إلى سن التقاعد؛ أي الإحالة إلى المعاش وهو ما لا يخطئ في حسابه بالشهر وباليوم الديوان العام لشؤون موظفي الدولة.

أما الذي حدث، فهو أن شكري سقط منهكًا وسط الطريق. فلم يكن أمامه إلا أن يطلب إحالته إلى المعاش وهو لا يزال في الثانية والخمسين من عمره، أي قبل ثمانية أعوام كاملة لبلوغه الستين، وهي سن التقاعد الرسمي كما تحدده اللوائح والقوانين.

ويكون خروج شكري إلى المعاش هو قمة المأساة في حياته الشقية. ليس فقط؛ لأنه خرج - كما رأينا - مضطرًا وقبل السن القانونية. وليس فقط لأنه خرج بمعاش شهري لا يزيد - بعد ستة وعشرين عامًا في الخدمة - على ثمانية وعشرين جنيها لا أكثر، ولكن لأنه خرج من مهنة التعليم وفي قلبه منها أكثر من طعنة، وفي أعماق نفسه من جرائها أكثر من جرح.

دفاع عن «المهنة»

وقد رأينا كيف اتهم شكري مهنة التعليم حين قال: إن المدارس شغلها يصرف ويعوق عن طبع الدواوين والكتب، كما أنها تعوق عن كتابة المقالات.

إن هذا الحكم على مهنة التعليم قد يصدق في بعض الأحوال، على نسبة ما من الجامعين بين الاشتغال بوظائف التعليم والإنتاج الأدبي، إذ من الواضح أن ثمة تعارضًا بين الإبداع الأدبي وما يحتاجه من انطلاق لا حدود له في الفكر والخيال، ومهنة التعليم التي ترتبط أول ما ترتبط بعقول ناشئة، كما تتقيد في الوقت نفسه بمناهج ونظم ومواعيد مفروضة، لا سبيل إلى الفكاك من قيودها. ومع ذلك فإننا نظلم مهنة التعليم إذا أصدرنا عليها الحكم بأنها عائق دون الإبداع الفني بصورة مطلقة.

وحالة عبدالرحمن شكري نفسه أكبر دليل على صدق ما نرى، فقد صدرت معظم دواوينه وجميع كتبه النثرية خلال مدة اشتغاله بالتعليم، وبالتحديد خلال الثمانية أعوام الأولى من اشتغاله بوزارة المعارف.

ثم رأينا كيف وازن شكري بين خط صاحبيه - العقاد والمازني - وخطه هو، فقال إنهما خرجا من المأزق النفسي بالاشتغال بالصحافة والسياسة: «أما أنا فتهدمت.. لكنني خرجت أيضًا بالتدريس.. درّست وتحطمت».

والاشتغال بمهنة التعليم ليس - كما قد يتبادر إلى الذهن - هو المقصود بالمأزق النفسي.

الذي حدث وأدى إلى استخدام شكري هذا التعبير: المأزق النفسي، هو أن الناقد الكبير الدكتور محمد مندور كان قد بعث إلى شكري عام 1955م - أي حينما كان الشاعر غارقًا في عزلته عن العمل والناس - بنسخة من دراسته بعنوان: «الشعر المصري بعد شوقي»، وهي دراسة تتضمن حلقتها الأولى بحثًا عن زعماء حركة التجديد الأولى في الشعر العربي، «العقاد والمازني وشكري»، وفي هذه الدراسة يتعرض الدكتور مندور للأزمة النفسية التي أصابت شباب بداية القرن العشرين في مصر، ومن بينهم أدباؤنا الثلاثة من جراء بطش الاستعمار وفساد الحكم إلى أن يقول: «لكن المازني والعقاد استطاع كل منهما أن يتغلب على الأزمة، المازني بفضل فلسفته الساخرة، والعقاد بفضل مغامرته في الحياة السياسية والفكرية. أما عبدالرحمن شكري، فقد ناء تحت عبء هذه الأزمة التي حطمت نفسه، وأسكتت صوته، بالرغم من أنه لا يزال حيًا متقاعدًا بعد أن أنفق في التعليم عشرات السنين». على هذا الأساس، فإن المأزق النفسي يرجع إلى أحداث السياسة وأزمات المجتمع، وليس المقصود به الاشتغال بمهنة التعليم.

ولكن شكري يقول: «... لكنني خرجت أيضًا بالتدريس.. درّست وتحطمت..».

ثم هو فوق ذلك يتحدث هذه المرة عن بعض مَنْ صادفهم واحتك بهم من كبار العاملين في وزارة المعارف، فيذكر أنهم حرموه حقه في الترقية، وأنه لقي على أيديهم معاملة ظالمة: «إن هذه المعاملة الظالمة كانت من أسباب شللي، وأرجو أن أنساها». المسألة - إذن - ليست مقصورة على مهنة التعليم ذاتها، لكنها تمتد لتشمل بعض كبار العاملين بالمهنة؛ ولأنهم كبار، فإنهم على وجه التأكيد إما مدرسون قدامى أو مفتشون أو نظار أو رؤساء للإدارات التعليمية المختلفة في ديوان الوزارة.

ترى على أية صورة كانت علاقة عبد الرحمن شكري الشاعر الفنان الذي كتب عليه أن يُرزأ من مهنة التعليم بهؤلاء الكبار من عتاة الموظفين بوزارة المعارف، سواء كانوا من الفنيين أو الإداريين؟

سؤال ما كنا لنستطيع الإباحة عنه على صورة حيّة واضحة، لو أننا لم نهتد إلى حكايتين أو لمحتين عن حياة شكري كتبهما العقاد في يوميتين من يومياته التي كان - رحمه الله - ينشرها أسبوعيًا خلال السنوات الأخيرة من عمره.

هل تدرون ماذا كان بعض الرؤساء والزملاء في وزارة المعارف يطلبونه من شكري، سواء حينما كان مدرسًا، أو ناظرًا، أو مفتشًا بالتعليم الثانوي قسم الآداب؟

كان عبدالرحمن شكري وطنيا بارزا أدت به وطنيته إلى الفصل من مدرسة الحقوق، ومع ذلك وجد من يطعن في هذه الوطنية، ويحاول استعداء السلطات عليه

مع مهنة التعليم

قبل أن نجيب عن السؤال ينبغي أن نتذكر أن شكري زعيم من زعماء حركة تجديد الشعر في مستهل القرن، وأنه - بالنقد وبالإبداع - قد شارك في توجيه الحركة الأدبية في مصر وفي غيرها من البلاد العربية.

وفي «ضوء الفجر» - وهو الجزء الأول من ديوان شكري - نقرأ له على غلاف الكتاب بيتًا هو بمثابة الشعار لمدرسة التجديد:

ألا يا طائر الفردو
س إن الشعر وجدان

ومعنى أن الشعر وجدان هو ألاّ يصدر إلاّ عن عواطف صادقة تولد من تجارب حقيقية خاضها الشاعر فكان لها أثرها في وجدانه. وما أبعد هذا المعنى للشعر عما كان بعض الموظفين بوزارة المعارف، وخاصة الكبار منهم يطلبونه من زميلهم عبد الرحمن شكري...

إن هذا الزميل أديب وشاعر، وله كتبه ودواوينه المطبوعة.. لماذا - إذن - يبخل علينا بالتهنئة الشعرية في مناسباتها: ترقية إلى درجة، تولي منصب مرموق، علاوة، مولد واحد أو أكثر من البنين والبنات.. هكذا كان بعض رؤساء شكري وزملاؤه يفكرون، وانطلاقًا من هذا التفكير كانوا يطلبون.. ولسنا هنا بصدد الحديث عن منزلة شكري الشعرية، ولكننا نكتفي بنقل رأيين في بعض شعره، أحدهما لزميله العقاد والآخر للدكتور محمد مندور.

عن قصيدة دالية نظمها شكري في عتاب صديقه المازني يقول العقاد: «وهي قصيدة من أبلغ ما نظم شكري، ومن أبلغ الشعر العربي في جميع عهوده».

وعن قصيدة لشكري بعنوان «البعث» يقول د. مندور: «إن شكري قدم في قصيدته تلك صورة تكاد في قوتها تفوق الأدب العربي كله، بل إنها لتذكر بتلك العبقرية العاتية التي صدر منها كبار الشعراء العالميين مثل ملتون ودانتي، أو أبي العلاء المعري في وصف بعض مشاهد العالم الآخر».

هذا هو شاعرنا في رأي ناقدين كبيرين...

ولكن.. ها هو ذا صاحب هاتين القصيدتين وغيرهما من روائع الشعر يضطر - إما مجاملة، وإما اتقاء لشر الرؤساء والزملاء بوزارة المعارف - إلى أن ينظم قصائد في التهنئة بترقية جديدة أو بمولود جديد، ثم إنه - على وجه التأكيد إذ لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها - لم يستطع تلبية جميع الرغبات، فإذا هو يرضي أقوامًا ويغضب آخرين...

خطأ في موسم الامتحانات

تلك واحدة من اللمحتين اللتين هدانا إليهما الأستاذ العقاد، لا شك أنها قادرة على تصوير جانب مما كان يعانيه شكري نتيجة اشتغاله بالتعليم. فليس أشق ولا أصعب على نفس الشاعر الأصيل من أن ينتهك الناس فنه على هذه الصورة. ذلك عذاب ليس أقدر على الإحساس بمرارته من الشعراء وأمثال الشعراء من الفنانين.

أما اللوحة الثانية وهي مرتبطة بخطأ ارتكبه شكري بوصفه موظفًا عاملاً في حقل التعليم. فليس أقدر من المشتغلين بالتعليم على تفهم مدى خطورة هذا الخطأ وفداحته. وهذا الخطأ الفادح وقع أثناء موسم الامتحانات، وبين جدران إحدى المدارس الثانوية. إنها حالة طوارئ يتم إعلانها بين المعلمين قبل التلاميذ: الأسئلة ومدى مطابقتها للمناهج المقررة، لجان الامتحان، أرقام جلوس التلاميذ، الأرقام السرية ولجنة المراقبة «الكنترول»، الزمن المحدد للامتحان في كل مادة، ممنوع على التلاميذ دخول اللجان ومعهم كراسة، أو كتاب، أو مذكرات، ممنوع منعًا باتًا على الطلبة مغادرة لجان الامتحان قبل مضي نصف الزمن المحدد للإجابة، لجان التصحيح ومواعيد عملها ومواعيد إعلان النتيجة.. مثل تلك المفردات والتعبيرات هي اللغة السائدة داخل المدارس طوال فترة الامتحان، وهي لغة قادرة على أن تخلق من حولها جوًا ثقيلاً ليس من بد أمام المعلمين قبل التلاميذ أن يتحركوا ويتنفسوا فيه. وفي هذا الجو ارتكب شكري خطأه الفادح.

ولندع العقاد يقص علينا ما حدث:

«لم يشأ رؤساء عبد الرحمن شكري في الديوان أن يعفوه من العمل الذي يرهقه، فكان ما لا بد أن يكون... وحدث يومًا أن وكلوا إليه مهمة تتطلب الجهد واليقظة وطول المراقبة، فغلبه التعب وفتح مظاريف الأسئلة في الامتحانات العامة قبل موعدها. فلم يذكر المبجلون واجبًا من واجبات الديوان غير صرامة الجزاء، وما كان بالحتم أن يعمل شكري في المهام التي ترهقه وتضنيه، بل كان في الوسع أن تنتفع الوزارة بكفايته الأدبية في كثير من المهام والتكاليف، وأن ينال فيها حقه من الترقية والتقدير، ولكنهم أبوا عليه الراحة ولم ينصفوه، فأجمع عزمه على الاعتزال».

استطاع رفيقا شكري: العقاد والمازني أن يخرجا من أزمتهما بممارسة الكتابة والعمل بالسياسة. أما شكري فقد رزح تحت عبء أزمته النفسية

والخطأ - فتح مظاريف الامتحان في غير موعدها - هو بلا شك خطأ فادح والجزاء - كما قال العقاد - كان هو الآخر صارمًا.

وما نحسب إلا أن شكري في البداية حاول أن يقاوم.. إن له قصيدة بعنوان «أقوام بادوا» من الواضح أنه قصد بها تلك الفئة من رجال وزارة المعارف ممن أذاقوه - كما رأينا - صنوفًا من العذاب.

والقصيدة نشرتها مجلة الرسالة، وكان ذلك في العام نفسه الذي استقال فيه شكري وبالتحديد قبل شهر واحد من قبول استقالته.

يقول شكري في هذه القصيدة:

جعلوا لطبع اللؤم كل قداسة
وتحرزوا من سنة المختار
تركوا اللباب وشاقهم ما شانَهم
من بهرج في مطلب غرار
عاشوا عبيد كلامهم لم يدلفوا
من خلفه لحقائق الأفكار

ويقول أيضًا:

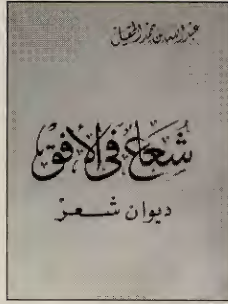
هيهات يصلح نشء قوم لم يجد
خلق الكبار يضيء مثل منار

ولم تفد المقاومة، فلم يكن شكري يملك شيئًا من أسباب أو من عوامل تساعد على استمرارها. في فنِّه لقي شكري الخسران، أو على الأقل لقي سوء الفهم لنتاجه الأدبي، فتساقطت على رأسه الاتهامات؛ اتُّهم بالزندقة واتُّهم بالجنون؛ بل إن قصيدته تلك بعنوان: «أقوام بادوا» وجدت من يفسرها بأنها هجوم على المصريين جميعًا، لا يصدر إلا من خائن لوطنه، ولعل في هذا تفسيرًا لذلك الاتهام الذي وجهه إلى شكري في مدينة بورسعيد واحد من تلاميذه.

وفي العمل - من مورد الرزق - لقي الخسارة أيضًا.. ومع هذين الإخفاقين حياة خاصة جدبة لا زوج فيها، ولا ولد - والرجل متوفز العاطفة، مفرط الإحساس، مجسّم للأوهام -. وبعد الاستقالة بعشرين عامًا كاملة كأنها الجحيم قضاها ذلك الفنان البائس، بين الحاجة والمرض واليأس المدمر الحارق، صعدت روحه المعذبة إلى بارئها.. يرحمه الله.

العنوان: شعاع في الأفق (ديوان شعر).
المؤلف: عبدالله بن حمد الحقيل.
الناشر: المؤلف نفسه، مطابع دار الشبل بالرياض، ط1، 1996م، 154ص.


عبدالله بن حمد الحقيل



غلاف الكتاب

زيّن الشاعر الحقيل ديوانه بمقدمة ضافية تناول فيها مكانة الشعر وأهميته في الأمة. وبيّن أنّ الشعر هو فن العربية، وأنه ينمو ويزداد بالصقل المستمر للموهبة وممارسة العرض وترويض الملكة. وتناول طرفًا شاملاً لتاريخ الشعر ونشأته، وذكر ما جادت به مواسمه وأعياده، وأسواقه ومناسباته.

وقد جاء هذا الديوان في ثمان وأربعين قصيدة، في أغراض مختلفة حُصرت كلّها في ثمانية أوزان، جاءت قصائدها على النحو التالي: ست عشرة قصيدة في بحر الكامل، وتسع قصائد في بحر البسيط، وست قصائد في الخفيف، وست في الطويل، وخمس في الوافر، وثلاث في الرجز، واثنتان في المتقارب، وواحدة في مجزوء الرمل.

ومعظم القصائد كان في وصف بعض البُلدان وما خلّفته الرحلات إليها من ذكريات في نفس شاعرنا. وقد سبق حرف الجرّ «في» معظم عناوينها، مثل: في ينبع، في روضة التنهات، في ربوع الخليج، في روضة الخفس، في ربى الفيحاء، وغيرها.

ولعلّ حرف الجرّ «في» هو الذي يُشير إلى احتواء تلك البلدان للشاعر. وقد وصفها وصفًا دقيقًا ووَضّح تفاصيل ما لقي فيها، مثل قوله في ينبع:

تراثٌ في بلاد البرِّ أضحى
وينبعُ نخله حبًا وأبًا
تُراث «كُثيّر» أضحى مزارًا
«وعَزّةَ» يوم كان هوى وَحُبّا
ورَضوى شامخٌ بالعزِّ يروي
لنا ما قد مضى سلمًا وحربا

وهذا المنهج الذي نهجه الحقيل في شعره هو خدمة جليلة لتاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، ودليل على سعة اطّلاعه.

وقد اتّضح أن هنالك وحدة في نهج الشاعر، وحرص أن تكون كذلك حين اختار وجوهًا متشابهة وقوالب شعرية متقلبة وأوزانًا متصاقبة.

وقد أفرد شاعرنا للإخوانيّات صفحات في ديوانه، أورد فيها ما تبادله مع بعض إخوانه من أشعار، ومنها ما بعثه إليه الشيخ عثمان الصالح مهنئًا بمناسبة تعيينه أمينًا عامًا لدارة الملك عبدالعزيز قائلاً:

(بدارة) قائد فذٍّ عظيم
صعدت لها فصرت لها أمينًا
نهنيكم بفوز في مجال
شريف ما تزال به قمينا

ثم هنّأه كذلك محمّد بن سعد المشعان بأبيات قال في واحد منها:

إن كان للدّارة عينٌ ترى
فأنت عين الدّارة الصّافية

كذلك كتب إليه معالي الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ يشكره ببيتين حين أهداه ثلاثة كتب من إنتاجه الأدبي، قال فيهما:

فما أنت إلاّ الحقل لست مُصَغّرًا
عبيرٌ شذاه قد تناهى إلى الأدبْ
وَإنْ أحرفُ التَّصغير باسمك أُلحقت
فما ذاك إلاّ للحفاظ على النّسبْ

وكان جواب شاعرنا عليها، وعلى غيرها من الإخوانيات بأبيات من نظمه.

ونقف على بعض المآخذ اللغوية والعَروضية التي جاءت في شعره. ففي قوله:

رعى الله الأحبّة كل حين
فهم للقلب أشواقًا ومزنا

كان ينبغي القول «أشواقٌ ومُزنُ»؛ لأن أشواق هي خبر المبتدأ مرفوع، ومزْنُ معطوف عليها، وبهذا يحدثُ الإقواء وهو عيبٌ من عيوب القوافي.

وكذلك في بيته من قصيدة «من وحي الأندلس» قال في عجزه:

يرى عبقها القاصي بها وهو راضيا

جعل راضيًا خبر المبتدأ منصوبًا والأحرى أن يكون مرفوعًا ومنوّنًا تنوين الحذف وهو راضٍ.

وفي العروض وردت بعض الملاحظات الخفيفة التي يمكن حصرها في عدم التزامه العلل في قوافي الرّجز في بعض الأبيات، وكذلك في عجز بيته:

يا شاعرًا قد أحسن صوغ القافية

نجد كسرًا حيث زادت التفعيلة في آخر العجز وخرجت عن وزن الرجز: مستفعلن.

ولعل المتأمل يرى بعض الضّرورات التي هرع إليها الشاعر مثل تنوين الممنوع من الصّرف وضبط بعض المفردات لما يناسب الوزن، وهذا أمرٌ جُوِّزَ للشعراء.

ولغة الشاعر في هذا الديوان سهلة متّسقة، ومفرداته متجانسة رنّانة وقوافيه خفيفة ليّنة. وقد ركب من بحور الشعر ما فيها الموسيقى العميقة والتفعيلات المتناسقة والأنغام الفريدة.

العنوان: انعتاق من ذات مهملة (مجموعة قصصية).
المؤلف: عبدالكريم النملة.
الناشر: المؤلف نفسه، مرامر للطباعة، ط1، 1996م، 62ص.



غلاف الكتاب

هذه مجموعة قصصية تتألف من أربع عشرة قصة قصيرة، أخرجها لنا كاتبها في صورة جيدة متماسكة هادفة، كل قصة فيها متلاحقة الأحداث تشد القارئ إلى نهايتها.

الوجع الطفولي: لعل خلاصة أمر الفتاة بطلة هذه القصة يلوح في أنها حزينة كئيبة لا تلمس راحة ولا تحس سعادة، يطاردُها الحزن في دارها، وتجد السلوى في حصة الرّسم حيث تلقى متنفسًا في تصوير طرف من همومها، وأحزانها. ولكن ما رسمته أناملها ينقلب عليها فيزيدها ألمًا وشقاء.

انبثاق فجر جديد: في هذه القصة نجد بطلها مطوقًا بظلام دامس حالك يسدُّ عليه فجاج الأضواء. فإذا طلع الفجر تتشابك ظلمات نفسه، وعندما يجيء النهار تتلبّد الظلمة الحالكة في نظره، ونراه يقود سيارته في الضحى وأنوارها مضيئة. يشك في مجيء النهار ولا يذهب إلى عمله، لأنه موقنٌ أنّ ظلام الليل مازال كائنًا؛ فما دامت الظلمات ظلمات النفس فلا يُرجى أن ترى العينان الضوء أو أن يبزغ فجرٌ جديد.

انعتاق من ذات مهملة: صوّر لنا بطلتها تغوص في جسد كله خطايا، ويحيط بها العناد والسّواد. وإن هربتْ إلى ذكرياتها فإنها مرّة، والكربُ محدقٌ بها من كل صوب. ثم جاء الفرج في نهايتها بأن اغتسلت بماء وهي تدعو الله بالخلاص ممّا هي فيه.

نحو المجهول: بطل هذه القصة نجده غارقًا في همومه وأوهامه لا يجد إجابة عن الأسئلة التي يثيرها. ويرى في هذا الجمع الراكض من الناس ما يذهل. رأى شخصًا قويًا يدهسُ ضعيفًا، وشيخًا هرمًا يركض ركض الشباب. وقد علّق الكاتب كُلّ ذلك وأولئك بالمجهول الذي يجعل الفرد يدخل فيه ولا يدري نهايته.

جذور باسقات: في هذه القصة ربط وثيق وعميق بالأرض، وتظلّ الأشجار فرحةً معطاءة تمدّ فروعها ويكثر عطاؤها، وإن كان بطلها حزينًا كئيبًا مأخوذًا.

السّوط: صوّر الكاتب في هذه القصة حالة الزوجة الثانية المخلصة لزوجها؛ تثق فيه وتأملُ في حياة سعيدة مستقرة معه. وهو لا يصارحها بما في نفسه ومَا يكتمه؛ لأنه تزوجها لتكون سوطًا يضرب به زوجته الأولى التي يحبها. وعندما ثابت الأولى إلى رشدها وأطاعت طلّق الثانية.

وأتى يوم آخر: قصة يبدأ فيها التحدي محدقًا ببطلها الذي يعرف أنه لا بُدّ من الانتصار على الهواجس. وبدأ الحلم يداعب خاطره والأمل كذلك في غير انفكاك.

مكابدة: صاحب هذه القصة مهموم يتشوق للشمس، وبوده أن يبدّد ظلام طريقه، لذلك يتمنى أن يمتلك قبسًا من ضوء ليرى به المجهول أمامه.

إفاقة: أحدق الفراغ ببطل القصة هاهنا وطوّقته الحيرة، وحاول أن يحمي رأسه من السقوط النهائي وهو يتساءل: أأصابه نزغٌ وهو لا يدري. لحظات توالت عليه وأنهكته. لذا بدا لنا وقد ضرب الفراغُ حوله سياجًا ودنت نهايته وهو يحاول أن ينقذ نفسه.

رجاء: ينقلب منزلها إلى فوهة بركان وتفوح الشتائم وتفيض الأوحال.

تطلب منه أن يتعوذ من الشيطان فيقول لها: إنها هي الشيطان. تحتمي بصبرها وعشقها. فاستطاعت أن تطفئ غضبه، فأتاها راجيًا منها السماح وأخمدت غلواء غضبه وثورة هياجه.

أصابع سيدي: هذه القصة تغوص في الرمز، إذ تصور محاكمة أصابع قائد مغرق في الظلم، بحكم أن الأصابع هي الأداة المنفذة لما يفكر فيه الإنسان، لكن القائد ينكر أن أصابعه الجميلة الشفيفة يمكن لها أن ترتكب منكرا كالذي تدعيه المرأة المظلومة.

إنابة نفس: وهي تتمرغ في وحلها وتستهتر، تعطيه الوعود والأماني وهو يرفضها. تتقمص شخصيات زائفة لوقت وجيز، ثم تضرب عنها صفحا في قلق. وبعد طول مداراة وتذليل تذوب وتلج في ذاته.

بمفرده: صَوَّر الكاتب في هذه القصة حادثة ألبسها حزنًا ولفّها بكآبة عن نساء مجتمعات حول إحداهُن وهي تحكي خوفها وحزنها بعدما فقدت زوجها، وهي خائفة هلعة على طفلها الذي لم يبلغ مبلغ الرجال بعد. الدموع تفيض، وتتجدد ألوان الحزن.

يقظة حلم: في قصته الأخيرة صوَّر الكاتب حكاية صاحب حلم ركب الطائرة وتذكر حلمه وحاول أن ينصرف عمّا هو فيه من خوف ووجل، وأن ينسى حلمه. وما هي إلا لحظة وقائد الطائرة يعلن عن عطل ألمّ بالطائرة، فدب الخوف في نفوس الركاب، وبعد لحظة أعلن لهم أنه سيهبط اضطراريًا. ونزل صاحبنا الذي تذكر حلمه وكان بالفعل عن شيء يشبه الطائرة في حجمه، فحمد الله الذي جعله حلما لم يتحقق.

والكاتب في قصصه هذه كان ملتزمًا منهجًا بعينه لم ينفكّ عنه، وكانت قصصه تجري في نسق واحد، وبطلها واحد: رجل أو إمرأة. تبدأ بالحزن والسأمِ وتتكنفها الهموم والآلام والكآبة والهروب والشرود وما يقارب الجنون والتشاؤم. ومعظم هذه القصص ينتهي بنهاية مؤلمة وعالم مجهول.

أما لغته فقد جاءت جيدة متماسكة سلسة، تتخللها الإشارات الدقيقة والإيماءات الخفيّة. ولا مأخذ عليه غير هذه الرموز وذلك الغموض الذي يلف بعض تعبيراته.

وقد كان للقرآن أثر بيّن في ديباجته اللغوية، مثل قوله: «ذات اليمين وذات الشمال»، «البصر خاسئًا»، «حبلٌ من مسد»، «نزغٌ»، «فألهمها فجورها وتقواها».

وإن هذا التضمين لمما يقوي عبارات الكاتب ويُصوِّبُ قلمه ويقوم بيانه.

أقوال وخواطر

التكسب بالغزل

د. نوره صالح الشملان

من المعروف أن الشعراء العرب الأوائل كانوا يأنفون من التكسب بمدح الرؤساء، وأن أول من مدح وأخذ صلة على مدحه هو النابغة الذبياني، ثم الأعشى ميمون بن قيس، وأتى الحُطيئة وأكثر الإلحاف في طلب العطاء. بعد ذلك انغمس الشعراء في المدح حتى إذا كان العصر العباسي وجدنا معظم الشعراء يجعلون التكسب بالشعر حرفة ومهنة.

وهذا الاتجاه إلى المدح جار على الأغراض الأخرى عند الشاعر، وإذا كان المكان المخصص لهذه المقالة لا يسمح بالحديث عن هذه القضية، فإننا نتجاوزها للحديث عن التكسب بفن يُفترض أن يكون غرضًا وجدانيًا خاصًا بصاحبه، إلا أن كتب الآثار الأدبية حفظت بعض القصص التي تدل على أن التكسب تجاوز المدح والهجاء إلى الغزل.

فالعباس بن الأحنف (ت: 192هـ) الشاعر الذي تَرَفَّع عن المدح وجعل ديوانه كله غزلا عفيفًا، أعاد إلى الأسماع نغمة الشعراء العذريين الذين احترموا المرأة ووضعوها في مكانة رفيعة.. هذا الشاعر لم يتقرب إلى الخلفاء بمدحه، فأحبوه لغزله المعبر.

يروى أن هارون الرشيد كان يحرص على وجوده في مجلسه، وكثيرًا ما كان يردد بعض أشعاره ويناقشه فيها، سأله مرة عن قوله:

طاف الهوى بعباد الله كلهم
حتى إذا مرَّ بي من بينهم وقفا

قال الرشيد: ما الذي رأى فيك حتى وقف عليك؟ فقال العباس: سألني عن جود أمير المؤمنين فأخبرته، فاستحسن الرشيد جوابه ووصله. وحين تغاضب الرشيد مع جاريته ماردة أم المعتصم، وكانت امرأة تركية جميلة أحبها الرشيد، بل يقال إنها كانت أحب جواريه إليه، لاحظ جعفر البرمكي وجوم الخليفة، ففكر في طريقة تعود بها ماردة إلى الرشيد، فلم يجد أفضل من استخدام شعر العباس، فطلب منه أن يصنع شعرًا يعيد العلاقة إلى سابق عهدها بين المحبّين، فصنع العباس هذين البيتين:

راجع أحبتك الذين هجرتهم
إنّ المتيم قلما يتجنّبُ
إن التجانب إن تطاول منكما
دب السلوُّ له فعزَّ المطلبُ

فأعجب جعفر بالبيتين وطلب من إبراهيم الموصلي أن يغنيهما أمام الرشيد، فلما سمع الرشيد ذلك بادر إلى ماردة فترضاها، ففرحت بعودته إليها وسألت عن السبب فقيل لها، فأعطت العباس عشرة آلاف درهم، وطلبت من الرشيد أن يعطيه عشرين ألف درهم.

ويبدو أن الرشيد قد راقته هذه الطريقة، فقد ذكر الرواة أنه سهر ليلة فصنع بيتًا في جاريته جنان وأعجبه البيت فأراد أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه، فقال عليٌّ بالعباس، وتذكُرُ الرواية أن الرشيد أرسل رسوله إلى العباس في منتصف الليل، وأنه فزع حين سمع طرقًا على الباب، وتضاعف خوفه حين علم أن الرشيد أمر بجلبه إليه، فذهب وقد نال منه الخوف ما نال، وحين دخل على الرشيد أفرخ روعه وأخبره بما يريد، وكان قد صنع بيتًا يقول فيه:

جنان قد رأيناها
ولم نَرَ مثلَهَا بشرا

فقال العباس:

يزيدك وجهُها حسنًا
إذا ما زدته نظرا

فاستحسن الرشيد قوله، وقال له زدني. فقال العباس:

إذا ما الليل سال عليـ
ك بالإظلام واعتكرا
وَدَجَّ فلم ترَ قمرا
فأبرزها تر القمرا

فاستحسن الخليفة هذا الشعر وأمر للعباس بعشرة آلاف درهم. ويبدو أن العباس أدرك ما يصنعه شعره في المحبين، وما يقوم به من القضاء على الخصام بينهم فتحسَّرَ على ذلك؛ لأنه لم ينل بشعره وصال محبوبته، فقال:

أُحْرَمُ منكُمْ بما أقولُ وقَدْ
نالَ به العاشقونَ مَنْ عشقوا
صِرْتُ كأني ذبَالَةٌ نُصبت
تضيءُ للناسِ وهي تحترقُ

أما البحتري فقد حدثنا الصولي أنه كان يصنع الشعر الغزلي للخليفة المتوكل ليرضي به زوجاته حين تغضب عليه إحداهن. وأود التوقف قليلاً عند خبر قرأته في «مروج الذهب» للمسعودي عن علاقة المتوكل بالنساء. روي أنه حين غضبت عليه قبيحة أم المعتز - والتي سميت بهذا الاسم لجمالها الباهر على عادة العرب في تسمية الكفيف بصيراً - لم يجد وسيلة لاسترضائها إلا أن يأمر البحتري بصناعة شعر على لسانه ففعل إذ قال:

تعالَلت عن وصل المعنّى بك الصبِ
وآثرت دارَ البُعد منّا على القُرْبِ
وحمَّلتني ذنبَ الفراقِ وإنه
لذنبُكِ إن أنصفتِ في الحكمِ لا ذنبي

وذكر الصُّوليّ (ت: 243هـ) أن قبيحة حين سمعت هذا الشعر عادت إلى المتوكل، وأن المتوكل وصل البحتري بمال كثير. إن دلالة هذه الظاهرة هي أن الشعر بجميع أغراضه كان يُسخر للسلطة. ويروى خبر عن سَلْم الخاسر (ت: 186هـ) شاعر الخليفة المهدي يذكر فيه الراوي أنه دخل على سَلْم الخاسر يومًا، فإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي بها أم جعفر قبل موتها، وحين سأل سلْمًا عن تفسير ذلك، قال: تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيهم ويستعجلوننا، لذا فإننا نصنع الشعر قبل موتهم فإذا ماتوا أظهرنا ما قلناه قديمًا.

وهذا مما قد يفسر غياب العاطفة عن كثير من قصائد التعزية التي حفل بها الشعر العربي القديم.



اضطرابات الكلام

د. صلاح محمود غانم

يمتاز الإنسان، وهو الخليفة في الأرض، من سائر المخلوقات بما يملكه من عقل يستهدي بنوره، ويفهم به ما حوله، ومن لغة ينطق بها؛ فيعبر عن مشاعره وأفكاره، ويتصل بوساطتها بأهله وبمعلميه وأمته. ولما كان الكلام ترجمان العقل وثوب اللغة، فقد رأينا أن تكون علله موضوعًا لبحثنا، ولكن عند الأطفال. ولمَ لا؟ فهم لنا زينةُ الحياة الدنيا، وهم الذين يزفّون لنا الأعياد عيداً بعد عيد، فالولادة عيد، والختان عيد، والحبو والمناغاة عيدان، والمشي عيد والكلام عيد.

وسنبدأ بالحديث عن كيفية تَشَكُّل الكلام وتطوره، ثم نذكر شيئًا عن علل السمع ممهدين للحديث عن الاضطرابات الكلامية التي تُعَبِّر عن خلل في مضمون اللغة وشكلها.

آلية تشكل الكلام وتطوره

للكلام مراكز متعددة، تقع في النصف الدماغي الأيسر عند 95٪ من الناس(1)، من أهمها مركزٌ لفهم الكلام ولتشكيل الفكرة(2)، يرتبط به بشكل وثيق مركزان: يدعى الأول مركز الإدراك البصري(3)، ويتم فيه تفسير الكلمات والأشياء الواردة من طريق البصر. ويسمى الثاني: مركز الإدراك السمعي(4)، ومهمته أن يدرك معاني الأسماء الواردة من طريق السمع ويخزنها.

وعندما تتشكل الفكرة، ويرغب صاحبها في أن يتكلم بها، تخرج من مركز الفهم، إشارات كهربائية نحو القسم الأمامي من الدماغ؛ حيث يوجد مركز آخر يقوم بتشكيل الكلمات المتناسبة مع الفكرة وتنظيمها، ويسمى مركز تشكيل الكلمات(5)، ثم تخرج منه أوامر إلى المنطقة الحركية في الدماغ، والمسؤولة عن العضلات المشتركة في الكلام لتقوم بالتنفيذ وإخراج الكلمات، فتتقلص أولاً عضلات الصدر ضاغطة على الرئتين، مما يدفع بالهواء نحو الأعلى؛ حيث تقف الحنجرة بالمرصاد، إذ تقوم عبر اهتزازات حبليها الصوتيين، بشكل متقطع ومتناوب، في زمن الزفير بإيقاف الهواء وإمراره.

ثم يمر الهواء الخارج صعوداً من الحنجرة بأجواف الرنين الصوتي Resonance cavities وهي البلعوم والأنف والفم، ويؤدي اللسان بحركاته وارتكازاته على عظم الحنك والأسنان الدور الأكبر في تغيير مجرى الهواء، محدثًا في كل موضع صوتًا خاصًا يميز حرفًا معينًا، يسنده في ذلك شراع الحنك الذي ينظم مرور الهواء نحو الأنف والشفتين.

وتحتاج اللغة إلى الذاكرة، ولاسيما الذاكرة السمعية والبصرية، وللدماغ قدرة عجيبة في تقييم ما يرد إليه من معلومات وأخبار، فهو يعرف كيف يتجاهل ما لا فائدة منه، وكيف يهتم بما هو في حاجة إليه؛ فيدخله بسهولة، ويحفظه في مراكز متخصصة لوقت الحاجة. ويساعد الذاكرة في أن تقوى وترسّخ المعلومات في أثناء التكرار والاسترجاع من وقت لآخر، والتركيز على المعلومة لأهميتها.

ونعرض الآن أهم معالم تطور اللغة والسمع عند الأطفال.

الطفل من الولادة حتى ستة أشهر

يجفل الطفل بشكل مفاجئ عندما يسمع صوتًا قويًا، ويهدأ لسماع صوت أمّه، ويحاول أن يحدد مكان الصوت بإدارة وجهه وعينيه، ويُسمع له بكاء خاص عند الجوع والألم، وله أصواته المعبرة عن سروره، ويناغي بتكرار مجموعة من المقاطع الصوتية، يستوي في ذلك الطفل الطبيعي مع المولود أصَمّ؛ فكلاهما يناغي، ولكن الثاني لا يتعلم اللغة ولا يتكلم بعد ذلك.

الطفل من سبعة أشهر وحتى الشهر الحادي عشر

وتدعى هذه المرحلة بمرحلة بداية اللغة، ويستمع الطفل فيها بشكل انتقائي لبعض الأصوات، وباهتمام، ولاسيما صوت والديه وبعض الموسيقى والغناء، ويستجيب عندما يُنادى باسمه، ويشرع في تقليد الأصوات، وتزداد مفرداته الخاصة، ويناغي أكثر من قبل.

عند الأطفال



لم تعد تكفي السماعة الطبية في تحقيق نقل الصوت من مكان بعيد إلى الطفل المعاق سمعيًا، وصار بالإمكان للطفل أن يتابع دروسه في مدرسة نظامية عبر استعمال وسيلة متطورة تنقل إليه الصوت بوضوح عبر موجات إذاعية من جهاز يحمله المعلم.
تتألف الفكرة من وجود جهاز مرسل يحمله المتكلم يصدر الصوت بموجات الـ F.M وجهاز آخر موصول بسماعة الطفل يستقبل الصوت المرسل. وبذلك يغني الطفل عن طلب رفع الصوت وعن المدرسة المختصة للمعاقين سمعيًا، مما يساعده كثيرًا في الفهم وسهولة الاتصال المباشر

الطفل من السنة وحتى السنة ونصف السنة

يزداد تمييز الأصوات عند الأطفال، ويعرف أسماء الأشياء الشائعة (لعبة - جسم - طفل)، ويتعلم في كل أسبوع كلمات جديدة، وتصل مفرداته إلى عشرين كلمة في السنة ونصف السنة، ويفهم قرابة 150 كلمة، ويتكلم مع نفسه ومع ألعابه ومع الآخرين بكلمات خاصة به، ويُفهم 25٪ من كلامه، ويلفظ قسمًا كبيرًا من الأحرف بشكل ناقص، ويتوجه إلى لعبة ما بسماع صوتها.

الطفل من السنة ونصف السنة إلى السنتين

يفهم الطفل فيها الأوامر ويلبيها، مثل: أعطني الكرة، خذ هذا، تعال إلى هنا، ويفهم الضمائر: أنا، هو، أنت، سأشتري لك لعبة عندما أذهب إلى السوق، ويستعمل عبارات من كلمتين، لذلك تسمى هذه المرحلة بمرحلة الكلمتين، ويُفهم من 25 إلى 50٪ من كلامه الذي يستعمل قسمًا منه للطلب والسؤال.

الطفل من سنتين إلى ثلاث سنوات

يمر بمرحلة تسمى تشكل القواعد، وفيها تتحسن ألفاظه، ويستعمل عبارات نحوية مثل سوف، وتقل كلماته الذاتية، وتكثر الكلمات المكتسبة، لتصل إلى سبعين ومئتين في السنتين، وإلى تسعين وثمانمئة في الثالثة من عمره. ويُفهم من 50 إلى 80٪ من كلامه، ويلفظ جيدًا النون والميم والهاء والكاف، وتكثر أسئلته مثل: لماذا؟ ما هذا؟

الطفل من السنة الثالثة حتى الرابعة والنصف

تتطور القواعد اللغوية في هذه المرحلة، ويستعمل الطفل فيها صيغ الأفعال والجمع وأسماء الأماكن بشكل صحيح، ويفهم في نهاية هذه المرحلة قرابة خمسة آلاف وخمسمئة كلمة، ولا تزال تظهر لديه بعض الأخطاء النحوية، ويُفهم 90٪ من كلامه.

الطفل بعد سن الرابعة والنصف

يصبح كلامه صحيحًا وواضحًا، ولفظه جيدًا، ويعرف الأرقام والسرعة والزمن، والفرق بين اليمين واليسار، ويغدو قادرًا على أن يسرد القصص.

نقص السمع عند الأطفال

لابد أن نبحث قليلاً في نقص السمع؛ نظرًا لارتباط السمع بالكلام، فمن كان سمعه قليلاً نشأ قاصر اللغة مضطربها.

يُبسّط السمع بتقسيمه قسمين: نقلي تقوم به الأذن الخارجية والوسطى التي تضم عظيمات السمع الثلاثة، وأنبوبًا يُعرف بقناة استاكيوس أو النفير Eustachian tube يربطها بالبلعوم الأنفي، والغشاء الطبلي الذي يفصلها عن الأذن الخارجية، وأما القسم الثاني فاستقبالي Perceptive تقوم به خلايا الأذن الداخلية التي ترسل الإشارات عبر العصب السمعي إلى الدماغ في فصه الصدغي،

حيث يُترجم السمع ويُفسّر، وإنَّ أية إصابة لطريق السمع تؤدي إلى نقصه كليًا أو جزئيًا، وهذه هي أهم الأسباب:

أولاً: نقص السمع الاستقبالي

Perceptive hearning Loss

يصيب 3,5 بالألف من الولادات، وهو على شكلين: نسبة الوراثي منه 25٪، والثاني مكتسب.

نقص السمع الاستقبالي الوراثي: يأخذ أحد نمطين: إما أن يكون خَلْقيًا، يظهر مع الولادة، ويكون الصمم شديدًا في كلتا الأذنين، وينشأ الطفل أصمّ أبكم، ويأتي النمط الآخر متأخرًا في ظهوره - بعد أن يكون الطفل قد اكتسب اللغة - إذ يتراوح بدء الصمم من ثلاث سنوات وحتى الثلاثين سنة ثم يتطور باطّراد.

نقص السمع الاستقبالي المكتسب: وتصاب الأذن الباطنة في هذا الشكل إما أثناء الحمل، أو وقت الولادة، أو في مرحلة الطفولة.

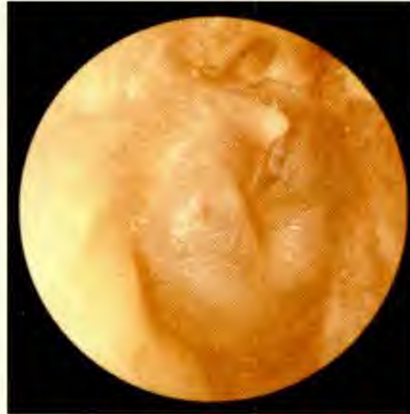
وتُعدّ الالتهابات الفيروسية مثل الإصابة بالحصبة خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، أو الطفيلية مثل التكسوبلاسموز Texoplasmosis خلال الأسابيع الستة الأولى من أهم أسباب فقد السمع التي تصيب الجنين وهو في رحم أمه، فيولد أصمّ، وأما رضوض الرأس وتنافر الزمر الدموية بين الأبوين مع تشكل اليرقان النووي Nuclear icter فهي من الأسباب الأكثر شيوعًا لإصابة السمع في أثناء الولادة. وأما فيما بعد الولادة فإننا نجد الأسباب نفسها تقريبًا التي تصيب الكبار في سمعهم، ومنها: رضوض الرأس الشديدة، والتهابات السحايا والدماغ والأذن الباطنة، وقد تؤدي الإصابة بالنكاف (أبو كعب) إلى صمم عند الأطفال في أذن واحدة.

ثانيًا: نقص السمع النقلي

Conductive hearning loss

تعدّ التهابات الأذن الوسطى أهم الأسباب وأكثرها في نقص السمع عند الأطفال، ولقد دلت الدراسات أن 75٪ من الأطفال يتعرضون لالتهاب أذن واحدة على الأقل قبل دخولهم المدرسة، وأن ثلثهم يصابون بثلاثة التهابات على الأقل في السنة، وقد لا يظهر نقص السمع لدى الأهل إلا متأخرًا، ولاسيما عندما يتأخر الطفل في نطقه، أو يضطرب لفظه، أو تتراجع سوية دراسته، وقد يصبح الطفل غير مبال، أو سريع الانفعال من جراء قلة سمعه.

وتعدّ التهابات الأذن الوسطى الانصبابية المصلية من



الغشاء الطبلي في أذن ملتهبة



الغشاء الطبلي وفيه يبدو أنبوب التهوية



سماعة طبية توضع في مجرى السمع عند الأطفال في حالة نقص السمع الاستقبالي

أهم الأشكال التي نراها.

لابد في كل حالات اضطراب الكلام عند الأطفال من أن نقيّم السمع، ونلجأ في سبيل ذلك إلى أخذ القصة المرضية من الأهل. مع الاهتمام بالسوابق الشخصية والعائلية، ثم نفحص الأذن مجهريًا إن أمكن، وما جاورها، ونجري اختبارات سمعيّة متعددة الأشكال بحسب عمر الطفل، ومدى تجاوبه معنا بما فيها تخطيط الطبلة، وقد نضطر لإجراء بعض الاختبارات المعقدة مثل تخطيط القوقعة الكهربائي Ecog، وتخطيط الجذع الدماغي المحرض E.B.R، ونحدد بعد تلك الاختبارات درجة نقص السمع والذي قد يكون في إحدى الدرجات التالية:

درجة النقص الخفيف: لا يزيد حد السمع فيها على 40 ديسبل (الديسبل وحدة شدة الصوت، وكلما قلّ السمع ازداد الرقم، وتقع الحدود الطبيعية بين الصفر و15 - 20 ديسبل)، وتظهر صعوبة في هذه الدرجة أو تأخر في اكتساب الكلام.

درجة النقص المتوسط: يبدأ السمع بين أربعين إلى سبعين ديسبل، ويكتسب الطفل اللغة بصعوبة وبشكل ناقص، ويكون لفظه غير صحيح.

درجة النقص الشديد: ويكون حد السمع واقعا بين سبعين وتسعين ديسبل، لا يتكلم الطفل، وقد يحدد الضجيج من حوله.

درجة النقص العميق: ويبدأ حد السمع من 90 ديسبل، ويكون الصمم كاملا لدى الطفل، ويمكن له أن يستفيد من زراعة القوقعة.

تدبير نقص السمع: يبدأ التدبير بعد كشف نقص السمع وسببه، وتكون المعالجة بحسب السبب، فإن كانت الإصابة ناشئة من التهاب انصبابي في الأذن الوسطى، فتعالج بإجراء شق صغير في الغشاء الطبلي، واستخراج السائل من ورائه، ونضع خلاله أنبوبًا للتهوية Grommet إن كان السائل لزجًا كثيفًا. وأما إن كانت الأذية قد سبّبت صممًا استقباليًا فيجب وضع سماعة أذنية، ونلجأ لزراعة القوقعة بمسارب كهربية في حالات الصمم العميق، ويلزم بعد العملية إجراء تأهيل سمعيّ خاص.

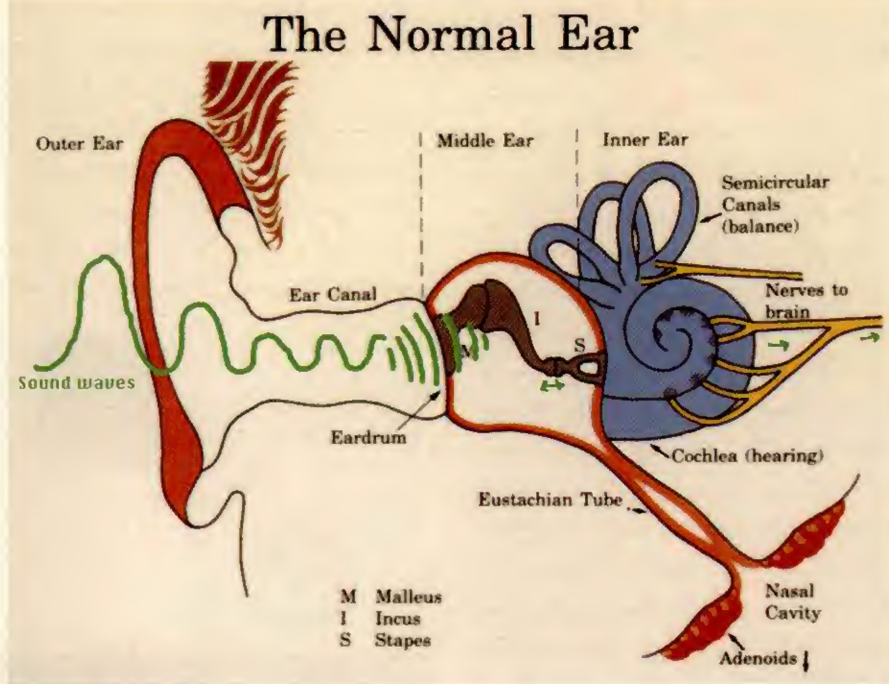
اضطرابات اللغة والكلام والصوت

نحن الآن أمام مشكلات تأخر الكلام، واضطراب النطق والصوت، وتبدأ مشكلة الكلام بالظهور عندما لا يتكلم الطفل في السن المتوقعة له، على عكس الأطفال الذين كانوا، أوالذين هم في مثل سنه، وترتدي المشكلة ثوبًا من القلق آخر؛ عندما يشعر الأهل بأن الطفل لا يسمع جيدًا.

ونبدأ بتقييم مشكلة الكلام جديًا بعد السنتين والنصف من العمر، ونستجوب الأهل عن واقعه اللغوي، وسوابقه المرضية، أثناء الحمل والولادة وما بعدهما، وهل تعرض لِرَضٍّ أو التهاب، وعن سمعه وذكائه، ووضعه النفسي والعاطفي، وهل توجد قصة



عائلية لخلاف بين الوالدين وشجار متكرر، أو حالة طلاق، ونسأل إن كان الطفل يتلقى تحريضًا لغويًا، وإذا ما كان يستعمل المفردات التي يعرفها. وبعد أن نفحص الطفل ولاسيما سمعه، نفحص اللغة لديه، فنعرض أمامه صورًا متعاقبة، تناسب سنه وفهمه، ونطلب منه أن يشرحها لنا، مما يفسح لنا المجال لنقيِّم ثراء لغته وسلامتها، ثم نطلب منه أن يكرر كلمات وجملاً قصيرة، تحتوي على الأنماط الصوتية المختلفة، فنرى عيوب السمع إن وجدت، وأخطاء النطق، وقد نطلب منه أن يسرد لنا قصة مما يحفظ، ونختبر قراءته بنص من مستواه المدرسي، ونميز بين خطأ نحوي شائع، وخطأ لغوي يعبر عن صعوبة في سمعه وفهمه، ونكمل فحص اللغة باختبار الذكاء وتحليل واقعه النفسي والعائلي.



تشريح الأذن بشكل مبسط مع ملاحظة أن اللون الأخضر يشكل الموجة الصوتية الداخلة إلى الأذن بأجزائها الثلاثة: الخارجية والوسطى والداخلية. ثم تخرج الموجة إلى المركز الدماغي السمعي لتحليلها والاستفادة منها



أحد أجهزة تخطيط السمع الضرورية لاستقصاء السمع عند الأطفال الذين يعانون من اضطرابات في الكلام

وتقسم الاضطرابات - تبسيطًا - قسمين: اضطراب في فحوى اللغة ومعناها، ويسمى بالاضطراب الاستقبالي، واضطرابات في شكل اللغة ولها أنماط عديدة:

أولاً : الاضطراب اللغوي الاستقبالي: تقع المشكلة أو الأذية في مركز فهم اللغة، في منطقة فرنيكة، حيث تضطرب القدرة على تلقي المعلومات، وتضمر آلية تشكل الفكرة، وتدعى بالحبسة الاستقبالية أو حبسة فرنيكة Wernike saphasia، وتظهر عند التعرض لأذية دماغية وعائية أو رضية أو التهابية، أو من دون سبب ظاهر، أو في حالات التأخر العقلي الشديد، ويتكلم الطفل بكلام غير مترابط، خال من المعنى، وقد تصيب الحبسة منطقة الكلمات، فتسمى حبسة النسيان، لا يقدر الطفل معها على استعمال الكلمات المناسبة، وقد يصبح الطفل أبكم إن حدثت الأذية قبل تعلمه الكلام.

ثانيًا : الاضطرابات في شكل اللغة: وتضم اضطرابات التعبير اللغوي، واضطرابات النطق، واضطرابات نظم الكلام، واضطرابات الصوت.

الاضطرابات التعبيرية Expressive disorders: يفهم الطفل ما يقال له، وفي ذهنه فكرة، لكنه يخفق في التعبير عنها بلغة سليمة، وبشكل صحيح، فألفاظه مشوّهة، وكلماته مضطربة، وتتوضع الإصابة في منطقة الكلام بروكا، ومن أهم أسبابها: رضوض الرأس، والإصابات العصبية والوعائية، وقد لا يبدو لها سبب ظاهر.

تؤثر تلك الاضطرابات سلبيًا في نفسية الطفل، فيظهر قليل الثقة بنفسه، أو منعزلاً هامدًا، أو يبدو على العكس ذا عصبية وهياج، ويرافقها أحيانًا عادات سيئة مثل مص الأصبع والتبول الليلي في الفراش.

التطور في هذا الشكل حسن، ويشفى 50٪ من الأطفال من دون معالجة، وأما ذوو الإصابات الشديدة فيحتاجون إلى معالجة صوتية وسند نفسي مدة طويلة.

اضطرابات النطق: Articulation's disorders: وفيها يتكلم الطفل بشكل مفهوم، ولكن تظهر في ألفاظه بعض العيوب، مثل تبديل

حرف بحرف آخر؛ كالتاء مكان الكاف، والدال مكان الزاي، أو إنقاص لأحرف أو مقاطع من كلمة، ولاسيما من بداية الكلمة أو من نهايتها، أو تشوه للفظ الكلمة نفسها، ويتحسن النطق في بعض المواقف مثل الغناء، ويزداد اضطرابًا في المواقف النفسية والعاطفية السلبية.

يشيع هذا الشكل عند الأطفال ممن لم يبلغوا ثماني سنوات من العمر ونسبته 10٪ منهم، ثم يقل مع تقدم العمر لتصبح نسبته 5٪ عند من هم أكبر من ثماني سنوات، ونراه عند الذكور أكثر منه عند الإناث، ويزداد كذلك في العائلة الكثيرة العدد، وذات المستوى المنخفض اجتماعيًا وثقافيًا؛ بسبب قلة الاهتمام بلغة الطفل. ومن أهم أسبابه اضطرابات السمع، والإصابات العضوية المتعلقة بآلية الكلام، ووجود لجام خلقي للسان Tangue Tie يمنع حركته الحرّة، ويعالج بتحريره جراحيًا.

تتحسن معظم الحالات بشكل عفوي من دون مساعدة، ويتحسن قسم آخر بعد دخول المدرسة، وقد تؤثر المدرسة سلبًا في بعض الأطفال؛ بسبب ازدياد دور العامل النفسي، وعدم تقبل الأطفال الآخرين لهذه العلّة، ونلجأ للمعالجة الصوتية، وإلى تعزيز ثقة الطفل بنفسه عندما يتعثر التحسن، يساعدنا في ذلك الأهل والمدرسة.

اضطرابات نظم الكلام: ونجـــــد أن التأتأة Stuttering من أهم أشكالها، وتعرّف بأنها خلل في الشكل الإيقاعي والزمني للكلام، بشكل لا يتناسب مع عمر الطفل، ومن أهم أسبابها المعروفة ظهور خلل في التنظيم للسيطرة على الوظائف اللغوية بين نصفي الدماغ ولاسيما عند الذين يستعملون اليد اليسرى في الكتابة، ويتعرضون لضغط من الأهل كي يتحولوا إلى استعمال اليد اليمنى، ولقد كان الاعتقاد السائد من قبل أن التأتأة هي ردّ لغوي على موقف نفسي أو عاطفي قاهر، لكن ذلك لم يثبت، على الرغم من أنها تشتد عند وجود مثل تلك المواقف، وقد يرافق الحالات الشديدة منها ظهور حركات تعويضية عند الكلام مثل بعض الحركات في الرأس والعينين.

تظهر التأتأة بين السنة ونصف السنة الأولى من العمر، والسنة التاسعة، وتشتد في مرحلتين، الأولى: في نحو السنتين ونصف السنة، والثانية في جوار السادسة من العمر، وهي عند الذكور أكثر بثلاثة أضعاف منها عند الإناث، وتكون سريريًا على شكل تكرار، أو ارتكاز، أو تطاول في مقطع من كلمة، ولا سيما في أولها، أو على شكل استراحة زائدة بين الكلمات، وقد يتم استعمال مقاطع معينة أو كلمات لتجنب التوقف أثناء الكلام، وتأخذ زمنيًا ثلاثة مراحل: تبدأ الأولى قبل دخول المدرسة، وتأخذ شكل مُدد من التأتأة، تستمر عدة أسابيع، أو أشهرًا، ثم تغيب لوقت قبل أن تعود، ونسبة شفائها عالية جدًا. وتظهر المرحلة الثانية في سنوات المدرسة الابتدائية، وتطول مدتها أكثر من السابقة، وتشتد عند التعرض لمواقف نفسية، ويتحسن الطفل مدة قصيرة نسبيًا. وأما المرحلة الثالثة فتظهر متأخرة بعض الشيء إذ تبدو في نحو السنة الثامنة من العمر، وتستمر حتى مرحلة المراهقة، وفيها يتهرب الطفل من الكلام، ومن مواجهة الأغراب حتى لا يُعاب ذلك عليه، وقد يرافقها ظهور حركات في العينين والشفتين إذا ما ترسخت في الطفل.

تتطور التأتأة عمومًا بشكل حسن، فهي تتراجع تلقائيًا بشكل عفوي عند 50 ٪ إلى 80٪ من الأطفال، بينما يستمر عند بعضهم اضطراب النظم مع تقدم العمر.

وتعتمد المعالجة على الطفل ومَن حَولَهُ بشكل أساسي، فيجب إقناع الطفل بتغيير شعوره نحو مشكلته، وإفهامه بأنها قابلة للتغيير والزوال إن ساعد نفسه، وعلى الأهل أن يقدموا ما يستطيعون لمساعدة ابنهم، فلا يجبروه على أن يستعمل اليد التي لا يرغب في استعمالها بشكل أساسي، بل يشجعونه على التحدث بشكل بطيء وهادئ من غير توتر، حتى مع التأتأة، ولا يظهرون ضجرًا أو سخرية أو



تفتح زراعة القوقعة آمالاً عريضة للأطفال المولودين صمًا والذين لا يستفيدون من السماعات التقليدية لشدة نقص سمعهم، كي يسمعوا ومن ثم يتعلموا النطق



قلقًا لكي لا تضعف ثقته بنفسه وتتأثر دراسته، وعلى المدرّس أن يعرف كيف يُشعر الطفل بجوٍّ من الأمان، ويدفع عنه إزعاج الأطفال ويعامله كما يعامل الآخرين.

اضطرابات الصوت Voice's disorders: يمكن لنا أن نجعلها بابًا مستقلاً أو أن نلحقها بالاضطرابات في شكل الكلام. ومن الأنماط التي نذكرها:

فقد الصوت المفاجئ Aphonia: قد يُفقدَ الصوت من دون سبب ظاهر بشكل مفاجئ مما يثير قلق الأهل وخوفهم على طفلهم، ويكون السبب نفسيًا في معظم الحالات؛ تاليًا لهزة عصبية أو لخوف شديد أو لألم عاطفي قاهر، ويسهل التشخيص باستجواب الأهل، ثم بفحص الطفل، فنطلب منه مثلاً أن يضحك أويسعل، فنسمع الصوت الحنجري، مما يدل على أنه قادر على الكلام، وبالفحص نجد أن الحبلين الصوتيين يتحركان من دون أي عائق. وتتحسن هذه الحالة مع تقدم العمر وبشكل عفوي، وتفيد المعالجة النفسية والصوتية في استرجاع الصوت كما كان.

اضطرابات شدة الصوتDisorders of the voice's intensity: عندما يتكلم الطفل بصوت عال مزعج فإننا نفكر بنقص في سمعه؛ ذلك بأن الطفل الأصم يظن أن الآخرين لا يستمعون إليه لضعف سمعهم فيرفع صوته ليسمعهم، أو بأنه قد اعتاد الكلام بتلك الطبقة العالية. وينبغي هنا فحص سمع الطفل، وعلاج نقصه إن وُجد، وتعويده التكلم بصوت طبيعي. وقد نجد على العكس من هذا أن الطفل يتكلم همسًا، أو بصوت خافت لا يكاد يُسمع، ونفكر هنا بالأسباب النفسية، ولاسيما بالهمود، أو بأن الطفل قد اعتاد هذه الطبقة المنخفضة، فنشجعه على التدريب ليرفع صوته، ويحسن من طبقته.

ازدياد أنفية الصوت Hyper nasality: يمر الصوت في هذه العلة أكثر مما ينبغي في الحفرة الأنفية، ويشارك الأنف في نطق أحرف لا دخل للأنف في نطقها، ولاسيما الهاء والراء والسين والفاء والكاف والزاي، فتلفظ الراء مثل النون على سبيل المثال، وتكثر الخُنّة الصوتية، ومن أهم الأسباب وجود شق خلقي في شراع الحنك Selt cleft palat، أو قصور في الشراع في إغلاق المنطقة الفموية عن الأنفية وقت الكلام، وكذلك وجود ناسور يصل الأنف بالفم ويمر من خلاله الهواء. وتتحسن هذه الحالة بالمعالجة الجراحية، ومن بعدها بالمعالجة الصوتية.

نقص أنفية الصوت Hypo nosolity: على عكس ما سبق فلا يمر الهواء عند لفظ بعض الأحرف؛ مثل النون والميم، فيتكلم الطفل وكأنه مزكوم، ويلفظ النون تاءً ودالاً، والميم باء، وتعدّ الالتهابات الأنفية والتحسسية والناميات السادة من



جهاز حديث لقياس وظيفة العصب السمعي من الأذن حتى الدماغ

أهم الأسباب، وهناك نمط عائلي وشخصي غير مَرَضي. يعالج السبب دوائيًا في الحالات الالتهابية، وجراحيًا عند ضخامة الناميات (اللحمية).

وتنفع التمارين الصوتية في تمرين شراع الحنك كي يمرر الهواء نحو الأنف بالشكل الصحيح.

اضطرابات طبقة الصوت Piteh's disorders: ويكون الصوت فيها إما خشنًا غليظًا أو ناعمًا أنثويًا بصورة تدعو إلى القلق.

وأهم الأسباب في الشكل الأول: التهابات الحنجرة، وتعالج باستعمال المضادات الحيوية، ومزيلات الاحتقان. أما الاستعمال السيئ للصوت؛ مثل الزعيق المستمر، فيعالج بالتدريب الصوتي.

وأما الشكل الثاني فغالبًا ما يثير القلق، ولا سيما عندما يترك الطفل مرحلة الطفولة ولا يتطور صوته بشكل يتناسب مع تقدم سنه، ولاسيما عند الذكور، وغالبًا ما تكون الأسباب هرمونية، فدور هرمونات الغدد الدرقية وجاراتها والكظرية معروف، وكذلك الهرمونات الجنسية التي تزيد من حجم الحنجرة في فترة البلوغ، ومن استطالة الحبلين الصوتيين، ومن خشونة الصوت؛ لذلك فإن من وسائل التشخيص الفحص الهرموني قبل علاج السبب، وهناك أسباب نفسية وعائلية لبقاء الصوت ناعمًا، ولا سيما تعلُّق الأهل الزائد بولدهم. وتعالج المشكلة بالتدريب الصوتي وبالتشجيع النفسي.

ونذكر قصة مريض جاءنا يشكو من صوته الذي لايزال أنثويًا، رغم أنه اجتاز عتبة الخامسة عشرة من عمره، وبدا حجمه ضخمًا كأنه ابن العشرين. كان فحصه السريري طبيعيا، ولم نجد سببًا هرمونيًا أو عضويًا يفسر مشكلته، فنصحناه بأن يقلّد دور الرجل ذي الصوت الخشن، كما لو كان ممثلا، وأن يُعوِّد نفسه ذلك في كل وقت، وفي كل موقف، وأن يرسخ ذلك التقليد في ذهنه، ولقد نجح مريضنا هذا في التقليد بشكل كبير، وصار صوته الجديد المتناسب مع عمره هو صوته الطبيعي بغير تكلف.

الخاتمة

نخلص من بحثنا هذا إلى لفت أنظار القراء الأعزاء إلى ضرورة التفكير في نقص السمع عندما يتأخر الطفل ببدء الكلام، أو عندما يَعْتلّ نطقه، وتتراجع دراسته، وكذلك إلى أهمية البحث عن الأسباب المرضية وعلاجها باكرًا ما أمكن، مع الاهتمام بالرعاية النفسية والعاطفية للطفل المتأثر سلبيًا بعلته، والتي قد تزيد من عزلته، وحزنه، وقد تؤثر في إفشال حاضره ومستقبله على الرغم من أن معظم الاضطرابات السابق ذكرها تتحسن تدريجيا وبشكل تلقائي مع تقدم العمر.

الهوامش:

1- يُدعى ذلك النصف الدماغي بالمتصنِّف Categorical hemisphere وكان اسمه السابق المسيطر Dominant.

2- يقع مركز الفهم في منطقة فرنيكة Wernike's الواقعة في الجزء الخلفي من الفص الصدغي العلوي.

3- يقع ذلك المركز في منطقة الإدراك البصري Visual in pretative area الموجودة في التلفيف الزاوي خلف المركز السابق.

4- ويقع على جانب مركز الفهم وتشكيل الفكرة.

5- يقع مركز تشكيل الكلمات في منطقة بروكا الكلامية Broca's speech area الموجودة في مقدم الدماغ أمام المنطقة الحركية الدماغية.



حفل التراث العربي بأنواع شتى من التأليف، فلم يدع المؤلفون موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألفوا في الموضوعات الجادة في دقائق العلوم والفنون، ولم يغفلوا الموضوعات الطريفة، كما خصوا كل موضوع بتأليف، وكل مسألة بمصنف، وكل فن بكتاب أو رسالة، في جد أو هزل.

التبصُّر بالتجارة

هذه رسالة وضعها مؤلفها في وصف ما يُستطرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة. أما مؤلفها فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (163- 255هـ) البصري المولد والوفاة. عاش في البصرة ما بين نصفي القرن الثاني والثالث حينما كانت باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا.

وأبو عثمان الجاحظ هو الأديب الموسوعي، صاحب التآليف العجيبة المشهورة كالبيان والتبيين والحيوان، والرسائل العديدة النادرة في شتى الموضوعات والفنون، وكان «التبصر بالتجارة» ضمن رسائله العجيبة.

وبدهي أن من كان في ذكاء الجاحظ وفطنته الغريزية وحبه استطلاع الأشياء والبحث عن الجليل والحقير، ويشاهد عياناً ما يجلب إلى العراق من أطراف البلاد وما يصدر منه إلى سائر الآفاق؛ لجدير أن يفيدنا بكل حذق وتدقيق عن الأحجار الكريمة والأعلاق النفيسة والطرائف الثمينة والرياش الغالية، وعن ماهيتها وأثمانها في عصره. على أنه لم يكتف بمجرد ذكر المتاجر ومصادرها بل زاد في البيان فَنَبَّه على المعمول من الجواهر واليواقيت والمغشوش من العطور والعقاقير، وفرّق بين الغالي منها والمتوسط فأضاف إلى الخبرة التفنن وإلى المعرفة التبصُّر، وهو عين موضوع كتابه «التبصر بالتجارة»، فلا عجب حينئذ أن اشتملت هذه الرسالة على فوائد جمة تهم أرباب الصناعة والتجارة، كما تفيد المشتغلين بعلم الاقتصاد والباحثين عن علائق العالم الإسلامي زمن غزارة حضارته وعنفوان تمدنه مع بقية الممالك.

وقد عُني بنشر الرسالة وتصحيحها والتعليق عليها العلامة السيد حسن حسني عبدالوهاب التونسي عن نسخة فريدة، وقدم لها بمقدمة ماتعة.

يقول الجاحظ في خطبة الكتاب: سألتَ - أكرمك الله - عن أوصاف ما يستطرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب، وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب.

زعم بعض المحصلين من الأوائل أن الموجود من كل شيء رخيص بوجدانه، غال بفقدانه إذا مَسَّت الحاجة إليه.

وقالت الروم: إذا لم يُرزق أحدكم في أرض فليتحول إلى غيرها.

وقالت الهند: ما من شيء كثر إلا رخص ما خلا العقل فإنه كلما كثر غلا.

وقالت العجم: إذا لم تربحوا في تجارة فاعتزلوا عنها إلى غيرها، وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها.

وقال الفرس: الرابح في كل سوق هو البائع لما ينفق فيها.

وقالت العرب: إذا رأيتم الرجل قد أقبلت عليه الدنيا فالصقوا به فإنه أجلب للرزق.

وقيل لبعض المياسير: بم كثر مالك؟ قال: ما بعت بنسيئة قط، ولا رددت ربحًا وإن قلّ، وما وصل إليّ درهم إلا صرفته في غيرها، وكان يقال: لا تشتروا ما ليس لكم إليه حاجة، فيوشك أن تبيعوا مالا تستغنون عنه.

- زعموا أن خير العود الهندي المندلي الذي لا غشَّ فيه، وكلما كان أصلب فهو أجود، وامتحان جودته بحدة أرجة وشدة رائحته. وزعموا أن خير العود الهندي الثقيل الوزن الذي يرسب في الماء، وأدونه الخفيف الوزن الذي يطفو على رأس الماء، والخفيف الوزن عندهم ميت لا روح فيه وهو ضعيف الرائحة، والثقيل الوزن منه له ذكاء وقوة أرج ورائحة.

- كل ثوب من اللباس والفرش إذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع، وكل علق من الجواهر والأحجار إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس، وكل حيوان من الوحشية والأهلية إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر، وكل إنسان من الشريف والوضيع إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل، وكل امرأة حرة أو أمة إذا كانت أكثر سكونًا وأجمل حالاً وأنزر طعمًا وأشكر للناس فهي أصون، وكل طير من السهلية والجبلية إذا كان آلف كان آثر، وكل طارف وتالد إذا كان أزكى وأجل فهو أهنأ، وكل عدو صغير أو كبير إذا كان حميمًا فهو أعدى وأشد حسدًا، ومن لم يُعرف مأواه فمحذور قربه.

ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس: جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنًا رائقًا، وبالخيشوم إذا كان طيبًا أرجًا، وبالمذاق إذا كان حلوًا عذبًا، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت، وباللمس أن يكون لينًا ناعمًا.

في ذكرى هيروشيما: عندما بزغت الش

د. خالص جلبي

بقي الإنسان حقبة تزيد على ثلاثة ملايين سنة شيئًا غير مذكور، ودشن الثورة الزراعية قبل عشرة آلاف سنة، وبزغت ثمان وعشرون حضارة من رحم مايزيد على ستمئة مجتمع بدائي مرت على الأرض(1) ومع بزوغ الحضارة الإنسانية قبل ستة آلاف سنة، بدأت معها ـ وعلى الوتيرة نفسها ـ دورات الحرب المريعة، كل جولة أشد هولاً في إيقاعها من التي قبلها، وأعظم تدميراً وإراقة للدماء. وبين عامي 1496 قبل الميلاد و1861 بعد الميلاد؛ أي خلال 3357 عامًا، كان هناك 227 عامًا انتشر فيها السلام، و 3230 عامًا وقعت فيها الحروب، وهذا يعني أنه كان هناك عام واحد للسلام مقابل 13 عامًا للحرب(2). وبين عامي 1740 و 1974م حصل في العالم 366 نزاعًا مسلحًا أودى بحياة مايزيد على 85 مليون إنسان(3).

فهل هذا قدرٌ لا يُرد أم ثقافة مصنوعة؟ وما فلسفة البؤس هذه؟ كيف نفهم مسير (بانوراما) القوة عبر التاريخ؟ هل هناك أمل يقدحه زناد العلم في هذه الأوساط الإنسانية المأساوية، المشبعة بالإحباط، الغارقة في المعاناة، المليئة بالأنين، الملطخة بالدم، المفعمة بالأحقاد والكراهيات المتبادلة؟ إن العلم الحديث يكشف الغطاء عن مفاجأة كبرى، هي أعظم من كل حلم راود الواعظين، ووعظ به الأنبياء، وبشّر به المفكرون، ونادى به المصلحون، لنسمع هذه القصة الشائقة والمروعة في الوقت ذاته.

وهج حسبوه مذنبًا!

كان سائق القطار السيد أيدلين يمشي من مدينة البوكيركي باتجاه مدينة ألباسو في مقاطعة نيو مكسيكو باتجاه الجنوب، بمحاذاة نهر ريو جراند، وكانت عقارب الساعة تشير تمامًا إلى الخامسة والنصف صباحًا من يوم 16 تموز/ يوليو من عام 1945م. كان القطار يتعرج في مسيره، معتليًا السكة الحديدية في طريقه الطويل، وكان نور القطار يلقي بظلاله بين الفينة والأخرى على شجر الحور والنباتات المتعانقة على شط النهر، وباستثناء بعض التحويلات في الطريق، لم يكن أيدلين يسمع سوى قعقعة عجلات القطار. وكانت أمريكا والعالم في ذلك الوقت في نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان التوقيت الزمني في الولايات المتحدة قد قُدّم ساعتين، وكانت الظلمة تحيط بالقطار في مسيره الصاخب. وفجأة.. وقبل الثواني الأخيرة من الساعة الخامسة والنصف من ذلك الصباح، شهد أيدلين ظاهرة ارتاع منها، حيث لمح توهجًا مخيفًا عبر الأفق، سرعان ما استحالت السماء بعده إلى لون برتقالي غريب، ثم صعدت ثلاث حلقات من الدخان الفظيع إلى كبد السماء، ثم أضاءت الدنيا كأنها في رابعة النهار، ثم سمع ما يشبه الإعصار المدمر يتحرك بقوة غير معهودة من طرف تلك الظاهرة العجيبة. حار أيدلين في تفسير هذه الظاهرة الفريدة، وظن أن هذا التوهج ـ كما روى فيما بعد ـ الذي سطع من الأفق الجنوبي هو مذنب ارتطم بالأرض من الفضاء الخارجي!!

كذلك رُصدت هذه الظاهرة من أقوام آخرين، فالزوجان ويسل مان كانا قد قضيا تلك الليلة في ستافورد بمنطقة أريزونا، ثم تابعا السير بعد منتصف الليل، على الطريق الاتحادي رقم 70، وعلى حدود نيو مكسيكو على بعد نحو 250 كم من آلامو جوردو ـ كما روت السيدة ويسل مان في اليوم التالي لجريدة الهيرالد بوست في مدينة ألباسو مشاهدتها: «كان الليل مازال مخيمًا بسواده، عندما ارتفع فجأة عند منتصف الساعة السادسة وهج من السماء، أضاء رؤوس الجبال التي كنا نمشي بحذائها، بلون أحمر برتقالي، في حين تألقت المنطقة المحيطة بنا عدة ثواني، وكأننا في ضوء النهار، ثم حل الظلام مرة أخرى، لقد روعتني المشاهدة، حتى خيل إلي أن الشمس بزغت فجأة ثم اختفت». أما سكان قرية كاريثوتو التي تبعد 65 كم فقط من آلامو جوردو فقد رُوّعوا في منامهم، فانطلقوا مذعورين من فرشهم الدافئة، وقد استولى عليهم الرعب، في حين كانت بيوتهم ترقص من الرجفة، وكأن مارداً أو قوة عاتية لا عهد لهم بها تلعب ببيوتهم. لقد اعتقد لويس فاريس يومها ـ وهو من سكان القرية ـ حينما فر مذعوراً على وجهه أن أبواب جهنم قد فتحت(4).

ولكن ماذا قالت الجرائد المحلية في اليوم التالي لبزوغ هذه الظاهرة الكونية، التي لم ينجح أحد في تفسيرها؟ لقد ذكرت أن انفجاراً ضخمًا حصل لمستودع ذخيرة تابع للجيش الأمريكي! وبهذا التفسير في جرائد منطقة نيومكسيكو تم تفسير بزوغ الشمس مرتين في ذلك اليوم التاريخي!.

وفي صباح 16 تموز هذا نفسه، وفي ضباب البحر الذي يغلف ميناء سان فرانسيسكو، على الطرف الثاني للولايات المتحدة على المحيط الهادي، تحركت البارجة إنديانا بوليس وغابت في عباب مياه المحيط، باتجاه جزيرة تينيان على بعد تسعة آلاف كيلومتر، حيث القاعدة البحرية الأمريكية هناك، وعلى ظهر البارجة المذكورة، ثُبت جهاز على شكل أسطوانة في حجم أسطوانة غاز المطابخ لا يزيد قطره على 45 سم وطوله على 60 سم، وقد كُلف بحراسته اثنان من الضباط، كل مايعرفانه عنه

مس مرتين!



أن اسمه «البرونكس» وأنه شيء لا بديل له أو تعويض عنه، فهو أغلى من الغالي وأنفس من الدرر الثمينة! وأوعز إليهما ألا تفارق عيونهما هذه الأسطوانة الغريبة، وفي حال تعرض البارجة للخطر أو الغرق فيجب إنقاذ هذه الاسطوانة العجيبة ولو بالتضحية بحياة كل البحارة!(5).

في هذا الصباح ذاته على الشاطيء الآخر من الأطلنطي، كان الرئيس الأمريكي هاري ترومان يجتمع مع ستالين على مائدة المفاوضات بين أنقاض وخرائب المدينة الألمانية بوتسدام وهما بصدد تقسيم العالم والنفوذ في مرحلة ما بعد الحرب الكونية الثانية! وقد علت البهجة وجه الرئيس الأمريكي، وغطى السرور محياه، ظهر ذلك في حركات يديه وعينيه، بعد أن وضعت بين يديه البرقية: «العملية تمت صباحًا. التشخيص لم يكتمل بعد. يبدو أن النتائج مطمئنة. وفاقت كل التوقعات»(6). وفي يوم 6 أغسطس/ آب، عند الساعة الثامنة صباحًا تحركت مجموعة من الطائرات من طراز ب -29 سميت بالمجموعة 509 الخاصة(7)، وأمر الطيارون بإلقاء الحمولة ثم الاندفاع إلى أكبر علو ممكن «ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون»!

سطوع شمس القوة الجديدة!

وعندما سطعت الشمس النووية، وحلّق الفطر النووي البئيس فوق مدينة هيروشيما، وطوى تحت جناحيه أجساد عشرات الآلاف من البشر وأرواحهم، عندها أدركت عائلة ويسل مان وسائق القطار ايدلين والمذعور لويس فاريس من قرية كوريشوتو أنهم كانوا الشهود الأوائل على سطوع الشمس النووية الجديدة، بل ولادة عصر جديد. وتبين أن ما شاهدوه كان في الواقع تجربة أول انفجار نووي على ظهر الأرض، في صورة تفجير قنبلة البلوتونيوم 239.

أصرت امريكا، بتوقيع واحد من الرئيس الأمريكي على ضرب مدينتين هما هيروشيما وناجازاكي، وحرق مئات الآلاف من الناس بالنار النووية الجديدة، ونحن في كلامنا هذا لسنا بصدد إدانة طرف ولا تنزيه آخر، فلو امتلك هتلر أو محاربو الساموراي هذا السلاح لاستخدموه أيضًا، لأنهم ينهلون من ثقافة القوة والجبروت ذاتها! ونجت مدينة كيوتو الجميلة الأثرية من براثن الموت والحرق، تحت ضغط وزير الخارجية الأمريكي، لأن ليزلي جروفز الرأس العسكري المخطط لمشروع «مانهاتن» الاسم السري لتطوير السلاح النووي. وكان يخطط لتدمير هذه المدينة، لتكون قاصمة الظهر للشعب الياباني بوصفها المدينة الدينية لليابانيين، وأن عدد سكانها يصل إلى المليون وفيها ثلاثة آلاف من المعابد!!.

وسطعت الشمس النووية فوق هيروشيما معلنة امتلاك الإنسان وقود النجوم، وإمكان إفناء جنسه العاقل في الوقت نفسه، ووصول الإنسان إلى القوة التي لم يحلم بها من قبل.

ومن حريق هيروشيما في ساحة النيران وقوافل الموت، بعد أن أخذت يد الموت رقمًا مرعبًا، وحل الدمار على الإنسان في صدمة لم يعهدها من قبل، حيث فني في دقائق معدودة قرابة مئة وخمسين ألفًا من عباد الله. وماتبقى منهم جاء وصفهم على لسان كاتب ياباني معروف هو: يوكو أوتا مايلي: «لم أتوصل بسهولة إلى فهم كيف استطاعت بيئتنا أن تتحول إلى هذا الشكل خلال لحظة، وظننت أنه من المفروض أن يكون قد حدث شيء ما، لا علاقة له مطلقًا بالحرب، إنه لا شك نهاية العالم، كما كنت أقرؤها في الكتب عندما كنت طفلاً»(8). أو ماوراه شاهد عيان: «بعد قليل شرعت مواكب المعوقين من جميع الأنواع والأشكال - لم يعرف لها التاريخ مثيلاً - تتهافت وهي تنزح من وسط المدينة، باتجاه الضواحي المحيطة بها» (9)، «كانت أذرعتهم تتدلى ووجوههم - ليس فقط جلود أيديهم وحدها، بل أيضًا جلود وجوههم وجميع أطرافهم - كانت تتساقط مهترئة، ولو اقتصر الأمر على شخصين أو ثلاثة لهان الأمر، ولكن حيثما كنت أتوجه كنت أصادف مثل هؤلاء البؤساء، كثيرون سقطوا أمواتًا على طول الطريق، ولا زلت أراهم ثانية وهم يتقدمون كالأشباح، ولم يبد عليهم أنهم ينتمون إلى هذا العالم.. وبسبب جراح أولئك الناس لم يكن بالإمكان أن يعرف فيما إذا كنا نراهم من الوجه أو الظهر»(10).

عصر جديد.. ومفاهيم جديدة

ما حصل في هيروشيما لم يكن تقنية جديدة برزت في الحرب أو سلاحًا سريًا تم تطويره، إنه في الواقع إعلان كوني عن دخول الإنسان عصرًا جديدًا، فهذا التطوير الجديد أدى إلى تثوير جديد في فهم العلاقات الإنسانية، كما أدى إلى إعادة النظر في مفهوم القوة بشكل بنوي. إن هذه القوة الآن لم تعد قوة! إن رحلة القوة دخلت مرحلة إلغاء القوة، وهكذا حصل شيء عجيب ما زلنا نتابع تطوره كالمسحورين، ولا نكاد نصدق أن تغيرًا مصيريًا غلّف مصير الجنس البشري، حيث دخل العالم - نظريًا - مرحلة السلام، على الرغم من طقطقات الرصاص هنا وهناك في البوسنة وأذربيجان، هذه المرة دخل العالم السلام ليس مريدًا له بل غصبًا عنه، وهكذا أُدخل العلمُ الإنسانَ إلى السلم، العلم قاد إلى لسلم، ولم تنفع كل مواعظ المصلحين السابقة، ولا بكاء المعذبين، ولا نصائح الحكماء، ولا حتى كل مصادر الحكمة الإنسانية، الذي فعل هذا كان العلم. فالعلم والتطور العلمي الرهيب كانا أعظم في إعصارهما من كل تصور، وأكبر من عقول السياسيين الضيقة الذين لا يرون أبعد من أرنبة انفهم!!.

العلماء الذين فجروا السلاح الذري، الذي امتلكوا سره، هم الذين وعوا روح العصر وحركة التاريخ. الذين سبروا غور الذرة، الذين فهموا تضاعيف الجزيئات دون الذرية، واليورانيوم غير المستقر، والانشطار أو الالتحام النووي.. هم الذين شعروا بأهمية السلم، وخطر مفهوم القوة والجبروت على مصير العالم والجنس البشري.

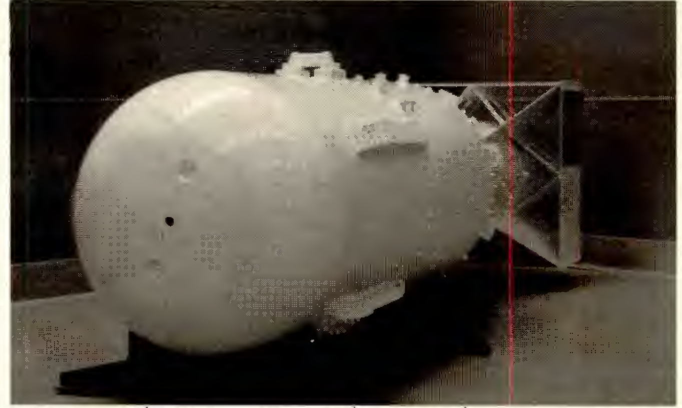
الذي أدرك هذا التطور الخطير ليسوا هم العسكر أو البنتاجون، فالعسكريون تنفيذيون. الذي أدركه هم من صنعوه وطوّروه وولّدوه!! العلماء المبدعون، لذا نادى روبرت أوبنهايمر الرأس العلمي للمشروع بالتوقف فورًا

عندما بزغت الشمس مرتين

عن المضي في لعبة الموت هذه، فدعا إلى السلام وتوقف عن المضي في تسخير إمكاناته للسلاح النووي. كذلك فعل نيلز بور الدانماركي، فاقترح على كل من ترومان وتشرشل تدويل ومراقبة التسلح النووي، وكذلك فيرنر هايزنبرج و أوتو هان - من الطرف الألماني - اللذان شعرا بالأسى الكبير لهذا التطور الجديد الذي وضع الجنس البشري على حافة الفناء هذه المرة.

هذا التطور النوعي لم يدركه السياسيون بالطبع، فضلاً عن شريحة واسعة من المفكرين والقادة في العالم الإسلامي، من أن العالم قد وُلِدَ ولادة جديدة.

إن الحرب اليوم لم تعد حربًا، هل نستطيع أن نتصور كائنًا كما في قصة «جاليفر»، أعني إنسانًا يصل طوله إلى 200 متر ووزنه 500 طن، وهو يدب بأقدام تهتز لها الأرض، بشكل الإنسان، بحجم الديناصورات التي انقرضت؟! هل تبقى مخلوقات بشرية وكائنات آدمية؟ إن الديناصورات اختفت من على وجه اليابسة، وكائنات من هذا جديرة بالفناء، لأنها تحرك وحي «أركيولوجيا الانقراض» عند الكائنات الجديدة (عفواً الإنسان الجديد). هذه هي الحرب الجديدة!!(11).



«الولد الصغير» Little Boy أول قنبلة يورانيوم ألقيت على مدينة هيروشيما في 6 أغسطس 1945 م

سباق رهيب نحو الفناء!

لم يدرك السياسيون ولا العسكريون الأمريكيون كنه هذا التطور الجديد، وكانت توقعات ليزلي جروفز أن السوفييت سوف يحتاجون إلى خمس وعشرين عامًا، قبل اللحاق بأمريكا وتطوير السلاح النووي، وفي صيف 1949م صعق الأمريكيون بتصاعد الفطر النووي في صحراء سيمي بالاتنسك في منطقة بوليجون - في البلد المسلم كازاخستان الذي كان يومها تحت الحكم السوفيتي -، وانفتح السباق النووي على مصراعيه لكل من يريد!! انطلق الأمريكيون بمشروع أشد هولاً، فرجعوا إلى إدوارد تيللر الذي كان يستخف بعمل روبرت أوبنهايمر حينما كان يعمل معه في المخبر النووي في لوس آلاموس. كان تيللر يرى أنه من تضييع الوقت والعبث الوصول إلى القنبلة الانشطارية، فهي مثل عود الثقاب أمام قنبلة الميجاطن = القنبلة الحرارية النووية. قنبلة هيروشيما كانت من عيار 15 كيلو طن من مادة ت. ن. ت. في حين أن قنبلة إدوارد تيللر كانت من عيار مليون طن من مادة ت. ن. ت. انطلقت أمريكا بعدها فيما سُمِّي «مشروع مايك» حيث كانت تجربة قنبلة الميجا طن شيئًا مرعبًا مروعًا؛ فلقد ارتفع الفطر النووي إلى 25 كيلو متر في السماء، وانخسفت الجزيرة إلى قاع المحيط، وهلكت الحياة النباتية والحيوانية في الجزر المجاورة، وانسلقت الأسماك طبخًا في أعماق المياه الباردة!! كان عيار أحد القنابل نحو 12,6 ميجا طن!!

وبالطبع اندفع الاتحاد السوفيتي بكل زخمه في هذا السباق لكي يصل في النهاية إلى تفجير قنبلة الجورباتز عام 1960م بقوة بلغت 58 ميجا طن، أي أقوى من قنبلة هيروشيما بما يزيد على ثلاثة آلاف مرة! وصعق البنتاجون فبدأ يخطط لقنبلة من عيار 100 ميجا طن! عندها شعر الجميع أنها رحلة جنون مطبق، وعبث مدمر، وطريق مسدود.

وسَطَّرَ جورباتشوف كلمات متزنة للغاية في كتابه «البروسترويكا» عن طبيعة التطور التاريخي الذي دلف إليه الإنسان، وطلب فهمًا سياسيًا يناسب هذا التطور العلمي. وهكذا أبطلت القوةُ القوةَ. وإذا كان مصير الدول والقوى التي مضت في الطريق إلى الشوط الأخير ورجعت خائبة حسيرة، بعد أن لمست الجدار الصاعق الحارق، الذي لمع شواظه قبل الوصول إليه، فهو - من باب أولى - جدير بأن يكون درسًا لكل من يريد أن يسلك هذا الطريق بأنه مغلق مسدود، وأن من يُصرّ على دخوله سيتحول إلى هباب فحم يطير في الهواء. سواء في الصراعات بين الدول، أو داخل الدولة الواحدة بين المجموعات السياسية. ومع كل هذه الآيات البينات فإن هناك من لا يزال على عقيدته أن السيفَ أصدقُ أنباءً من الكتب، لذا فهو خارج التاريخ والجغرافيا، ولكن لا حرج؛ فإنه ما يزال هناك أناس يعيشون على لمبات الكيروسين، ومازالوا يستخدمون أصابعهم في العدّ، وحل مشاكلهم بالفؤوس والسكاكين. ولكن إذا أردنا معرفة العالم الذي نعيش فيه، فينبغي أن نتأمل وجهه، فالإنسان يُعرف بمحياه ورأسه وقسمات وجهه، وليس من عقب رجليه وأخمص قدميه؛ أي من حيث وصل من خلال قواه التقدمية، وطلائعه العلمية. وهكذا فالعالم الذي نعيش فيه هو عالم الكهرباء والفاكس والحاسوب والرحلة إلى المريخ، والإلكترونيات والروبوت، والبيولوجيا الجزيئية، كما هو عالم الدخول إلى السلم.

الحروب اليوم توقفت بين مالكي المعرفة لأنهم أدركوا أن وقت حل المشكلات بالقوة قد انتهى والحروب اليوم هي في عمومها حروب المتخلفين، ومع هذا فإن مصيرها ونهايتها ليست بيد المتخلفين بل هي مرة أخرى بيد ملاَّك المعرفة. ولقد رأت أعيننا شيئًا خلابًا حينما رأينا سقوط إمبراطورية ملكت أعظم سلاح ملكته قوة في العالم، خرت صريعة إلى الأرض من دون حرب أو هجوم خارجي. كما رأينا صعود قوة إلى مصاف قوى عظمى من دون أي سلاح، الأولى هي الاتحاد السوفيتي، والثانية هي اليابان.

كان الإسبان الذين دمروا حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية يدفنون خيلهم بسرعة عندما تنفق، حتى لا يكتشف الهنود الحمر أن خيل الإسبان تموت، ولكن، ترى هل نملك نحن ذاك المستوى الرفيع من الوعي في أن نكتشف أن ذلك السلاح هو عتاد ميت!!(12).

الهوامش:

1- مختصر دراسة التاريخ، جون أرنولد توينبي.

2- راجع كتاب: الحرب العالمية الثانية الخوف الكبير، الجنرال فيكتور فيرنر، ترجمة د. هيثم الكيلاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية 1988م، ص151.

3- تحدي الحرب: قرنان من الحروب والثورات، غاستون بوتول، المعهد الفرنسي لعلم الحرب، ترجمة د. هيثم الكيلاني، نشر دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، طبعة أولى 1988م، ص24.

4- عن مجلة دير شبيجل الألمانية التي نشرت في خمسة حلقات تفصيلية القصة والخفايا السرية للسلاح النووي.

5- من الأمور العجيبة في رحلة البارجة إنديانا بوليس هذه أنها غرقت فعلاً، ولكن ليس في رحلة الذهاب بل العودة، إذ أصيبت في يوم 26 تموز/يوليو بعد عشرة أيام من انطلاقها من سان فرانسيسكو، وبعد تفريغ حمولة الأسطوانة في جزيرة تينيان، حيث ضُربت بطوربيد من غواصة يابانية، جعلها تهوي إلى القاع في 12 دقيقة، ولم ينج من بحارتها البالغ عددهم 1196 بحاراً سوى 315 رجلاً. فتأمل!

6- نُقل عن الرئيس الأمريكي في تلك الأيام أنه كان يقول: «إذا انفجرت كما أظن، فسوف أعرف كيف أربي أولئك القادمين من راكبي قطار الدرجة الأخيرة»، ويعني بهم السوفييت، لذا كان من جملة التحليلات القوية أن السلاح النووي استعمل ليس لضرب اليابان بالدرجة الأولى، بقدر السيطرة على عالم ما بعد الحرب، لأن اليابان كانت في طريق الاستسلام، ونتائج الحرب العالمية الثانية بدت واضحة للعيان، وخاصة أن ألمانيا كانت قد استحالت إلى أنقاض وخرائب.

7- تم كشف النقاب منذ مدة قصيرة عن القصة السرية لتطور السلاح النووي الأمريكي، ولقد فتحت وزارة الطاقة الأمريكية الباب للمهتمين للاطلاع، ومنهم مهندس الحاسوب جاك هنزن الذي كتب كتابًا ضخمًا بعنوان: القصة السرية لتطور الأسلحة النووية.

8- عن كتاب: مصير الكوكب الأرضي في الحرب النووية، جوناثان شل، ترجمة موسى الزغبي وعيسى طنوس، مكتب الخدمات الطباعية، دمشق 1986م، ص48.

9،10- المصدر السابق ص49، 50.

11- يستشهد بهذا المثل صاحب كتاب: الخوف الكبير ليصل إلى: إذ لم يعد هناك أي شبه أو علاقة بينها وبين الحروب الماضية.

12- عن كتاب: اكتشاف أمريكا، الوجه الآخر، تزفيتان تودوروف، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر.

تأثير عمل الأم في الأسرة
في الوطن العربي

د. تماضر حسون

قلما تخلو مناقشة ـ ثقافية أو ندوة أو مؤتمر أو حتى اجتماع بسيط بين أناس بسطاء ـ من الحديث عن عمل المرأة: إيجابياته وسلبياته. فعمليات التغير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي التي ما زالت تعيشها أقطار المجتمع العربي استدعت ضرورة اشتراك المرأة في عمليات الإنتاج والتنمية، ومن ثمّ أثرت في حياة وشخصية المرأة العربية التي اقتحمت ميدان العمل والإنتاج مدفوعة بدوافع اقتصادية واجتماعية وثقافية ونفسية. ويبدو هذا التأثير واضحًا عند المرأة العربية العاملة أكثر منه عند مثيلتها الغربية، وذلك لأنها، على اقتحامها ميدان العمل، مازالت تتحمل ـ وبالقدر السابق نفسه ـ مسؤولية المنزل والزوج والأبناء. بل زد على ذلك مهاجمة المجتمع لها، وإلصاق الاتهامات بها، بعدم تحمّل المسؤولية، وإهمال عملها وأطفالها وزوجها لعدم قدرتها على التوفيق بين تلك المهام؛ مما يوقع الأسرة في براثن التمزق، والأبناء في طرق الانحراف. ونتيجة لذلك، راح كثير من الكتّاب والدعاة، يطالبون بعودة المرأة إلى المنزل بحجة أن محيطها الطبيعي هو أسرتها، وأسرتها فحسب. وإذا كانت المجتمعات الغربية قد تحررت من كثير من الاتجاهات والاعتبارات والأحكام الاجتماعية المعرقلة لحركة الأسرة، والتي تستأثر بالكثير من الجهد والبذل؛ إلا أن الأسرة في كل الأقطار العربية لما تزل محكومة بكثير من ذلك، حيث نلاحظ أن العديد من الأسر ما زالت تخضع لمفاهيم وتقاليد لم تعد تتناسب مع التغير الذي طرأ على كيانها نتيجة خروج المرأة إلى العمل للإسهام في عمليات الإنتاج الذي يطلبه المجتمع من كل أبنائه. وفي الوقت الذي تضطلع به في عمليات البناء والإنتاج، فإنها مُطالَبة تحت ضغط العادات والتقاليد السائدة، بأن تتحمل وحدها ـ ووحدها فقط ـ مسؤولية رعاية البيت والأطفال، بل عليها أن تتحمل أيضًا واجبات الضيافة والكرم والولائم وتراعي المناسبات، كل المناسبات الاجتماعية؛ الأمر الذي يوقعها نفسيًا وجسديًا وماديًا تحت ضغوط وأعباء قاسية جدًا.

باختصار، فإن المرأة العربية العاملة تبقى مُطالَبة من مواقع مسؤولياتها التقليدية بتأدية كل الأعمال والواجبات الاجتماعية ضمن نطاق المنزل والعائلة، في الوقت الذي تنتظرها أعباء وظيفتها وعملها خارجه. ومع ذلك كله عليها أن تبقى ـ كما كانت دائمًا ـ ناضجة قويّة صامدة محافظةعلى تماسك أسرتها وعلى صحة أبنائها النفسية.

وسوف نعرض بعض الدوافع التي تحث المرأة على العمل خارج المنزل:

دوافع خروج المرأة للعمل

حين التحدث عن خروج المرأة للعمل، يمتد الحديث ليشمل طائفة الأسباب والدوافع التي تحث، بل تسوّغ ترك المرأة المنزل لمزاولة عملٍ ما خارجه. وقد اتضح من خلال الدراسة الميدانية التي قمنا بها أن الرغبة في زيادة دخل الأسرة وتحسين المستوى المعيشي لها، السبب الرئيس الذي دفع أكثر من 88٪ من السيدات العاملات لمزاولة عمل مأجور خارج المنزل، ولاسيما الطبقات ذات الدخل المنخفض والمتوسط. تلا ذلك الرغبة في تحقيق الاستقلال المادي عن الزوج وعدم الاعتماد عليه، وبلغت النسبة المئوية لهذا الدافع أكثر من 48٪، وعبرت عن ذلك النساء بقولهن: إن التبعية المادية للزوج ومداهنته ومجاملته للحصول على ثمن ثوب أو حذاء أو جورب أو مصروف شخصي، وهو شامخ الأنف يستجيب مرة ويرفض مرات، تضع المرأة في موقف ضعف ومهانة لكرامتها الإنسانية، إنه موقف مُرٌّ تصل مرارته أحيانًا إلى الحلق. وقد نظر نحو 47٪ من السيدات العاملات إلى العمل على أنه سند أمان وصك تأمين ضد عوادي الزمن. كذلك كانت الرغبة في تأمين مستوى من التعليم اللائق للأبناء دافعًا لنحو 37٪ من العاملات لمزاولة أعمال خارج المنزل.

إن نتائج دراستنا تلك تتطابق مع نتائج عدد من الدراسات التي أجريت على بعض المجتمعات نشير إلى أهمها:

ـ ففي دراسة «عمر عسوس» حول المرأة والعمل بالجزائر، اتضح أن المرأة الجزائرية في معظم الأحيان تخرج لميدان العمل لسد احتياجاتها الشخصية أو لمساعدة زوجها، أو أسرتها الأبوية، وخاصة كلما انخفض مستوى الطبقة التي تنتمي إليها المرأة اجتماعيًا واقتصاديًا.

ـ كذلك جاء في دراسة «د. عبداللطيف فضل الله» التي أجريت في المغرب العربي، أن النساء العاملات دُفعن للعمل تحت ضغط الحاجة المادية، فعندما لا تجد المرأة رجلاً أو عائلة تعتمد عليهما في لقمة عيشها، فإنها سوف تجد نفسها مُجبَرة على الخروج إلى العمل. ويضيف الباحث: إن الغالبية المطلقة من النساء العاملات في المغرب العربي ينتمين إلى الشرائح السفلى من الطبقة الكادحة. ومن البدهي أن تخصيص جزء من وقت المرأة للعمل خارج المنزل من شأنه أن ينعكس على حياة الأسرة.. كما أن مشاركتها بشكل محسوس، وأحيانًا بشكل رئيس في ميزانية الأسرة، ينتج منه ـ بالإضافة إلى إعادة توزيع الأدوار وتغيير مواقع السلطة داخل الأسرة ـ تحسُّنٌ في وضع الأسرة المادي.

ـ كذلك تبين من دراسة أجرتها جامعة تونس عام 1982م أن الدوافع التي تجعل المرأة تمارس عملاً خارج البيت ترجع أساسا إلى الرغبة في تحسين الدخل العائلي والرفع من مستوى العائلة كلها. كما تبين من الدراسة نفسها أن هناك فئة من النساء اللائي يَرَيْنَ في ممارسة عمل خارج المنزل فرصة لإثبات كفاءتهن ودعم ذواتهن وتحقيق استقلاليتهن الاقتصادية وضمانا لشيخوختهن. ومنهن من يحسبن أن مساهمتهن في الدورة الاقتصادية للبلاد إرجاع لما استهلكته من تعليم.

ـ وكشفت دراسة «مالك مخول» حول انطباعات طلاب المدارس الثانوية السورية نحو عمل المرأة أن 73.2٪ من الطلاب موافقون على عمل المرأة، لأنه يؤدي إلى تحسين وضع العائلة المادي.

ـ وتؤكد «مارلين نصر» أن الأزمة الاقتصادية التي يمر بها لبنان دفعت إلى صفوف النساء العاملات أيديًا عاملة نسائية جديدة ووفيرة. ومعروف أن أصحاب العمل يفضلون النساء لأن أجورهن أقل. وتضيف: إن هناك نسبة كبيرة من النساء الآن في لبنان تقوم بدور رب الأسرة، تنفق على أسرتها من عملها.

ـ وبينت دراسة «د. تماضر حسون» أهمية الدافع الاقتصادي لخروج المرأة إلى العمل في المملكة العربية السعودية، ولاسيما لدى نساء الطبقة ذات المستوى الاقتصادي المنخفض. إذ اتضح أن 38٪ من أسر المبحوثات في حاجة إلى دخولهن، وأجابت 23٪ أنهن يعملن من أجل رفع المستوى الاقتصادي للأسرة، وتبين أن 12٪ منهن يعملن لشراء بعض الكماليات وتحقيق مزيد من الرفاه.

ـ وقد توصلت تلك الدراسات إلى نتيجة مهمة يمكن تعميمها وتطابق ما توصل إليه «تيلور»، وهي أن دوافع العمل في ثقافتنا ترتبط بالمال، فالناس قد رسخ في اعتقادهم أن المال هو المدخل إلى السعادة، فإنهم عندما يحسون بأن هناك نقصًا في حياتهم؛ فإنهم يطالبون بمال أكثر.

حاتم الطائي..

الوجه الآخر

عمر فتال

إذا ماصَنَعتِ الزادَ فالتمسي له
أكيلاً فإني لست آكلَهُ وحدي(1)

بيت شعري جميل، ولاشك، مادام يفيض إيثارًا وكرمًا، وحبًا للغير، وإنسانية تدعو إلى الإعجاب..

بيت شعري لو طُلِبَ من أدنى مُطَّلِع على أشعار العرب في الجاهلية، أن يذكر من صاحبه، لما تردد حينها في القول مطمئنًا: هو حاتم الطائي. أجل حاتم الذي اقترنت كل مرادفات ومشتّقات الجود والسخاء باسمه حتى صار بذلك مضرب الأمثال فقيل: أجود من حاتم. بل غدا كل كرم ملفت للنظر ينعت بكلمة الحاتمي، كما لو أن تلك الكلمة إرث تركه سيد طيئ توقيعًا يوقع به كل جواد كريم.

من هنا لانستغرب إن نحن ألفينا هذه الشخصية الفريدة غدت محوراً لأساطير، وحكايات أضاف إليها المتسامرون، ورواة النوادر أشياء وأشياء ابتعدت بحاتم مسافات طويلة من عالم الواقع؛ ودخلت به إلى عالم الخيال الرحب من أوسع الأبواب. ومن ذلك الحكاية التي تتحدث عن ضيافته بعد وفاته، نعم بعد وفاته، لمجموعة من الناس قضوا ليلة عند قبره. زعم ابن الكلبي: «أن رجلاً يقال له ابن الخيبري مرّ في نفر من قومه بقبر حاتم، وحوله أنصاب متقابلات من حجارة كأنهن نساء نوائح، فنزلوا به فبات الخيبري ليلته كلها ينادي: أبا جعفر اقر أضيافك. فيقال له مهلاً، ما تُكلِّم من رُمّة بالية، فقال: إن طيًا يزعمون أنه لم ينزل به أحَد إلاّ قراه، فلما كان من آخر الليل، نام الخيبري، حتى إذا كان في السَّحَر، وثب فجعل يصيح: واراحلتاه! فقال له أصحابه: ويلك مالك؟! قال: خرج والله حاتم بالسيف وأنا أنظر إليه حتى عقر ناقتي!! قالوا: كذبت. قال: بلى. فنظروا إلى راحلته فإذا هي منخزلة، لاتنبعث. فقالوا: قد والله قراك، فظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه فانطلقوا. فساروا ماشاء الله، ثم نظروا إلى راكب، فإذا هو عدي بن حاتم راكبًا قارنًا جملاً أسود، فلحقهم. فقال: أيكم الخيبري؟ فقالوا: هو هذا. فقال: جاءني أبي في النوم فذكر لي شتمك إياه، وأنه قرى راحلتك لأصحابك(...) وقد أمرني أن أحملك على جمل فدونكه، فأخذه وركبه وذهبوا»(2).

كم هي واضحة وعديدة خيوط الأسطورة التي يتكون منها نسيج ماحكاه ابن الكلبي عن كرم حاتم. والحقيقة أن مثل هذه الحكايات، لاتبعث فينا ولو قدراً يسيرا من التشكك في سخاء سيد طيئ، بقدر ما تزيدنا اقتناعًا بوجوده حقيقة، وشموله كثيرا من الناس. ذلك أن هذه الزيادات والإضافات إلى جوده واختلاق حكايات حوله يحكيها الناس جيلاً عن جيل، ماهي في واقع الأمر إلا تأكيد قاطع لأريحية هذا الإنسان المنقطعة النظير.

الدوافع الحقيقية

والواقع أنه إذا تأتّى لنا الاقتناع بحقيقة كرم حاتم القابع وراء أسطر تلك الحكايات وكلماتها التي يشوبها الاختلاق والخيال؛ فإن هذا لاينطبق على الأسباب التي علّل بها الباحثون السرَّ وراء جود حاتم الطائي. إذ إنهم ـ قدماء كانوا أو محدثين ـ وقفوا عند أسباب لاتشفي غليلا! ولاتقنع راغبًا في معرفة الدافع الحقيقي وراء ذلك الجود العجيب. فالقدماء جَرَوا وراء أساطير وحكايات شاعت بعدما

شَرَّق اسم حاتم وغَرّب. ومن ذلك ماورواه ابن الأعرابي: «أن أم حاتم أُتيت وهي حبلى في المنام، فقيل لها: أغلامٌ سمح يقال له حاتم أحبُّ إليك أم عشرة غِلْمة كالناس، ليوث ساعة الباس، ليسوا بأوغال ـ ضعفاء أدنياء ـ ولا أنكاس ـ جبناء ـ؟ فقالت: حاتم، فولدت حاتما»(3).

أما المحدثون فإنهم يمرون على هذه القضية سراعًا ليلتقوا عند ثلاثة أسباب:

الأول: كرم حاتم وراثي، ورثه بالخصوص عن أمه عتبة بنت عفيف، وكانت ذات يسار وسخاء، حجر عليها إخوانها، ومنعوها مالها، وقد نشأ ولدها حاتم مثلها في الجود(4). وهذا ماذهب إليه كذلك كرم البستاني في مقدمة ديوان حاتم الطائي حيث قال: "ويستدل في أخباره أنه أخذ طبيعة الكرم عن أمه عتبة بنت عفيف"(5).

الثاني: جود حاتم ناجم عن طبع وغريزة متأصلة فيه، وهو ماقال به صاحب مقدمة ديوان حاتم في جانب آخر: "فالكرم طبع فيه وغريزة متمكنة، ولم يُضرب به المثل في الكرم عن العبث"(6).

الثالث: كرم حاتم مردّه إلى قساوة البيئة الصحراوية، وفي هذا الصدد يقول أحمد سويلم: "والكرم من أجمل السجايا التي نبتت في البيئة العربية، ذلك أن الحياة في الصحراء تتسم بالقسوة والجدب، فإذا لم يتقدم من لديه فضل عن غنى أو زاد، سقط الناس جياعا، وقد كان الكرم أوَّل الأمر دستورا فرضته طبيعة الحياة، ثم صار شيمة متأصّلة، وفضيلة سامية يتسابق إليها المتسابقون بالبذل والعطاء"(7).

الوجه الآخر

وهكذا فإننا عندما نُمعن النظر في تلك الأقوال نلفيها تغفل إغفالا واضحا أمر الحقبة التي عاش فيها حاتم الطائي، أو هي بعبارة أدق، تنسى أمرًا مهمًا هو أن شاعرنا يمثل الحقبة القريبة جدًا من نزول الرسالة السماوية الخاتمة التي نزلت رحمة للعالمين، وإنقاذا للإنسان من براثن الضلال، وَحَدًّا لسيره المتواصل في دروب التيه. أقول هذا لأن في إغفاله تغييبًا للوجه الآخر من شخصية حاتم. ذلك الوجه الذي يظهر فيه ممثلاً لعصره بصدق؛ حيث التمزق والحيرة والخوف الدائم على أيام الحياة التي لا يعود ما انصرم منها؛ والفزع الشديد من شبح الموت المقلق لراحة كل متمتع بمباهج الحياة، والواضع نقطة النهاية لكلٍّ عمر وإن طال؛ والعيش الدائم على هاجس القبر وظلماته. فهذا التمزّق، وتلك الحيرة، وذلك الخوف، وهاتيك الهواجس، كلها مجتمعة، هي التي ينبغي أن يضعها المتسائل نصب عينيه، وهو يتساءل عن سر كرم حاتم الطائي، لأنه، مهما قيل عن إيثاره وإنسانيته ونكرانه لذاته، يبقى إنسانًا جاهليًا ممثلاً لمرحلة بلغت فيها البشرية قمة الضلال، والحيرة التي جاءت الرسالة الخاتمة لتضع حدا لها. ومن هذا المنطلق فإن القارئ لقصائد حاتم الطائي يجده دائم الحديث عن الموت، والقبر ثم الوارث والميراث. فاسمعه ماذا يقول هنا في نغمة حزينة على الرغم من أن المقام مقام فخر كما تقول بذلك الروايات:

أماويَ ! مايغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدرُ
إذا أنا دلاّني الذين أحبهم
لملحودة زلجٍ جوانبها غُبْرُ
وراحوا عجالاً ينفضون أكفَّهم
يقولون قد دَمّى أناملنا الحَفْرُ
أماوي ! إن يصبح صداي بقفرة
من الأرض لا ماءٌ هناك ولاخمر
تري أن ما أهلكتُ لم يك ضرني
وأن يدي مما بخلتُ به صِفْرُ(8).

الخوف من شبح الموت

إذن ما دام المال لا ينفعه بشيء، ولايخفف عنه هول الغرغرة، ولايحميه من قسوة الأهل والأحباب الذين سيدفنونه في قبر أغبر الحواشي حيث البعد عن الضروري والكمالي! مادام ذلك كله من تحصيل الحاصل، فلماذا الحرص على اكتناز المال وادخاره؟ اسمعه أيضًا يقول في هلع واضح:

يسعى الفتى وحِمَامُ الموت يدركه
وكلُّ يوم يدنّي للفتى الأجلا(9)

.....

تنوط لنا حُبَّ الحياة نفوسنا
شقاء ويأتي الموت من حيث لا ندري(10)

وإلى خوفه الجلي من شبح الموت الذي يرصد خطاه أولاً بأول، وغياهب القبر الحالكة السواد؛ ينضاف جزعه المستمر من الوارث. وفي هذا الإطار نستشهد بمجموعة أبيات تبرز لنا بما لا يقبل الشك النظرة المملوءة بكل صنوف الخوف؛ التي ينظر بها حاتم إلى المترقبين ثروته بعد أن يقضي نحبه:

إن البخيل إذا ما مات يتبعه
سوء الثناء ويحوي الوارث الإبلا(11)

.....

ولاتَشْقَيَنْ فيه فيُسعدَ وارثٌ
به حين تغشى أغبر اللون مظلما(12)

.....

قليل به ما يَحْمَدَنَّك وارثٌ
إذا ساق مما كنت تجمع مغنما(13)

.....

وماذا يعدّي المال عنك وجمعُهُ
إذا كان ميراثًا وواراك لاحدُ(14)

.....

متى يأت يومًا وارثي يبتغي الغنى
يَجِدْ جمع كف غير ملءٍ ولا صفر(15)

ثلاثة موجهات

وبهذا تجتمع لدينا ثلاثة مصادر للخوف تقلق راحة حاتم، وهي كما نلاحظ مصادر متقاربة بل الواحد منها يُفضي إلى الآخر.. الأمر الذي يدفعه إلى الإنفاق والجود بلا حدٍّ، ولا تفكير في عاقبة! وهو في هذه الحيرة، وذلك التمزق والخوف من الغد المستور يلتقي مع طرفة بن العبد في شيء، ويختلف عنه في شيء آخر. فأما الذي يلتقي معه فيه فهو النظرة إلى العمر رحلةً يميزها القصر، والذهاب إلى غير رجعة بحسبان أنه دوما مهدد بشيء اسمه الموت. ولعل خير تعبير عن هاته النظرة هو ماقاله طرفة بن العبد في بيته الأشهر:

حاتم الطائي..

الوجه الآخر

أرى العيش كنزًا ناقصًا كُلَّ ليلة
وماتنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفدِ(16)

الإيغال في الذاتية والفناء في الجماعة

وفي ضوء هذا فكلا الشاعرين يدخلان مضمار السباق مع الموت، المتمثل في إنفاق المال وصرفه بلا تردد، ولا شفقة، قبل أن يسحب بساط العمر، وتنتهي قافلة الحياة عند عتبة الكفن والنعش والقبر وظلامه. أما ما يختلفان فيه، فهو طريقة صرف ذلك المال. إذ نجد طرفة واقفا أمام مرآة لايرى فيها إلا صورته، لذلك أضحى لاهَمَّ له إلا إرضاء نفسه في أفسح وقت ممكن، والتمتع بمدّخرات كنز عمره المحسوبة، والناقصة الليلة تلو الأخرى، عن طريق الإقبال على الملذات والشهوات. باختصار شديد فهو قد وقف ماله على نفسه؛ وفي هذا يقول:

فإن كنت لاتَسْتَطيع دفع منيّتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ومازال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها
وأُفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المعبَّدِ(17)

في حين نجد حاتمًا قد جعل المرآة خلف ظهره، فنسي نفسه، وبدا أكثر قربًا من الناس المحاويج منهم على الخصوص؛ لهذا غابت ذاته كفرد لتفنى في الجماعة التي من حوله. فتخلّلت حينئذ مثل هذه الأبيات الخالدة التي تفيض إحسانًا، وإيثارًا وحبًّا للغير، معظم قصائد ديوانه:

وإنّي لأخزى أن ترى بي بطنة
وجارات بيتي طاويات ونُحَّفُ(18)

.....

وإن لم أجد لنزيلي قرى
قطعت له بعض أطرافِيَهْ(19)

.....

وإني لعبد الضيف مادام ثاويًا
ومافيَّ إلا تلك من شيمة العبد(20)

.....

أشاور نفسَ الجود حتى تطيعني
وأترك نفسَ البخل لا أستشيرها(21)

.....

أوقِدْ فإن الليل ليلٌ قرٌّ
والريح ياموقد ريحٌ صِرٌّ
عسى يرى نارَكَ من يُمرٌّ
إن جلبت ضيفا فأنت حرُّ(22)

.....

فلا وأبيك مايظلّ ابنُ جارتي
يطوف حواليَّ قدْرنا ما يطورُها(23)

نقطة الالتقاء

ولعل هذا الاختلاف هو السرُّ في كون شهرة طرفة بين الناس أقل بكثير من شهرة حاتم الطائي. بمعنى آخر فطرفة معروف بوصفه شاعرًا، بحيث لولا شعره ما خلد اسمه على مرِّ الأعصر والأزمان. أما حاتم فهو أوسع شهرة لأن كرمه هو المسؤول عن خلود اسمه بين الناس؛ ذلك الكرم الذي شمل البغيض والحبيب، وسمع عنه البعيد والقريب. ومع ذلك كله فإن نقطة الالتقاء بينهما، المتجسدة في الحيرة والتمزق والخوف من الموت، تبقى بارزة، مما يدفعنا إلى القول مطمئنين بأنهما يمثلان التمثيل الصادق للإنسان الجاهلي الذي عاش قبيل بعثة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

نقطة الافتراق

من أراد أن يقف بحق على طبيعة ذلك الإنسان فليوازن نفسية حاتم الطائي، وهو يجود بما يملك، بنفسية أمثال أبي بكر وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وغيرهم من الصحابة الكرام أثناء إنفاقهم في سبيل الله، فسيجد هؤلاء يكرمون، وأنفسهم هادئة مرتاحة مادامو يحتسبون الأجر المضاعف أضعافًا كثيرة، والجزاء الأوفى عند رب العزة جل وعلا. وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: *مثلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم*. **البقرة:** 261.

وهكذا وضع الإسلام حدًّا للحيرة والتمزّق، والخوف من هادم اللذات، وذلك بتبيينه الغاية من الحياة، وما ينتظر الإنسان بعد الممات. وبذلك أصبح للإنفاق معنى ساميا ونبيلاً بخلاف ما كان شائعاً في الجاهلية.

وبعد؛ جدير بالدارسين الذين يقلّبون صفحات الشعر الجاهلي، ويدرسون من خلاله المجتمع الذي يمثله، والإنسان الذي تَغَنَّى به في أتراحه وأفراحه، وحلِّه وترحاله، ألا يغفلوا أمر الحقبة التي قيل فيها ذلك الشعر. لأنهم، بعدم إغفالها، سيقفون على قضية مهمة، وأعني بها تأكيد الشاعر الجاهلي على أن بَعْثَ الله سبحانه وتعالى لرسوله الخاتم، محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، كان لحكمة ربانية في الوقت المناسب؛ الوقت الذي شملت فيه الحيرة والتمزق نفوس الأفراد، وانتشرت فيه الأباطيل والضلالات التي شتتت اهتمام الناس وأفكارهم، وطغت خلاله الصراعات والتناحرات.

الهوامش:

1-3- ديوان حاتم الطائي، دار بيروت، 1394هـ/1974م، ص 43، 85، والمقدمة.
4- مجلة "هنا لندن" العدد 466، آب/ أغسطس 1987م، ص 28.
5،6- الديوان ص 6، 5.
7- مجلة "هنا لندن" مرجع سابق.
8- الديوان ص 50، ملحودة: قبر، زلج: مزلقة وصخور ملساء، الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس.
9-13- الديوان ص 73، 45، 73، 80، 81. وأغبر اللون: يريد به القبر.
14- الديوان ص 38. اللاحد: الدافن، يعدي المال عنك: ماذا يفيدك أو يبعد عنك.
15- الديوان ص 76. جمع كف: مقدار ما يشتمل عليه الكف.
16، 17- معلقات العرب، د. بدوي طبانة، ص 131، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3.
18، 19- الديوان ص70، 72. بطنة: امتلاء المفرط من الأكل، طاويات: جائعات، نحف: هزيل: والواحدة نحيفة.
20، 21- الديوان ص 44، 73. مادام ثاويًا: مادام مقيمًا عندي.
22- الديوان ص 59. القَر: البرد، ريح صر: شديدة البرد أو الصوت.
23- الديوان ص 63. يطورها: يدنو منها.

العناوين الفرعية:
ذهب بعض الباحثين إلى أن كرم حاتم وراثي عن أمه، وذهب بعضهم الآخر إلى أن ذلك الكرم مرده إلى قساوة البيئة الصحراوية
كرم الصحابة - رضوان الله عليهم - كان احتسابا للأجر والجزاء عند المولى - سبحانه -، بينما يرجع كرم حاتم إلى خوفه من الموت!

الصراع من أجل السلام 2

FIGHTING FOR PEACE

Seven Critical Years in the Pentagon

Caspar W. Weinberger



A Warner Communications Company

تأليف:
كاسبر و. واينبرجر
عرض وتقديم:
د. محمد عبد العليم مرسي

جرينادا

في هذا الفصل يتحدث كاسبر واينبرجر - مطولاً - عن هذه الجزيرة الكائنة في البحر الكاريبي، وعن أهميتها الحيوية بالنسبة لخطوط المواصلات البحرية الأمريكية، وعن خطورة أن يقوم بها نظام حكم شيوعي معاد للنظام الأمريكي، وخاصة أن نظام حكم كاسترو في كوبا، والدعم العسكري الذي كان يتلقاه من الاتحاد السوفييتي يعدّ تجربة غير مريحة للولايات المتحدة الأمريكية.

ويوضح المؤلف أن هذه الجزيرة الصغيرة التي لا يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة قد بدأ نظام الحكم الشيوعي فيها في بناء مطار عسكري ضخم، لا تحتاج إليه الجزيرة على الإطلاق، وقد بلغ طول الممرات فيه 10,000 قدم، مما يبين أن المقصد منه كان أبعد من مجرد خدمة الطيران التجاري هناك.

ويدلل واينبرجر على تبعية نظام الحكم في تلك الجزيرة للمعسكر الشرقي بزعامة روسيا من تصويت مندوبها في الأمم المتحدة جنبًا إلى جنب مع مندوب كوبا، ضد مشروع قرار اتُّخذَ ضد الغزو السوفييتي لأفغانستان.

كذلك يبين واينبرجر للقارئ مدى خطورة نظام الحكم في جرينادا على حياة الأمريكيين هناك، أي في الجزيرة، وخاصة أنه كان يوجد بها كلية خاصة للطب تعيش إدارتها في نيويورك، ويتعلم بها أكثر من ثمانمئة طالب أمريكي. وبجانب انتهاك حقوق الإنسان في الجزيرة ذاتها، وعمليات التقتيل التي كانت تتم بين قياداتها الشيوعية - كما هو حالهم دائمًا - فإنه كانت هناك مخاوف من امتداد هذا النموذج السيّئ إلى باقي الجزر في الإقليم.

ويبين واينبرجر للقارئ أنه على الرغم مما جرى للقوات الأمريكية في لبنان حين نُسِفَ مبنى تابع للسفارة الأمريكية في بيروت راح ضحيته ثلاثمئة شخص من قوات حفظ السلام الأمريكية هناك، إلا أن الرئيس الأمريكي لم يتردد في اتخاذ القرار بغزو جرينادا، لإنقاذ حياة الأمريكيين هناك، وللقضاء على الوضع المتدهور والمتجه نحو الشيوعيين في الجزيرة. ولقد اتخذ ريجان هذا القرار وهو مقتنع به تمامًا بعد أن طمأن مارجريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا التي تحدثت إليه بخصوص الموضوع، وكذا بعض قيادات الكونجرس الأمريكي، كما بين ريجان للجميع أن منظمة دول شرق الكاريبي Organisation of Eestern Carabb-ean States (OECS) قد طلبت من الولايات المتحدة التدخل هناك.

ومع أن الخسائر الأمريكية في عملية جرينادا كانت بسيطة ومحدودة، حيث لم تتعد 18 قتيلاً، و93 جريحًا، و16مفقودًا، إلا أن واينبرجر يقول إنه عَدَّ ذلك جرحًا عميقًا شخصيًا بالنسبة إليه، ولاسيما في ضوء خسائر الأمريكيين السابقة مباشرة في حادث بيروت.

وبهذه العملية أُنقذت جرينادا من الوضع الذي كانت سائرة فيه وأُنقذت أرواح الأمريكيين هناك، وقُبض على كثيرين من خارج الجزيرة (كوبيون - وروسيون - وكوريون شماليون - وألمان شرقيون - وبلغاريون) وقد أعيدوا بعد ذلك إلى بلادهم.

لبنان

يقدم المؤلف لهذا الفصل بالحديث عن لبنان وجغرافيته بحدوده السياسية المصطنعة، وبعوامل القلاقل التي تعيش في داخله، من حيث هو محكوم بقوى مسلحة خارجية تتطاحن على أرضه، وخاصة القوات الإسرائيلية والسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية. ويعود واينبرجر بالقارئ إلى عام 1958م حين أرسل أيزنهاور مشاة البحرية الأمريكية إلى لبنان ليمنع سيطرة عبدالناصر على حكومتها آنذاك، وكان ذلك بطلب من رئيس لبنان كميل شمعون!

يقول المؤلف: «ولقد وجدنا أنفسنا في وضع مشابه في الثمانينيات، لكنه كان أكثر تعقيداً، فمنذ بداية السبعينيات اتخذ الفلسطينيون من لبنان مركزاً لنشاطهم ضد إسرائيل، وضايق ذلك المسيحيين هناك الذين لاموا حكومتهم على عدم استطاعتها فعل شيء ضد الفلسطينيين، وتدخلت إسرائيل، وكذا فعلت سورية، وظهر عنصر جديد في القضية متمثلاً في شيعة لبنان المتعصبين. وكان كل ما نخشاه هو تأثير ذلك كله في الصراع العربي الإسرائيلي، ومن ثم تأثيره في مصالحنا واستراتيجيتنا في المنطقة كلها، وخاصة أن تمركز الفلسطينيين في لبنان، بعد حرب 1967م، ووضعهم كأنهم دولة داخل الدولة State within a state قد زاد الأمر تعقيداً خصوصًا بعد تعدد هجماتهم على حدود إسرائيل الشمالية، ورد إسرائيل عليهم داخل لبنان.

كذلك ازداد الأمر تعقيداً حين دار القتال بين السوريين والمسيحيين، حول زحلة، وضربت إسرائيل طائرة هليوكوبتر سورية فحركت سورية صواريخها من طراز SA-6 داخل لبنان، وضربت الطائرات الإسرائيلية تجمعات للفلسطينيين، وتدخل السفير فيليب حبيب وتوصل لوقف لإطلاق النار. والواقع أن إسرائيل كان لها غرض أساسي، هو اجتثاث جيش منظمة التحرير في لبنان، وقد أعطاها هذا الجيش هذه الفرصة، بحيث إن الإسرائيليين حوّلوا أنظار الجميع عن الأرض التي احتلوها عام 1967م، وبدأت القضية الجديدة وهي قضية إخراج الفلسطينيين من لبنان.

ولقد تبنت إسرائيل تفسيراً موسعًا جداً لمبادرة السفير حبيب، فحمّلت أي عدوان على اليهود في أيّ مكان في العالم على الفلسطينيين (المنظمة)، وإن كان حبيب نفسه قد عارض ذلك وقال إن الاتفاق يتعلق بالوضع داخل لبنان فقط ووقف إطلاق النار فيه، ومع أن المنظمة التزمت بنودَ الاتفاق، إلا أن إسرائيل - إيريل شارون وزير دفاعها بالتحديد - كانت تعد لضربة قاضية للمنظمة. وكان شارون يحاول إقناع ريجان بأن تلك ستكون هزيمة للاتحاد السوفييتي في المنطقة، وكذا الإرهاب الدولي.

وبصراحة واضحة يحدثنا واينبرجر عن موقف وزير الخارجية الأمريكي - آنذاك - ألكسندر هيج حول هذا الموضوع، فيقول إنه لا يستطيع أن يجزم بأنه - أي هيج - قد أعطى الإسرائيليين الضوء الأخضر للمضي في عمليتهم، ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن بعض أعضاء الإدارة الأمريكية كانوا يرون الصراع الفلسطيني الإسرائيلي امتداداً للحرب الباردة.

«وحين اعتدى فلسطيني على سفير إسرائيل في لندن اتخذ شارون من ذلك ذريعة واندفع بقواته إلى لبنان، وخاصة أن إسرائيل قد أمنت جانب مصر، بعد إتمام انسحابها من سيناء، وبدأ هذا الهجوم في 6 حزيران/يونيو 1982م، ولكي لا تسوء صورة سورية أمام العرب، أبدت قواتها بعض المقاومة، ولكن ذلك كان في سهل البقاع، فيما كان تركيز إسرائيل على شمالي لبنان، وخاصة بيروت. ومع أن مصادر مخابراتنا أكدت لنا أن من اعتدى على السفير الإسرائيلي كان من الفئات المعارضة لعرفات، إلا أن بيجين وشارون أصرّا على المضي في العدوان، وعلى تحميل المنظمة إثم هذه العملية.

ولقد قطع الإسرائيليون الماء والكهرباء عن بيروت تمامًا بعد حصارهم لها، وبدأت مستشفياتها تطلب المعونة الدولية، وانتشرت الأوبئة والأمراض الفتاكة بين أهلها، مما جعلنا نسعى لتكوين قوة حفظ السلام الداخلية -Multinational Force (MNF)، بعيداً عن الأمم المتحدة».

ولعله مما يهم القارئ العربي جداً أن يقرأ للمؤلف في صفحة 143 أن ألكسندر هيج قد استقال من منصبه يوم 25 حزيران/يونيو 1982، وذلك بعد أن كان من مؤيدي سياسة إسرائيل العدوانية إلى أبعد مدى، وأنه قد ترك منصبه لأنه شعر أن الإدارة الأمريكية تتعامل مع قضية الشرق الأوسط بنظرة متوازنة. ومن الأمور الغريبة التي يذكرها واينبرجر، في هذا الصدد، أن هيج قد نجح في معارضة البيت الأبيض حين كان الرأي قد استقر على الموافقة مع من طالبوا بانسحاب إسرائيل من بيروت حتى تتمكن قوات منظمة التحرير الفلسطينية من مغادرتها، ولكن هيج أوعز لممثل أمريكا باستخدام الفيتو، مما عطل القرار، على الرغم من تصويتنا لصالحه

اتخذ شارون من حادثة اعتداء أحد الفلسطينيين على السفير الإسرائيلي في لندن ذريعة لضرب بيروت عام 1982م، وكان ضربا وحشيا أدى إلى انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة بين اللبنانيين

قبل ذلك، وهو القرار رقم 508.

كذلك يذكر واينبرجر أن ريجان كان قد أعد خطة للسلام في الشرق الأوسط، بعد أن شعر بما يعانيه الفلسطينيون، وقد بنى هذه الخطة على أساس ما تم تحقيقه بين مصر وإسرائيل، وكانت تتضمن تحقيق آمال الفلسطينيين من طريق ربطهم في الضفة الغربية بالأردن، وقد تناقش الرئيس مع شولتز حولها، في شكلها العام، وتُركت تفصيلاتها للمفاوضات، «ولعلم فإنني أنا وشولتز كنا نؤيد هذه الخطة لإحساسنا بما كان يعانيه الفلسطينيون».

«هذا ولقد وصلتُ إلى لبنان في زيارة رسمية التقيت خلالها الرئيس بشير الجميل وفوجئت به يعرض عليَّ أن نتخذ من لبنان قاعدة استراتيجية لنا (!!) وعلى الرغم من علاقاتنا الطيبة بلبنان إلا أني ما تصورت أن تصبح لبنان الولاية الأمريكية رقم 51، وللعلم - يقول واينبرجر - فلقد قدمت تقريرًا للرئيس ريجان بكل ذلك، وقد اتفق هو والمسؤولون الآخرون معي على ما ارتأيت».

ويمضي واينبرجر قائلاً بأنه بعد لبنان اتجه لإسرائيل، حيث التقى مناحيم بيجن الذي وصفه بأنه لا يكف عن الكلام، كما لا يحب أن يقاطعه أحد، والذي كان كل حديثه تقريبًا يدور حول معنى واحد لا يتنازل عنه، وهو أن إسرائيل قد امتلكت الضفة الغربية.. ولن تفرط فيها، هذا بينما كان بيريز يرى في خطة الرئيس ريجان حلاً مقبولاً للقضية، وقد كان ذلك يتفق مع مواقفه السابقة.

«أما شارون فقد رافقني في طائرة هليوكوبتر، على مدار يوم كامل، زرنا خلاله الضفة الغربية، وأطلعني على المستوطنات التي بنوها هناك، وقد لاحظت دائمًا أن هذه المستوطنات كانت في أماكن أكثر ارتفاعًا من أماكن السكان العرب، ولما سألته عن ذلك وهل هي مصادفة؟ أجابني بأنهم يفعلون ذلك عن عمد بسبب دواعي الأمن.

أما المصريون فقد عاملوني بكرم عظيم، وقد أبدوا حماسة طيبة لخطة الرئيس ريجان ولكن أحزنني حقًا هو أن كثيرين في الإدارة الأمريكية قد انطفأت حماستهم وخاصة بعد أن تصاعد هجوم بيجن عليها، ومعارضته لها بشدة».

ويحدثنا واينبرجر بعد ذلك عن تدهور الأوضاع في لبنان، بعد أن اغتيل بشير الجميل ومعه عدد غير قليل ممن كانوا حوله، وكيف أن الإسرائيليين قد حموا القوات المسيحية وهي تنصب المذابح الرهيبة للفلسطينيين في صابرا وشاتيلا، والتي قتل خلالها أكثر من سبعمئة منهم، على الرغم من اتفاق الإسرائيليين مع السفير حبيب على عدم دخول بيروت.


ايزنهاور

«وفي تشرين الأول /أكتوبر 1983م، وقع حادث نسف سفارتنا في بيروت، وقُتل عدد كبير من أبنائنا هناك، مما جعلنا نصدر الأوامر فيما بعد بالانسحاب من هناك، ولم يكن القرار سهلاً، ولكن لم يكن أمامنا غير ذلك»، وبيّن المؤلف أنه قد رفض العرض الإسرائيلي بالمساعدة الطبية لإنقاذ الجرحى الأمريكيين في حادث أكتوبر 1983م، وإن قال بأن ذلك كان بسبب عدم حاجة القوات الأمريكية هناك لمثل هذه المساعدة.

ويصل واينبرجر بعد ذلك إلى القول بأن القوات الإسرائيلية في لبنان ضايقت القوات الأمريكية كثيرًا، وكذا القوات الحليفة العاملة معها، كما أنه قد جاءه خطاب غاضب جدًا أرسله له قائد القوات الأمريكية هناك الجنرال روبرت بارو Robert Barrow. ويقول المؤلف إنهم قد انسحبوا من لبنان وهم يعلمون أن هذا يمثل مأساة بشرية كبرى، ولكن لم يكن أمامهم من حل سوى الانسحاب حفاظًا على حياة أبنائهم.

الفولكلاند... وغيرها

ثم يتحدث واينبرجر عن مشكلة الفولكلاند، وموقف أمريكا منها، وكيف أنها أيدت حليفتها بريطانيا ضد إحدى دول المجموعة الأمريكية (الأرجنتين)، كما يتحدث بعد ذلك عن العلاقات الدفاعية بين بلاده واليابان، ثم في فصل آخر عن الصين، وعن المبادرة الأمريكية الخاصة بالدفاع الاستراتيجي، ثم يصل في فصل آخر إلى قضية احتجاز الرهائن الأمريكيين في سفارة الولايات المتحدة في طهران، وبعدها ينتقل إلى قضية الحرب في الخليج، والنجاح الذي حققته أمريكا هناك، وهذا هو صلب الجزء المتبقي من هذا العرض.

إيران والرهائن

يقول مؤلفنا «إن هذا الفصل من الكتاب يعدّ أصعب فصوله؛ لأنه أكثر الموضوعات إثارة للنقاش والخلاف، وهو موضوع تعامل الإدارة الأمريكية مع مشكلة الرهائن الأمريكية، الذي أخطأت فيه تلك الإدارة»، بل إن واينبرجر ينص على أن «هذا الموضوع كان المأخذ الوحيد الذي يؤخذ على الرئيس الأمريكي ريجان، والذي تسببت فيه مجموعة من المستشارين الذين وضعوا أمامه معلومات خاطئة، وقد كان ذلك سببًا في أن صفحة ريجان الناصعة البياض - حاكما لكاليفورنيا، ورئيسا للولايات المتحدة الأمريكية - قد لطخت بهذا الخطأ الكبير. وعلى كل - يقول المؤلف - فإن خطأ واحدًا لرئيس يدير شؤون أمة كبرى شيء مغتفر على وجه اليقين».

ومنذ السطور الأولى لهذا الفصل يتضح للقارئ أن المؤلف يلقي مسؤولية كل ما حدث على روبرت ماكفرلين Robert Mcfarlane وحاشيته، وهم أفراد خلَوا من الذكاء، ومن فهم دروس التاريخ وعبره، بل إنهم لا يتحلون بشيء من المبادئ الكريمة، والمشكلة أن هؤلاء الأفراد

لهم صلاحيات واسعة مكنتهم من التحدث باسم البيت الأبيض.

ويعود واينبرجر بالقارئ إلى بداية الأزمة مذكرًا بأن الطلاب الإيرانيين قد قبضوا على موظفي السفارة الأمريكية في طهران يوم 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1979م، والذين كان عددهم 66 شخصًا، بقي منهم 52 لمدة 444 يومًا.

ويقول واينبرجر إن ماكفرلين كان هو من بدأ عملية البحث في إعادة العلاقات بين أمريكا وإيران، متحدثًا عن أهمية الأخيرة الاستراتيجية، كما بدأ الحديث عن وجوب عدم تركها لتقع فريسة للاتحاد السوفييتي، وخاصة في مجال التسليح، ومن هنا قدم اقتراحًا لتسليح إيران، سواء من أمريكا مباشرة، أو من طريق طرف ثالث، بل إن شحن السلاح قد بدأ من دون ترتيب، وبعد أن وصلت الدفعة الأولى منه لم يُفرج عن أحد من الرهائن.

ويبين المؤلف أنه ومعه شولتز وزير الخارجية قد عارضا بشدة مقترحات ماكفرلين وجماعته، ولكن جهودهما ذهبت سدًى؛ لأن ماكفرلين كان له لقاءات خاصة في البيت الأبيض لم يَعلَم عنها شيئًا. كما أنه كان يميل إلى السرية التامة في عمله، وذلك بعكس سلفه الذي كان يناقشه مع جميع المعنيين في مجلس الأمة القومي الأمريكي، بكل حرية وصراحة مما كان يوفّر للرئيس وجهات النظر المختلفة عن كل الموضوعات.

كذلك فإن ماكفرلين قد بدأ يعقد اجتماعات مع بعض الإسرائيليين الذين كانوا على اتصال وثيق بالإيرانيين، والذين كانوا حريصين على أخذ موافقة أمريكا على شحن بعض السلاح وقطع الغيار الخاصة بالطيران من عندهم إلى إيران، وخاصة أن أمريكا كانت مغدقة على الإسرائيليين كثيرًا في هذا المجال.

ويلفت واينبرجر نظر القارئ إلى أن «الإسرائيليين كانت لهم مقاصدهم الخاصة في عملية مدّ الإيرانيين بالسلاح؛ فهم أولاً يريدون إضعاف العرب بوقوفهم مع الأقليات في المنطقة مثل الأتراك والمسيحيين والإيرانيين، وهم ثانيًا يدعمون الأقلية اليهودية التي تعيش في إيران، وهم ثالثًا يعملون على بقاء نفوذهم في إيران الذي كان منذ أيام الشاه، ومن خلال صلات إسرائيل السرية الدائمة مع إيران فإنها كانت تمثل الطرف الذي أدّى دورًا في إمداد إيران بصواريخنا المتقدمة ضد الدبابات، والتي كانت تحتاجها لمواجهة التفوق العراقي».

وفي الأيام الأولى من عام 1985م عيَّن ماكفرلين المدعو Michael Ledeen ليقابل زعماء إسرائيل، وفي حزيران/يونيو التقى ماكفرلين نفسه مسؤولين إسرائيليين في البيت الأبيض للتحدث بشأن إجراء حوار بين إيران والولايات المتحدة بشأن موضوع السلاح والرهائن. هذا ولقد اعترف ماكفرلين - فيما بعد - بأنه قد أحاط الرئيس علمًا بمقابلاته مع ديفيد كيمشي David Kemechi ممثل إسرائيل والذي كان يعمل بوزارة الخارجية الإسرائيلية»، وينفي المؤلف علمه هو وشولتز بذلك الموضوع تمامًا، «وبعد أن خرج الرئيس ريجان من المستشفى بعد إجراء جراحة لاستئصال ورم السرطان له، ادَّعى ماكفرلين أنه أحاطه علمًا بالموضوع، بينما نفى الرئيس نفسه هذا اللقاء».

ويعود واينبرجر ليقول «بأن ماكفرلين قد التقى، في البيت الأبيض، الإسرائيلي Kim-ichi واتفق معه على إرسال 100 صاروخ من نوع Tows، من إسرائيل لإيران، ولم يعلم أحد من الكبار بذلك»، بل يؤكد واينبرجر أنه في تلك المدة «قد التقى الرئيس ريجان الذي كان يلبس «الروب» بعد خروجه من المستشفى. وأن الموضوع حين عرض ثانية عارضه هو وشولتز، خاصة وأن أمريكا كانت تطلب من حلفائها في العالم عدم مد إيران بالسلاح»، ويقول: «إن ذلك كان هو موقف الرئيس ذاته، وأن ريجان كان آنذاك مشغولاً جدًا بموضوع لقائه المنتظر مع جورباتشوف في جنيف وبالعلاقات السوفيتية الأمريكية، وبالحد من الأسلحة الاستراتيجية».

ويقفز المؤلف إلى استقالة ماكفرلين في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1985م، وإلى تعيين خلف له هو الأدميرال Poindexter الذي تبنى ومعه لفتنانت North إرسال 3300 صاروخ لإيران من طريق إسرائيل، ومرة ثالثة يؤكد واينبرجر أنه وشولتز قد عارضا تلك الخطة بشدة. «ولكن تلك المجموعة خدعت الرئيس وأقنعته أن هناك تقدمًا في إطلاق سراح الرهائن، وقد كان ذلك كله كذبًا وخداعًا، بل إنهم ذهبوا خطوة أبعد من ذلك حين باعوا السلاح لثوار الكونترا في نيكاراجوا»(1)، ويبين واينبرجر أنه بوصفه وزيرًا للدفاع قد أصر على عدم التعامل مع أي طرف آخر في موضوع السلاح وبيعه، باستثناء المخابرات المركزية CIA، لأن ذلك كان يمثل خرقًا لقانون تصدير السلاح Arms Export Control Act، ويقول إنه تصور أن معارضته قد تمثل عقبة أمام المشروع تجعل أصحابه يفكرون في العدول عنه، بل إنه فكر في الاستقالة الفعلية، ولكنه وجد أن ذلك قد يثير كثيرًا من التساؤلات في الداخل والخارج، وخاصة أن الموضوع كان سريًا في تلك اللحظات، ومن هنا عدل عنها.

ويبين واينبرجر أن الأمر لم يقتصر على مجرد إرسال السلاح لإيران، وإنما وصل إلى حد أن أعطى ماكفرلين وجماعته أسرارًا عسكرية خطيرة لإيران عن نقاط ضعف لدى العراقيين، وكانت هذه الأسرار قاتلة بالفعل مما مكنهم من إلحاق خسائر كبيرة بالعراقيين (ص 379)، وللعلم فإن هذه الأوامر تُعدّ قمة في السرية ولا ينبغي التفريط فيها إلا بإذن من الرئيس.

بل إن ماكفرلين قد سافر في مهمة سرية لعقد صفقة مع الإيرانيين، ووصل طهران على متن طائرة تحمل بعض قطع الغيار لسلاح الطيران الإيراني المتهالك، وسمح لنفسه بتسليمها للإيرانيين الذين لم يسلموا رهينة واحدة، وانكشف أمر هذه الزيارة السرية من طريق مجلة مناصرة لسورية تصدر في بيروت، وهاج الرأي العام الأمريكي والكونجرس، بل اهتزت ثقة الشعب الأمريكي في رئيسه للمرة الأولى، وبشدة، واعترف الرئيس بأنه قد أخطأ، وأن

FIGHTING FOR PEACE
Seven Critical Years in the Pentagon
Caspar W. Weinberger

الصراع من أجل السلام



سبب خطئه هو سماعه لنصيحة مستشاريه (ماكفرلين وجماعته).

«.. وعمومًا فلم تفلح هذه الترتيبات في إطلاق الرهائن، وخسرنا سمعتنا لدى أصدقائنا، وفقد العراقيون الثقة فينا، بالإضافة إلى ما جرى بالداخل»، ويحاول المؤلف أن يخفف من الموضوع بالنسبة للرئيس الأمريكي قائلاً: «إن خطأً واحدًا لرجل جلس في البيت الأبيض ثماني سنوات هو بالتأكيد خطأ مغتفر، ولا يمكن أن يلوّث السجل الحافل بالإنجازات في سبيل أمته».

حرب الخليج .. قصة نجاح

في هذا الفصل المطوّل والأخير يقدم واينبرجر للقراء التجربة الأمريكية في الصراع الذي جرى بين قوات البحرية الأمريكية والإيرانيين، حين حاولت إيران أن تنقل جزءًا من صراعها مع العراق إلى مياه الخليج، على أساس أن تضرب ناقلات البترول، وخاصة تلك الناقلات التي تدخل إلى الكويت أو تخرج منها، على أساس أن الكويت كانت مدعمًا أساسيًا للعراق في حربه.

ويبين واينبرجر المسار الذي أدّى بالولايات المتحدة إلى أن تصبح في مواجهة بحرية مع إيران، حيث طلبت الكويت بداية من الاتحاد السوفييتي ومن أمريكا أن تحميا ناقلات بترولها

وصف واينبرجر مناحم بيجين بأنه: شخص لا يكف عن الكلام، ولا يحب أن يقاطعه أحد، وأن حديثه يدور حول معنى واحد: لا تنازل عن الضفة الغربية التى امتلكتها إسرائيل مهما كان الثمن!

في الخليج، وكيف أن الاتحاد السوفييتي قد سارع بالاستجابة الفورية للطلب، فيما تلكأت الاستجابة الأمريكية، بحكم المسارات الديموقراطية التي ينبغي أن تمر بها، والمناقشات التي تمت بشأنها في الكونجرس الأمريكي، وكيف أنه استطاع أن يقنع أعضاء الكونجرس - بوصفه وزيرًا للدفاع - بأهمية الوجود الأمريكي في الخليج، حفاظًا على المصالح الأمريكية هناك، وإبعادًا لخطر الوجود السوفييتي فيه، وقد بين أن الرئيس الأمريكي ريجان قد وافقه على رأيه تمامًا.

ويقول واينبرجر إن تقارير المخابرات الأمريكية قد أكدت تزايد النشاط الإيراني ضد الكويت بداية من أيلول/سبتمبر 1986م، ليس فقط في عمليات تلغيم مسارات ناقلات البترول من الكويت وإليها، ولكن أيضًا على أرض الكويت ذاتها، بل إن الأمر قد وصل إلى حد استعمال نوع من الصواريخ ضدها كانت قد حصلت عليه من الصين، وكانت إيران تطلقه من منطقة الفاو التي كانت قد استولت عليها من العراق.

ولا يخفي واينبرجر أن الكويت كانت أقرب للاتحاد السوفييتي منها لأمريكا، وخاصة أنها كانت سباقة في إنشاء علاقات لها مع روسيا، عقب استقلالها في عام 1962م، كما أن رفض الكونجرس مدها بالسلاح قد أسهم في ذلك، ولكن يبدو أن دول مجلس التعاون الخليجي قد شاركت في ترشيد القرار الكويتي بأن يتجه ناحية أمريكا أكثر من روسيا، ويقول الرجل بصراحة: «لقد بحثت الموضوع بعناية شديدة، ووجدت أن مصالحنا تحتم علينا ألا نترك فرصة للاتحاد السوفيتي في هذه المنطقة الحساسة جدًا بالنسبة لمصالحنا، لقد كنا في حاجة - كذلك - لنؤكد لأصدقائنا في الخليج أن الأمريكيين يمكن الاعتماد عليهم، وذلك بعد أن كانت هذه القناعة قد اهتزت بسبب تخلينا عن شاه إيران، وبأننا لا نقف مع أصدقائنا حتى النهاية، خاصة في اللحظات الحرجة التي يحتاجون إلينا فيها».

وفي هذا الجانب تحدث واينبرجر عن أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تقف وحدها في الخليج، حيث كانت تحاول - ونجحت بالفعل - تأمين الملاحة العالمية فيه. وإنما كانت معها دول أخرى استعانت بما لديها من معدات وأجهزة مثل إنجلترا وفرنسا واليابان وإيطاليا وألمانيا الغربية.

وفي خلال هذا الفصل المثير يسرد المؤلف عددًا من الوقائع التي تعرضت فيها بعض ناقلات البترول الأمريكية وغيرها للعطب - أو للإعطاب بمعنى أصح - من جانب الألغام البحرية التي زرعتها البحرية الإيرانية، أو حتى بسبب إطلاق النيران عليها مباشرة، وخاصة من جانب القوارب الصغيرة السريعة، وقد بين كيف أن الأمريكيين في يوم واحد دمروا نصف القوات البحرية الإيرانية، مما جعل النصف الآخر يختبئ في الموانئ الإيرانية ويتوقف عن هذه الأعمال الإرهابية. ولا ينسى الرجل أن يشكر العدد الكبير من رجال البحرية الأمريكية من طيارين وبحارين وغيرهم، الذين قاموا بهذه المهمة الحيوية، وقد بلغ عددهم في بعض الأوقات 75,000 فرد.

وفي الختام، يتوقف واينبرجر ليؤكد - في صفحة 429- أنه ليست هناك دولة في العالم، مهما بلغت قوتها وإمكاناتها، يمكنها أن تعيش وحدها، وأن تحافظ على حريتها، فلا بد لها من أصدقاء وحلفاء، وهذا الكلام ينطبق تمامًا على الولايات المتحدة الأمريكية التي لا بد أن تحافظ على هذه الصداقات حتى إن اختلف معها أصدقاؤها في أساليبهم وممارساتهم، وهو يؤكد أن من يريدون أن يستمتعوا بالحرية والديمقراطية عليهم أن يكونوا على استعداد للقتال والتضحية في سبيلهما.

الهوامش:

1- حينما كُشفت هذه الموضوعات علنا في وسائل الإعلام الأمريكية أحدثت ضجة هائلة، وشكّل الكونجرس الأمريكي لجنة علنية للتحقيق فيها. وعلى مدار أسبوع كامل ظلت شبكات التلفاز الرئيسة الثلاث تنقل وقائع جلساتها للأمة الأمريكية، من الصباح إلى المساء، وكشفت عن وقائع مذهلة. وأدين فيها بويندكستر ونورث (المترجم).

أهم فروع علم النفس

إعداد:
وفيق صفوت مختار



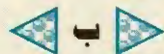
أ

علم النفس الاجتماعي
SOCIAL PSYCHOLOGY

هو الفرع الذي يُعنى بدراسة سلوك الجماعات والتفاعل الاجتماعي وعمليات التنشئة الاجتماعية، فضلاً عن دراسة تأثير الجماعة في نمو الشخصية، كما يدرس هذا العلم الظروف والشروط النفسية (السيكولوجية) الكامنة وراء تطور الجماعات الاجتماعية والحياة العقلية، بقدر ما تتجلى في تنظيمهم الاجتماعي وثقافتهم ومؤسساتهم، كما يدرس تطور سلوك الفرد بالنسبة إلى محيطه الاجتماعي وجميع المشكلات التي تجمع بين الناحيتين الفرديّة والاجتماعية.

علم النفس الأنثروبولوجي
ANTHROPOLOGICAL PSYCHOLOGY

فرع من فروع الأنثروبولوجيا، أو العلم الذي يُعنى بدراسة الإنسان ومميزاته وخصائصه كافة. يتناول النواحي النفسيّة (السيكولوجية) في ظاهرة الإنسان، ويمتدّ نطاقه عبر حدود «الأنثولوجيا» أو علم «مقارنة الأعراق البشريّة» ودراسة الشعوب، ويدخل كذلك في دائرة العلوم الاجتماعيّة والأنثروبولوجيا الحضاريّة والأنثروبولوجيا الفلسفيّة.



ب

علم النفس البديعي «أو الجمالي
AESTHETICAL PSYCHOLOGY

ويطلق عليه أيضًا سيكولوجيا الفنّ، بوصفه تسمية عامّة وشاملة تدلّ على التحليل السيكولوجي لعملية الخلق والإبداع الفنيّ، بالإضافة إلى دراسة المؤثرات المتعلقة بالأعمال والآثار الفنيّة. فهو يركز على المقومات النفسيّة للجماليّة في الأثر الفني، كما يبحث في عناصر التذوّق الفني ومستلزماته على صعيد تجريبي يتّصل بعلم الجمال الاختباري.



ت

علم النفس التربوي
EDUCATIONAL PSYCHOLOGY

فرع من فروع علم النفس التطبيقي، يُعنى بمسألة تطبيق المبادئ والمكتشفات السيكولوجية على حقل التربية والتعليم، بالإضافة إلى الدراسة السيكولوجية لمشكلات التربية ومعضلاتها على صعيد المنزل والمدرسة، ويعرف أيضًا بـ «علم النفس البيداغوجي».

علم النفس التطبيقي
APPLIED PSYCHOLOGY

هو الفرع الذي يسعى لتطبيق طرق علم النفس المحض ونتائجه، ولاسيما علم النفس الاختباري، على المشكلات والحياة العمليّة، كما تطلق هذه التسمية - أحيانًا - بصورة واسعة لتشمل علم النفس الصناعي والعيادي والتربوي. وفي أوروبا يستخدم اصطلاح PSYCHO-TECHMICS بمعناه الأشد تقنية للدلالة على الممارسة الفعليّة لطرق علم النفس ونتائجه في الحقل الصناعي والتوجيه المهني.



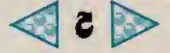
ج

علم نفس الجشطالت
GESTALT PSYCHOLOGY

جشطالت لفظة ألمانية الأصل تعني الشكل أو الصيغة. والجشطالت هو الكلّ المتكامل وليس مجرّد مجموع للوحدات والأجزاء. والجشطالت في علم النفس مدرسة نشأت في ألمانيا خلال مطلع هذا القرن.

وعلم نفس الجشطالت هو نوع من علم النفس الذي نشأ ردَّ فعل قوي على السيكولوجيّة الذريّة، وهو يضمر العداء لكل من المدرسة السلوكيّة والاستبطانية على حدّ سواء. وتقوم ركيزته الأساسية على حسبان العمليات العقليّة والسلوك غير قابلة للتحليل إلى وحدات أوّلية من

دون بقيّة باقية. فالكلية والتنظيم هما خاصتان لهذه العمليّات منذ البداية



علم النفس الحيواني
ANIMAL PSYCHOLOGY

هو دراسة السلوك لدى أنواع مختلفة ومتعدّدة من الحيوانات بقصد إجراء الموازنة بين تلك الأنواع والفصائل على صعيد الذكاء وحدّة الحسّ والتصرّف الاجتماعي. وفي اللغة الألمانية تحلّ محلّ هذه التسمية في الغالب عبارة «الدراسة الموازنة للسلوك» كما في المنطلق الذي يأخذ به كونراد لورانز.



علم النفس الزائف
PSEUDO PSYCHOLOGY

نظام من المعتقدات والتعاليم يدّعي أنه يقف على صعيد علم النفس، لكنّه ينطوي في الواقع على مبادئ وطرائق إجرائية لا تتفق أبدًا مع مبادئ العلم المعترف بها والمعتمدة في البحث والدراسة.



علم نفس الشواذ «أو غير الأسوياء»
ABNORMAL PSYCHOLOGY

الفرع الذي يُعنى بدراسة الانحرافات الشاذة في العمليات العقلية ويبحث في السلوك الشاذ عن السويّ. فالظواهر الشاذة تؤلّف موضوع بحثه، ولاسيما تلك التي تنطوي على الصراع بين العقل والعاطفة

علم النفس الشرعي
FORENSISCHE PSYCHOLOGY GER

تسمية لحقل من حقول علم النفس التطبيقي، يتناول ضمن إطاره المسائل المتعلّقة بأقوال الشهود وجدارتها بالتصديق والقبول، وبكفاية الذنب وفرض العقوبات وإنزال القصاص، من حيث تفاعل ذلك كلّه وترابطه مع الجهات القضائية والهيئات الشرعيّة. ويرادفه بالألمانية GERICHTLICHE PSYCHOLOGIE (السيكولوجيا الشرعيّة).



علم النفس الصناعي
INDUSTRIAL PSYCHOLOGY

هو ذلك الفرع من السيكولوجيا التطبيقية الذي يهتم بتطبيق الطرق والنتائج السيكولوجيّة على المشكلات الناشئة في الحقل الصناعي أو في المجال الاقتصادي. ويشمل في نطاقه انتقاء العمّال وتدريبهم وأساليب العمل وظروفه. أما سيكولوجيّة الصناعة PSYCHOLOGY OF INDUSTRY فتُعنى بالمشكلات الأساسية للصناعة من حيث كونها مشكلات نفسيّة عالّة تكمن وراء النشاطات الاقتصادية بشكل أوسع.

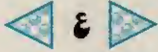


علم نفس الطفل
CHILD PSYCHOLOGY

فرع من فروع علم النفس يُعنى بدراسة الكائن البشري في مسيرة نموّه وتطوّره من مرحلة الولادة إلى النضج والبلوغ. موضوعه سلوك الطفل قبل إدراكه سنّ البلوغ، ويعتمد على تطبيق المعلومات والمبادئ العامّة اللازمة لفهم نفسيّة الطفل والوقوف على طبيعة نموّه وتطوره.

علم النفس الطوبولوجي
TOPOLOGICAL PSYCHOLOGY

هو كناية عن تطبيق مفاهيم الأمكنة (الطوبولوجيا) وقوانينها على علم النفس، حيث يستند الأمر كلّه إلى القول بوجود مكان حياتي سيكولوجي، وإلى تفسير الظواهر السيكولوجية على أساس إقليمي في هذا المكان الحياتي والمجال الحيوي، يمت بصلة وثيقة إلى «السوسيومتري» أو علم «قياس العلاقات الاجتماعية».



علم النفس العام
GENERAL PSYCHOLOGY

هو بحث منهجي ونظامي في المبادئ والقوانين العامّة التي تُسيِّر الحياة النفسية بشكل عام، من دون الالتفات إلى الخصائص والصفات المميّزة لكل فرد على حدة.

علم النفس العقاقيري
PHARMACO PSYCHOLOGY

أو سيكولوجيا العقاقير وتأثير الأدوية، وهي فرع يقوم بدراسة تصرّفات المرء تحت تأثير العقاقير والأدوية على الصعيد العقلي والنفسي لدى الفرد. يؤلّف هذا العلم فرعًا من المبحث الأساسي الذي يمتدّ حقله عبر السيكولوجيا والطب، وهو يدرس التغيّرات الوظيفيّة تحت تأثير المخدّرات والهورمونات والعقاقير ويسمى أيضًا DRUGO RESEARCH.

علم النفس العيادي «أو العلاجي»
CLINICAL PSYCHOLOGY

يندرج تحت علم النفس التطبيقي؛ لأن طابعه المميّز - علاجيًا - يقوم على معرفة قدرة المرء على السلوك وتحليل صفاته الشخصية من طريق القياس والتشخيص، بغية التوصل إلى تقديم المقترحات اللازمة على صعيد التكيّف AD-APTATION والإرشاد وتحديد السُبُل الكفيلة بإحراز النتائج الإيجابية.



علم النفس الفردي
INDIVIDUAL PSYCHOLOGY

أو سيكولوجيا الفرد، وهي التي تبحث في

أهم فروع علم النفس

الفروق القائمة بين الأفراد، وتدرس هذه الفروق والمميزات بصورة منهجيّة منتظمة مثلما تخضعها للقياس. فالتركيز يكون على طبيعة الفرد وخصائصه المميّزة.

وتطلق هذه التسمية أيضًا على ذلك النوع من علم النفس التحليلي الذي أسسه الفريد آدلر وقام بتطويره مؤكدًا فيه الفروق بين الأفراد في مجال تحقيق الشهرة والسمو.

علم النفس الفرقي «أو التنوعي» DIFFERENTIAL PSYCHOLOGY

فرع من فروع علم النفس يقوم - في إطاره الأوسع - بدراسة الفوارق والتنوعات بين الأفراد أو بين الجماعات، وذلك على أساس الميزات السيكولوجية الأولية وبالاستناد إلى الطرق والأساليب المتوافرة من خلال علم النفس العام، فهو يدرس مثلاً الفوارق في قدرات الذاكرة بين الانطوائيين والانبساطيين، أو بالنسبة للعلاقات الاجتماعيّة. أما بمعناه الأضيق فهو يدل على دراسة الفوارق الفرديّة بالطرق التجريبية.

علم النفس الفسيولوجي PHYSIOLOGICAL PSYCHOLOGY

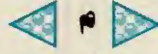
هو المتعلّق بوظائف الأعضاء. تعود بداياته الشاملة إلى العالم الألماني فوندت WUNDT في معرض سعيه لإقامة علم نفس اختباري على أسس تجريبية بمعزل من الفلسفة النظرية. وتطلق التسمية الآن في الغالب للدلالة على حقل يقع بين السيكولوجية ومبحث الأعصاب NEUROLOGY.



ق

علم النفس القصدي HORMIC PSYCHOLOGY

أو النظرية الهورميّة. واسمها مشتق من لفظة هورم HORME اليونانيّة بمعنى: الدافع الحيواني، وقد ترجمها الرومان بـ: غريزة -IN STINCTUS. تشدّد هذه السيكولوجيا التي أكد بها ماك دوغال أهمية الدوافع الغريزيّة والسعي الغَرَضِي أو القصدي في سلوك المرء. فالغرض يُنشد من أجل ذاته وليس طمعًا في إحراز منفعة أو الاستمتاع بلذّة ما.

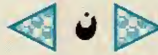


م

علم النفس الميتافيزيقي «أو ماوراء علم النفس» META PSYCHOLOGY

هو علم النفس الذي يرمي إلى إكمال حقائق السيكولوجيا بالتأمل في العلاقة بين العمليّات العقليّة والجسمانيّة أو في مكانة العقل في الكون.

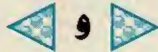
وقد استخدمه فرويد اصطلاحًا للدلالة على توسيع نطاق البحث إلى ما يتعدى الحقل السيكولوجي الصحيح ويتركز على النظر التأمّلي في الظواهر من ثلاث وجهات نظر عامّة هي الوجهة الديناميّة، والطوبوغرافيّة، والاقتصادية.



ن

علم النفس النمائي «النمو» DEVELOPMENTAL PSYCHOLOGY

يقوم علم النفس النمائي بدراسة مراحل السلوك وتطورها من حيث استطراد النمو أو التوقف عنه ARREST OF DEVELOP-MENT، فالنموّ هو السير الطبيعي للتكامل، والتغيّر الارتقائي عبر المراحل المتنقلة من الجنين إلى الراشد لدى أجناس الكائنات الحية. كما تصدق التسمية على دراسة مراحل التقدّم والارتقاء في السلوك لجهة نشوء الجنس وتولده.



و

علم النفس الوجودي EXISTENTIAL-IST PSYCHOLOGY

فرع من فروع السيكولوجيا جرى تطويره انطلاقًا من وجهة نظر تحصرُ مادّة العلم، وموضوعه في تلك النواحي من الخبرة أو التجربة التي يمكن معاينتها بطرق الاستبطان، بحيث تغدو هذه النواحي محصورة بالنواحي الإحساسية والمتخيلة ومعها المشاعر أو الأحاسيس. وكلها تعد من العمليّات العقلية القابلة للملاحظة. وهو المذهب الذي تأخذ به المدرسة الوجودية في الفلسفة من خلال تحليلها لمسائل الوجود الإنساني.

علم النفس الوظيفي FUNCTIONAL PSYCHOLOGY

نوع من السيكولوجيا يشدّد على وظائف الظواهر العقلية بدلاً من مجرّد حقائقها أو وقائعها. فهو يسعى إلى تفسير الظواهر بالرجوع إلى أثرها في حياة الكائن العضوي، بدلاً من تحليل أو وصف حقائق الاختبار ووقائع السلوك. إنه علم النفس الذي يتناول موضوعه من زاوية ديناميّة أو حركيّة، بدلاً من اعتماده على النظرة الساكنة، فيدرس شروط التكيّف والأعمال الناجمة عنه.

المراجع:

أولاً- المراجع العربية:

1- د. فريد جبرائيل وآخرون، قاموس التربية وعلم النفس التربوي، منشورات دائرة التربية في الجامعة الأمريكية، بيروت 1960م.
2- د. أسعد رزوق، موسوعة علم النفس، طبعة أولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977م.
3- د. فاخر عاقل، معجم علم النفس، طبعة أولى، دار العلم للملايين، بيروت 1971م.
4- د. يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر 1962م.

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

(5) DEVER, JAMES - A DICTIONARY OF PSYCHOLOGY [PENGUINE REFERENCE BOOKS R5] REVISED BY HARVEY WALLERSTEIN, REV.ED 1964 REP.1974.
(6) GARRETT, H.E- PSYCHOLOGY AMERICAN BOOK COMPANY, NEW YORK,1950.
(7) KOHLER,W. - GESTALT PSYCHOLOGY THE MENTALITY OF APES.
(8) STAFFORD CLARK - PSYCHIATRY TODAY PELICAN BOOKS.

عزيز الأب ..

أرواحهم أمانة في عنقك ..

مهما كـــانت الظروف والأســـباب ..
فـــلا تترك أطفالك وحـــدهم داخل
الســـيارة .. ولو للحظـــات.



مـع تحـيات



سابك

الشركة السعودية للصناعات الأساسية
والشركات التابعة لها

امرأة أخرى

كلثم جبر محمد الكواري

هاجس..

اشتقتك هذا المساء.. كما لم أشتقْك من قبل.. يا زوجي العزيز.

انتظرت هطل مخابرتك الصباحية التي وعدتني بها، لكنها لم تأت، أتيت بالهاتف وجلست أترقب رنينه، لكن صوتك لم يأت، لذا لم أستطع القيام بأي عمل، ظللت طوال النهار أترقبه.

- 1 -

حينما تزاحمت الأشياء في الذاكرة، لم تستطع أن تصرخ بقوة أو تقطع ملابسها، ولا أن تغرس أظافرها في لحم وجهها، فهي - كأية امرأة أخرى - عليها أن تلتزم الصمت والهدوء، وأن تحتوي انكسارها وتبتسم، وحينما دلف «أبو محمد» كان عليها أن تتناول العباءة من فوق يديه وتعلقها على «الشماعة» القريبة من الباب.. وأن تتناول بعد ذلك «غترته وعقاله» وتعلقهما أيضًا، وأن تبتسم ابتسامة.. تستاء منها هي نفسها، لكنها لم تفعل ذلك، وظلت صامتة واقفة تترقبه وهو يقوم بكل هذه الأشياء.. نظر إليها مبتسمًا:

- لم تسأليني بعد ماذا حدث..؟

- ...

- سأخبرك أنا، لا شيء يا ابنة العم يُذكر سوى أن هؤلاء «الهنود» قد أتعبوني.. لو أني أستطيع أن أستبدل بهم «كوريين» مثلاً لكان أفضل، هؤلاء أنشط وأولئك أرخص، وفي الحقيقة تعبت أنا من المقارنة.

رددت أبيات أحد الشعراء الأجانب:

إن لم أحترق أنا..
وتحترق أنت..
ونحترق جميعًا
كيف يخرج من الظلمات نور..؟

وتعبت هي نفسها من ذلك الحوار، وماذا يهمها من الهنود أو الكوريين. أليس في الحياة ما يمكن التحدث عنه سوى هذه الأشياء؟

تجشأ أبو محمد ضاحكًا وظلت عيناها ترقبانه بصمت:

- هل أعددت الغداء؟

توارت من أمامه لتدعو «صبيحة» لإعداده، وهي زنجية متوسطة القامة، حالكة اللون، سريعة الحركة، وتتمنى دومًا وأبدًا أن تتزوج..

- تفضل يا أبا محمد فالغداء قد أعدّ.

توارت «صبيحة» بعد ذلك في الداخل، بينما دلفت هي في الأمام وتبعها أبو محمد مبتسمًا.

هاجس آخر..

كنت كل مساء أُحَوِّل أشواقي إليك. وأحلم أن أتوسد كتفك وأن أبحر بقارب حلمك. داهمني صوتك على البعد في الذاكرة، فهجرني النعاس، تَسَلَّلْتَ إلى رأسي وإلى ثيابي وفي قارورة عطري سكنت، كنبتة صبار عنيدة مشاكسة - مثلي - نبتّ من داخلي فرفضت أن أقتلعك، فاستقمت وبت تتدفق في دقات قلبي الصغير عطشى كما الأرض المجدبة المتلهفة لحبات مطر تبلل هجيرها.

هل أغمض عيني وأترقب مخابرتك غدًا؟!

- 2 -

ناحت الورقا في ليل..
ذكرت قلبي الرحيل..
آه.. ياويل المفارق..

صدحت الأصوات بالغناء، تعالى صوت الدف، زغردت السيدات وتوارت الفتيات ضاحكات.. توارت العروس بثوبها الأبيض، ابتسم أبو محمد.. قبل ثلاثين عامًا كانت هناك ليلة مشابهة لمثل هذه الليلة، وكان يُزَفّ لأخرى باختلاف المكان.

ترقرق الدمع في عينيها وهي ترمقه. حاولت أن تداري الدمع خلف الخمار الذي يلف رأسها ووجهها حتى لتكاد عيناها تبدوان من خلفه.. بينما انسدلت خصلاتها حتى أطراف ظهرها.

همست لها رفيقتها:

- إنك في أروع صورك هذه الليلة..



آه.. كم هي موجوعة، والدُّفُّ يصرخ بين يديها، في حين تلاصقت أجساد الفتيات في حلقة متكاملة، لا يعلم أي من الموجودين من هي.. فهي دائمًا تتخفى تحت الخمار الأسود والعباءة السوداء وتتسمى باسم آخر.. ولاتتحدث.. فقط تغني.. وتغادر الحفل قبيل منتصف الليل كما سندريلا الهاربة من أن تُكشف هويتها.. ويتبدل الثوب المطرز بالخرز إلى تلك الأسمال البالية.. هكذا يُجهر بالغناء.. وكانت تبكي من دون أن يلحظها أحد..

ترقب..

وأيضًا اشتقتك هذا الصباح كما لم أشتقك من قبل..

هطل الشوق غزيرًا، متدفقًا بداخلي، فأرعدت سمائي، وأبرقت، وأمطرت حزنًا وازددت اغترابًا.

لقد تقمصني الحزن، وحملت شوقي المتدفق في قلبي الصغير وطفت الشوارع بحثًا عنك.

أترقب مخابرتك كطفل يتيم يحلم بليلة العيد، وملاك يتسلل من النافذة أو يهبط عليه من كوة المدخنة ينفحه هداياه.. فلماذا لم تتصل بعد؟

- 3 -

صرخ الطفل في جوف الليل، لكنها لم تتعجل الذهاب إليه، واصل الصراخ، لكنها لم تذهب أيضًا.

فرك أبو محمد عينيه.. كان قد تناهى إلى سمعه صوت صراخ الطفل من الجهاز المعلق في السرير فوق رأسه.. امتدت يداه تبحثان عن أم محمد، كانت الوسادة باردة تحت يديه، خالية، لم يجد خصلات شعرها أو وجهها.. أو..

تَقَلَّب، ومن ثم اجتاحه صوت صراخ الطفل بقوة.. سحب اللحاف وانزلق إلى الأرض..

ولغرفة طفله ذهب، حمل الطفل فوق ذراعيه. وكان الطفل قد بدأ يصمت.. لكن أم محمد لم تكن موجودة.. في أنحاء المنزل طاف يبحث عنها.. وفي الزاوية تحت الإنارة الضعيفة كانت تقرأ.. كانت ركبتاها مكومتين حتى وجهها، وبين يديها كومة رسائل كانت قد كتبتها منذ زمن وجيز حينما كانت تبحث عنه.. وتنتظر مخابرته..

وحينما جلس في مواجهتها، ومعه طفلهما لم ترفع وجهها إليهما.. بينما هرعت صبيحة بعد أن تناهى إليها صراخ الصغير.. تتناوله من يد أبيه وتذهب به إلى لفراش..

وكانت إطلالة الدهشة تقفز من عيني أبي محمد وهو يسابق الكلمات فوق الورق.. إنها تلك الرسائل التي بعثت بها إليه في يوم ما..

ترقب آخر..

هَطَلْتَ على أرضي بقسوة وحنان.. وأرْعَدْتَ في سمائي دونما رحمة.. وفاجأتني يومًا ما بامرأة أخرى..

ولم أزل أحبك.. وأشتاقك..

هجرني النعاس، وتناثرت النجوم في سماء حلمي تبادلني الشجن، وتداعب خصلات شعري، إنك لابد أن تعلم بي اللحظة. ألم تقل بأنك تستحضر وجهي كل مساء وتعانقني في الحلم؟

داهمني الشوق إليك فلم أستطع أن أنام.. لأني لم أتصور أن تهديني امرأة أخرى في ليلة ميلادي، بينما أغمضتُ عيني وأترقبك تنسل من الباب تهديني فرحًا..

كيف استيقظت في ذاكرتي هذه المرأة هذا المساء.. وكيف لم أستطع إلا أن أتذكرها بعد أن نسيتها أو تناسيتها.

- 4 -

سحب الأوراق من يدها..

قرأ رسائلها إليه في يوم ما..

قرأ الرسالة الأخيرة «ترقب آخر».. كانت مدونة بتاريخ هذه الليلة..

رمقها بنظرة غاضبة ما لبث أن تلاها بنظرة حانية.. احتواها في صدره.. وهو يهمس:

- كيف تعفين نفسك من مسؤولية الزواج الثاني.. بعد أن رفضتني أعزب وقبلت بي متزوجًا بعد ذلك؟!



جائزة عالمية للسعودية من اليونسكو لجهودها في محو الأمية

أربعون باحثا عربيا وأجنبيا يناقشون واقع الأدب العربي من منظور جديد

إعلان أسماء الفائزين بجوائز الدولة في مصر

صدور مجلات وصحف جديدة، واحتجاب صحف أخرى، وإقامة مهرجانات ثقافية في أنحاء عدة من العالم

جائزة العمل المتميز للباز، والشعر الإفريقي لحجازي، وهامبولد الألمانية للبزاز

الأمير سطام يرعى حفل «مسابقة الرياض الثقافية»

رعى صاحب السمو الملكي الأمير سطام ابن عبدالعزيز نائب أمير منطقة الرياض الاحتفال الذي أقامته مؤسسة اليمامة الصحفية لتوزيع جوائز المسابقة الثقافية الكبرى لصحيفة الرياض لعام 1415هـ في الثلث الأخير من شهر صفر الماضي.

وقام سموه بتوزيع الجوائز على الفائزين في مسابقة القصة القصيرة والشعر العربي، كما تجول في الأقسام المختلفة للصحيفة للاطلاع على ما تضمه من أجهزة وتقنيات حديثة وإمكانات بشرية مؤهلة.

استكتاب العلماء والمفكرين لكتاب جائزة أمير الباحة

تعدّ الأمانة العامة لجائزة أمير الباحة لحفظة كتاب الله الكريم، لإصدار كتاب الجائزة في عامها السابع.

الكتاب اختير عنوانه «أمن المجتمع في الكتاب والسنة»، ويجري حاليًا استكتاب العلماء والمفكرين للكتابة في موضوعات محددة مختارة متفرعة من الموضوع الرئيس للكتاب.

دليل عن المكتبات السعودية

بدأت مكتبة الملك فهد الوطنية الخطوات التنفيذية لإصدار دليل عن المكتبات السعودية باللغتين العربية والإنجليزية ليكون مرجعًا أساسيًا وحديثًا عن المكتبات السعودية؛ إذ تقوم المكتبة حاليا بجمع البيانات والمعلومات الأساسية عن المكتبات السعودية بمختلف أنواعها ومواقعها؛ بغرض حصر البيانات التي تشمل عناوينها وإحصاء مقتنياتها وخدماتها وغير ذلك من المعلومات التي يحتاج إليها الباحثون والعاملون في مجال المكتبات.

جامعة أم القرى تصدر «دليل الرسائل الجامعية»

أصدرت عمادة شؤون المكتبات بجامعة أم القرى دليلاً للرسائل الجامعية يشتمل على جميع رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت في الجامعة منذ تأسيس قسم الدراسات العليا بها، وحتى نهاية عام 1415هـ. ويضم الدليل 271 رسالة.

معرض عن السياحة الداخلية في أبها

يُفتتح في أوائل شهر جمادى الأولى المقبل معرض وندوة السياحة الوطنية الثاني في مركز المعارض بمدينة أبها.

ويرمي المعرض والندوة إلى مناقشة دعم السياحة الداخلية بالمملكة وتنشيطها، إلى جانب تعريف المواطن والمقيم والزائر بما تتمتع به المملكة من إمكانات سياحية.

كما تناقش الندوة سبل زيادة إسهام القطاع الخاص في الاستثمار السياحي بغرض تنمية الموارد السياحية بوصفها من مصادر الدخل الوطني.

الفائزون في «مسابقة السرقات الأدبية»

أُعلنت - مؤخراً - أسماء الفائزين في «مسابقة السرقات الأدبية» التي نظمتها دار المجد للنشر في الرياض.

تقاسم الجائزة الأولى ومقدارها 20 ألف ريال كل من المهندس محمد عبدالقادر الفقي ود. عبدالعظيم حمزة. ونال الجائزة الثانية ومقدارها عشرة آلاف ريال د. رياض الخوام، وفاز بالجائزة الثالثة ومقدارها خمسة آلاف ريال، د. محمد أحمد علي (عبده زايد).

وتقرر حصول جميع الذين شاركوا في المسابقة على ألف ريال، مقابل نشر أبحاثهم في الموسوعة التي تعد الدار لإصدارها عن «السرقات الأدبية».

«أفنان» نادي تبوك الأدبي

أصدر نادي تبوك الأدبي باكورة مطبوعاته التي تمثلت في ملف ثقافي أدبي تحت مسمى «أفنان».

خادم الحرمين الشريفين يدعم إنشاء المعهد العربي الإسلامي



طوكيو - من مراسل الفيصل:

انتهت - مؤخرًا - الدراسات الخاصة بمشروع المعهد العربي الإسلامي في طوكيو، المقرر إقامته على قطعة أرض كان يشغلها المبنى القديم للسفارة السعودية الذي تم هدمه.

ويحظى المشروع بدعم كبير من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، حيث قدم - يحفظه الله - تبرعًا ماليًا كبيرًا لإنشاء مبنى المعهد المقرر أن يضم مكتبة وقاعة محاضرات ومسجدًا يتسع لأربعمئة مصل.

ويأتي هذا الدعم من خادم الحرمين الشريفين في إطار اهتمامه - حفظه الله - بشؤون المسلمين في كل بقاع المعمورة، وحرصه على إعمار بيوت الله.

تضمن الملف موضوعات متنوعة ما بين دراسات نقدية وأدبية وتاريخية، وملفات خاصة، وإبداعات شعرية وقصصية.

الفائزون بجوائز علي وعثمان حافظ

أعلنت الأمانة العامة لهيئة جائزة علي وعثمان حافظ الصحفية - مؤخرًا - أسماء الفائزين بالجائزة لعام 1995م في فروعها المختلفة.

نال جائزة مفكر العام الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش عن كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب»، وحصل د. عاصم حمدان على جائزة العمود الصحفي عن عموده الذي يُنشر في جريدة «المدينة المنورة»، وفاز أيمن حبيب بجائزة التحقيقات الصحفية عن سلسلة التحقيقات الميدانية التي أجراها عن الحرب في الشيشان ونشرتها صحيفة «عكاظ»، ونالت شيخة فهد الزعبي جائزة الحوار الصحفي عن اللقاءات التي أجرتها مع سجينات في الكويت ونشرتها مجلة «سيدتي»، ومُنح الكاتب الصحافي جمال بدوي جائزة المقالة الصحفية عن مقالاته التي نشرتها صحيفة «الوفد» حول تطويع السياسة الأمريكية لصالح العرب، ونال جلال الرفاعي جائزة الكاريكاتير عن رسومه بجريدة «الدستور» الأردنية.

وقد تقرر إضافة مجال جديد يتعلق بالدراسات والبحوث الأكاديمية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه المقدمة من باحثين عرب عن الصحافة للجامعات العربية والأجنبية إلى مجالات الجائزة لعام 1996م.

أول صالة للفن التشكيلي تقام في مكة المكرمة

يُنتظر أن يتم قريبًا افتتاح صالة «الدار الملكية للفنون التشكيلية»، التي تُعدّ أول صالة للعروض التشكيلية في مكة المكرمة.

ومن المقرر أن تستهل الصالة عروضها بتنظيم معرض للفنان أبو هريس، كما سيقام فرع لها في جدة.

ندوتان في باريس والدار البيضاء حول المدن العربية

ينظم المعهد العربي لإنماء المدن - ومقره الرياض - ندوتين؛ أولاهما في باريس بعنوان: «مراكز المدن: مقارنة بين الدول الأوروبية والعربية»، والأخرى في الدار البيضاء، وتدور حول اتخاذ القرار في البلديات.

تقام الندوة الأولى خلال يومي 14، 15 جمادى الأولى المقبل (27، 28 سبتمبر)، فيما تقام الثانية في المدة من 6 إلى 9 رجب المقبل (17- 20 نوفمبر 1996م).

كتب جديدة

عالم الأمير خالد الفيصل الشعري.. رؤية نقدية ودراسة لبعض قصائده، تأليف الأستاذ خالد بن محمد القاسمي. يقع الكتاب في 176 صفحة.

رحلة الأمس، الديوان الأول للشاعر أحمد إبراهيم ناصر الحربي، صدر عن نادي جازان الأدبي.

استجواب غازي القصيبي، كتاب يتضمن مجموعة حوارات أجريت مع الشاعر د. غازي القصيبي، صدر عن مكتبة العبيكان ودار المداد بالرياض.

قراءة معاصرة في قصيدة «يا ساهر البرق» لأبي العلاء المعري، تأليف أبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، صدر باكورة لسلسلة جديدة تحمل اسم «سلسلة النقد التفسيري».

مناقرات صحفية، تأليف علي محمد العمير.

صدر الكتابان السابقان عن نادي جازان الأدبي.

الانتماء في الأدب الأندلسي: أنموذج

فريد، تأليف د. عبدالله بن علي ثقفان.

على مشارف الفن، تأليف فؤاد أسعد كماخي.

صدر الكتابان السابقان عن دار التوبة في الرياض.

الموعد المؤجل، مجموعة قصصية لرقية حمود الشبيب صدرت عن نادي الطائف الأدبي.

المشكلات التربوية عند المسلمين في المجتمع الهولندي، تأليف إبراهيم الدرعاوي، صدر ضمن سلسلة «دعوة الحق»، عن قطاع الثقافة والإعلام برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

البحرين

مؤتمران دوليان

تستضيف البحرين مؤتمرين دوليين؛ أولهما عن حقوق المؤلف والمصنفات الفكرية، والثاني عن حماية براءات الاختراع خلال يومي 22، 23 جمادى الآخرة المقبل (4، 5 نوفمبر 1996م).

يهدف المؤتمران إلى تنسيق المواقف بين الدول المشاركة، وتبادل المعلومات في هذا المجال، بما يحقق الفائدة المرجوة.

تكريم العريض

أقيم في المنامة حفل تكريمي للشاعر البحريني إبراهيم العريض برعاية وزير الثقافة البحريني، وحضور عدد من الوزراء ولفيف من المفكرين والأدباء العرب.

وقد أقيم الحفل بمبادرة من الشاعرة الكويتية د. سعاد الصباح، ضمن مشروعها لتكريم الأحياء من رواد الثقافة والأدب واللغة العرب.

ويعد العريض المحطة الثانية في مخطط التكريم، حيث سبق لصاحبة المبادرة تكريم المفكر الكويتي الراحل عبدالعزيز حسين.

كتب جديدة

العالم سياسة.. توجع، تأليف إبراهيم **بشحي، صدر عن مؤسسة الأيام للصحافة.**

قطر

توقف صحيفتي «العرب» و«العروبة»

احتجبت - مؤخرًا - صحيفة «العرب» أقدم الصحف اليومية القطرية وشقيقتها الأسبوعية «العروبة» عن الصدور لأسباب مادية.

وكان عميد الصحافة القطرية الراحل عبدالله حسين نعمة قد أصدر في 5 فبراير 1970م مجلة «العروبة» التي تحولت في سبتمبر 1995م إلى صحيفة أسبوعية، كما أصدر في 7 مارس 1972م جريدة «العرب».

وبعد وفاة المؤسس وجد ورثته أمامهم خيارين: إما إنفاق 18 مليون ريال لتحديث الآلات أو طرح امتياز الصحيفة للبيع، وقد اختير الأخير.

كتب جديدة

التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، تأليف د. عبدالحليم عويس، صدر ضمن سلسلة «كتاب الأمة».

سلطنة عمان

كتب جديدة

عمان في التاريخ (مجموعة دراسات وأبحاث ألقيت في ندوة أقيمت بجامعة قابوس)، صدر عن وزارة الإعلام.

الطعنة، مسرحية للأديبة آمنة ربيع سالمين، صدرت عن دار رؤيا للنشر.

الكويت

استعدادات لمهرجان القرين

تجري حاليًا استعدادات لإقامة مهرجان القرين الثقافي الثالث بهدف توسيع مجالات

محاضرات وندوات

«وجوب التفقه في الدين»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الشيخ عبدالعزيز بن باز في حي العدوة بالطائف، سماحة المفتي العام للمملكة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

«فنون المدائح النبوية في الشعر الأندلسي وخصائصه»، موضوع محاضرة ألقاها في أحدية المبارك بالأحساء، د. صادق علي حبيب.

نظمت رابطة الأدب الحديث في القاهرة أمسية شعرية تكريمية للشاعر محمد عبدالعال بمناسبة بلوغه سن الستين، شارك فيها عدد من الأدباء والنقاد يتقدمهم د. محمد عبدالمنعم خفاجي.

«الصحافة الاقتصادية»، موضوع أمسية نظمتها الغرفة التجارية الصناعية بالمنطقة الشرقية، شارك فيها الأساتذة: محمد التونسي، وسلطان البازعي، ود. عبدالعزيز داغستاني، ود. عبدالواحد الحميد.

«معطيات فكر د. طه حسين»، موضوع ندوة أقيمت في المركز الثقاف[ي] المصري في لندن، شارك فيها نخبة من المتخصصين، منهم د. رشيد العناني وسامح كريم، ود. أحمد عثمان.

«الفن والأسطورة»، عنوان ندوة نظمها المركز الثقافي الهندي في القاهر[ة] شارك فيها كل من د. أحمد تيمور، ود. عبداللطيف عبدالحليم، ود. نبيل راغب وفوزية مهران.

«التراث الشعبي ودوره في تنمية الحس الجمالي والفني لدى الطفل» عنوان ندوة نظمها المجلس القومي لثقافة الطفل في القاهرة، شارك فيها كل م[ن] الدكاترة: أحمد مرسي، وسرية صدقي، وشاكر عبدالحميد، وأدارها د. علا[ء] حمروش.

«أسرار التداوي في القرآن الكريم والسنة»، موضوع ندوة نظمتها جمعي[ة] الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بمسجد د. مصطفى محمود بالمهندسين بالقاه[رة] الكبرى، تحدث فيها د. طه خليفة.

نشاطاته ودعمها، وتقريبها أكثر للجماهير، كي يكون المهرجان مترجمًا للأهداف التي نشئ من أجلها، من خلال تميز نشاطاته وتوسعها.

وتتابع لجان متخصصة في المجلس الوطني للثقافة والفنون عمليات الاستعداد والتجهيز للمهرجان، الذي يُتوقع أن يكون مختلفًا عن الدورتين السابقتين سواء من حيث حجم النشاطات وتنوعها، أو من حيث موضوعاتها وأسلوب تقديمها.

إعادة افتتاح المتحف الوطني

أُعيد - مؤخرًا - افتتاح الجناح الرابع لمتحف الكويت الوطني بعد إغلاقه زمنًا امتد ست سنوات إثر عمليات السرقة والنهب والتبديد التي تعرض لها المتحف أثناء الغزو العراقي.

ويمثل المتحف تاريخ الإنسان الكويتي وآثاره، وما قدمه للإنسانية عبر تاريخه. ويعد الجناح الرابع الذي أعيد افتتاحه مصدرًا أساسيًا لمعرفة تاريخ أرض الكويت وحضارتها، حيث يضم مجموعة كبيرة من آثار العصور الحجرية.

كما تجري حاليًا عملية ترميم وإعداد لإتمام افتتاح باقي أجنحة المتحف.

كتب جديدة

الصينيون المعاصرون، تأليف وو ين، ترجمه إلى العربية د. عبدالعزيز حمدي، وراجعه د. لي تشين، وصدر ضمن سلسلة «عالم المعرفة».

اليمن

خطة لحماية مدينة شبام التاريخية

عُقِدَ اتفاق يمني - هولندي على ثلاثة مشروعات ترمي إلى حماية مدينة شبام التاريخية في محافظة حضرموت الشرقية من المتغيرات البيئية وإنقاذ مبانيها القديمة من الانهيارات.

وتتمثل تلك المشروعات في وضع خارطة سيتم تصويرها بالأقمار الصناعية، لتكون أساسًا لدراسة المتغيرات البيئية، وإنشاء مشروع نموذجي لنظام الري، وآخر لتوزيع المياه للمناطق المحيطة بالمدينة.

مصر

مصادرة كتاب يسيء للأنبياء

أصدر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فتوى بحظر نشر كتاب «التحليل النفسي للأنبياء» لمؤلفه عبدالله كمال الصحافي في مجلة روز اليوسف.

جاء في حيثيات القرار: إن الكتاب بصورته وطريقة إخراجه يُعدّ من أساليب القدح في الأنبياء وفي عصمتهم، والمعلوم أن الأنبياء ليسوا بمحل للتحليل النفسي الذي يزعمونه، فذواتهم فوق كل اعتبار، ولا تخضع لمقاييس بشرية أو معايير مستوردة قابلة للأخذ والرد عليها.

واستنكرت مذكرة الأزهر وجود ثلاث صور على غلاف الكتاب قيل إنها ترمز للأنبياء موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

الفائزون بجوائز الدولة

أُعلنت أسماء الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية لعام 1995م في مجالات الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية.

فاز بالجائزة التقديرية في مجال الآداب الدكاترة: مصطفى محمود، ولطيفة الزيات، وبدوي طبانة، وفي مجال الفنون المخرج

«أدب القصة في مصر القديمة»، موضوع محاضرة ألقاها في المجلس الأعلى للآثار بالقاهرة، أحمد صالح.

«أعمال سيد عويس وأثرها على الحياة الثقافية في مصر»، موضوع ندوة أقيمت في مكتبة القاهرة، تحدث فيها د. مسعد عويس، وأدارها كامل زهيري.

«الإيمان بالغيب في ضوء الكتاب والسنة»، عنوان محاضرة ألقاها في مركز الدعوة والإرشاد بالدوحة، الشيخ أحمد حسن عيسى عبدالظاهر.

«شباب الأمس واليوم»، عنوان محاضرة ألقاها في إدارة المساجد والمشاريع الإسلامية بالقرين في الكويت، الشيخ نبيل العوضي.

«صفر الخير»، عنوان محاضرة ألقاها في مسجد أبي سعيد الخدري في حرة، الشيخ علي بن يحيى حكمي.

«حق العودة الفلسطيني»، عنوان محاضرة ألقاها في قاعة الكوفة في لندن، د. عبدالوهاب المسيري.

«لمحة عن الشعر العربي»، عنوان محاضرة ألقاها في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، د. غازي القصيبي.

«قوة الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية»، موضوع محاضرة ألقتها في نادي القضاة بالقاهرة، د. إيفون حداد.

«رسالة إلى الشباب»، عنوان محاضرة ألقاها في ثانوية العقيق، الشيخ ساير دخيل الله العلياني.

«الإسلام والمحطات الفضائية عبر العالم»، عنوان محاضرة ألقاها في مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، جمال خاشقجي.

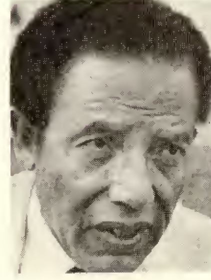
استضاف ديوان الكوفة في لندن الشاعر العراقي فاضل السلطاني في أمسية شعرية.

«الحرب والسلم في النظام العالمي الجديد»، عنوان محاضرة ألقاها في دار الندوة ببيروت، عميد كلية الآداب بجامعة صفاقس التونسية.

«المرأة في مرآة الشعر العربي الحديث: أحمد شوقي»، عنوان محاضرة ألقاها في مركز الحوار العربي في واشنطن، د. عرفان شهيد.

«المكرمون يوم القيامة»، عنوان محاضرة ألقاها في جامع الفاروق بمدينة الثقبة، الشيخ منصور بن صالح الهديب.

السينمائي هنري بركات، والفنانة التشكيلية تحية حليم، وفي مجال العلوم الاجتماعية الدكاترة: عائشة راتب، وسعيد عاشور، ويونان لبيب رزق، وفؤاد زكريا.



د. مصطفى محمود

وفاز عدد آخر من المبدعين بالجوائز التشجيعية، فيما حُجبت جوائز أخرى، والفائزون هم:

زاخر غبريال جرجس (الترجمة)، جميل عيسى (ثقافة الطفل)، محمد إمبابي (الرواية)، هاني مطاوع (النقد المسرحي)، محمد الشربيني (الدراما التلفازية)، أسامة كامل (علم النفس)، محمود رجب (الفلسفة)، ليلى الخواجة (العلوم الاقتصادية)، وأحمد سلامة (القانون الدولي).

توصية بإنشاء مركز قومي للتراث العلمي

واكب انعقاد القمة العربية بالقاهرة، التقاء المثقفين العرب في ندوة تراثية، نظمتها لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر، في إطار الاحتفالات باختيار القاهرة عاصمة ثقافية إقليمية للعالم العربي لعام 1996م.

حملت الندوة عنوان «التراث العلمي العربي»، وشارك فيها ثلاثون باحثًا من مختلف الأقطار العربية، حيث أوصوا - بعد مناقشات دامت يومين - بإنشاء مركز قومي للتراث العلمي العربي، يضطلع به المجلس الأعلى للثقافة في مصر بالاشتراك مع دار الكتب والوثائق القومية المصرية، ومعهد المخطوطات العربية، ويتم إعداد (بيليوجرافيا) تقوم بإحصاء التراث المتاح على مستوى المخطوطات وترجماتها.

ندوة العالم الإسلامي والتحدي الحضاري

تنظم جامعة عين شمس بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية ندوة موسعة بعنوان: «العالم الإسلامي والتحدي الحضاري» خلال شهر سبتمبر المقبل 1996م.

تناقش الندوة إمكان تحويل العالم الإسلامي إلى إقليم اقتصادي وسياسي كبير استنادًا إلى ما يتمتع به من وحدة روحية تدعمها روابط الدين والتاريخ، كما تتطرق إلى عوامل الضعف التي تعاني منها الدول الإسلامية، فضلا عن تعرض بعضها إلى هجمات شرسة من قِبَل قوى خارجية.

ويُتوقع أن تؤكد الندوة أن العالم الإسلامي مُطالَب بإعداد نفسه للقيام بدوره الحضاري، وعدم تسويغ تخلفه بالعوامل الخارجية فقط، إذ يجب النظر إلى العوامل الداخلية بوصفها مؤثرًا أكبر في حركة النهضة الإسلامية. كما سيعرض المشاركون أفكارهم وتصوراتهم للحلول المقترحة المناسبة لمواجهة التحديات الحضارية.

عودة مركب فرعوني إلى مصر

أعادت سيدة فرنسية تدعى أنيك لوغاي من مرسيليا إلى مصر مركبًا فرعونيًا من الخشب، يبلغ طوله 70 سنتيمترًا، ورثته عن جدها الذي اشتراه من مصر قبل نحو مئة عام. وسيتم عرض المركب الذي يعود إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبًا في المتحف المصري.

بنك معلومات سكانية في جامعة الأزهر

تدرس جامعة الأزهر حاليًا فكرة إنشاء بنك للمعلومات خاص بالسكان في دول العالم الإسلامي، يبدأ بتقديم خدماته باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

ويرمي البنك إلى تخزين المعلومات السكانية في الدول الإسلامية وتوفير البيانات اللازمة للباحثين في هذا المجال.

ويتوقع أن يضم البنك المعلومات الأساسية حول التركيبة السكانية في دول العالم الإسلامي؛ من حيث الموقع وعدد السكان وأهم المدن والقوى العاملة فيها ونسبة البطالة التي تعانيها، وكذلك معلومات حول طبيعة الأسرة في المناطق الجغرافية المختلفة، ومعدلات الدخل ومستوى التعليم والتدريب والبحث العلمي ومستوى التغذية، ومعلومات عن المؤسسات العلمية والشخصيات البارزة في المجالات المختلفة، والأنشطة العلمية والثقافية بها.

وسام شيلي لنجيب محفوظ

سلم سفير شيلي بالقاهرة نيلسن هيريس وملحقها الثقافي رامون كونتريراس «وسام جابرييلا لاميسترال» إلى الأديب نجيب محفوظ.

يحمل الوسام اسم الشاعرة الشيلية الفائزة بجائزة نوبل عام 1945م، وهو أعلى وسام تهديه شيلي إلى الكتاب والفنانين البارزين في العالم.

الإبداع في التعليم والثقافة

نظمت رابطة التربية الحديثة بالتعاون مع مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية مؤتمرًا بعنوان: «الإبداع في التعليم والثقافة» في منتصف شهر صفر الماضي استمر ثلاثة أيام.

شاركت في أعمال المؤتمر مجموعة من الأكاديميين والمفكرين، حيث قدموا خمسة عشر بحثًا دارت حول تحليل العملية التعليمية من أجل تنمية القدرات الإبداعية والثقافية للأجيال المقبلة.

مهرجان إسكندريات العالم

تشارك 17 مدينة من بين 44 تحمل اسم الإسكندرية في مهرجان إسكندريات العالم خلال المدة من 6 إلى 16 جمادى الأولى

(19- 29 سبتمبر 1996م).

يتضمن المهرجان فقرات ثقافية وفكرية وفنية وموسيقية، ويقام على هامشه عرض أزياء عالمي.

ترميم ضريح ومعبد ابن ميمون

يعد حاليًا لترميم معبد وضريح موسى بن ميمون، أحد أبرز الفلاسفة اليهود في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في الأندلس.

يقع المعبد في حارة اليهود بوسط القاهرة، في منطقة تزخر بالآثار الإسلامية، ويعد واحدًا من ثلاثة مبان يهودية ما تزال قائمة في الحارة خلف القصور الفاطمية، التي يرجع تاريخها إلى عشرة قرون خلت.

يذكر أن موسى بن ميمون (1135 - 1204م) ولد في قرطبة، إلا أنه أمضى سنوات عمره الأخيرة في القاهرة، وفيها دُفن، إلى أن نقلت رفاته - مؤخرًا - إلى طبرية في فلسطين المحتلة.

كتب جديدة

الرواية اليوم، مجموعة دراسات لنقاد غربيين، أعدها للنشر وقدم لها مالكولم برادبري، وترجمها إلى العربية أحمد عمر شاهين، وصدرت ضمن سلسلة «الألف كتاب الثانية» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الحمام في الشعر العربي، تأليف د. على إبراهيم أبو زيد، صدر عن دار المعارف.

عقل جديد لعالم جديد، تأليف روبرت أرنشتاين وبول إيرلش، ترجمه إلى العربية د. أحمد مستجير.

الطرف الأزرق من الطيف، مجموعة قصصية لياسر إبراهيم، صدرت ضمن سلسلة إبداعات.

صدر الكتابان السابقان عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.

المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، المجلد الثاني، تأليف محمد حسنين هيكل، صدر عن دار الشروق.

الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف رجاء جارودي، صدر ضمن سلسلة «كتاب الغد العربي» عن دار الغد العربي.

الأرض المقدسة لأشهر فناني القرن 19م، تأليف دافيد روبرتس (وصف لرحلة قام بها المؤلف عام 1839م لبعض الأراضي العربية المقدسة في سيناء وفلسطين والأردن ولبنان)، صدر بالإنجليزية عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية في القاهرة.

جاسوس من الصرب، تأليف فؤاد حسين، صدر عن دار نشر هايتيه.

لا أحد يدخل معهم، ديوان لمحمد الحمامصي، صدر عن جماعة (نصوص 90).

الملعونون والملعونات في القرآن والسنة، جمعه وعلق عليه الشيخ طه عبدالله عفيفي، وصدر عن دار الإرشاد.

لعلك تضحك، تأليف أنيس منصور، صدر عن دار نهضة مصر.

سورية

اكتشاف مصنع أثري للزجاج في الرقة

عثرت بعثةُ معهد الآثار الألماني العاملة في مدينة الرقة السورية الواقعة على ضفاف نهر الفرات على أدلة تؤكد عراقة صناعة الزجاج في سورية؛ إذ اكتُشف مصنع كامل لإنتاج الزجاج في القصر الغربي إلى جوار منطقة كان قد اكتُشف فيها سابقًا مصنع للفخار العادي، ويرجع مصنع الزجاج المكتشف إلى العهود الإسلامية الباكرة.

وتقول مصادر البعثة إنها عثرت على حطام أكثر من 250 آنية وقطعة زجاجية، وتتضمن الشظايا الزجاجية مجموعة كبيرة من الأباريق المزينة بالزخارف والرسوم الهندسية، وكانت أكثر البقايا لكؤوس وقوارير شفافة.

اكتشاف ملكة عربية لم تُعْرَف قبلاً

عُثر على نص منقوش على قطعة من حجر البازلت في بلدة خناصر التابعة لمحافظة أدلب في شمال غربي سورية يعود تاريخه إلى عام 320م.

تكمن أهمية الكشف في دلالته على وجود ملكة عربية تدعى «أنا سارثا» تلقب بـ «ملكة العرب» لم تكن معروفة من قبل؛ حيث وُجد على الحجر ما نصّهُ: «كما تمتعت بالنور كذلك ماتت.. أيتها الأرض تكرمي باحتضان ملكة العرب فهي وأخواتها كُرِّموا من قبل خدامها أورانيوس».

كتب جديدة

صاروخان: الكاريكاتير.. الانتماء، تأليف د. مروان الخطيب، صدر عن دار الصداقة في حلب.

غابة الصمت، مجموعة شعرية جديدة لنزار بريك هنيدي، صدرت عن منشورات وزارة الثقافة.

تاريخ ثمود، تأليف ألبير فان دين براندن، ترجمه إلى العربية نجيب غزاوي، وصدر عن دار الأبجدية للنشر.

طريق الحرافيش: رؤية في التفسير الحضاري، تأليف د. سليمان الشطي، صدر عن دار المدى في دمشق.

المعجم الجغرافي السوري، صدر عن مركز الدراسات (مسكرية).

من الرماد إلى الرماد، مجموعة شعرية لعائشة أرناؤوط، صدرت عن دار علاء الدين.

لبنان

معرض دولي للكتاب

اختتمت - مؤخراً - أعمال معرض لبنان الدولي الثاني للكتاب بمشاركة 236 دار نشر عربية وأجنبية.

نظمت المعرض نقابة اتحاد الناشرين في لبنان بالتنسيق مع وزارة الثقافة والتعليم العالي على مساحة 40 ألف متر مربع، وأقيمت على هامشه ندوات ثقافية وفكرية وأمسيات شعرية وقصصية.

مؤتمر دولي للأدب العربي

شارك 40 باحثاً عربياً وأجنبياً في أعمال مؤتمر «أساطير ونماذج تاريخية وشخصيات رمزية في الأدب العربي: مقاربة تأويلية جديدة» الذي نظمه في بيروت - مؤخراً - المعهد الألماني للأبحاث الشرقية.

توزعت أعمال المؤتمر على سبع حلقات دراسية بمعدل حلقتين يومياً، عالجت عدة موضوعات منها: القصص والفداء، المحاكمة والمناظرة في الأدب، الشاعر كعابر سبيل، الحنين إلى الأوطان، المدينة: فضاء الرغبة، وغيرها. كما تنوعت المحاضرات التي أُلقيت ما بين أدب جاهلي وحديث، وأدب قرآني ومؤلفات تاريخية وجغرافية.

وتزامن مع المؤتمر إصدار المعهد الألماني لكتاب «أعلام الأدب العربي المعاصر: سير ذاتية» من إعداد روبرت كامبل.

جائزة أدبية ونقدية وتشكيلية

أعلن جوزيف الريف صاحب جاليري «ستاسيون دي زار» عن إنشاء «جائزة ستاسيون دي زار السنوية للإبداع»، في مجالات النص الأدبي والنقد والفن التشكيلي.

الجائزة مفتوحة لكل اللبنانيين داخل لبنان وخارجه، وموزعة بواقع عشرة آلاف دولار لأهم لوحة تشكيلية ينجزها فنان على مدار عام، وخمسة آلاف دولار لأهم نص نقدي فني يُنشر في الصحافة اللبنانية خلال عام، وخمسة آلاف دولار لأفضل نص قصصي أو روائي أو مسرحي، وآخر موعد للترشيح في أبريل المقبل 1997م.

مجلة «دراسات لبنانية»

أصدرت وزارة الإعلام اللبنانية العدد الأول من المجلة الفصلية «دراسات لبنانية» التي يشرف عليها المدير العام للوزارة محمد عبيد، ويرأس تحريرها صالح الأشقر.

تدور موضوعات المجلة حول دراسات متنوعة عن الأوضاع في لبنان، وتتوخى نشر دراسات تعرض - بالإضافة لوجهة نظر الدولة - وجهات نظر كثيرة في مختلف الميادين، إضافة إلى رصد حركة التطور السياسي والإداري والتنموي والاجتماعي والثقافي.

كتب جديدة

أساليب الشعرية المعاصرة، تأليف د. صلاح فضل، صدر عن دار الآداب في بيروت.

معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، إعداد د. عفيفي البهنسي، صدر عن مكتبة لبنان.

دليل إسرائيل العام، تأليف عدد من الباحثين، تحرير صبري جريس وأحمد خليفة، صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

فلتشرق الشمس من جديد على الأمة العربية، تأليف محمد فاضل الجمالي، صدر عن دار الحكمة.

لبنان في القرن الثامن عشر: المؤتمر الأول

رسائل جامعية

«الفتنة في ضوء القرآن الكريم»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، تقدم بها عبدالحميد عبدالرحمن السحيباني.

«مشكلات تدريس التربية الأسرية»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية التربية بالمدينة المنورة، تقدمت بها آمنة محمد إسماعيل الرفاعي.

«قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين الخاصة بالخدمات الطبية والاتصال بالعالم الخارجي»، عنوان رسالة ماجستير نوقشت في المعهد العالي للعلوم الأمنية بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب، تقدم بها عبدالله ناصر الرفيق.

«حكم العمل بالحديث الضعيف.. دراسة أصولية تطبيقية على ما ورد في قسم العبادات من جامع الترمذي»، عنوان رسا[لة] ماجستير، نوقشت في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامع[ة] أم القرى، تقدم بها محمد بن إبراهيم حسن السعيدي.

« كتاب التوضيح لشرح الجامع الصحيح»، عنوان رسالة ماجست[ير] نوقشت في جامعة أم القرى، تقدم بها أحمد الشريف العرضاوي.

«الأندلس بين الفتح الإسلامي وقيام الإمارة الأموية»، عنوا[ن] رسالة ماجستير، نوقشت في معهد الدراسات الإسلامية بالقاهر[ة] تقدمت بها نعمات عباس محمد.

«نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية وتأثيرها على الإصلا[ح] الإداري»، عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الاقتصاد والعلو[م] السياسية بجامعة القاهرة، تقدم بها علي محمد منصور.

«إدارة برامج الخصخصة.. دراسة للعمالة المصرية»، عنوا[ن] رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياس[ية] بجامعة القاهرة، تقدم بها خالد زكريا أبو الذهب.

الجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية، تأليف مجموعة من الباحثين، صدر عن دار المنتخب العربي.

الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون، تأليف شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، صدر عن دار ابن حزم.

السيمياء والتأويل، تأليف روبرت شولز، ترجمه إلى العربية سعيد الغانمي، وصدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

إسرائيل وهويتها الممزقة، تأليف د. عبدالله عبدالدائم، صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.

الأردن

كتب جديدة

فخري قعوار: ثلاثون عامًا من الإبداع، دراسة لإبراهيم خليل، صدرت عن منشورات رابطة الكتاب الأردنيين، وبدعم من مؤسسة عبدالحميد شومان.

الجهود العلمية للمرأة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، تأليف د. نادية عبدالله إبراهيم، صدر عن مؤسسة البلشم للنشر والتوزيع في عمان.

المغرب

عودة «أصيلة»

اختتم مهرجان أصيلة موسمه الثقافي في دورته الثانية عشرة - مؤخرًا - بمشاركة أكثر من 150 مفكرًا وكاتبًا وفنانًا من مختلف الأقطار.

جاء استئناف المهرجان بعد توقف اضطراري بعد دورة 1994م لأسباب مادية. وفي إطار المهرجان نظمت جامعة المعتمد بن عباد عدة ندوات من أهمها: «العرب والأمريكيون: صورة الواحد في منظور الآخر»، و«اكتشاف الفن الإسلامي: المنابع والحداثة»، و«عولمة التنمية والخدمات الاقتصادية».

كما احتفت أصيلة بالشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي بمناسبة منحه جائزة تشيكايا أوتامسي للشعر الإفريقي، وأقيمت ندوة حول «حجازي والحداثة في الشعر العربي» شارك فيها مجموعة من النقاد والأدباء.

لغات إفريقية بالحرف العربي

بدأت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإيسيسكو» في إعداد دورات تدريبية لطلاب من 15دولة إفريقية مسلمة حول استخدام آلة كاتبة تطبع 11 لغة من لغات الشعوب الإفريقية المسلمة باستخدام الحرف العربي.

وقد أنجزت المنظمة هذا الاختراع بالتعاون الفني مع معهد الدراسات والأبحاث في الرباط، والمكتب الإقليمي لليونسكو في داكار، ومعهد الخرطوم الدولي للغة العربية، وبالتعاون المالي مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية في ليبيا والبنك الإسلامي للتنمية.

جائزة الإيسيسكو للإبداع الأدبي النسائي

أنشأت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) جائزة جديدة باسم «جائزة الإيسيسكو للإبداع الأدبي النسائي»

«إقليم الموصل والجزيرة من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الآداب في سوهاج، التابعة لجامعة جنوب الوادي المصرية، تقدم بها محمد علي صحصاح.

«معالجة الصحافة المصرية الحزبية والمستقلة لقضايا السياسة الخارجية في الفترة من 1944- 1954م»، عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، تقدمت بها آمال سعد المتولي.

«الخصائص الفنية للرسوم الصحفية في مجلة صباح الخير»، موضوع رسالة ماجستير نوقشت في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، تقدم بها عبدالعزيز الجندي.

«الجريمة العسكرية في التشريع الكويتي والمقارن»، عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، تقدم بها فلاح عواد العنزي.

«الكاتبات البريطانيات في مصر في أواسط القرن التاسع عشر»، موضوع رسالة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب بجامعة القاهرة، تقدمت بها سحر محمد صبحي عبدالحكيم.

«أثر تعلم لغتين على بعض المتغيرات العقلية لدى الأطفال»، عنوان رسالة ماجستير، نوقشت في كلية التربية بجامعة المنوفية المصرية، تقدم بها محمد أحمد أحمد صالح.

«التنظيم الإداري للدولة الإسلامية في فترة الخلافة الراشدة»، موضوع رسالة ماجستير، نوقشت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، تقدم بها صالح عبدالرحمن الشيخ.

«الزهد عند الحسن البصري»، موضوع رسالة ماجستير، نوقشت في معهد الدراسات الإسلامية في القاهرة، تقدم بها حسن علي .

«التنافس السعودي الإيراني العراقي في منطقة الخليج العربي بين 1930-1973م»، عنوان رسالة دكتوراه، نوقشت في كلية الآداب بجامعة جنوب الوادي في سوهاج، تقدمت بها نجاة سليمان.

تُخصَّص لأفضل نص أدبي يُقَدَّم في شكل مقالة أدبية أو قصة قصيرة بإحدى لغات عمل المنظمة، وهي العربية والإنجليزية والفرنسية.

تهدف الجائزة إلى تمكين المرأة في العالم الإسلامي من ممارسة دورها الأدبي في مجتمعها المسلم، وتشجيعها على الاهتمام بالإبداع الأدبي والمشاركة في الحياة الأدبية.

وتحدد يوم السادس عشر من شهر ربيع الآخر الجاري (نهاية أغسطس 1996م) موعداً نهائياً لاستقبال المشاركات، التي يُشترط فيها ألا يكون النص المرشح قد سبق نشره، وألا يتجاوز عشر صفحات مطبوعة. ويُنتظر أن يتم الإعلان عن أسماء الفائزات في السابع من شهر جمادى الأولى المقبل (20 سبتمبر 1996م). وستقوم المنظمة بترجمة النصوص الثلاثة الفائزة ونشرها.

جائزة الشعر الإفريقي لحجازي

مُنح الشاعر المصري أحمد عبدالمعطي حجازي (61 عامًا) جائزة المغرب الكبرى للشعر الإفريقي التي تحمل اسم «جائزة تشيكايا أوتامسي للشعر الإفريقي» بإجماع آراء لجنة التحكيم التي يرأسها الروائي والكاتب الكونغولي هنري لوبيز.

ويعد حجازي أول شاعر عربي يفوز بهذه الجائزة التي تحمل اسم الأديب الكونغولي المتوفى قبل ثمان سنوات.

كتب جديدة

الروضة المقصودة في مآثر ابن سودة، تأليف عبدالعزيز تيلاني، صدر عن مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء.

النساء والإنجاب، تأليف رحمة بورقية، صدر بالفرنسية عن دار نشر إفريقيا أورينت في كازابلانكا.

الجزائر، تأليف جمال الدين بن شيخ وآخرين، صدر عن دار الفينيك في الدار البيضاء.

الصورة في الرواية، تأليف ستيفن أولمان، ترجمه إلى العربية محمد مشبال وآخرون، وصدر عن مدرسة الملك فهد للترجمة في طنجة.

تونس

متحف جديد

افتتح في مدينة شمتو - مؤخرًا - متحف جديد حديث البناء شارك في تصميمه على أحدث الأنماط المعمارية والتقنية خبراء ألمان متخصصون.

يضم المتحف مجموعة من القطع الأثرية يعود معظمها إلى العصور القديمة، ولوحات لعدد من كبار الفنانين العالميين.

كتب جديدة

ثمار الجسد، مجموعة قصصية للأديب بوراوي عجينة، صدرت عن مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر.

اللاّ هُنا، قصة موباسان، صدرت في نص مزدوج - فرنسي/ عربي - عن معهد بيار منديس فرانس في تونس.

الوشم، رواية لعبدالرحمن مجيد الربيعي، صدرت في طبعة جديدة عن دار المعارف في سوسة.

بريطانيا

نشرة سعودية بالإنجليزية

أصدرت سفارة المملكة العربية السعودية العدد الأول من النشرة السعودية «سعودي أرابيان بوليتين» باللغة الإنجليزية.

تكونت النشرة من أربع صفحات في طباعة ملونة أنيقة، وضمت أخبارًا تتعلق بالسعودية وخاصة في مجالات الاقتصاد والأعمال.

مؤتمر «الإسلام والحداثة»

استضافت كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن مؤتمرًا عن الإسلام والحداثه شارك فيه مجموعة من المفكرين العرب والأجانب.

استمر المؤتمر يومين، وشهد يومه الأو
إلقاء المشاركين محاضرات تدور حو
موضوعه، فيما تضمن برنامج اليوم الثان
نقاشًا أداره جون سبوزيتو حول ما أُلقي م
محاضرات.

رحيل بلند الحيدري



بلند الحيدري

في صباح يوم الثلاثاء 22/ 3/ 1417هـ الموافق 6/ 8/ 1996م توفي الشاعر العراقي بلند الحيدري، عن عمر ناهز السبعين عاما، على إثر جراحة لم تُكلَّل بالنجاح أُجريت له في قلبه في أح
مستشفيات العاصمة البريطانية.

ولد الحيدري في 26 سبتمبر 1926م
وهو يتحدر من أسرة كردية عريقة، ولمع
اسمه منذ شبابه الباكر، بوصفه شاعرًا وفنا
تشكيليًا، وشارك مع رفيقيه الراحلين جوا
سليم وجبرا إبراهيم جبرا في تأسيس تيار فن
أثر في من جاء بعدهم من أجيال.

في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات
الميلادية انتقل الحيدري إلى بيروت ليعمل
استاذًا للغة العربية، ورئيسًا لتحرير مجل
«العلوم اللبنانية»، ومديرًا لتحرير مجلة «آفاق
عربية». بعد ذلك غادر بيروت إلى لندن
وأصدر مجلة «فنون عربية» حتى عا
1982م، ثم انتقل بعدها للكتابة في مجل
«المجلة» بصفة مستمرة حتى وفاته.

كان الحيدري من رواد شعر التفعيلة
كما كان من النقاد التشكيليين الكبار في
عالمنا العربي، وقد حصل على جائزة اتحا
الكتاب اللبنانيين 1972م، كما تُرجم ل
ديوانان إلى الإنجليزية، وتُرجمت العديد م
قصائده إلى لغات عالمية أخرى. وفي
السنوات الأخيرة من حياته قلل من كتاب
الشعر، وزاد اهتمامه بالعمل السياسي

وشارك في تأسيس اتحاد الديمقراطيين العراقيين في المنفى، وشغل منصب نائب الرئيس له.

من دواوينه ومؤلفاته: خفقة الطين 1946م، أغاني المدينة الميتة 1952م، قصائد أخرى 1957م، جئتم مع الفجر 1961م، خطوات في الغربة 1965م، رحلة الحروف السفر 1968م، حوار عبر الأبعاد الثلاثة 1972م، المجموعة الكاملة 1975م، أغاني الحارس المتعب 1977م، إلى بيروت مع تحياتي 1985م، أبواب إلى البيت الضيق 1990م، دروب في المنفى 1996م، زمن لكل الأزمنة (دراسات في الفن التشكيلي)، نقاط الضوء، مداخل إلى الشعر العراقي الحديث.

المتاحف البريطانية في الإنترنت

بحلول عام 2000 الميلادي ستكون محتويات المتاحف الكبيرة ومعارض الفن في بريطانيا متاحة للمشاهدة في البيوت والمكتبات العامة والمدارس من خلال شبكة «الإنترنت» وتلفاز «الكيبل».

فقد بدأت وزارة التراث البريطانية خطة لتهيئة صور رقمية لكل ما تضمه المتاحف ومعارض الفنون في عموم بربطانيا من آثار وقطع فنية؛ لبثها في كل أنحاء بريطانيا في مشروع يتكلف 500 مليون جنيه استرليني، ويموله مشروع اليانصيب الوطني.

ويتيح هذا المشروع التجول في متاحف مثل المتحف البريطاني ومتحف فكتوريا ومتحف العلوم، وفي معارض الفنون المختلفة بينما الشخص جالس في منزله؛ وسيرافق الصور الحاسوبية دليل يشرح كل قطعة أثرية أو فنية، وسيكون التصوير ذا بعد ثلاثي.

يذكر أن عدد زوار المتاحف البريطانية يزيد حاليًا على 100 مليون زائر بريطاني وأجنبي سنويًا.

انعقاد مؤتمر النشر الإلكتروني

تنظم مؤسسة «ليرند إنفورميشن يوروب» البريطانية بالتعاون مع صحيفة «الجارديان» اليومية اللندنية مؤتمرًا بعنوان «النشر الإلكتروني 1996»، وذلك في المدة من 9- 10 أكتوبر/ تشرين الأول المقبل في مقر الجمعية للفنون في وسط لندن. تشمل موضوعات المؤتمر خطط النشر والتسويق وتأسيس خدمات النشر المبتكرة واتجاهات أسواقها الاستهلاكية وتنظيم الإعلام المتفاعل ومراقبته.

أحدث الكتب

الذاكرة والحنين في القصة العراقية القصيرة في المنفى، تأليف د. عبد جاسم الساعدي، صدر عن مؤسسة الرافد للنشر في لندن.

المسرح المصري في القرن التاسع عشر 1799- 1882م، تأليف فيليب سادجروف، صدر عن دار نشر ايتاكابرس في لندن.

ثرثرة فوق الفرات: النزاع على المياه في الشرق الأوسط، تأليف علي جمالو، صدر عن دار رياض الريس للكتب والنشر.

تحت سماء غائمة، مجموعتان شعريتان للشاعر الفرنسي فيليب جاكوتية، صدرتا في كتاب واحد عن دار نشر بلوداكس.

خوارق اللاشعور، تأليف د. علي الوردي، صدر عن دار الوراق.

فرنسا

جائزة للسعودية لجهودها في محو الأمية

اختارت لجنة التحكيم الدولية لجوائز منظمة اليونسكو الدولية لمحو الأمية لعام 1996م برامج في أربع دول لنيل الجوائز، هي: السعودية وهايتي والمكسيك وزائير.

فقد حصلت دائرة الثقافة والتربية للقوات المسلحة التابعة لوزارة الدفاع والطيران السعودية على «جائزة الملك سيجونغ» الأولى لتمكنها من القضاء على أمية 17 ألف رجل وامرأة في إطار برنامج للقضاء على الأمية مخصص لموظفي الوزارة وعائلاتهم.

فيما مُنحت «جائزة الجمعية الدولية للقراءة» لبرنامج «مدارس صغيرة» في بورت أوبرنس بهايتي، حيث أتاح البرنامج افتتاح 175 مدرسة صغيرة تضم 900 معلم و25 ألف تلميذ في الأحياء الفقيرة من العاصمة.

ومنحت جائزة نوما «لبرنامج «حملة » لتعليم الكبار في ولاية هيدالجو بالمكسيك.

ونال نادي اليونسكو في زائير جائزة الملك سيجونغ الثانية؛ لأنه سمح بالتحاق 25 ألف تلميذ وشاب بالمدارس في مناطق ذات كثافة سكانية كبيرة.

معرض أثري عن السودان

يُقام في معهد العالم العربي في باريس، ضمن خطة المعهد الثقافية هذا العام، معرض أثري عن السودان بعنوان «في بلاد النيلين»، إضافة إلى بعض العروض الفنية، كما سيتم - خلال المعرض - تكريم الروائي السوداني الطيب صالح.

جريدة للأقلام النسائية العربية

أصدرت منظمة اليونسكو العالمية عددًا تجريبيًا من جريدة فصلية تُخصَّص للكتابات النسائية الجديدة في العالم العربي، وتتناول مجالات الإبداع والنقد والترجمة والتراث النسائي المهمش.

تحمل الجريدة اسم «الجورنال»، وتندرج ضمن برنامج المنظمة لتنمية الثقافة العربية.

أكاديمية أوربية وصندوق للشعر

تأسست في العاصمة الفرنسية، بناء على مبادرة من فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورج، أول أكاديمية أوربية للشعر.

يرأس الأكاديمية الأديب الفرنسي آلان بوسكيه، وتهدف إلى تأكيد مكانة الشعر في وسائل الإعلام، وتضم في عضويتها 30 عضوًا مؤسسًا و30 عضوًا مراسلاً يمثلون 18 دولة.

وقام المسؤولون عن الأكاديمية بإنشاء صندوق أوربي للشعر مقره لوكسمبورج، يمكن للشعراء من خلاله وضع أرشيف يكون بمثابة ذاكرة شعرية معاصرة.

معرض للفنون الأرمنية

تستضيف مكتبة فرنسا القومية معرضًا عن الفنون الأرمنية في ثلاثة آلاف عام تحت عنوان «من الشرق إلى الغرب»، يستمر حتى السابع من شهر جمادى الآخرة المقبل (20 أكتوبر 1996م).

يضم المعرض مجموعة من الخرائط والمخطوطات الأثرية، والحلي والمجوهرات الثمينة، فضلاً عن لوحات من الإمبراطورية الأرمنية القديمة.

«اليمن» فصلية عربية فرنسية

أصدر المركز الثقافي والإعلامي بسفارة الجمهورية العربية اليمنية في باريس مجلة فصلية باللغتين العربية والفرنسية تحمل اسم «اليمن»، وتُعنى بالموضوعات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

ترأس تحرير «اليمن» خديجة السلامة ومصطفى عبود، ويدير التحرير محمد القاسمي وحميد العواضي، وقد تضمن عددها الأول موضوعات متنوعة بإخراج أنيق.

لبناني يفوز بجائزة جمعية الشعراء الفرنسيين

مُنح الشاعر اللبناني آلان طاسو جائزة جمعية الشعراء الفرنسيين المسماة «وردة الشعراء الفرنسيين» لعام 1996م المخصصة لشاعر أجنبي يتغنى بفرنسا في أسفاره.

وآلان طاسو صحافي ورسام فضلاً عن كونه شاعرًا، وقد سبق له أن نال جائزة فرنسا ـ المتوسط عام 1993م.

أحدث الكتب

العبور، رواية لفيليب لابرو، صدرت عن دار نشر جاليمار في باريس.

الفوضى الروسية، تأليف جاك سبار، صدر عن دار ديكوفرت في باريس.

العالم موطنًا، تأليف جاك ليفي، صدر عن دار نشر هاشيت.

محمد علي: مؤسس مصر الحديثة، تأليف جوي فارجيت، صدر عن دار نشر هارتمان.

زولا والحياة، تأليف فريدريك براون، ترجمه إلى الفرنسية دومنيك بيتر، وصدر عن دار نشر بلفون.

الخيميائي، تأليف باولو كويلهو، صدرت ترجمتها الفرنسية عن دار نشر آن كاريير.

البرتغال

تكريم المعتمد بن عباد في مسقط رأسه

نظمت بلدية بيجا في جنوب البرتغال سلسلة من الأمسيات الثقافية تكريمًا للملك الأندلسي الشاعر المعتمد بن عباد، الذي يُعَدّ أحد أبناء هذه المدينة، حيث كان مولده فيها عام 1040م.

شمل التكريم إصدار ديوانه الشعري بمقدمة للباحث ألبرتو أفيس، كما أقيمت أمسيات أدبية حول أعماله وحفلات موسيقية أندلسية.

وفاة صاحب «الفصول الأربعة»

توفي الشاعر موراو فيرايرا ـ الذي يعد واحدًا من أبرز شعراء الأرجنتين ـ بعد صراع طويل مع مرض السرطان عن عمر ناهز 69 عامًا.

بدأ فيرايرا طرق مجال الأدب وهو ما يزال طالبًا في كلية الآداب عام 1945م، حيث كتب مقالات نقدية ونظم الشعر، وبدأ يُعرف ويشتهر مع مطلع الخمسينيات الميلادية وما تلاها من سنوات، إذ تُرجمت مؤلفاته إلى لغات عدة، وحصل على العديد من الجوائز. ويأتي عملاه «طيور النورس فوق الجزيرة» و«الفصول الأربعة» في مقدمة أشهر أعماله.

الولايات المتحدة

مؤتمر عن الأدب الأنجلو ـ إيرلندي

عقد ـ مؤخرًا ـ في جامعة هوفترا في نيويورك مؤتمر حول الأدب الأنجلو ـ إيرلندي تحت عنوان «العالم الجديد والقديم في الأدب الإيرلندي» بمشاركة أكاديميين ومتخصصين من 45 دولة من مختلف أنحاء العالم.

ناقش المؤتمرون صور هذا الأدب وخصائصه وسماته الفنية والأسلوبية والتأثيرات فيه؛ ورموزه.

يذكر أن المؤتمر يُعقد سنويًا في إحدى الدول التي يختارها أعضاء جماعة الأدب الإيرلندي، وقد سبق أن استضافته القاهرة عام 1993م.

رحيل الروائية الرومانسية يوجينا براس

توفيت الروائية يوجينا براس عن عمر ناهز 79 عامًا، وقد عُرفت برواياتها الرومانسية، ولاقت أعمالها رواجًا، إذ بلغ إجمالي مبيعات رواياتها ما يزيد على 0[illegible] مليون نسخة.

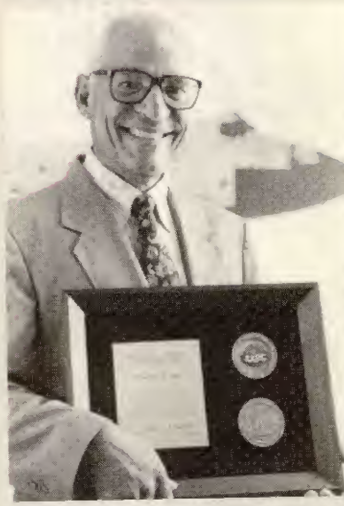
ومن أشهر رواياتها: «بزوغ القمر الجديد»، و«الزمن ينتظر»، إضافة إلى كتابها «كنز الإيمان».

أحدث الكتب

ليليان، رواية لنتوزاكي شانج، صدرت عن دار نشر منيرفا.

شكسبير واليهود، تأليف جيمس شابيرو، صدر عن دار كولومبيا يونيفرستي برس.

جائزة العمل المتميِّز لفاروق الباز



منحت الجمعية الأمريكية لجيولوجي البترول، الدكتور فاروق الباز، مدير مركز أبحاث الفضاء في جامعة بوسطن، جائزة العمل المتميز لعام 1996م، وذلك في اجتماعها السنوي بمدينة سان دييجو بولاية كاليفورنيا.

وهذه الجائزة التي تحمل اسم ميشيل حلبوتي الجيولوجي الذي برع في الكشف عن البترول في مدينة هيوستون بولاية تكساس، تمنحها الجمعية سنويًا لأحد الذين قاموا بأعمال تخدم البشرية.

وجاء في حيثيات منح الجائزة للدكتور فاروق الباز أنه قد حصل على الجائزة «لريادته المتميزة في البحث عن الحقائق في دراسة الأرض والفضاء، والبحث عن مصادر الثروة الطبيعية في الصحراء، وفي نشر العلم للصغار والكبار في جميع أنحاء العالم».

يذكر أن د. الباز حاصل على بكالوريوس العلوم من جامعة عين شمس بالقاهرة، والماجستير من كلية المناجم والتعدين بميزوري، والدكتوراه من جامعة ميزوري، وقد درّس الجيولوجيا في كل من جامعة أسيوط بمصر، وجامعة هايدلبرج في ألمانيا، وشارك في الكشف عن البترول في حقل المرجان بخليج السويس. وفي العام 1967م عمل في مشروع أبوللو التابع لوكالة الفضاء الأمريكية، وكان سكرتيرًا للجنة اختيار مواقع الهبوط على سطح القمر، ورئيسًا لهيئة تدريب رواد الفضاء في الجيولوجيا والتصوير.

كما أسس وأدار مركز الأرض والكواكب بالمتحف القومي للطيران والفضاء في واشنطن، وعمل نائبًا للرئيس العلمي والتقني في مؤسسة «آيتك»، وقاد برنامج استخدام الكاميرا الكبيرة الإطار على متن مكوك الفضاء. وفي العام 1986م أسس وأدار مركز أبحاث الفضاء بجامعة بوسطن. وهو عضو مؤسّس لأكاديمية العلوم للعالم الثالث، وترأس لجنة الأكاديمية لتقصي الحقائق عن الآثار البيئية لحرب الخليج، كما اختارته الأكاديمية رئيسًا للجنة الدائمة للنظر في المخاطر البيئية والتغييرات التي تؤثر في الأرض.

والدكتور فاروق الباز هو أحد كتّاب مجلة «الفيصل»، وقد أجرت معه المجلة من قبل عددًا من الحوارات.

ألمانيا

البزاز يفوز بجائزة هامبولد الألمانية

مُنحَ العالِمُ العربي فخري البزاز جائزة هامبولد الألمانية عن بحوثه التي تتناول تأثير زيادة غاز ثاني أكسيد الكربون في نمو النباتات والزراعة. وعلق العالم الألماني بيرتهولد ويلر على ذلك بقوله: «إن هذا يمثل أسمى اعتراف يقدمه المجتمع العلمي الألماني للإنجازات العلمية للبزاز.. ولا سيما أن من النادر منح عالم في علم الأحياء (البيولوجيا) جائزة هامبولد التي تُمنح عادة إلى علماء في علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات».

تبلغ القيمة المادية للجائزة مئة ألف مارك ألماني؛ أي نحو 70 ألف دولار.

ويشغل البزاز كرسي علم الأحياء في جامعة هارفارد الأمريكية، كما أنه عضو أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية.

وقد أجرى دراسات لحساب وزارة الطاقة الأمريكية حول تأثير غاز ثاني أكسيد الكربون المنبعث من حرق وقود الفحم والنفط والغاز. وتشير دراساته إلى أن كمية هذا الغاز المنبعث تقدر بنحو خمسة مليارات طن متري سنويًا، وتزيد في نمو النباتات في المناطق المعتدلة وشمال الكرة الأرضية. وهو بذلك يرى ضرورة النظر بتفاؤل إلى تأثيرات غاز ثاني أكسيد الكربون بقدر ما يُنظر إليها بتشاؤم بسبب خطر تراكم الغاز الذي يزيد من ارتفاع درجة حرارة الأرض.

ويجري البزاز حاليًا بحوثًا مشتركة مع العلماء الألمان، وسوف يقضي ستة أشهر في الجامعات الألمانية، وقد اختار جامعة بايروبث المعنية ببحوث البيئة مقرًا له خلال هذه المدة.

إلى كتابنا الكرام

نأمل من جميع كتابنا الكرام الذين نُشرت لهم موضوعات في «الفيصل»، ولم تصل إليهم مكافآتهم أن يوافونا بعناوينهم حتى يتسنى لنا إرسالها إليهم. كما نأمل من جميع الكتاب الكرام الذين يرسلون إلينا موضوعاتهم من خارج المملكة بغرض النشر أن يرفقوا معها الاسم (ثلاثيًا أو رباعيا إن أمكن) باللغتين العربية واللاتينية التي يتم الصرف على أساسها، مع وافر شكرنا لكل من شارك، ويشارك، في الكتابة للمجلة.


الجزيرة

أساليب التنصير في البلاد الإسلامية

إصدار يتناول جوانب من تاريخ التنصير في البلاد الإسلامية، وقد عرض المؤلف، د. قاسم السامرائي، بعض المقالات التي تناول فيها مصنفوها الاستشراق والتنصير، كما ذكر بعض جهود الذين بعدوا من النصرانية فهاجموها ودافعوا عن الإسلام، وبيّن طرائق المنصرين في ممارسة مهماتهم، وتناول بشيء من التفصيل نشاطات الإرساليات التنصيرية في آسيا وأفريقيا.

وذكر المؤلف دور بعض المغتربين من أبناء المسلمين الذين ساعدوا الإرساليات أو قاموا بدورها، فقال: «أثمرت الجهود التغريبية تكوين مجموعة من العلماء والمفكرين المنسوبين إلى الإسلام، تسلموا من الإرساليات دورها، فعمل الاستعمار والماسونية ومن ورائهما الإرساليات على التنويه بهم، والدعاية لهم، فبوأوهم مراكز التأثير في بلدان إسلامية»، ويشير المؤلف إلى النقطة المحورية في أهداف الإرساليات، وهي: «ليس المهم أن يصبح المسلمون هوداً أو نصارى، ولكن المهم أن يتخلّوا عن دينهم». لذلك تضافرت جهود المستشرقين والمنصّرين والصهيونية العالمية والاستعمار على غرض واحد هو تفتيت الإسلام، وذلك بزعم الدعوة إلى الإصلاح والتطوير ومسايرة المدنية الغربية، وهم يرمون بذلك إلى قطع صلة المسلمين بالإسلام وتفكيك الوحدة الإسلامية، وربط تطور كل مجتمع مسلم بعوامل محلية تهيئ للغرب والصهيونية أن تتعامل من موقع حاجة بعض هذه الدول الإسلامية إلى مساعدات.. وأشار المؤلف إلى دور «المتفرنجين» في ترسيخ هذا التوجّه بدعوتهم التي أسموها «إصلاح الإسلام»، ووجد هؤلاء ضالتهم في الحركات القومية التي ترمي إلى إضعاف الشعور الإسلامي.

صدر الكتاب، ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة، عن دار الرفاعي، وهو يقع في 64 صفحة من القطع الصغير.

شعر ابن شخيص الأندلسي

كتاب يتناول أحد شعراء القرن الرابع الهجري في الأندلس، هو: محمد بن مُطرِّف بن شُخَيْص الذي يوصف بأنه أحد فحول شعراء ذلك الزمان وأعيانهم ومقدميهم. وقد قام د. أحمد عبدالقادر صلاحية بجمع شعره وقدم له، وذلك ضمن مشروع للمؤلف للتعريف ببعض فحول شعراء الأندلس المجهولين لدى العامة، ولدى الخاصة أحيانًا.

سلط المؤلف الضوء على ابن شُخَيص، واستخلص أهم سماته مما وصله من شعره، وقام بتخريج القصائد والمقطعات، ورتبها على حروف الهجاء، والحركات الإعرابية، وقام بالتعليق عليها، وتوسع في شرحها، ونقل اختلاف الروايات وأهم الشروح من المصادر المحققة التي أوردت شعر ابن شخيص، ووضع بجانبها علامة تمييزًا لها من شروحه.

كما قام المؤلف بتحديد السمات العامة لشعر ابن شخيص، وما توصل إليه من خلال جمع وتحقيق «مانجا من قبضة الضياع»؛ فوصف الشاعر بأنه «متنوع الأغراض، متعدد الموضوعات، متقلب بين جد وهزل، وتبدو شخصيته واضحة في هزله، شاحبة، بل تكاد تكون غائبة، في مديحه، وفي مدائحه ملامح مشرقية واضحة وتأثر بيّن بكبار الشعراء المشرقيين مثل جرير والفرزدق والمتنبي».

يضم الكتاب مجموعة فهارس: فهرس الأعلام والقبائل، وفهرس الأماكن، وفهرس القوافي، وفهرس الأغراض الشعرية.

الكتاب يقع في 111صفحة من القطع المتوسط، وقد صدر في دمشق عن دار ابن القيم ودار شراع للدراسات.

الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني

دراسة نقدية للنماذج الواقعية في أعمال نجيب الكيلاني - رحمه الله -. وقد عرض المؤلف، د. حلمي محمد القاعود، رؤيته النقدية بتناول أربع روايات للكاتب هي: «اعترافات عبدالمتجلي»، و«امرأة عبدالمتجلي»، و«قضية أبو الفتوح الشرقاوي»، و«ملكة العنب».

وتحدث المؤلف عن الواقعية الإسلامية ووازنها بالواقعية الأوربية، والواقعية الاشتراكية، وخلص إلى أن الواقعية الإسلامية أكثر رقيًا لانحيازها للإنسان عمومًا دون «طبقته»، كما أنها تهتم باللغة والصياغة، بوصفهما الوعاء الذي يحقق الفنية والجمال في النص الأدبي.

وعرض المؤلف البيئة الروائية، والموضوعات التي عالجها الكيلاني روائيًا، وشخصيات رواياته، والبناء الفني، والأسلوب، واللغة، بوصفها نقاطًا تضافرت لتحقيق الواقعية داخل الرواية الإسلامية المعاصرة، ووصف أعمال نجيب الكيلاني بأنها تقع في دائرة «السهل الممتنع».

ألحق المؤلف بالدراسة فصلاً بعنوان «الكيلاني في صور»، جمع فيه بطاقته العائلية، وشهادات التقدير التي مُنحت له، والأوسمة التي حصل عليها، إضافة إلى صور فوتوغرافية له في ظروف مختلفة.

صدر الكتاب عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية (مكتب البلاد العربية)، ودار البشير، ويقع في 151صفحة من القطع المتوسط.

القيم التنظيمية

كتاب في الإدارة يطرح فكرة أن للمديرين في المنظمات التجارية الناجحة ما للمجموعة نفسها من القيم تقريبًا، كما أن المديرين الناجحين قد فكروا بإمعان فيما يتعلق بمعتقداتهم الخاصة ثم، دمجوا بعد ذلك، قيمهم التنظيمية مع القيم التي وصفها مؤلفا الكتاب الإنجليزيان ديف فرانسيس ومايك وود كَوكك، ففي منظورهما: «أن الإدارة الناجحة تمثل زواجًا أو ارتباطًا وثيق العُرى بين أربعة عناصر، هي: القيم التي تمت تجربتها واختبارها، «القديم»، والتفكير المثالي «الجديد»، والطرائق التقنية من المنظمات الأخرى الناجحة «المستعار»، والاهتمام الدائم بالإنجازات «المستطاب» الذي يتعايش معه الناس».

وطرح المؤلفان رؤى متعددة حول أخلاقيات الإدارة، لتزويد المديرين بإطار شامل لتمكينهم من إعادة النظر في قيمهم التنظيمية. وقد ناقشا فكرة الكتاب في خمسة عشر فصلاً ضمن أربعة أجزاء. ويعتقد المؤلفان أن أكثر المستفيدين من موضوع الكتاب هم أربع فئات من جمهور القراء: المديرون الذين يرغبون في تطوير قدراتهم الذاتية، فرق الإدارة التي ترغب في مسح القيم المتوافرة في منظماتهم ودراستها، مديرو شؤون الموظفين والمستشارون الذين يقومون بتصميم برامج تطوير المنظمة، طلاب الإدارة الذين سيكونون في يوم ما في مناصب ذات نفوذ.

يقع الكتاب في 230 صفحة من القطع العادي، وقد صدر عن الإدارة العامة بمعهد الإدارة العامة في الرياض، وقام بترجمته د. عبدالرحمن أحمد هيجان.

١- جوائز المسابقة :

جوائز كثيرة تقدمها المجلة لأصحاب الحلول الفائزة على النحو التالي:

أ - ثلاث جوائز مالية تمنح لثلاثة فائزين (٥٠٠ ريال، ٣٥٠ ريال، ١٥٠ ريال)

ب - خمس جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عامين (٢٤ عدداً).

ج - عشر جوائز اشتراك مجاني في المجلة لمدة عام واحد (١٢ عدداً).

د - خمس جوائز عبارة عن مجموعات من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض، قيمة كل مجموعة في حدود مائة ريال.

٢- شروط المسابقة :

أ - الإجابة عن جميع الأسئلة، وإرفاق القسيمة الأصلية - وليس نسخة مصورة - للمسابقة مع ورقة الإجابات التي يوضح فيها الاسم ثلاثيًا أو رباعيًا - إن أمكن - وعنوان المراسلة.

ب - ترسل الإجابات على العنوان التالي:

مسابقة . مجلة الفيصل.
ص.ب . (٣) الرياض (١١٤١١)
المملكة العربية السعودية

(مع ضرورة ذكر رقم المسابقة على المظروف)

جـ - أية إجابات تصل بعد ٤٥ يومًا (حسب التقويم الهجري) من صدور العدد لن يلتفت إليها.

د - من حق القارئ أن يشترك باسمه في المسابقة الواحدة أكثر من مرة شرط إرفاق قسيمة المسابقة مع كل رسالة.

تنبيه: نرجو من الإخوة المشاركين عدم لصق القسيمة على ورقة الإجابات أو قص أجزاء منها، وإنما يكفي وضعها مع ورقة الإجابات داخل المظروف.

أجوبة مسابقة العدد 235

ج1 : هي قول الله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجل مُسَمّى فاكتبوه وليكتُب بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما عَلَّمه الله فليكتب وليُملل الذي عليه الحق وليتَّق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا فإن كان الذي عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يُملَّ هو فليُملل وليُّه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضَون من الشهداء أن تَضلَّ إحداهما فتُذَكِّر إحداهما الأخرى ولا يأبَ الشهداء إذا مادُعُوا ولاتسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا إلاّ أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جُنَاحٌ ألاّ تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتَّقوا الله ويُعَلِّمكم اللهُ واللهُ بكل شيءٍ عليم.* **البقرة**:282.

ج 2 : سبب نزول هذه الآية ماورواه البخاري ومسلم: «إن اليهود كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تزعم أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، وكان الأنصار يتبعون اليهود في هذا، فأنزل الله عز وجل: *نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم.*

أي إنه لا حرج في إتيان النساء بأي كيفية، مادام ذلك في الفرج، وما دمتم تقصدون الحرث.

ج 3 : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن قتل الحيوان إلاّ لأكله.

روى النسائي وابن حبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل عصفورًا عبثًا عَجَّ إلى الله يوم القيامة يقول: يارب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة».

وروى مسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: «لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا».

نتائج مسابقة العدد 235

أ - فازت بالجائزة المالية الأولى، وقدرها 500 ريال سعودي، نوال محمد عبدالغني خياط، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

وفاز بالجائزة المالية الثانية، وقدرها 350 ريالاً سعوديًا، حميدي النواري، المسيلة، الجزائر.

وفاز بالجائزة المالية الثالثة، وقدرها 150 ريالاً سعوديًا، محمد يحيى بن محمد بن بديوه، نواكشوط، موريتانيا.

ب - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عامين (24 عددًا)، كل من:

1- سيد أحمد إسماعيل عبدالكريم، أسوان، مصر.
2- عبدالغني محمد السليماني، الناظور، المغرب.
3- صالح بريك عيد، الزرقاء، الأردن.
4- عبدالرحمن عبدالله عبدالرحمن المهوس، الرياض، المملكة العربية السعودية.
5- نادية مجيد المختار، ميركرز، ألمانيا.

ج - وفاز بجائزة الاشتراك المجاني في المجلة لمدة عام واحد (12 عددًا)، كل من:

1- مالك بن علي العريبي، الوردية، تونس.
2- سعيد عباس محمد إسماعيل، قنا، مصر.

ومَرَّ صلوات الله وسلامه عليه على طائر قد اتخذه بعض الناس غرضًا يصوبون إليه ضرباتهم، فقال: «لعن الله من فعل هذا».

ج 4: هو حسن (الناصر) 736-762هـ = 1336-1361م، بن محمد (الناصر) بن قلاوون، أبو المحاسن: من ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام. بويع بمصر، صغيرًا، بعد مقتل أخيه (حاجي، المظفر) سنة 748هـ. وكان اسمه «قماري» فلما ولي السلطنة تسمى «حسنًا» وقام بأمور الدولة الأمير يلبغا أروس نائب السلطنة، ووُزِّعت العطايا باسم الناصر. واستمر إلى سنة 752هـ ، فثار عليه بعض أمراء الجند، فخلعوه، وسجنوه بالقلعة في دور الحرم، وولّوا أخاه صالحًا (الصالح الثاني) ثم خلعوه سنة 755هـ، وأعادوا الناصر، فقبض على زمام الأمور بحزم. وخافه الناس؛ فأكمن له مملوكه الأمير «يلبغا» كمينًا، وهو في بر الجيزة، فأُخذ على غرَّة، وقاتل بعدد قليل من حاشيته، فنجا. وتنكر بزي أعرابي، وأراد السفر إلى الشام، فقُبض عليه في المطرية، فكان آخر العهد به. وقيل: خُنق ورُمي في النيل. وكانت مدة سلطنته الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيامًا. ومما قال ابن إياس في وصفه: كان شجاعًا مهيبًا، وافر الحرمة، عالي الهمة، محبًا للرعية، غير أنه كان كثيرًا ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال، وكان يميل إلي اللهو والطرب.

ج 5: هو القائد الألماني أروين روميل (1891-1944م). درَّب فيلق الصحراء الألماني تمهيدًا للعمليات الحربية في الصحراء شمال إفريقيا. تسلم قيادته 1941م، وحالفه النصر في المراحل الأولى، ثم هزمه القائد البريطاني مونتجومري في معركة العلمين. تقلد قيادة القوات الألمانية شمال فرنسا 1944م. قيل إنه أُمر بتناول السم حينما كُشف اشتراكه في مؤامرة دبرها الجيش ضد هتلر. أُطلق عليه اسم ثعلب الصحراء، ويُعدّ من مشاهير قادة الحرب العالمية الثانية. نشرت زوجته مذكراته.

3- هويدا محمد موسى، الخرطوم، السودان.
4- محمد عبدالعزيز عبدالله الغامدي، الباحة، المملكة العربية السعودية.
5- صبرية عبدالكريم طعمة، الجهراء، الكويت.
6- صلاح مفلح أسعد، دمشق، سورية.
7- حمدة الجزاف، المحرق، البحرين.
8- عبدالعزيز محمد عبدالله أبو الهطيل، جدة، المملكة العربية السعودية.
9- فوزية آدم محمد، الخرطوم، السودان.
10- فايز قسوم خليل، حماة، سورية.

■ كما فاز بجائزة مجموعة من إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، كل من:

1- ابن أباجي محمد كيازيم، تلمسان، الجزائر.
2- سعيد محمود محمد محمد علي حرفوش،الإسكندرية، مصر.
3- هنى جمال عبدالفتاح نوفل، القويسمة، الأردن.
4- حسني سلام الرومي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
5- أحمد شمس الدين بن عبدالله، المروج، تونس.

أسئلة مسابقة العدد 238

السؤال الأول:

ليوم الجمعة فضل عظيم وأثر كبير في حياة المسلمين. اذكر حديثين شريفين في فضل يوم الجمعة.

السؤال الثاني:

اختص المولى - سبحانه - المسلمين بأن جعل لهم الأرض مسجدًا وطهورًا. ولكن هناك مواضع نهى الشارع عن الصلاة فيها. اذكر أربعة منها.

السؤال الثالث:

حرم الإسلام أن يتصدق المسلم من مال حرام، وحث على التصدق من طيب المال. اذكر حديثًا شريفًا في ذلك.

السؤال الرابع:

قالت العرب في أمثالها: «لأمرٍ ما جدع قصيرٌ أنفه». فمن قصير ولم جدع أنفه؟

السؤال الخامس:

السنجاب حيوان معروف في قارات أمريكا وأوربا وآسيا وإفريقيا. إلى أي فصيلة من الحيوان ينتمي.

قسيمة
مسابقة مجلة
الفيصل
العدد 238
مجلة الفيصل - ص.ب: (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

ويأتيك بالأمثال

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الجَنَابُ الأَخْضَرُ

يُضرب لما لا يمكن تلافيه. قال الشرقيّ: هذا من أمثالهم القديمة، وأصل ذلك أنه لما ثَقُلَ ضبة بن أدّ اغتمّ، فقال له وَلَدُه: لو قد انتهينا إلى الجناب الأخضر لقد انحلّ عنك ما تجد، فقال ضبة: هيهات هيهات الجناب الأخضر! أي لا أدركه، فكان كذلك.

تصفية

قيل للسياسي البريطاني ونستون تشرشل: إن عدداً كبيراً من الدول يريد الاستقلال التام عن بريطانيا فما رأيكم؟!

قال تشرشل: إنني رئيس لوزراء بريطانيا ولست مصفيًا لامبراطوريتها!

كلها عامرة

دخل الشاعر الظريف أبو دلامة يومًا على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، طالبًا حاجة فسأله المنصور عن حاجته، فقال: أريد كلب صيد يعينني، قال: المنصور: أمرنا لك به، قال أبو دلامة: ودابة أتصيد عليها، قال الخليفة: أمرنا لك بها، فقال أبو دلامة: وغلاما يقود الدابة ويساعدني، قال المنصور: أمرنا لك به، فزاد أبو دلامة في طمعه وقال: وأرضا نرتزق منها. فقال الخليفة: أمرنا لك بمئة جريب عامرة ومثلها غامرة.

فسأل أبو دلامة: وما الغامرة؟، قال الخليفة: التي لا نبات فيها. فرد أبو دلامة: إنني قطعت الفيافي الغامرة لأصل إليك. وهنا ضحك الخليفة وقال لوزيره: اجعلها كلها عامرة.

من نوادر برناردو شو

كان الكاتب الإيرلندي الساخر جورج برنارد شو مختلفا عن صديقه تشسترتون - برغم صداقتهما الحميمة - في كل شيء. فشو كان هادئًا ساخرًا نحيلاً لا يأكل اللحوم، بينما كان تشسترتون صاخبًا بدينًا، محبًا للحوم، وجمعتهما مائدة يوما، فنظر تشسترتون إلى شو وقال: إن مَنْ ينظر إليك يحسب أن في إنجلترا مجاعة.

وبهدوء رد شو: ومَنْ يراك يدرك سبب المجاعة!

أحسن كتاب

سُئل صحفي عن الكتاب الذي يود قراءته إذا ما ألقت به سفينة يومًا في جزيرة قاحلة فقال: هو كتاب: كيف تصنع سفينتك بنفسك!

معك لا معي

قيل إن رجلاً قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأَسُبّك سبا يدخل القبر معك. فقال أبو بكر بسماحة وصدق: لا يا أخي إن السب يدخل معك لا معي.

سعادة الرجل

رُوي عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: من سعادة الرجل أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبرارًا، وإخوانه شرفاء، وجيرانه صالحين.. ورزقه في بلده.

علاج نافع

دخل شاب يوما إلى عيادة أحد الأطباء وأخذ يشكره بحرارة قائلاً: لقد نفعني علاجك جدا يا دكتور.

فدهش الطبيب لأنه لم يسبق له رؤية الشاب قبلاً، فقال: لكنني لا أذكر أنني عالجتك. فقال الشاب: نعم هذا صحيح، لكنك عالجت عمي الذي توفي وترك لي ثروة طائلة عالجت بها مشكلاتي.

قمقم الأنانية

يقول الأديب نجيب محفوظ: قد يبدو يسيرًا أن تعيش في قمقم أنانيتك، لكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنسانًا حقًا.

الزمن أستاذه

سُئل الاقتصادي المصري أحمد عبود باشا عن الأستاذ الذي علمه مبادئ الاقتصاد فقال: أستاذي هو الزمن، إذ تعلمت منه أن أكون أشد حرصًا على إسعاد الناس، قبل أن أسعد أنا نفسي.

أهل بيته أولاً

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله وأقرباءه وقال: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير الجارح إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني - والله - لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيتُ الناس عنه إلاّ ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر.

العدل

قال أحد الحكام يومًا لحكيم: انصحني! قال: حَصِّن بلدك بالعدل. فهو سرير لا يغرقه ماء، ولا تحرقه نار، ولا يهدمه منجنيق.

أفكار

قيل للفيلسوف والكاتب ماكس مولر يومًا: ما هي الأفكار القيمة؟ قال: هي كثيرة عند كل إنسان، ولكنه كثيرًا ما يكتمها خشية أن يتلقاها الآخرون بعداوة وجفاء.

الحياء رأس المكارم

سُئل حكيم عن مكارم الأخلاق، فقال: هي عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الزمام للجار، وحفظ الزمام

استراحة العدد

للصاحب، وقرى الضيف، ورأسهن: الحياء.

القوة والحق

قيل للرئيس الأمريكي الأسبق إبراهام لنكولن: هل تستطيع القوة أن تنتصر على الحق.

قال لنكولن: نعم تستطيع، ولكن انتصاراتها لاتدوم.

كلمات حكيمة

قال عبدالله بن العباس رضي الله عنهما: الدنيا: العافية، والشباب: الصحة، والمروءة: الصبر، والكرم: التقوى، والحسب: المال.

هكذا كانوا

روى ابن سيرين أنه كان يومًا جالسًا عند أبي عبيدة بن أبي حذيفة في خيمة له، وبين يديه كانون فيه نار، وفجأة دخل رجل وهمس لأبي عبيدة ببضع كلمات، فقال له أبو عبيدة: ضع إصبعك في هذه النار، فنظر إليه الرجل متعجبا وقال: سبحان الله، أتأمرني أن أضع إصبعي في هذه النار المتأججة؟! فقال أبو عبيدة في هدوء أتبخل عليّ بإصبع من أصابعك في نار الدنيا، وتسألني أن أضع لك جسدي كله في نار جهنم؟!

وحين انصرف الرجل بهدوء، لم يتحدث أبو عبيدة، إلا أن الحضور عرفوا فيما بعد أن الرجل جاء ليعرض عليه تولي القضاء، وهو أمر كان يتجنبه كثير من فقهاء المسلمين.

لا فرق

سُئل الروائي الأمريكي إرنست همنجواي عن الفرق بين موت إنسان وموت غيره من ناحية الطبيعة، فقال: من وجهة نظر الطبيعة لا فرق بين موت إنسان وموت قطة، فالكل أمام الطبيعة سواء.

معادلة صعبة

قيل للمناضل الجزائري بشير بو معرة: صف لنا الفرق بين السياسة والحرية؟ فقال: هذه معادلة صعبة، فإذا أخذت السلطة مكان الحرية تحولت إلى طغيان، وإذا أخذت الحرية مكان السلطة أضحت فوضى، فالأمر ينبغي علاجه بحساب.

أمر غريب

كان للموسيقي الشهير جول ماسينيه مقعد خاص دائم في مسرح الأوبرا في باريس، لكنه لم يكن مواظبًا على الحضور. وفي إحدى الأمسيات رغب في حضور حفلة بالأوبرا، فذهب إلى مسرحها، وتوجه إلى مقعده فوجد شخصا يحتله، فتقدم ماسينيه منه بأدب وقال: سيدي أليس هذا المقعد للموسيقار ماسينيه، فأجاب الرجل بثقة: بلى فأنا جول ماسينيه! فقال الموسيقار: غريب والله هذا الأمر، فها قد انقضت خمسون سنة وأنا أعتقد أنني جول ماسينيه.

ما خاب من استشار

نصح لقمان الحكيم ابنه يومًا فقال: يا بني اجعل عقل غيرك فيما تدعو الحاجة إلى فعله. فقال ابنه متعجبًا: كيف أجعل عقل غيري لي؟ قال لقمان: تشاوره في أمرك.



من دون تعليق



يهدف الباب إلى تشجيع المواهب الناشئة التي تتلمس لها سبيلاً إلى الإبداع الفني والكتابة الأدبية، ولذلك تقوم تباشير باختيار عمل أدبي أو أكثر وفق معايير فنية محددة وحسب المساحة المتاحة، ومن ثم يُعرض على أحد النقاد المعروفين الذي يتناوله بالمتابعة النقدية أو التعليق أو التوجيه لتكون خطوة ثابتة لهذه المواهب في طريق الإبداع.
وهذه دعوة للمواهب الأدبية الناشئة للمشاركة في هذا الباب، علماً بأن هناك مكافأة رمزية تشجيعية للعمل الذي يحظى بالنشر.

أحلام طالب بعيد عن بلدته

شعر: محمد أسامة البارودي

مهما تقلّبت الدُّهور على الفتى ... وأذاقت الأيّامُ منها علقما
سمرٌ يومٌ يا خليلي قاتمٌ ... يتذكّرُ الإنسانُ فيه الأنجما
ومَغاني الصّحب الجميلة والصِّبا ... ويموتُ من أسفِ الفراقِ تندّما
ويقول يا ليت الزّمان مساعدٌ ... حتى أعودَ إلى الأحبّة مُحرما
هذا مقالي يا خليلي دائمًا ... عند الصّباح وفي العشية مُظلما
يا ليتني أدَعُ الشّآم لقريةٍ ... غرّاءَ أُنشدُ في طريقي يا «حما»
تتعجّبون؟! لمَ التعجبُ؟ والهوى ... منها سرى متدلّهًا مترنّمًا
ومياهُ عاصيها قصيدةُ وَالهٍ ... مُتبتّلٍ في عشقِ هاتيك الدُّمى
يختالُ ما بين المروجِ مُسبِّحًا ... ويعودُ من تحت الجسور مُتمتما
ورَنَتْ نواعيرٌ إليه تدللاً ... حتى تذيبَ فؤادَه المتألِّما
هذي حماة وإن جَحدتم فضلها ... فالفضلُ باقٍ والفضائل والحِمى
هل تذكرون أحبّتي عند الدجى ... طيبَ الأماسي والصفاءَ المنعما؟
في «إبن رشد»(1) والمساءُ مخيّم ... وأوانسٌ يكشفن عن طيب اللّمى
حيث الغواني في الدروب تعرّضت ... تصطادُ قلبًا أو تجادلُ مغرما
هل تذكر «الأطلال»(2) طيب مجالسٍ ... خُلِعَ العَذار بها وشِعرًا قد همى
حيث الأحاديث الجميلةُ والصِّبا ... قد أفردا للشاعرية موسما
تلك الليالي والمغاني مُثَّلٌ ... كانت لأفكاري السقيمة بلسما
والآن لا سحرٌ يطيبُ ولا هوًى ... يُعد الفؤادَ إلى الصَّبابة مرغما
تبًّا لعيشٍ في دمشق مذمّمٍ(3) ... كيف ارتضيتُ بأن أعيش مذمّما؟
حيث الكآبة والشقاوة والضّنى ... أأعيشُ دومًا بالتعاسة منعما؟
يا ليت أن تلك المسافة تنطوي ... وأقيم فوق ربوعكم مُستسلما
هذا جنوني في الصّباحِ وفي المسا ... أفلا يحقُّ لشاعرٍ أن يحلما؟

الهوامش:

(1) اسم شارع في مدينة حماة، وعذراً من همز ألف «ابن».
(2) الأطلال اسم متنزه في مدينة حماة.
(3) العيش هو المذمم وليس دمشق الرائعة حماها الله، ولكنها الظروف الصعبة في أول قدومي إليها للدراسة، ولاسيما أنني كنت وحيداً من دون أصدقاء، مما دفعني إلى كتابة هذه القصيدة.

التعليق:

«أحلام طالب بعيد عن بلدته» قصيدة لمحمد أسامة البارودي، على النظام العمودي تحكي قصة طالب رحل عن بلدته «حماة» طلبًا لدراسة الطب في جامعة دمشق، وتُصوِّر نزوعه إلى بلده وحنينه إلى ذكرياته فيها. وعلى الرغم من أن البارودي مازال في أول طريق الطب وفي أول طريق الشعر؛ إلا أنه يطمح أن يكون كقريبه الدكتور وجيه البارودي - رحمه الله - الذي كان فارس الحلبتين: الطب والشعر. والبارودي الصغير ينازع البارودي الكبير في حب حماة وفي حب نواعير حماة وفي حب «غواني» حماة، وهذا ليس غريبًا، فمنذ القديم ألهمت حماة وطبيعتها الجميلة عشرات الشعراء كابن نباتة وابن حجة وغيرهما، وفي الحديث ألهمت ثلة من الشعراء كحسن رزق ومحمد الحامد ووجيه البارودي ووليد قنباز ورباب كيلاني، ويأتي جيل الشباب ليتغنى بجمال طبيعة حماة، ومنهم محمد أسامة البارودي الذي حفزته مقولة أمير الشعراء شوقي عندما زار حماة فسأل: هل في حماة شعراء؟ فأجابوه إن نصف أهلها شعراء، فقال: إني لأعجب ألا يكون النصف الثاني شعراء أيضًا في ظل هذه الطبيعة الشاعرية.

ولنعد إلى قصيدتك يا محمد أسامة، فهي - بلا مجاملة - باكورة موفقة، تنمُّ على بذور موهبة واعدة، وتعبِّر عن مشاعر غضَّة ولكنها فياضة، ولو اعتنيت بهذه الموهبة ونمَّيتها لأتت أُكلها في قادمات الأيام، ودعك من هاجس أنك تريد أن تقلّد من جمع الحُسْنَيَيْن: الطب والشعر، فالطب حرفة والشعر هواية، والحرفة تُمارَس والموهبة تُوحى، واترك لكل واحدة منهما أن تأخذ طريقها لتحقيق ذاتها من دون اقتصار على التقليد.

ثم: المألوف في القصيدة العمودية أن تبدأ في بيتها الأول بالتصريع، وأنت جانبت التصريع، وللتصريع وظيفة فنية إيقاعية تساعد على تحديد القافية والوزن العروضي، أضف إلى هذه الملاحظة الشكلية ملاحظة تتعلق بدلالة الألفاظ وموافقتها للمعنى، هذه الموافقة التي أرجو أن تعوِّد قلمك على التعامل معها بدقة. فمثلاً في البيت الخامس تجعل حماة «قرية» - سامحك الله - ألا يحتجّ عليك أهل حماة التي هي خامس أكبر مدينة في سورية، ولو فتشت في معجمك لاستقام معك الشطر لو قلت: «يا ليتني أدع الشآم لبلدة»، فبلدة يستقيم بها الوزن ويدفع عنك احتجاج أهل حماة الذين لا يرضون أن تُوصف مدينتهم بأنها قرية. وكما لا أحب لك أن تثير غضب أهل حماة لا أحب لك أن تغضب أهل دمشق، ولو فتشتَ معجمك الشعري لوجدت كلمة بدل دمشق يستقيم بها المعنى والوزن وتفوز بالرضى، فيكون شطرك على النحو التالي: «تبًا لعيش في البعاد مذمَّمٍ»، واعتقد أنك في قرارة نفسك لا تريد إغضاب أحد، فهذا يعفيك من الاعتذار النثري الذي اضطررت إليه لتفسير «العيش المذمم». وكما لا أحب لك إغضاب أهل حماة وأهل دمشق لا أحب لك أن تغضب أهل النحو والصرف واللغة لخروجك في بعض الأحيان على قواعدهم كقولك: «يُعد الفؤاد» و«إبن رشد» و«ليت أنْ»، والإكثار من «حيث وحتى» في غير مواضعهما، مع إيراد بعض القوافي القلقة كما في «العشية مظلما» و«حتى أعود إلى الأحبة محرما»، وكذلك عندما وصفت غواني ابن رشد بأنها «تجادل»، والجدل من صفات رجال الفكر والسياسة والمذاهب الدينية والعلماء لا من صفات الحسان، ولو أنك استبدلت بها لفظة «تحاور» لكان أليق بالحسان، وأليق من «تحاور» «تغازل»، لأن اللفظتين الأخيرتين شاعريتان، ولفظتك لا تحمل ظلالاً شاعرية، فالدكتور وجيه أقام بينه وبين الغواني حربا طوال عمره جميلة لم يستعمل فيها «تجادل»، فسمَّى ديوانه الأول «بيني وبين الغواني»، ففي مثل هذه الدبلوماسية في الأدب يجوز الاقتداء، ونتمنى لك التوفيق.

د. محمود جبر الربداوي

متابعات

الأخ عبدالواحد استيتو، طنجة، المغرب:

في قصتك «الكبرياء» افتعال واضح، فليس كل متكبر يعاني من عقدة الاضطهاد، كما أن بطل القصة الشاب جعلته يتصرف وفق مخطط مرسوم ومصطنع، لا وفق منطق الواقع والأحداث. فكاتب القصة البارع هو الذي يستطيع أن يجعل كل شخصية من شخصيات عمله تبدو طبيعية في تصرفاتها بحيث تتناسب مع صفاتها وخصائصها من دون تدخل من الكاتب لتوجيه الأحداث وفق ما يهوى، لا بحسب ما يقتضيه الواقع.

الأخت صفاء محمد إبراهيم الزفتاوي ،القاهرة، مصر:

لا بأس بمستوى القصص التي أرسلتيها، ولكن ينقص أغلبها الحبكة القصصية والتوتر السردي، وهي وصف لحالة معينة في الحياة، ولا تنبني على محور إشكالي محدد يمثل نبض الأحداث. والقصة ما لم تحفل بهذا الفن التركيبي من البداية وذروة التأزم ثم الانفراج «أو انحلال العقدة القصصية»، وما لم تكن هناك حكمة أو رسالة تدور حولها القصة، فإنها تظل مجرد وصف سيرة أو حالة كما تقدم، يستطيع أي إنسان أن يسوق مثلها. يمكن لك تعلُّم هذا بالقراءة الكثيرة في القصة ثم الكتابة، فهناك بذرة قصصية لديك، لكنها تحتاج إلى الرعاية والاهتمام. كما يعيب أسلوبك تأثرك بالأسلوب العامي.

الأخ بشير عثمان أحمد علي، أم درمان، السودان:

قصتك «أفكار في الوحدة» أقرب إلى تأملات فلسفية في الوجود، وفي بعض صفات الله سبحانه وتعالى. نأمل في المرات القادمة الكتابة على وجه واحد من الورق، كما ننصح لك أن تتخلى عن كتابة النقاط على شكل دائرة، لأنها تجعل قراءة ما كتبت أمرًا عسيرًا لا تقبله النفس، ومرحبًا بأعمالك القادمة التي نود أن تكون أوفر حظًا.

الأخ عبدالعزيز بن سليمان الأحيدب، الرياض:

قصتك «لحظة تفكير» تفتقد العناصر الأولية للقصة، فنحن أمام تعبير رمزي عن معاناة طالب اقترن في أثناء دراسته بكلية الطب، ويتخذ من الشكل القصصي وسيلة لتناول الفكرة، هذا كل شيء.

إذا كنت تريدها قصة، فعليك بالقراءة في هذا الفن، لتلحظ كيف تُنسج الأحداث، وكيف تُصَوَّر الشخصيات، وتجعل القارئ يدخل في توتر سردي له بداية وتأزم وانفراج، فإذا لم يتوافر ذلك لها فلا تُعَدّ قصة، بل يمكن القول إنها مقالة توظف أسلوب القص.

الأخ عامر علي الحجاجي، مصر:

هناك أبيات في قصيدتك أصابها خلل في النحو، مما أدخلها في الإقواء باختلاف حركة الرويّ. ننصح لك بالإكثار من قراءة الشعر، والاطلاع على قواعد النظم، فالموهبة الأصيلة لا تُصقل إلا بهذا الأسلوب، وهذا ما ننصح به جميع الإخوة من أصحاب المواهب في مجالي القصة والشعر.

رُدُودٌ خَاصَّة

الأخ بلال قايد عمر إبراهيم، صنعاء، اليمن:

الكتب المعلن عنها في باب «كتب وردت» هي كتب صادرة حديثًا، وتُضم إلى مكتبة المجلة، فلا يوجد منها شيء للبيع أو الإهداء، وعمومًا، فإن المجلة تعتذر لكل الإخوة الذين يطلبون كتبًا؛ لأن هذه الطلبات يصعب تلبيتها، أما الأعمال المرسلة منك ومن أيّ من الإخوة القراء، فإنه يتم تحكيمها، ومن ثم يُبلَّغ صاحب العمل المرسل بموقفه من النشر. استفساراتك الأخرى سيُرد عليها في الأبواب الخاصة بها، وكذلك سوف يصل إليك ما طلبته من أعداد.

الأخ سليم بيدي، قسنطينة، الجزائر:

نشرت المجلة ملفًا خاصًا عن مؤسسة الملك فيصل الخيرية في العدد 236، وقد ضم مقالات عن الملك فيصل، وذلك في مناسبة احتفال المؤسسة بمرور عشرين عامًا على تأسيسها. كما ضم العدد ذاته كتيبًا بعنوان «الفيصل.. الملك الإنسان» للأمير خالد الفيصل، وهو محاضرة ألقاها سموه في هذه المناسبة. وقد أهدت المجلة هذه المحاضرات إلى قرائها الكرام في شكل كتيبات تعميمًا للفائدة، ونأمل أن تجد فيها وفي الملف المنشور الذي ضمه العدد، معلومات وافية عن الملك فيصل وعن المؤسسة التي تفخر بحمل اسمه.

الأخ محمد صديق سعيد، المعيلق، السودان:

كتاب «الحقيقة الغائبة» للدكتور فرج فودة تم الرد عليه من أكثر من كاتب ومفكر في مصر وخارجها، ومن ثم، فإن ما كتبته ليس فيه شيء جديد يضاف إلى ما كُتب، حتى تتولى دار نشر طباعته. أما المقالة التي أشرت إليها، والتي تتناول فيها قضية المخدرات، فنأمل إرسالها، حتى يمكن الحكم عليها، وإن كنا نرى أن هذا الموضوع طُرق كثيرًا، حتى لم يعد هناك مجال للمزيد.

الأخ محمد الرامي، طنجة، المغرب:

يسرنا أن نبعث إليك بالعدد الذي ضم معلومات عن أكاديمية الملك فهد في بون، ويمكنك الحصول على معلومات أوفى بمراسلة الأكاديمية نفسها، علما بأنها مفتوحة للعرب المقيمين في ألمانيا.

الأخ كمال محمد حسن حميدة، إيتاي البارود، البحيرة، مصر:

أحيل موضوعك إلى القسم المختص ليتولى بحث أسباب عدم وصول جائزتك إليك، ونشكر لك ما جاء في رسالتك من إشادة.

الأخ أبو بكر مصطفى رشاد، الرياض:

المشكلة التي أشرت إليها في طريقها إلى الحل، وسوف يهتم القسم المختص بمنافذ توزيع المجلة في الرياض والمدن الأخرى، لضمان وصولها إلى القراء أينما كانوا.

الإخوة الشعيبري عبدالعزيز، المغرب، بلقاسم درهوم، العلمة، عمران عبدالله، غليزان، الجزائر، عبدالله صالح القطيني، صعدة، اليمن:

هناك إشارة إلى أن المجلة لا تلتفت إلى الطلبات الخاصة، ونأسف كثيرًا إذا كانت هذه الطلبات تخرج عن دائرة اهتمامها، ولا سيما أن هناك جهات مختصة بها، فنأمل من الإخوة مخاطبتها، أما الأعداد التي طلبتموها فهي في طريقها إليكم قريبا - إن شاء الله -، شاكرين لكم حسن ظنكم..

الأخ صالح عبدالرحمن الشاعر، العراق:

لا يوجد في المجلة باب للتعارف أو المراسلات، لأننا لا نرى أهمية لمثل هذا الباب، إذ إن تعارف القراء من خلال أفكارهم وآرائهم المنشورة أفيد كثيرًا من تبادل الصور والهدايا.

الإخوة الأعزاء: بن سعدية محمد، الشلف، هنيني عبداللطيف، تلمسان، فاخر لخضر، ولاية الجلفة، نصر الدين أبو سهلة، مرسي بن مهيدي، غرابي المحمل، ولاية خنشلة، بن مشرنن مراد، عين تموشنت، الجزائر، حسن أحمد محمد، أبو عشر، السودان، علي محمد حسن علي، أسوان، مصر، هيثم أحمد حسين المعقلاني، درعا، حلب، سورية، جمال عبدالله، بنان، محمد الصادق عبداللطيف، قليبية، تونس، صالح بن سليمان التويجري، القصيم، السعودية، سومع عبدالسلام، تمسمان، المغرب:

نشكر لكم جميعًا اهتمامكم بالكتابة إلى مجلتكم «الفيصل»، كما نشكركم إطراءكم، ونأمل أن تكون المجلة عند حسن ظنكم بها، كما تهمنا آراؤكم واقتراحاتكم كثيرًا من أجل تحقيق مزيد من التواصل معكم. والإخوة الذين طلبوا أعدادًا من المجلة، نفيدهم أنها ستصل إليهم حسب ما هو متوافر لدينا منها، ونعتذر، مسبقًا، لمن لم نستطيع أن نلبي طلبه منهم.

بين القارئ والقارئ

أرغب في زيادة حصيلتي المعرفية في علوم الدين والفقه الإسلامي، وآمل أن يهديني أحدُ الإخوة من قراء «الفيصل» أحد هذه الكتب: «إحياء علوم الدين»، أو «البداية والنهاية»، أو تفسير القرطبي.

نجيب سيد علي
مديرية الشؤون الصحية، الوادي الجديد
جمهورية مصر العربية

لديَّ أعداد قديمة من مجلة «الفيصل» وأرغب في إهدائها لأحد قراء المجلة، فعلى من يرغب الحصول عليها، مراسلتي على العنوان الموضح.

مهند سرميني
حلب، ص.ب 13115
سورية

أود أن يهديني أو يبيعني أحد الإخوة ديوانًا للشاعر نزار قباني أو الشاعر أحمد مطر، ولديَّ أعداد لا بأس بها من مجلة «الوحدة» الجزائرية، يمكنني أن أهديها لأحد القراء.

عبدالعزيز باشا
20 أوت 55 عين أعبيد 25130
قسنطينة، الجزائر

أرغب في الحصول على كتاب التفسير العلمي للقرآن للدكتور مصطفى محمود، وبعض الكتب العلمية الأخرى المفيدة لغير المختصين.

طارق بن بشير نصري
نهج علي بلهوان عدد 57
جندوبة 8100 تونس

ملحوظة:

تهدف هذه الزاوية «بين القارئ والقارئ» إلى إيجاد قناة مباشرة بين القراء أنفسهم لتبادل المعلومات عن الكتب النادرة أو المجلات التي توقفت عن الصدور أو نفدت أعدادها.

عناوين

الأخت سناء جمال أبو تبعة، الطائف:
عنوان جامعة الخليج العربي:
المنامة، البحرين
ص.ب 277209
عنوان مركز جمعة الماجد في الإمارات العربية المتحدة (سبق نشره):
دبي، ص.ب 55156

الأخ عبدالله السويلمي، المغرب:
عنوان جامعة الكويت:
الصفاة، الكويت
ص.ب 5969
عنوان جامعة قطر:
الدوحة ص .ب 2713

الأخ أبو طلحة خميس بن عبيد الله، حضرموت، اليمن:
عنوان وزارة الشؤون الإسلامية:
الرياض، المملكة العربية السعودية

الأخ إسماعيل العيسى، دمشق، سورية:
من الجامعات التي تعنى بالدراسات الإسلامية في الوطن العربي: جامعة الأزهر في القاهرة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وجامعة أم درمان الإسلامية في أم درمان، السودان، وهناك جامعات أخرى يصعب حصرها في هذا المقام.

الأخ نهاد خالد الخطيب، جامعة حلب، سورية:
عنوان مجلة عالم الكتب:
ص.ب 29799 الرياض 11467
ويمكن مراسلة مكتبة الملك فهد الوطنية على:
الرياض، العليا،
طريق الملك فهد

إيضاحات

تعتذر المجلة سلفاً من عدم تقديم اشتراكات مجانية، ومن عدم التجاوب مع طلبات للحصول على إصدارات أخرى (كتب ومجلات) لاعلاقة لها بها.

المسائل الشخصية كطلب وظائف أو مساعدات مالية أو إعانة على زواج، أو ماشابه ذلك والتعارف بين هواة المراسلة، ليست من اختصاصات المجلة ولا اهتماماتها، ومن حقها عدم الالتفات إلى رسائل تختص بهذه الأمور أو الرد عليها.

يتعذر على المجلة الرد الشخصي البريدي على جميع القراء الذين يراسلونها وذلك لكثرة الرسائل، وتكتفي بالرد عليهم من خلال «ردود خاصة»، أو بنشر مشاركاتهم في الصفحات المخصصة لذلك.

الرسائل ذات العلاقة بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أو بأي نوع من خدماته، يُرجى توجيهها إليه مباشرة على عنوانه: ص.ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية.

عند مراسلة الصفحات المخصصة للقراء (مناقشات وتعليقات، بريد، المسابقة، تباشير، ردود خاصة - بما في ذلك زواياها الجديدة: بين القارئ والقارئ، عناوين) يرجى ذكر اسم الباب أو الزاوية على المظروف، مع شكرنا للجميع.

الصقر وأفعال الغراب!



اطلعتُ مسرورًا على إطلالة «الفيصل» في عددها 210، بعنوان «اضطراب المفاهيم والأزمة الفكرية»، وكانت إطلالة موضوعية لامست في كثير من جوانبها ما نعيشه من ضياع فكري ذاتي.

وأود أن أقول تعقيبًا على حديث د. زيد الحسين في هذا الإطار: يقولون: ما ضاع حق وراءه مطالب، فإذا ضاع المطالب ضاع الحق!! أليس كذلك!! فنحن نعيشُ في أيامنا الحاضرة نوعًا من «الغيبوبة الفكرية» - إن صح التعبير -، والغيبوبة هي حالة اللاوعي مع استمرار الحياة بشكل ظاهري، تمامًا كما نعيش الآن!! وهذه الحالة هي التي تدفعنا إلى «فقدان التوازن والتركيز» ومن ثم نتخبط تخبطًا تائهين بين الشرق والغرب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ومن أمثال هذه الحالة الفكرية الخطيرة ما تناقلته وكالات الأنباء من نبأ انتحار تسعة من الشباب اللبنانيين من طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت.. انتحر سبعةٌ منهم بإطلاق النار على الرأس، والاثنان الآخران بطريقة مختلفة!! ونتساءل: لماذا ينتحرون؟!

الانتحار ردة فعل خطيرة تترجم كل معاني اليأس والإحباط والإحساس بالظلم أو بعدم الانتماء.. قد يفعلها بعض المسنين ممن بلغ بهم العمر عتيًا، فرأوا أن الموت أفضل من الذل والملجأ والاستجداء في الطرقات في مجتمعات لا تعير الإنسان اهتمامًا قدر اهتمامها بالمادة... فانتحروا!!.

وقد يفعلها أناس ممن صُدموا بواقعهم.. ولم تبحر بهم سفن الزمان إلى أحلامهم وتطلعاتهم على مبدأ «كل شيء أو لا شيء» أو اقتداءً بقول امرئ القيس: «نحاول مجدًا أو نموت فنعذرا».. فانتحروا!!.

أما أن يفعلها (تسعة من الشباب) معًا في مجتمع جامعي، أقل ما يوصف به أنه مثقف، فهذه حالة خطيرة تستدعي الدراسة والتحليل ومن ثم العلاج. و«العذرُ أقبحْ من الذنب».

ونتساءل لماذا انتحر هؤلاء الشباب التسعة؟! إنهم من عشاق مغني الروك الأمريكي كورت نيرفانا الذي انتحر بإطلاق النارعلى رأسه العام الماضي. وهم يقلدونه في كل شيء: في ملابسه، في تحركاته وأفعاله، يضعون «الحلق» في آذانهم - كما يفعل - وهاهم أولاء ينتحرون.. كما انتحر.

نيرفانا Nervana مجموعة تعشق الأسلحة والأزهار وترى التخلص من الحياة للانتقال إلى الراحة، والحياة الجميلة الأبدية، حياة الفضاء.. وبالانتحار!!

هكذا.. تفقد أمهاتنا تسعةً من أبنائهن قربانًا غير مبارك على مذبح الروك وأهله!! تاركين وراءهم حسرةً وألمًا وتساؤلات ليس لها نهاية.

التقليدُ جسرٌ للضعف والانحلال، وهو القشةُ التي تقصم ظهر بعيرنا دائمًا. نريد أن تنشأ أجيالنا قوية عصيّة على أن تذوب في أحماض المجتمعات الغربية.. مستقلة بذاتها وبفكرها... مكونة في النهاية الشخصية التي كانت ولا تزال مبعث العز والفخار لأمة العرب:

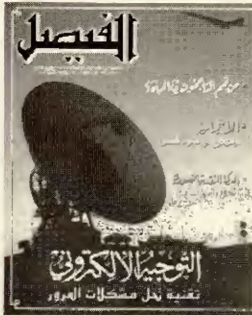
لا تجاروا الغربَ في كل موقع

هل يجاري «الصَّقْرُ» أفعال «الغراب»؟!

بقي أن نقول: تحيةً للأمهات اللواتي ربّين أبناءَهن فأحسنَّ التربية، وتحيةً للأمهات اللواتي يفقدن أبناءهن في جبهات الشرف والصمود، وإلى اللواتي قدَّمن أبناءهن جسرًا للفجر العربي الموعود، وإلى اللواتي فَجَّرن بعطائهن الأجساد فانفجرت أمتنا عطاءً وبقاءً.. أقول لهن: لا تَحْزَنَّ فقد عرف أبناؤكم الطريق، واختصروا المسافة إلى الخلود، ولكن ليس بطريقة الروك وعشاقه وأهله.. وأحسن الله عزاءكم.

محمد شادي كسكين
كلية طب الأسنان، جامعة تشرين
ص.ب: 2082، بريد الجامعة اللاذقية، سورية.

لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟



في العدد 233 من مجلة «الفيصل» في «إطلالة» رئيس التحرير طرح موضوع «بناء الفكر وتحديات العصر»، وكانت أولى الكلمات: لماذا؟ تلك الكلمة التي تلح على

خاطر أبناء الأمة ومثقفيها. لماذا يتخلف العالم الإسلامي؟ ولماذا يتقدم الآخرون؟ وللتقدم أساليب وإعداد وخطط وتعليم وثقافة، محاور عدة لكنها - عربيًا وإسلاميًا - ما تزال غائبة، إذن.. لماذا؟ نحن ياسيدي نعيش في واقع فكري لا يمكّن الأمة من أداء رسالتها الحضارية والتنموية.

إن الإسلام لا ينشد لأبنائه العيش في معزل عن الآخرين من سائر الأمم والشعوب، وهو لايدعونا إلى أن نتغنّى بالحديث عن أمجاد السلف الصالح فقط من غير عمل جدي. فالأمة العربية والإسلامية تعيش في منظومة كونية تحمل تناقضات العالم الحضارية والعقدية والأخلاقية، وسياسات المصالح الاقتصادية والتكتلات. عالم له مفاهيمه وطروحاته الفكرية والثقافية والاجتماعية والفلسفية، أصبح فيه الدفاع عن الذات من الأمور الشائكة، فالقوي هو الذي يفرض سيطرته، لكن هل تستسلم بلدان الأمة العربية أم تسرع الخطى لتصحيح المعوج من سياساتها التعليمية والثقافية والاقتصادية؟ وعلينا أن نتساءل: ما الذي يشغلنا عن البناء والتنمية؟ وهل لدى أي بلد عربي رؤية لما يحتاج إليه من أطباء ومحاسبين ومهندسين وفنيين وزراعيين..إلخ كل عام حتى يرتبط التعليم العربي أو الإسلامي بمحاور التنمية؟، بل التساؤل المطروح الأكثر إلحاحًا: ماذا نقصد بالتنمية البشرية؟ وهل ما يُنفق على الخدمات الصحية والتعليمية والثقافية كفيل بإنجاح مسارات تنموية عربية أم لا؟ التنمية البشرية جزء من الأمن القومي منها وبها يتحقق التقدم أو يحدث العكس، ونحن نعيش في زمن يفرض وجوده وقواعده علينا، بل هناك نظام إقليمي قادم يسمونه الشرق أوسطية، ينشد هو الآخر تجريدنا من هويتنا العربية، فكيف نتعامل معه وبلدان الأمة لم تتحرك لبناء الذات أو تتجاوز مشكلاتها وتحدياتها المستقبلية؟

يقال إن الأمة العربية والإسلامية في مأزق خطير، والسبب - في رأيي - أن المصارحة داخل البلدان أو خارجها غائبة موضوعيًا؛ فنجد في ميزانية بلدٍ ما عجزًا في ميزان المدفوعات وتراجعَ معدلات الإنتاج وانخفاض إنتاجية العامل وتزايد نسب البطالة والتضخم وغياب آليات الاستثمار والتنمية..الخ، ونجد أرقامًا تطرح عن الواقع غير صادقة. إذن من سبَّبَ هذا الخلل؟ وما سر التخلف؟ وهل ذهنية الإنسان العربي تختلف عن ذهنية نظيره الغربي؟ دعونا لا ننظر - عربيًا وإسلاميًا - إلى الحروب الصليبية وماخلفته من علاقات بين الأمة العربية والغرب من جروح في عمق الذاكرة التاريخية. ولقد مضت عليها أجيال، مما يكفي لبلورة واقع جديد يحقق تحولات فكرية وعلمية وعملية، فالتاريخ الإنساني صعود وهبوط، والتقدم لا يستمر والتأخير لا يدوم في الأمم، لكن طاقة تقدم الأمة العربية تبدأ من أبنائها وبلوعي الحضاري والاعتزاز الإسلامي والهوية الإسلامية. ففي نموذج التقدم الغربي بعيدًا من شكله الاقتصادي نرى مشهد العنف والإباحية والتفاوت في توزيع الدخل وارتفاع معدلات الطلاق وانتشار المخدرات، بل تراجع مستويات التعليم، وقد أقدم الغرب على عبادة نظم شاذة مثل النازية والفاشية والانصراف إلى ماديات الحياة بتكالب أعمى. والتقدم - في تصوري - لا يتم إلا بتفهم دور الإنسان الذي ينفرد من سائر الكائنات بالعقل والنطق وهو سيد المخلوقات، حباه الله عز وجل بقدرات من الإبداع والانتفاع من المعارف المتراكمة مما جعل حياة الإنسان قابلة للتطور الحضاري باستمرار. والعلم حقق للبشرية انطلاقات وإنجازات ننعم بها الآن في جميع مناحي حياتنا.. فهل من وقفة مراجعة جادة من أجل تصحيح مسار الفكر العربي وتشكيل صياغة عربية تساير العصر وتتسم بالفعالية واستشراف آفاق المستقبل؟ وإذا كان القلق قد دخل النفوس العربية فلابد أن نقاومه، لأن كثيرا من المشكلات التي يعاني منها المجتمع العربي والإسلامي ترجع إلى بطء النمو الاقتصادي، والنمو هو أحد عناصر التنمية الشاملة لإخراج بلدان الأمة من وطأة التخلف. وتحقيق النمو يلزمه امتلاك مقومات بشرية ومادية وطبيعية. ويتشكل البناء في نقاط منها:

- تشجيع الاستثمار العربي الإسلامي وإقامة مشاريع زراعية صناعية هدفها دفع متطلبات التنمية ونقل التقنية وتعريب العلوم الحديثة.

- تطوير الإنتاج العربي الإسلامي لكي يستطيع منافسة إنتاج البلدان المتقدمة، مع ضرورة انتقال العمالة العربية الماهرة من بلد لآخر.

- تحقيق الاكتفاء الذاتي في المحاصيل الزراعية المهمة.

- إدخال فن الإدارة في جميع المواقع، فالمال وحده لا يكفي لتحقيق نهضة مستقبلية، إنما قطاعات الأمة الصناعية والزراعية والإدارية في حاجة إلى فن الإدارة بعقلية تحقق منافع للخطط الانتاجية. الإنسان في المجتمع الياباني مثلاً: ماشَكْلُ أدائه في خمسة العقود التي مضت؟ سؤال يبحث عن إجابة؟ فالياباني ركز على بنيته الداخلية بمزيج من التحديث والتقليد، ثم بوعي تعليمي واحتدام التعاون والتجانس. إنها خصائص شكلت بعدًا إيجابيًا في التنمية اليابانية. من هنا نجد أن آليات التقدم العربي الإسلامي تبدأ من تقنية (تكنولوجيا) المعلومات والبعد التعليمي والإداري، فهل يبتعد حاضر الأمة من نقاط التخلف مستفيدًا من تجارب الآخرين؟

يحيى السيد النجار
شارع الحمزاوي،
دمياط، مصر.

الاهتمام بفلسفة حسن فتحي وفكره



طالعت باهتمام شديد العدد 231 من مجلتنا الرائدة «الفيصل»، واستمتعت كثيرًا بقراءة مقالة الدكتور محسن خضر عن شيخ البنائين ورئيس المعماريين العرب الدكتور حسن فتحي - يرحمه الله -.

لقد كانت مقالة شائقة بحق، وموضوعًا ثريًا لم يسبق أن طُرح في مجلاتنا وأطروحاتنا وكتبنا العربية - حسب علمي - مع أن الغرب سبقنا إليه منذ سنين خلت! فالرجل لم يُوَفَّ حقه بعد على مجهودات أستاذنا الكاتب.

وقد وُفِّقَ الكاتب - إلى حد كبير وبعيد - في تحليل فلسفة حسن فتحي المعمارية وإبرازها، فهي فلسفة تختلف عما سواها من فلسفات المهندسين المعماريين العالميين المشهورين أمثال: لوكور بيزييه ونيمر وكينزو تانجا وغيرهم. وهذه الملامح تظهر جليًا لدى فقيدنا من خلال أعماله المعمارية (مثل قرية القرنة 1946م) ومؤلفاته، ولاسيما كتاب «عمارة الفقراء». فمتصفح هذا الكتاب يلحظ - عبر سطوره - أن فقيدنا أراد من خلاله أن يبلغ رسالة للإنسانية، ونظرية تتلخص في أن حل جميع مشكلات الإنسان الإسكانية يكمن في استغلال المواد المحلية للبلد أو للقرية، واعتماد مبدأ التعاون، وهذه النظرية التي تبناها العديد من معماريي العالم أمثال إيلي مويال، وجون ديتير، وباتريس دوات، وهوغو أوبين، أثبتت نجاعتها في حل جميع المشكلات التي كانت مطروحة، والتي كان أهمها المدة والتكلفة والوفرة والرفاهية. وعمارتنا العربية والإسلامية ثرية بنماذج عدة من هذا النوع، أهمها عمارات مدينة «شبام» بجنوب اليمن والتي تصل ارتفاعاتها إلى علو ثمانية طوابق (شيدت ما بين القرن 18- 20 للميلاد)، كما أن أبناء العم سام ونابوليون شيدوا هم أيضا عمائر من هذا النوع وذلك في كاليفورنيا CALIFORNIA ومايوت -MAY-OTTS.

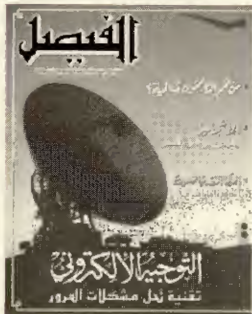
لم يقدم حسن فتحي خدمات جليلة لوطنه فحسب؛ بل للبشرية جمعاء أيضًا. والشيء الذي يحز في نفس المرء هو كيف أن هذا المعماري العربي الكبير قد كُرِّم عالميًا ولم يُكَرَّم عربيًا؟!! وكيف أن الأجانب كتبوا عنه كثيرا وترجموا معظم كتبه إلى لغاتهم، وكيف أن العديد من معماريي العالم تبنوا نظريته وأشادوا بها وبالرجل، في حين أنه ظهر بيننا واختفى في صمت رهيب، ولم يلق منا الاهتمام اللائق الذي يلقاه بيننا عادة أي شخص أجنبي آخر أقل منه شأنًا؟!!

وأمام هذا الوضع أبث هذا النداء عبر صفحات مجلة «الفيصل» للاهتمام بفكر هذا المعماري الكبير وفلسفته. والاهتمام يجب أن ينطلق من جامعاتنا ومعاهدنا كي يصل إلى عامة الشعب عبر مجلاتنا الأصيلة الهادفة.

ألف تحية وشكر للدكتور محسن خضر ولمجلتنا الغراء «الفيصل» على هذه الالتفاتة الطيبة تجاه فقيدنا الدكتور حسن فتحي، وعوض المولى أمتنا في الآخرين خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالرزاق بريم
16نهج طالب عبدالرحمن الكتاني
باب الوادي، الجزائر 16019
الجمهورية الجزائرية

سيرة مختصرة للزمن



طالعت في مجلة الفيصل العدد 233 مقالة بعنوان «سيرة مختصرة للزمن»، ومع أن المقال قد عرض لكتاب شائق بأسلوب جميل، فقد كان لابد من إبداء بعض الملاحظات حول هذا العرض شكلاً ومضمونًا:

- في البدء تجدر الإشارة إلى أن الكتاب قد صدر أول مرة عام 1987م وليس منذ شهور قليلة كما ورد في مقدمة العرض للكتاب.

- ورد في السطر الحادي عشر النص التالي: «أما الفيزياء الحديثة فتميل إلى الاعتقاد بأن الأرض لم تكن من الشمس أو لم تكن جزءًا من الشمس، إنما تشاركها في ذلك الأرض والنظام الشمسي». ومن الواضح أن إعادة صياغة المعنى نفسه في جملتين متتاليتين فيه ركاكة في بناء الفكرة: «الأرض لم تكن من الشمس أو لم تكن جزءًا من الشمس»، كما أن المقطع بكامله بلا معنى؛ إذ يُفهم منه أن الأرض لم تكن جزءًا من الشمس بل تشاركها في ذلك الأرض!

- في فقرة «مفهوم حديث للزمن» يورد الأخ خيري الآلية الكوانتية مكتوبًا باللغة الفرنسية ولكنه ظهر مطبوعًا كما يلي: - TIGUE ME. CANIQUE QUAN وبإزالة الأخطاء الطباعية بحذف النقطة ونقل الكلمة المنتهية بخط صغير يصبح التعبير كما يلي: .QUANTIQUE MECANIQUE

- وردت أيضا في الفقرة السابقة نفسها ترجمة لمبدأ اللايقينية THE UNCERTAINTY PRINCIPLE الذي صاغه عام 1927م وارنر كارل هيزنبرغ على أنه «مبدأ التشكيك»، وأنا أتحفظ على هذه الترجمة لسببين:

الأول: إجماع المراجع والمطبوعات الفيزيائية كافة على ترجمة هذا المبدأ إلى مبدأ اللايقينية أو الارتياب وليس مبدأ التشكيك.

الثاني: يُفهم من الترجمة «مبدأ التشكيك» أنها تدل على الفلسفة الوصفية التي نادى بها أوغست كانط، وأصبحت اليوم مستخدمة في الفيزياء الكوانتية؛ فقد كانت هذه الفلسفة تقول بأن العقل يجب أن يستغني عن معرفة الأشياء بماهيتها الذاتية، وأن يكتفي بالحقائق المستمدة من التجربة، مثل مقولة إنه قد حدثت خسوفات وكسوفات قبل أن يوجد من يراها. فهذه مقولة غير صحيحة في نظر هذه الفسلفة لأنه لا يمكن التأكد من حدوثها، واليوم تُعدّ بعض مفاهيم هذه الفلسفة أساسًا لتفسير بعض الظواهر الكمومية الغريبة التي واجهت العلماء، وتُعرف هذه التفسيرات بتفسيرات كوبنهاغن التي صاغ معظمها العالم نيلزبور.

- في الفقرة السابقة نفسها كتبت معادلة أينشتين $E=MC^2$ كما يلي: $E-MG^2$، ومن الواضح أن الخطأ الطباعي قد شوه شكل المعادلة محولاً إياها إلى رموز بلا معنى.

- في معرض الحديث عن الزمن المطاط يقول الكاتب ما يلي: «وُضعت ساعة حائط في أعلى برج وأخرى في أسفله على الأرض فتبين أن الساعة قرب الأرض تسير ببطء بينما تسير في أعلى البرج بسرعة أكبر». والجملة بكاملها غير مقبولة فيزيائيا؛ إذ يُفهم منها أن التجربة قد أثرت في آلية الساعتين فمنعت إحداهما من السير بسرعة الأخرى وما حدث في الواقع هو أن الزمن بالنسبة للساعة قرب الأرض كان يمر بطيئًا أكثر منه في الساعة فوق البرج علمًا بأن التجربة لم تحدث بالشكل الذي ذكره المؤلف.

ففي عام 1959م قام علماء جامعة هارفرد بإجراء تجربة تجلى فيها أثر امتطاط الزمن بتأثير الثقالة - وهذا شيء لم يذكره المؤلف - وقد اعتمدوا في تجربتهم على خاصة الاهتزاز الطبيعي الداخلي لنوى الحديد المشع كميقاتية وليس على الساعات، كما أن امتطاط الزمن لم يؤثر في الميقاتية تمامًا؛ بل أثر في اهتزاز إشعاع فوتونات غاما التي صدرت عن نوى الحديد إذ غيرت الثقالة زمن اهتزاز هذه الفوتونات.

- في فقرة «القوى الفاعلة في الطبيعة» ورد ما يلي: «إن الكون هو في تمدد مستمر ولا يمكنه إلا أن يتمدد»، أما سبب كونه غير قادر إلا على التمدد كما يقول الكاتب فهو «لأنه إذا تقلص فإنه سيندفع بثقالته إلى مزيد من التقلص»؟.

وفي الحقيقة إن توسع الكون أو تقلصه يعتمد على ما يسمى بالقيمة الحرجة للكثافة الكونية؛ بحيث إذا كانت كثافة مادة الكون أكبر أو أقل من القيمة الحرجة فإن الكون لا بد سيتقلص بسبب تبرد مادته كما تنص قوانين الترموديناميك، أما إذا كانت كثافة المادة مساوية لقيمة الحرجة فإنه سيتوسع إلى ما لا نهاية «كون مفتوح»، وهذه الكثافة متناسبة طردًا مع مربع ثابت يسمى ثابت هبل H، ففي حالة الثابت الذي أجمع العلماء على قبوله «15 كم/ثا لكل مليون سنة ضوئية» تكون الكثافة الحرجة للكون هي 5×10^{-30} غرام من السنتيمتر المكعب، أي ما يعادل تقريبًا كتلة ثلاث ذرات من الهيدروجين في حجم قدره1000 لتر، ولا أحد يعلم فعلاً ما إذا كانت الكثافة الكونية الحقيقية مساوية للكثافة الحرجة أم لا.

أما أن يكون سبب تمدد الكون أنه سوف يتقلص إذا لم يتمدد فهذا تفسير لا يمت للعلم بأي صلة كقولنا إن السيارة واقفة لأنها ليست متحركة.

- استخدم الكاتب ظاهرة تحول الماء إلى جليد في شرح تكون المجرات بفعل تبرد مادة الكون وقد وفّق في ذلك، ولكن من المستغرب أن تكون الصورة الوحيدة المنشورة في سياق العرض هي صورة للقطب الشمالي لا تتفق مع المواضيع الكونية التي تتناولها المقالة، وأرى أنه كان من الأفضل عدم نشر الصورة تناغمًا مع مضمون المقالة.

- أورد الكاتب مقالاً عن الجسيمات الذرية قائلاً: تظهر ذريات شديدة الدقة والصغر مثل الـ «بوزون» والـ «غليون» والـ «نوترينو». ولابد أن الكاتب غير مطلع على التصنيف السبيني

المتبع في تصنيف الجسيمات الذرية. فسبين الجسيم الذري SPIN يأخذ دومًا قيمًا هي أضعاف صحيحة «غير كسرية» من وحدة قيمتها $\frac{h}{2n}$ $\frac{1}{2}$ حيث h هي ثابتة بلانك، وغالبا ما نسقط من قيمة السبين ذكر المقدار الثابت $\frac{h}{2n}$ فتصنف الجسيمات كما يلي:

بوزونات POSONS: إذا كان سبينها زوجيًا $\frac{4}{2}$ $\frac{2}{2}$

فيرميونات FERMIONS: إذا كان سبينها فرديًا $\frac{3}{2}$ $\frac{1}{2}$

أي إن البوزونات المذكورة في المثال ليست جسيمات كما يذكر الكاتب؛ بل هي حالة جسيمية، ففي المثال نفسه تكون الغليونات «وهي حاملات القوة النووية الضعيفة» بوزونات لأن سبينها زوجي أما النيوترينونات فهي فيرميونات لأن سبينها فردي.

ـ وردت بعض الأخطاء الطباعية مثل «برافيتون» بدلاً من «غرافيتون» وهي الجسيمات حاملة القوى الثقالية من: غرافيتي - GRAVITY، وأيضًا: كلمة بيروتون بدلاً من: بروتون، وأيضًا: مواد قابلة للاختيار بدلاً من: مواد ثابلة للاختبار.

ـ في فقرة «المادة ونقيضها» يقول الكاتب ما معناه إن حركة الكواكب المرئية حول نفسها ودوران بعضها حول بعض لا يمكن أن يكون معقولاً لو لم يكن هناك ثقب أسود. ويتجاهل أن حركة الكواكب إنما تتبع مسارًا منحيًا حول مركز تحتله الشمس وليس ثقبًا أسود، بالإضافة إلى أن تكوُّن ثقب أسود يحتاج إلى نجم كتلته تتجاوز ثلاث مرات كتلة الشمس. ويضاف إلى ذلك أن مسألة حركة الكواكب قد بُتَّت منذ القرن السابع عشر على يد كل من كبلر ونيوتن، وأتت أخيرًا النظرية النسبية العامة لتدخل تصحيحات ضئيلة في حركة الكواكب «التواء مقداره 43ثانية قوسية كل قرن في مسار كوكب عطارد مثلاً».

وهذه التصحيحات الضئيلة ناتجة من انحناء«الزمكان» لم تكن فيزياء نيوتن قادرة على التنبؤ بها. أما هذه المشكلة في حركة الكواكب فإني لم أسمع بها سوى في هذا العرض، كما أن نظرية الثقوب السوداء التي طرحها الكاتب لا يمكن أن تصدر عن عالم مثل ستيفن هوكينغ. وربما كان المقصود هو حركة بعض النجوم ـ لا الكواكب ـ خارج النظام الشمسي، والتي تمتلك مسارات غريبة يمكن تفسيرها بوجود ثقب أسود يؤثر فيها ـ مع التأكيد على أنه لم يتم رصد كوكب خارج المجموعة الشمسية بشكل موثق ـ ومن أمثلة هذه النجوم: النجم إبسيلون في برج ذي الأعنة، الذي يراه المشاهد فوق رأسه تمامًا في نصف الكرة الشمالي في أمسيات كانون الثاني/ يناير؛ وتبين من رصد هذا النجم أنه يدور وفق مدار مغلق حول جسم غير مرئي، كما أن الدراسة الطيفية دلت على أن طيفه يخف كل 27 سنة نتيجة انحراف طيفه بتأثير ثقالة جسم غير مرئي كتلته تتجاوز ثمانية أضعاف كتلة الشمس، علما بأن كتلة النجم إبسيلون تساوي 17 مرة كتلة الشمس، وهذه ظاهرة غريبة يحتمل كثيرًا أن تنجم عن ثقب أسود يدفع النجم إبسيلون للدوران حوله.

مروان صبحي عريف
شارع هنانو، اللاذقية، سورية

بهم يكبر الأمل ويتحقق



قرأت في العدد 226 مقالاً للدكتور محمد بن سعد الشويعر بعنوان «الشباب والفكر المحموم». وأود أن أشكر د. الشويعر على ما جاء في المقال من تنبيه مهم

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار الفيصل الثقافية

ملاحظات عامة

مع تقديرنا لكل من يسهم في الكتابة في المجلة، فإننا نرجو من كتّابنا الكرام أن يضعوا في حسبانهم الملاحظات التالية:

١ـ أن يتسم الموضوع المقدم للنشر بالجدُة والموضوعية، مع توثيق المراجع إذا اقتضى الأمر ذلك.

٢ـ ألا يكون الموضوع منشورًا من قبل، أو مرسلاً إلى أي جهة أخرى ناشرة.

٣ـ حين تردّ المجلة على كاتب ما بأن موضوعه «غير مناسب للنشر» فإن هذا لا يعني أنه «غير صالح للنشر» في غيرها، وإنما يعني عدم مناسبته لسياسة النشر فيها.

٤ـ أن يرفق الكاتب (الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة) مع موضوعه، الاسم والمؤهلات العلمية والإنتاج الفكري ـ إن وجد ـ وعنوان المراسلة، في ورقة مستقلة.

٥ـ الموضوعات المنشورة في هذه المجلة تعبّر عن آراء أصحابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

على دور الشباب في المجتمع، كما أود أيضًا أن أبين بعض الأفكار أؤيد بها المقال المذكور.

يتراءى لي أن معالجة الأمراض الاجتماعية تبدأ من نقطة مهمة؛ ألا وهي مشكلات الشباب انطلاقًا من أن «العقل السليم في الجسم السليم». بمعنى آخر: إن النمو السليم في كيان المجتمع يتم عندما يكون في عافية من كل سوء وانحراف. وكم من مرة لاحظنا من خلال مطالعاتنا كيف أنه إذا أرادت أمةٌ ما إفساد أمة أخرى لجأت إلى إفساد شبابها أولاً بخلخلة بنيانها الفكري والنفسي.

لنر الآن ما هي الأمة؟

إنها صغار يتجهون نحو مرحلة الشباب، وشباب يُغنون مجتمعهم بزخم الحضارة والتقدم ويمدونه بنشاطهم وحيويتهم، وشيوخ يعيشون حياتهم من خير أبنائهم ووطنهم. فنحن نعزو شرف التجدد ومجده وجماله إلى مرحلة الشباب وحدها من أطوار الحياة. ولا نقصد أن نقلل من شأن الآخرين في بناء الحياة البشرية، لكن الشباب يبقى دائمًا المتن، وتلك مقدماته وحواشيه وخواتيمه، هو النور وهي الظل.

فالحياة سعي نحو الشباب وطاقاته الطامحة، التي يمكن أن تهيئ الخير والبركة للأمة إذا كانت موجهة نحو الاستقامة والإيمان، أو الشر لها إذا كانت موجهة نحو البغي والضلال.

وقد أوضح سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه أن ثواب الشاب الذي نشأ في عبادة الله عز وجل يأتي في المرتبة الثانية لثواب الحاكم العادل في الآخرة، لما لهذا الشاب من إشعاع منير على مجتمعه؛ من حيث إصلاحه وتقويمه من طريق نشاطه وفعاليته وطاقته الذاتية. ويأتي هذا التأثير في المرتبة الثانية بعد تأثير الحاكم في مجتمعه من حيث إصلاحه وتقويمه أيضًا، ولكن برسالة الصلاحيات الممنوحة له بحكم منصبه. جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله: اجتمعا عليه، وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» متفق عليه.

ومما لا شك فيه البتّة أن العكس صحيح؛ فالشاب الضالُّ يؤثر تأثيرًا سلبيًا في مجتمعه إلى درجة تقارب التأثير السلبي الذي يؤثره الحاكم المنحرف.

ونستطيع القول أيضًا إن الشاب عماد الأمة، لولاه لما جرى مركب في نهر، ولا دار دولاب في بر، ولا اشتعلت نار في دار، ولا شيد حجر فوق حجر، ولا كان حرف، ولا كان كتاب، ولا أضاء لنا سراج في ظلمه، ولا امتد لنا صوت عبر العالم.

ونحن اليوم في دنيا العرب والإسلام أحوج إلى شباب مثقف مؤمن يحمي سياج وطنه. فشبابنا الثروة التي أين منها ذهبنا الأسود والأصفر وكل ما تنتجه أرضنا من خيرات، هذه للنفاد والبوار، وتلك للبقاء والازدهار.. فما علينا إلا أن نستثمر هذه الثروة. فَبِهم يبدأ الأمل ويكبر.. بل بهم يُنجز الأمل ويتحقق.

والشباب في رأي الشاعر أبي ماضي هم جمال الحياة.. أبو المعجزات حيث يقول:

سلام عليكم رجال الوفاء
وألف سلام على الوافيات
ويا فرح القلب بالناشئين
ففي هؤلاء جمال الحياة
إذا أنا أكبرت شأن الشباب
فإن الشباب أبو المعجزات

أخيرًا.. أؤيد ثانية ما ورد في المقال، وأؤكد أن ما في دم شبابنا من حرارة وإيمان، وما في عقله من فكر ووعي واتزان كفيلان بأن يقطعا بنا شوطًا بعيدًا نحو عالم أرحب وأفسح أفقًا من العالم الذي نعيش فيه الآن.

م. فلاح أسعد
ص.ب 893، دمشق، سورية

العنوان

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٦٥٣٠٢٦ - ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٤٧٨٨٤ -
فاكسملي: ٤٦٤٧٨٥١

ردمد ١١٤٠ - ٠٢٥٨ رقم الإيداع ١٤/٠٥٤٢

الأسعار:

السعودية ٨ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧دراهم - قطر ٧ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠بيسة - الأردن ٥٠٠فلس - اليمن ٤٠ريالاً - مصر جنيهان - السودان ١٥٠ جنيه - المغرب ٨دراهم - تونس ٦٠٠مليم - الجزائر ١٠دنانير - العراق ٤٠٠فلس - سورية ٣٠ليرة - ليبيا ٨٠٠درهم - موريتانيا ١٠٠أوقية - الصومال ٢٠٠٠شلن - جيبوتي ١٥٠فرنك - لبنان مايعادل ٤ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه استرليني واحد.

الاشتراكات السنوية:

للأفراد ١٥٠ريال سعودي، للمؤسسات ٢٥٠ ريال سعودي.

الإعلانات:

يتم الاتفاق عليها مع إدارة المجلة.

وقفة عند الأربعين



د. غسان حتاحت

الحياة مراحل متتابعة، تتواصل، حتى لنحسبها واحدة. وتتمايز، حتى لتبدو كأن أسوارًا هائلة تفصل بينها. ولقد درس المؤلفون منذ القديم مراحل الطفولة وقسموها إلى أزمنة متتالية لكل منها صفاتها وخصائصها. ثم أخذوا يتوسعون في تمييز المراحل التالية من الحياة. ومع ظهور بعض الاختلافات في هذا التقسيم، فيما يتعلق بالعدد والحدود، فثمة إجماع على وجود ثلاث نقاط أساسية في هذه الحياة، المحطة الأولى هي ساعة الولادة، والمحطة الأخيرة هي لحظة الوفاة، وبينهما مرحلة فاصلة حساسة هي سن الأربعين.

ويكفي أن القرآن الكريم قد خص هذه السن وحدها من كل السنين، وما ذلك إلا لأهميتها، فورد قوله تعالى: حتى إذا بَلَغ أشُدَّهُ وبلغ أربعين سنة. الأحقاف:15.

ففي هذه السن يكتمل نضج المرء جسمًا وعقلاً، وفي هذه السن يقف المرء وقفة حاسمة، ينظر فيها إلى الماضي نظرة حنين وأسى، وإلى الحاضر نظرة تقويم ودراسة، وإلى المستقبل نظرة رجاء وحيرة. وفي هذه السن خاصة يصطدم الأمل بالواقع، فترتطم آمال الطفولة الخيالية وأحلام الشباب الطموح بصخرة الواقع القاسية. فيفكر المرء فيما أنجز مما ظن أنه سينجزه، وفيما وصل إليه مما أمل أن يصل إليه، تغلف ذلك كله حسرة على ما مضى من عمر، فالعمر ثروة لا تعوض، والوقت من ذهب، وهو كالسيف يقطعنا شئنا أم أبينا، قطعناه أم لم نقطعه.

وينظر المرء إلى وجهه وقد بدأت بوادر التجاعيد تأخذ طريقها إليه، وإلى شعره وقد وخطه الشيب، ويفكر في أمور كثيرة كانت في الماضي قضايا مسلما بها، وغدت الآن عبئًا ثقيلاً.. فلا القوة هي القوة، ولا الهمة هي الهمة، ولا البصر هو البصر، وعلى هذا قِسْ..

ففي الماضي لم يكن الجهد اليسير يسبب تعبا، ولا الطعام الثقيل تعقبه تخمة، إن مرت الأمراض مرت عابرة سريعة، وإن حصل إخفاق غلبه أمل، أمل الشباب الواقعي البعيد من خيالات الطفولة غير المعقولة ومن آمال الشيخوخة المستحيلة.

وكذا المرء يبدأ بآمال خيالية، وينتهي بآمال خيالية، كلما كبر كبرت معه خصلتان: الحرص وطول الأمل.

وتأتي الأربعون، فيقف المرء: يواجه نفسه، ماضيه وحاضره ومستقبله، مواجهة لا يصارح بها أحدا، حتى أقرب المقربين إليه، ثم يصدر حكمه القطعي.

قد لا يرضى عن إنجازاته أو مهنته، فيحاول إصلاح مافات ولاتَ ساعة إصلاح. فمن الناس من يفكر في هذه السن في تغيير مسار حياته كلها، في تغيير مهنته أو سكنه، أو حتى زوجته. منهم من يهاجر من بلده ومنهم من يهجر بيته. فكم من حياة كانت مستقرة قبل هذه السن فاضطربت بعدها. وكم من شخص غير مجرى حياته كلها، ليس بالضرورة نحو الأفضل.. وكم من إنسان كان مستقرا عاطفيا وماليا انحرف في هذه السن.

ولئن كان ابن العشرين مشاركَ المجانين كما يقولون، فإنَّ لطيش الأربعين نزوة، وإن لسن الأربعين رهبة، ولو كان لي أن أشبه شعور المرء في هذه المرحلة الحرجة من العمر، لشبهته بشعور بخيل صرف الجزء الأكبر من ثروته، وبقي لديه النزر اليسير المحدود، الذي لا يمكن أن يزيد ، فلا تسل عن حرصه عليه، وشُحّه به، وحيرته إزاء المستقبل.

في مواجهة ذلك كله تهيمن النظرة الواقعية العاقلة، فما حققه المرء من إنجاز في الماضي. لاينبغي أن يقاس بمقياس واحد. بل ثمة معايير كثيرة، فليس خاسرًا من لم يحقق كل خيالات الطفولة وطموحات الشباب، من جاه أو مال أو تغيير في العالم المحيط به، أو إصلاح ما ظن أنه خطأ أو انحراف. فهكذا كانت الدنيا من قبل، وكذلك ستبقى من بعد.

وإن كل من يعمل بأمانة وإخلاص في مجاله المحدود وفي عالمه الصغير هو إنسان أنجز عظيما من الأمور. فالمريض المشلول عندما يمشي خطوات قليلة إلى الأمام يكون قد أنجز نجاحا يفوق في مجاله فوز عداء في سباق مسافات طويلة. فالإنجاز هو بالنوع لا بالكم. وما يقرر أهميته فعلا هو شعور المرء الذاتي به، وخاصة أن مشاعر الناس تجاه هذه الأمور مختلفة متباينة. ففوز عازف موسيقا مثلا بجائزة دولية، قد يراه كثيرون أمرا عظيما، بينما يراه آخرون على جانب كبير من التفاهة.

وكذلك الأمر في رياضي حاز جائزة القفز العالي أو الملاكمة. فكل واحد من هؤلاء قضى القسم الأكبر من حياته في التدرّب والتمرين، حتى نال هذا الإنجاز الذي يعده هو قمة القمم، بينما قد لايراه سواه إلا إضاعة وقت وجهد ومال.

وليست هذه الأمثلة انتقاصا من هذه الأمور، ولكنها أمثلة تذكر، وسواها كثير، في كل مجال من مجالات الحياة المتعددة.

من ذلك نستنتج أن لكل امرئ إنجازه، كما أن كل فتاة بأبيها معجبة.

إن على المرء وقد تجاوز الأربعين أن يستفيد من دروس الماضي، وأن يستمر بهدوء وحزم، فقد بلغ مرحلة متقدمة من النضج العقلي والمادي والنفسي وابتعدت منه الشهوات ولو جزئيًا. وغدت طاقاته - بصورة عامة - أكبر منها في الماضي، ويجب أن يستغلها بطريقة واقعية بناءة.

ولن أطيل هذه الوقفة عند الأربعين، فالزمن لايتوقف، والعمر يمضي سريعًا، وكما قال طرفة بن العبد:

أرى العيش كنزًا ناقصًا كل ليلة
وما تَنْقِصُ الأيامُ والدهرُ يَنْفَدِ